سلسلة شروحات الشيخ

٩

شرح عقيدة أهل السنة والجماعة

تأليف الإمام

محمد بن صالح العثيمين

المتوفى سنة (١٤٢١) رحمه الله تعالى

شرح فضيلة الشيخ

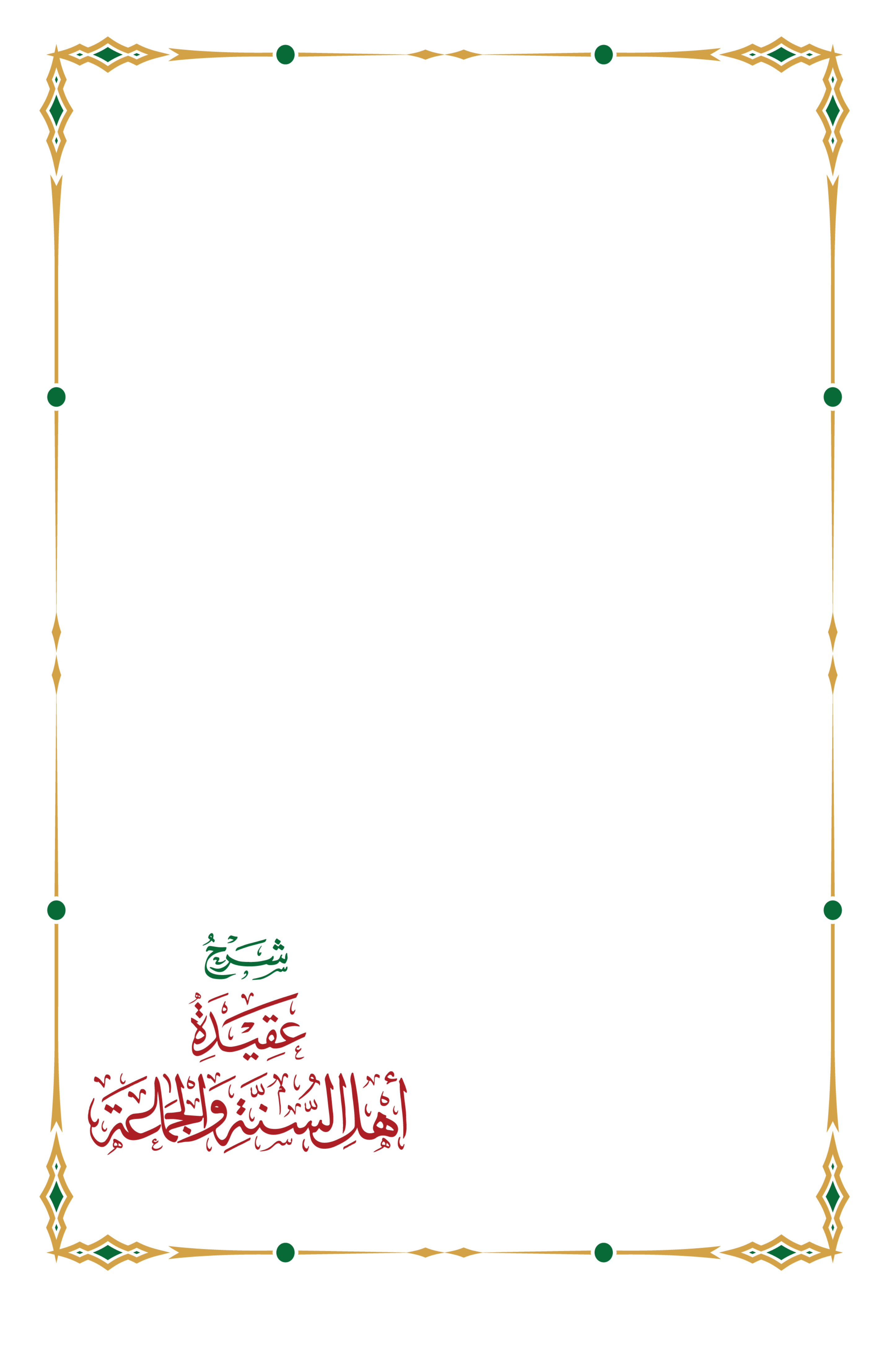
أ.د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية

الشيخ لم يراجع التفريغ

النسخة الأولى




شرح
عقيدة
أهل السنة والجماعة



عقيدة أهل السنة والجماعة

تأليف الإمام

محمد بن صالح العثيمين

المتوفى سنة (١٤٢١) رحمه الله تعالى

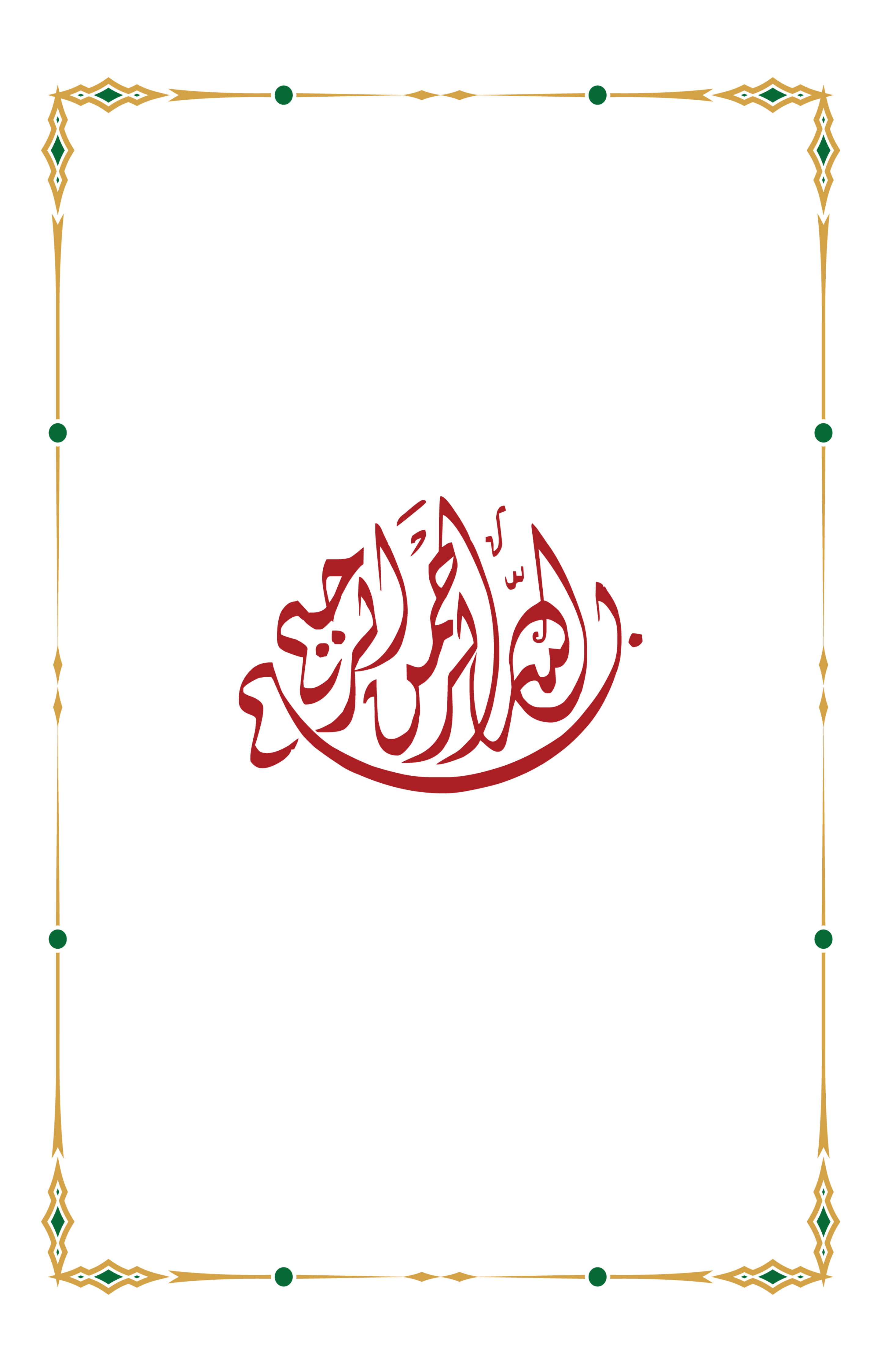
شرح فضيلة الشيخ

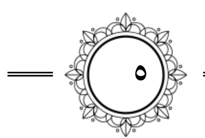
أ.د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية

الشيخ لم يراجع التفريغ

النسخة الأولى


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا، أمَّا بعد:

فنحمد الله تبارك وتعالى على نِعَمه العظيمة، ومن ذلك: الاجتماع بمثل هذه المجالس الطيبة التي يُذكر الله عَزَّوَجَلَّ فيها، ويُتدارس فيها العلم المستمَدُ من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وقد اجتمع لنا -والفضل والمنة لله- في مثل هذه المجالس شرفُ الزمان وشرفُ المكان وشرف العلم، فالزمان -والحمد لله- زمان فاضل، والمكان مكان فاضل، كيف لا وهو مسجد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وأمَّا شرف العلم فإننا في هذا المجلس -بتوفيق الله سبحانه- سنتدارس متنًا من متون الاعتقاد، وليس يخفى أنَّ علم الاعتقاد أشرفُ العلوم، وكيف لا يكون كذلك وشرفُ العلم بشرفِ المعلوم، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أشرفُ معلوم، فالعلم به -وهو الذي يُبحث في علم الاعتقاد- لا شك أنه أشرف العلوم، والله أكبر من كل شيء، فالعلم به أكبر من كل علم.

نجتمع -بعون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- في هذا الدرس لمدارسة كتابٍ نافع مفيد في معتقد أهل السنة والجماعة، ألَّفه الإمام الشيخ العلامة محمد بن صالح بن

عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المولودُ سنة سبع وأربعين وثلاثمائة بعد الألف، والمتوفى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة بعد الألف من هجرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والشيخ محمد ليس يخفى على أبناء العصر فضله ومكانته، فإنه قد حاز قصب السبق في العلم وجودة الفهم وحسن الاستنباط من الكتاب والسنة، مع ما حباه الله عز وجل من صفات جميلة وخِلال جليلة، أسأل الله أن يجزيه عن أهل العلم وطلابه خيرَ الجزاء.

هذا الكتاب هو: **(عقيدة أهل السنة والجماعة)** وهو متن مختصر في ألفاظه لكنَّه كبيرٌ في معانيه، وهو يمثل زبدةً وخلاصةً لمعتقد أهل السنة والجماعة، رتبها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ترتيب أركان الإيمان كما جاء في حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ومن مميزات هذه الرسالة إضافة إلى وجازتها:

- أنَّها قد حوت الُّلب من معتقد أهل السنة والجماعة.
- مع الدِقة في الجُمَل والتحرير في العبارة.
- وانتقاءِ أهمِّ المسائل التي يحتاج المسلم إلى تعلمها.

فهي رسالةٌ لا يستغني عنها طالب علم، وينتفع بها كل مسلم إن شاء الله.

وهذه الرسالة قد تداولها طلبة العلم، كما أنه قد اطَّلع عليها العلماء، وقد قررها سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما تجده في مقدمة هذه الرسالة.

فنستعين بالله سبحانه، ونسأله التسديد والتوفيق في مدارسة هذه الرسالة - بعون الله عز وجل- في هذا الدرس، ونبدأ بقراءة مقدمة الرسالة.



قال المصنف رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا علىٰ الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المَلِك الحقُّ المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله خاتم النبيين وإمام المتقين، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، أما بعد:

فإن الله تعالىٰ أرسل رسوله محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهدىٰ ودين الحق رحمة للعالمين، وقدوة للعاملين، وحجة علىٰ العباد أجمعين.

بيَّن به وبما أنزل عليه من الكتاب والحكمة كل ما فيه صلاح العباد واستقامة أحوالهم في دينهم ودنياهم، من العقائد الصحيحة والأعمال القويمة والأخلاق الفاضلة والآداب العالية، فترك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

فسار علىٰ ذلك أمته الذين استجابوا لله ورسوله، وهم خيرة الخلق من الصحابة والتابعين والذين اتبعوهم بإحسان، فقاموا بشريعته، وتمسكوا بسنته، وعضوا عليها بالنواجذ عقيدة وعبادة وخُلُقًا وأدبًا، فصاروا هم الطائفة الذين لا يزالون علىٰ الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله تعالىٰ وهم علىٰ ذلك.

ونحن -ولله الحمد- علىٰ آثارهم سائرون، وبسيرتهم المؤيَّدة بالكتاب والسنة مهتدون، نقول ذلك تحدُّثًا بنعمة الله، وبيانًا لما يجب أن يكون عليه كل مؤمن.

ونسأل الله تعالىٰ أن يثبتنا وإخواننا المسلمين بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة، وأن يَهَب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب.

ولأهمية هذا الموضوع وتفرُّق أهواء الخلق فيه؛ أحببت أن أكتب علىٰ سبيل الاختصار عقيدتنا عقيدة أهل السنة والجماعة وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. سائلًا الله تعالىٰ أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه، موافقًا لمرضاته، نافعًا لعباده.

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

بدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة القيِّمة بمقدمة حَمِد فيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والجُمَل الثلاث الأولى فيها مُنْتَزَعةٌ من كتاب الله عز وجل.

فأولها: (**الحمد لله رب العالمين**) وهذه بعضُ سورة الفاتحة التي هي أعظم سورة في القرآن.

ثم قال: (**والعاقبة للمتقين**) وكذلك هذا قد جاء في كتاب الله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

ثم قال: (**ولا عدوان إلا على الظالمين**) كذلك هذا في كتاب الله، ﴿ فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣].

ثم ثنى بالشهادة الحقة لله عز وجل بالوحدانية ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة.

ثم بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أنَّ نبينا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أرسله ربه جل وعلا بالدين الكامل الشامل لكل شيء: في العقيدة، وفي المعاملة، وفي العبادة، وفي الأخلاق، وفي كل شيء، وبيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا في هذه الكلمات القيمة النافعة التي يحتاج المسلمون إلى التأمل فيها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فإنَّ الله تعالى أرسل رسوله محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهدى ودين الحق**) الله عز وجل إنما أرسل رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهدى ودين الحق، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ [التوبة:٣٣].

والهدى ودين الحق هما -كما بيَّن أهل العلم- العلمُ النافع والعمل الصالح، وهذان الأمران خلاصة رسالة النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، العلم النافع والعمل الصالح خلاصة ما بُعِث به نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**رحمةً للعالمين**) هذه الكلمة منصوبة؛ لأنَّها مفعولٌ لأجله، والعامل فيها قوله: (**أرسل**) فالله أرسله لأجل أن يكون رحمة للعالمين.

والعالَمون جمعٌ للعالَم، والعالمُ: كل جنسٍ من المخلوقات، وجمع ذلك العالمون.

فنبينا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يكن رحمةً للإنس فحسب، ولا للجن فقط، بل هو رحمة للعالمين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

ومن ذلك أيضًا: أنَّ الله عز وجل أرسله قدوة للعاملين، كان القدوة والأسوة عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]، فمن أراد أن يكون له قدوة وأسوة فإنه لن يجد في أحد الأهلية الكاملة لذلك إلا لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فالعاقل المريد نجاة نفسه لا يجوز له ولا ينبغي أن يعدل عن الاقتداء بخير مقتدىً به وهو رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي هو النبي المجتبى والرسول المصطفى، الذي كمَّله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأدَّبه واصطفاه بوحيه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فأيُّ قدوة أعظم من الاقتداء برسول الله محمد بن عبد الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وحجة على العباد أجمعين**)، وكلمة (**العباد**) هاهنا المراد بها: من أُرسل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إليهم، ومَن وجب اتباعه عليهم وهم الإنس والجن منذ بعثته عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هذا من الأمر المعلوم من دين الله عز وجل بالضرورة، كل من وُجِد في هذه الدنيا من الإنس والجن منذ بعثته عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وإلى نهاية هذه الحياة فإنَّ كل أولئك مأمورون باتِّباع هذا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والإيمان بما جاء به من عند ربه، وكونه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حجة على هؤلاء جميعًا هذا لا شك فيه ولا ريب، وهذا شأنُ كل الأنبياء والمرسلين، الله عز وجل إنما أرسلهم ليكونوا حجة على أممهم «فلا أحد أحب إليه العذر من الله عز وجل، ومن أجل ذلك أرسل الرسل» قال سبحانه:

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، فالحجة قد قامت ببعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، والعذر قد انقطع لدى كل من بلغه رسالة نبي من الأنبياء، فكيف بسيد الأنبياء وإمام الرسل وخاتمهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

ومما يدل على ذلك -أيضًا- أنَّ الملائكة خزنة النار كلما أُلقي فوج في النار فإنهم يتوجهون لهم بسؤال ما هو ؟ ألم يأتكم نذير؟ إذن: والله لا حجة لهم على الله عز وجل، قد حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيهم بالعدل، ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ﴾ [الملك:٨-٩]، لكن ماذا كان منهم؟ ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك:٩].

إذن: لا حجة لهم على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بيَّن به وبما أنزل عليه من الكتاب والحكمة كلَّ ما فيه صلاح العباد واستقامة أحوالهم في دينهم ودنياهم**)، الله عز وجل قد بيَّن الحق بيانًا يقطع كل عذر، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [النساء:٢٦]، والله عز وجل هو المُبِينُ، قال سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:٢٥]، والمُبِينُ على أحد على تفسيريه هو: الذي يبيِّن الحق للعباد.

فالله عز وجل يبين الأحكام والآيات، ويفصلها، ويفسرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا من أعظم المنن الجسيمة على العباد التي تستحق منهم الشكر، ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٨٩]، فهذا من النِّعم التي تستوجب من العباد الشكر منهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا التبيين يكون في الدنيا ويكون -أيضًا- في الآخرة، ولذا فإن من الحِكَم التي لأجلها قدَّر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن تكون ثمة دارٌ آخرة بعد هذه الحياة: أن يكون هناك التبيين لما اختلف فيه الناس في هذه الدنيا، قال سبحانه: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ [النحل:٣٩]، كل ما اختلف فيه العباد في هذه الدنيا من المسلمين والكافرين فإنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سيبينه يوم القيامة.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وبيَّن به**) يعني: بالنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ (**وبما أنزل عليه من الكتاب والحكمة**)، الكتاب هو: القرآن الكريم، والحكمة: سنة رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كلاهما منزَل، كلاهما وحي من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إلا أنَّ أحدهما وحي متلو والآخر وحي غير متلو، فالنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في سنته، في أحاديثه لم يكن يتكلم من عند نفسه، وحاشاه! ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣-٤]، فكل ما يتكلم به النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كل سنته وأحاديثه وحي من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن: الله عز وجل هو المبَين والنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو المبلغ.

ما الذي بينه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الكتاب والسنة؟ قال: (**بيَّن به وبما أنزل عليه من الكتاب والحكمة كل ما فيه صلاح العباد واستقامة أحوالهم في دينهم ودنياهم**)، إي والذي نفسي بيده! الله عز وجل قد بيَّن كل ما يحتاجه العباد في أمر دينهم ودنياهم في الكتاب والسنة، إمَّا بالنص، إما بذكر ذلك خصوصًا أو دخوله في العمومات، أو بنوع من أنواع الدلالة من فحوى وإشارة ومفهوم وإلى آخره، لا يمكن، لا يمكن أن يكون ثمة شيء يحتاجه الناس في أمر دينهم أو حتى في أمر

دنياهم إلا والجواب الناجع له في كتاب الله أو سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا أمرٌ قطعي لا ينبغي أن يُشك فيه، الله عز وجل أنزل هذا القرآن ووصفه بوصف جليل فقال: ﴿ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل:٨٩]، كل شيء تبيانه في هذا الوحي كتابًا وسنة، لكن ليس كل أحد يهتدي إلى وجه البيان، إنما يحتاج هذا إلى العلماء الراسخين الذين يستنبطون هذه الأحكام.

فالمقصود: أنَّ كلَّ قضية ولها بيان في الشريعة، وكل مشكلة ولها حل في هذا الوحي، هذا شيء قطعي لا يجوز التردد فيه.

بعضُ النَّاس يتوهم فيخطئ، وهذا خطأ وأيُّ خطأ حينما يظن أنَّ الكتاب والسنة إنما كان فيهما بيانُ كيف يعبد الإنسان ربه عز وجل، كيف يصلي وكيف يصوم وكيف يحج، هذا فحسب!. نعم، الوحي المتلو وغير المتلو جاء فيه بيان ما يحتاجه الناس في عقائدهم، في عباداتهم وفي كل ما يمس جانب الحلال والحرام، في جانب الأخلاق والمعاملة، لكنَّ الأمر لا يتوقف عند ذلك، بل الشريعة واسعة شاملة في أحكامها، واجب أن يُرجع إليها في كل صغير وكبير في هذه الحياة: في السياسة، في الاقتصاد، في الاجتماع، في كل أمور الناس، ولذلك تكفي أدنى مطالعة لنصوص الكتاب والسنة للوصول إلى هذه النتيجة.

ما أطول آية في كتاب الله؟ آية المداينة، هل هذا جانب عقدي أو جانب عبادي؟ أو هذا راجع إلى معاملة يتعامل بها الناس؟ تأملوا أحاديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خذوا ما شئتم من الكتب المجموعة في سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقارنوا بين أحاديث العبادة والأحاديث التي تعلقت بالمبايعات وبأحكام

المزارعة وأحكام المساقاة، وكل ما يرجع إلى مباحث المعاملات، وما يرجع -أيضًا- إلى مباحث أحكام الأسرة، وما يرجع -أيضًا- إلى أحكام الحدود والقصاص وما إلى ذلك، وإلى ما يرجع إلى مباحث السياسة الشرعية، وإلى غير ذلك؛ ستجد أنَّ الأحاديث المتعلقة بهذه الأمور أكثر من الأحاديث المتعلقة بالعبادة.

إذن: وحي الله عز وجل وحي شامل لكل شيء من أمر الدين والدنيا، ولذا كان الحكم بما أنزل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أمرٌ حتم لازم على جميع المسلمين الذين شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ولذلك يقول أبو ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -كما أخرج هذا الإمام أحمد في «السنة»- قال: «**ما توفي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وطائر يقلب جناحيه في السماء إلا وآتانا منه علمًا**»، هذا سلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يسأله أحد المشركين فيقول: «**علمكم رسولكم كل شيء حتى الخراءة!**» يعني: حتى كيف يقضي الإنسان حاجته؟ يقول ردًا عليه سلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**أجل، نهانا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن نستنجي باليمين، أو نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستقبل القبلة برجيع أو بول**» إلى آخر ما ذكر رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

إذن: كلُّ صغير وكبير في حياة الناس وأحوالهم من سياسة الدول وإلى كيف يلبس الإنسان حذاءه قد بُيِّنَ البيان الشافي في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلا عذر لأحد أن يطلب ما ينفعه في غير كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فمن حقيقة الإيمان أن يُحكِّم الإنسان شرع الله عز وجل في كل شيء، حتى في بيعه وشرائه ودينه واقتراضه، حتى في خلافه مع زوجه، حتى في نومه وأكله وشربه، في كل صغير وكبير، من حقيقة الإيمان أن يُحكَّم كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك كله.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**بيَّن به وبما أنزل عليه من الكتاب والحكمة كل ما فيه صلاح العباد واستقامة أحوالهم في دينهم ودنياهم: من العقائد الصحيحة، والأعمال القويمة، والأخلاق الفاضلة، والآداب العالية**)، وقلنا: بل ما هو أشمل من ذلك، كلُّ مناحي الحياة المتعلقة بالذكور، بالإناث، بالأطفال، بالكبار، بكل جانب من جوانب الحياة، الإسلام يضع الحل الناجع لكل ذلك، ولو أن أهل الأرض أخذوا بهذه الشريعة العظيمة الواسعة الشاملة النافعة للناس والله ما بقيت مشكلة إلا وحُلَّت، لكنه -مع الأسف- إعراض أكثر الناس عن هذا الحق المبين، والله المستعان!

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فترك** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك**)، مصداق هذا في حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكلامه رَحِمَهُ اللَّهُ هذا منتزع من هذا الحديث، حيث قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تركتم على البيضاء**» لا أعلم في روايات هذا الحديث ثبوت كلمة (المحجة)، إنما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما عند «ابن ماجه» وغيره: «**تركتم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»، هذا هو الذي كان منه

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بلَّغ البلاغ المبين، ما ترك شيئًا يقربنا إلى الله عز وجل وما ترك شيئًا ينفعنا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلا وقد بيَّنه البيان المبين.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول كما في «صحيح مسلم»: «**ما بعث الله من رسول إلا كان حقًّا عليه أن يبين لأمته خير ما يعلمه لهم، وأن يحذرهم من شر ما يعلمه لهم**»، وكان من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، بلَّغ البلاغ المبين عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فما ترك شيئًا يقربنا إلى الله وينفعنا في أمر ديننا ودنيانا إلا وقد بينه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فسار على ذلك أمته الذين استجابوا لله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم خيرة الخلق من الصحابة والتابعين والذين اتبعوهم بإحسان**)، لا شك أنَّ الغُرَّة في هذه الأمة هم الطبقة المتقدمة منها، وهم الذين زكَّاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»، أيُّ تزكية أعظم من هذه التزكية؟ إنهم أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين من نظر في سيرتهم وحالهم بعلم وبصيرة، وما مَنَّ الله عز وجل عليهم به من الفضائل؛ علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، ثم تلاميذهم الذين حملوا العلم والدين عنهم وهم التابعون عليهم رحمة الله، أشبه الناس بأصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي الله عنهم، وأقوم الناس بسنتهم وسيرتهم، ثم تابعوهم الذين أخذوا العلم والدين عن التابعين، فكان هؤلاء الصحابة والتابعون وأتباعهم خيار الخلق بعد الأنبياء، لا شك في ذلك ولا ريب.

قال: (**فسار على ذلك أمته الذين استجابوا لله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذين اتبعوهم بإحسان، فقاموا بشريعته وتمسكوا بسنته، وعضوا عليها بالنواجذ عقيدة وعبادة وخُلُقًا وأدبًا، فصاروا هم الطائفة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك**). ثبت في «الصحيحين» بألفاظ متعددة أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك**»، وهذا يدلك -يا عبد الله- أَنَّ الخلاف قد دَبَّ في هذه الأمة وتحقق ما أخبر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله: «**فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا**»، اختلافٌ كثير في كل شيء، هذه الأمة الخلاف فيها كثير، بل إنها قد غلبت اليهود والنصارى في الخلاف، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**» وصفها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوصفٍ لا يلتبس على منصف: «**من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»، وفي رواية قال: «**هي الجماعة**» الذين اجتمعوا على الحق، هؤلاء هم الجماعة، والحق ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

إذن: الخلاف أمر واقع لا شك فيه، لكن ثمة طائفة واحدة هذه هي التي ثبتت على الحق وهم السلف الصالح ثم من سار على نهجهم وسبيلهم، وهذا

الذي ينبغي على كل مسلم أن يلحظه وأن يراعيه، وهو أن يسير على هذا النهج الذي كان عليه خيار هذه الأمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**ونحن -ولله الحمد- على آثارهم سائرون، وبسيرتهم المؤيدة بالكتاب والسنة مقتدون، نقول ذلك تحدثًا بنعمة الله تعالى وبيانًا لما يجب أن يكون عليه كل مؤمن**) لا شك، هذا حتمٌ لا خيار فيه أن يسير كل مسلم سيرة السلف الصالح، هذا شيء لا خيار لك فيه يا عبد الله، بل هو أمر واجب، إذا أردت النجاة، إذا أردت السلامة فَسِر على ما كان عليه الصحابة والتابعون وأتباعهم، ولذلك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما قال في حديث العرباض السابق لما قال: «**فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا**» عقَّب على هذا ببيان سبيل النجاة فقال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**فعليكم بسنتي**» وما اكتفى بهذا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، بل عقَّب على هذا ببيان ما يوضح ويبين هذه السنة النبوية، ما هو التطبيق العملي لها فقال: «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ**».

إذن: لابد من اتباع نهج السلف في العبادة وفي العقيدة وفي الأخلاق، هذا أمر حتمي يا أيها الإخوة، قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] قال غير واحد من أهل التفسير من المتقدمين والمتأخرين: «مع أبي بكر وعمر وإخوانهما».

وقال الله سبحانه: ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان:١٥]، ومن أولى الناس بهذا الوصف بعد أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام؟

فأبشر -يا عبد الله- بالنجاة والفلاح والسعادة إن كنت متابعًا لنهج السلف الصالح في الصغير والكبير، تقول بما قالوا وتسكت عما عنه سكتوا، وتفهم نصوص الكتاب والسنة بفهمهم، وتلتزم نهجهم في الاستدلال والتلقي، إن كنت كذلك فأبشر بالخير، أليس الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

قف مليًا عند قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ [التوبة:١٠٠]، إذا أردت أن يكون لك حظ ونصيب من هذا الفضل الكبير فعليك بأن تتصف بهذا الوصف أن تكون كذلك؛ لأن الحق قد جُمِع في مجموع السلف الصالح، هذه شهادة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق**»، (أل) في قوله: (الحق) للاستغراق، الحق كله في مجموع هؤلاء السلف الأخيار، لا شك في هذا ولا ريب، وكيف لا يكون كذلك وقد توفرت في أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أعظمُ الصفات التي تقتضي أنهم الصفوة وأنهم الأقرب إلى كل حق وخير، وأنه لا يمكن أن يسبق أحدٌ أولئك الأخيار إلى خير، لا يمكن، كل خير فلابد أن يكونوا هم السابقين إليه ومَن بعدهم تابعون لهم فيه.

مما يدلك على هذا أنَّك إذا نظرت إلى السبب الأول للتوفيق إلى الحق ألا وهو تقوى القلوب، فأين تجد في الناس من هو أعظم تقوى من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ثم التابعين ثم أتباعهم؟ أتجدُ في الناس من يستحق أن يكون أتقى الناس بعد الأنبياء غير أولئك الأخيار؟ الجواب: بالتأكيد لا، وصدق ابن مسعود

وروي نحوه عن ابن عمر، وروي نحوه عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنهم قالوا: «**من كان مستنًا فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا أبر الأمة قلوبًا**» وصفٌ عظيم يدلك على أنهم ولابد أن يكونوا أقرب إلى الحق والصواب.

إذن: هم أصلح الناس وأتقاهم.

ثم الأمر الثاني: أنهم أغزر الناس علمًا، العلم الذي ينفع، العلم بالكتاب والسنة، الفهم الدقيق الصحيح لمراد الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يمكن أن يتفوَّق أحد على الصحابة فيه، «**كانوا أبر الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا**»، كيف لا وهم الذين صحبوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ شاهدوه في دقيق حاله وجليله، كان القرآن ينزل وهم يشاهدون فيعلمون مواضع تنزيله.

وبالتالي فهمهم للأدلة لا شك أنه أحسن الفهم، وهذا أمر مهم، كلما كان الإنسان أعظم علمًا كلما كان أقرب إلى الصواب، والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لا شك أنهم أعلم الناس، أعلم الناس بالذي ينفع، بالكتاب والسنة.

الأمر الثالث الذي يدلك على تقدمهم على جميع هذه الأمة: أنهم كانوا أبعد الناس عن التكلُّف وعن الخوض فيما لا يعني، وهذا ولا شك له أثر سلبي على قريحة الإنسان وعقله وذكائه وتفرغ نفسه لتلقي الحق، ولذلك كان وصفهم الثالث في ذاك الأثر: «**كانوا أبر الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا**»، لا يخوضون فيما لا يعني، ولا يستنفذون قواهم في قيل وقال، إنما توفرت فيهم

قُواهم وأذهانهم وتفرغت قلوبهم لأجل النيل من هذا المعين الصافي، من معين الوحي، فَهْمِ كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الوصف الرابع الذي يدلك على تقدمهم في كل علم وعمل: أَنَّهم كانوا أعلم الناس بلغة العرب، ألسنة القوم كانت ألسنة صحيحة مستقيمة، ما دخلتها عُجمة، ولتعلم -يا عبد الله- أنَّ الأئمة من عهد الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ ثم من بعده كانوا ينصون على أن من أسباب الابتداع في الدين: الجهلَ بلغة العرب. وهذا شيء لا محل له بالنسبة لأولئك الأخيار، لأنهم كانت اللغة الصحيحة لهم سليقة، بل هم من أهل الاحتجاج، بل أرفع ما يكون في الاحتجاج والاستشهاد على الكلام الصحيح بعد الكتاب والسنة كلام أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنهم عرب أقحاح، ألسنتهم مستقيمة على جادة كلام العرب.

إذن: هذه بعض الأسباب التي تدلك على تقدم الصحابة ثم التابعين ثم أتباع التابعين على كل من جاء بعدهم.

إذن: ينبغي على كل مسلم يريد نجاة نفسه أن يسير سيرهم، وأن ينهج نهجهم إن كان يريد أن يكون من الناجين من الاختلاف والضلال في هذه الأمة.

وهذا موضوع كبير وعظيم، فإنَّ بقاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في هذه الأمة كان أمنة من وقوع الفتن ووقوع الاختلاف في الدين في هذه الأمة، ثم بعدهم انصبت الفتن على الناس صبًا، ومصداق هذا في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي «صحيح مسلم» قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت**

النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما توعد».

الواقع يشهد بأنه بانخرام عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ دبَّت الخلافات، وعظمت الفتن، وتفرقت الفِرَق، وتشعبت الأهواء، واستولى على الناس أمرٌ عظيم، إلا تلك الثُّلَّة التي تمسكت بالحق والهدى الذي كان عليه أولئك الناجون الأولون الخيِّرون بشهادة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبالتالي فمن سار على دربهم وصل، كل من سار على الدرب وصل، فالذي يسير على درب أولئك سيصل إلى النجاة التي وصل إليها أولئك رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

فهذه وصية في هذا الزمن المتأخر زمن الغربة، ينبغي على كل مسلم ومسلمة أن يراعيها وأن يتأملها، إذا أردت أن تنجو من الاختلافات في العقائد وفي غيرها فالزم ما كان عليه السلف الصالح تنجو بتوفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورحمته.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**نقول ذلك تحدثًا بنعمة الله تعالى وبيانًا لما يجب أن يكون عليه كل مؤمن**) نبه هذا التنبيه رَحِمَهُ اللَّهُ لأجل أن لا يُظن أنَّ المؤلف يزكي نفسه، إنما هو متحدث بنعمة الله، قال جل وعلا: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، فليس المقام مقام افتخار وتزكية، إنما هو مقام بيان وتحدث بنعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(**ونسأل الله تعالى أن يثبتنا وإخواننا المسلمين بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة، وأن يَهَب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب**).

قال: (**ولأهمية هذا الموضوع وتفرق أهواء الخلق فيه؛ أحببت أن أكتب - على سبيل الاختصار- عقيدتنا عقيدة أهل السنة والجماعة وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. سائلًا الله تعالى أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه، موافقًا لمرضاته، نافعًا لعباده**) اللهم آمين.

بيَّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ السبب الذي دعاه لأن يؤلف هذا المختصر في العقيدة:

◉ وذلك لأهمية هذا الموضوع، هذا أهم الموضوعات، وهذا أشرف الموضوعات، وهذا الذي هو من أعظم أسباب النجاة عند الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

◉ والأمر الثاني: ما وقع في الناس من اختلاف كثير، ولأجل هذا كان تأليف أهل السنة والجماعة في باب الاعتقاد، وهذه نقطة تحتاج إلى بيان نبينها -إن شاء الله -، ما هو علم العقيدة؟ ما أهميته؟ ولماذا ألَّف المؤلفون فيه؟ وما هي الموضوعات التي يعالجها؟ كل ذلك مع ما يتبع هذه الجملة من كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سوف يكون موضوع درسنا غدًا بتوفيق الله عز وجل وعونه.

أسأل الله أن يثبتني وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، أسأل الله أن يلزمنا الإسلام والسنة حتى نلقاه، وأن يجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلا الله، وأن يتوفنا وهو راض عنَّا، إنه سميع مجيب الدعاء.







بعض المسائل التي يحسن التقديم بها بين يديه ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذه العقيدة عقيدة أهل السنة والجماعة.

المقدمة الأولى: هي في معنى العقيدة.

العقيدة هي: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه.

وإن شئت فقل: **إنَّها حكم الذهن الجازم.**

والعقائد كثيرة، شيء لا يمكن حصره، ولذا إذا قال أهل العلم والسنة: (العقيدة) فإن مرادهم بذلك: عقيدة المسلمين الحقة، عقيدة أهل السنة والجماعة، فـ(أل) في قولنا: (العقيدة) للعهد؛ لأنها هي العقيدة التي يجب على كل مسلم أن يعتقدها، فهي التي كان عليها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ودرج عليها أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ من بعده، وهكذا بقية السلف الصالح فمن بعدهم من التابعين لهم بإحسان.

وهذه العقيدة أضحت علمًا يدرسه أهل طلب العلم، ويتعلمه المسلمون من قديم الزمان، وهذا العلم -أعني: علم العقيدة- هو العلم الذي يُبحث فيه في الإيمان بالله عز وجل، وما يجبُ له من التوحيد، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر وما يتفرع عن هذه الأصول، هذا هو: علم العقيدة.

وله تسميات مرادفة:

۞ يسمى: (**السُّـنَّة**) على أحد الاصطلاحات التي يُستعمل فيها هذا اللقب وهو السنة بمعنى العقيدة، وأُلِّفت في هذا مصنفات بهذه التسمية أو بهذا اللقب.

۞ كما يسمى هذا العلم بـ: (**علم التوحيد**).

۞ كما يسمى -أيضًا- بـ: (**علم أصول الدِّين**).

المقصود: أن هذا العلم علم معروف، بل هو أشرف العلوم كما سبق الكلام في ذلك، وقد صُنِّفت فيه مصنفات كثيرة، والسبب في ذلك ما بين المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ختام مقدمته، حيث بيَّن أن تأليفه هذه الرسالة المختصرة إنما كان لأجل بيان هذا الأمر العظيم والمهم.

شرف هذا الموضوع هو الذي دعا أهل العلم إلى التأليف فيه، وكيف لا يكون هذا الموضوع ذا أهمية والنجاة معلَّقة به، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول كما حكى هذا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]، القلب السليم هو الذي انعقد على هذا الاعتقاد وجزم به، فوحَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصدَّق بآياته وبنبوة نبيه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبكل ما جاء في وحي الله المتلو وغير المتلو، هذا هو القلب السليم، سَلِم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسَلَّم له جل وعلا.

إذن: السلامة مرتبطة بتحقيق هذا الاعتقاد: توحيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والإيمان بكل ما جاء في الكتاب والسنة ورأس ذلك: أركان الإيمان الستة.

والسبب الثاني ما ذكره المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ من أنه قد تشعبت الأهواء، وتفرقت الفِرَق، وكثر الخوض بالباطل في هذا الباب، فاحتاج أهل العلم والسنة أن يبينوا الحق ليستبين الحق ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥] أيضًا، فتقوم الحجة على الناس، ويتبين ما جاء عن الله عز وجل وعن رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من العقائد الصحيحة.

والمؤلفات في هذا الموضوع لا شك أنها كثيرة، ولم يزل أهل العلم يصنفون المصنفات في بيانِ التوحيد وبيان ما يضاده وشرح عقيدة أهل السنة والجماعة بأساليب مختلفة، تارة تكون كتبًا مُسندة، وتارة تكون كتبًا غير مسندة، تارة تكون كتبًا مطولة، وتارة تكون كتبًا مختصرة، ومن ذلك: هذه الرسالة الوجيزة التي بين أيدينا، للشيخ العلامة محمد بن عثيمين رحمه الله رحمة واسعة.

والمؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ سماها بعقيدة أهل السنة والجماعة، وهاهنا يَرِد سؤال ويتكرر وهو: **ما المقصود بأهل السنة والجماعة؟ بل لم كانت هذه التسمية أصلًا؟** ألم يكن يكفي أن نتسمى بالاسم الذي سمانا الله عز وجل به في كتابه فنقول: المسلمون، نقول: المؤمنون، ولا حاجة إلى مثل هذه التسمية: أهل السنة والجماعة.

والجواب عن هذا أن يُقال: إن أهل السنة والجماعة المراد بهم: السائرون على النهج الحق الذي جاء به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومضى عليه السلف الصالح، هذه الأمة -كما مر الكلام في ذلك في درس البارحة- قد تفرقت إلى فِرَق كثيرة، وتشعبت إلى شُعَب عديدة، وبالتالي وَصْف الإسلام يعم كل من انتسب إلى هذه الملة ما لم يصل انحرافه إلى درجة الخروج عن الملة، لكن يبقى أنَّ هناك كثيرًا من هذه الفرق ما وصلت إلى هذه الدرجة، فهي لا تزال فِرَقًا إسلامية تنتسب إلى ملة الإسلام.

وبالتالي كيف يمكن أن يتميز الحق وأهله ويتميز الباطل وأهله؟ إذن: **هـذا اللقب إنما دعت إليه الحاجة، الحاجة إلى بيان الحق وتمييز أهله**، ولأجل ذلك استعمل أهل العلم والسنة هذا الاصطلاح، لأجل تمييز أهل الحق الذين ثبتوا على ما جاء به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن تدخل الأهواء وقبل أن يكون الاختلاف.

وهذا المصطلح نشأ قديمًا، يعني: استُعمل من عهد التابعين، وكان استعماله إذ ذاك قليلًا، جاء في كلام الحسن البصري وجاء في كلام محمد بن سيرين وجاء في بعض أهل هذه الطبقة، ثم إنه فشا أكثر في الطبقة التي تليهم، ثم فشا أكثر وأكثر في الطبقة التي بعد ذلك، واشتهر بعد ذلك وأصبح اللقب المعروف، حتى إنه إذا

صُنِّفت المصنفات في الاعتقاد كان كثير منها يحمل هذا المصطلح يعني: في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة أو في شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة.

ويُرادف هذا المصطلح مصطلح آخر: كمصطلح أهل الحديث، أو مصطلح أهل الأثر.

والذي استقر عليه الأمر أن يكون المصطلح الأشهر هو: أهل السنة والجماعة، وقد يقال: أهل السنة فقط، وقد يقال: أهل الجماعة فقط، وقد يقال: الجماعة، وكل ذلك -على كل حال- إنما يرجع إلى بيان هذه الطائفة التي لم تزل على الحق ظاهرة وثابتة.

ولا شك أنَّ النسبة هاهنا إلى شيء محمود وهو سنة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلم تُسمَّ هذه الطائفة الثابتة على الحق بهذا الاسم إلا لأنهم ثبتوا على السنة وقدموها على الأهواء والآراء، كما أنهم سُمُّوا بالجماعة أو بأهل الجماعة لأنهم اجتمعوا على الحق فلم يخالفوهم، كما أنهم اجتمعوا على إمام المسلمين، إذا كان للمسلمين إمام في مكان من الأمكنة لم يشقوا عصا الطاعة، ولم يخرجوا على جماعة المسلمين، بل اجتمعوا على إمام المسلمين، فاستحقوا لقب الجماعة أو أهل الجماعة أو أهل السنة والجماعة.

إذن: هذا هو معنى (أهل السنة والجماعة)، وهذا هو سبب هذه التسمية، وهذه هي العقيدة، وهذا هو سبب التأليف فيها.

أمـا مباحثهـا فإنَّ الذي درج عليه أهل السنة والجماعة في تصنيفهم لمباحث الاعتقاد ما درج عليه غالبهم هو أن يكون **البحث في هذه الكتب في شرح أركان الإيمان الستة، يدرجون على شرح وبيان وتفصيل أركان الإيمان الستة**، وذلك باختلاف المناهج بين تطويل واقتصار أو اختصار، وبين إسهاب في الاستدلال أو اقتصاد في ذلك، إلى غير ذلك مما يرجع إلى مناهج التأليف.

يبقى بعد ذلك أن نشير إلى **المميزات التي تميزت بها عقيدة أهل السنة والجماعة**، ما الشيء الذي كان علامة فارقة لهذه العقيدة الحقة، فتميزت بها عن العقائد المخالفة، عقائد أهل البدع والأهواء؟

❁ **أول تلك المميزات لهذه العقيدة: أنها عقيدة تعتمد ابتداءً وانتهاءً على كتاب الله وسنة رسوله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كل كلمة بل كل حرف في عقيدة أهل السنة والجماعة إنما بُني على آية أو حديث، لا يمكن أن تجد مبحثًا أو مسألة في عقيدة أهل السنة والجماعة ليس عليها دليل من الكتاب والسنة، وهذا من أبرز ما يميز عقيدة أهل السنة والجماعة.

فحينما يكون الاعتماد عند مخالفيهم على تُرَّهات تُدعى قطعيات عقلية ومباحث فلسفية ومسائل منطقية؛ تجد أهل السنة والجماعة قد بنوا عقيدتهم على أدلة الكتاب والسنة، لا يتجاوزون فيها القرآن والحديث.

❁ **الميزة الثانية لعقيدة أهل السنة والجماعة: أنها عقيدة سهلة واضحة، لا غموض فيها ولا تعقيد، وليس فيها شيء يخالف العقل والفطرة**، بل إنها عقيدة سهلة ميسورة تقبِل عليها القلوب وتسلِّم بها الفِطَر، ولا يجد الإنسان أدنى حرج أو إشكال في تقبُّلها واعتقاد ما جاء فيها، وهذا ولا شك فرع عن كونها قائمة على ساق أدلة الكتاب والسنة، ولأجل ذلك كانت سهلة واضحة ميسورة مقبولة، إذا عُرِضت على كل منصف فإنه لا يتردد في قبولها وترك ما خالفها.

❁ **أيضًا من مميزات عقيدة أهل السنة والجماعة: أنها عقيدة متفق عليها، فلا نزاع ولا اختلاف في تقريرها**، خذ ما شئت من الكتب المؤلفة في عقيدة أهل السنة وقارن بينها ستجد أنَّها تكاد أن تكون كالتي كُتبت من مؤلف واحد، مهما تباعدت الأزمان أو الأماكن بين مؤلفيها فإنك تجد أنَّها كأنها خرجت عن قلم واحد.

هذه عقيدة ألفها الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مطلع القرن الخامس عشر، خذها وقارنها بأحد المؤلفات التي أُلِّفت في القرن الرابع أو في القرن الخامس وستجد النتيجة أنَّ الكتابين يبحثان في شيء واحد، ويحذو أحدهما حذو الآخر سواء بسواء، لا يخالفه في قليل ولا كثير. لستُ أتكلم هاهنا عن الأسلوب واللغة التي يُؤلَّف فيها هذا الكتاب أو ذاك، إنما أتكلم عن المسائل العلمية والمباحث التي قُرِّرت في هذه الكتب، وهذا من أبرز العلامات على أن هذه العقيدة عقيدةٌ حقَّة؛

لأنها مستندة إلى الكتاب والسنة، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، بخلاف عقائد المخالفين، فإنك تجد الفرقة الواحدة تشتمل على مذاهب لا على مذهب واحد، يختلفون في أصول عقائدهم، ناهيك عن الفروع، وهذا من أميز ما يظهر لك أن هذه فِرَق مخالفة للحق ولا شك.

الاجتماع والاتفاق على هذه العقيدة علامةٌ على أنها مستمدة من الوحي، والاختلاف والتنازع فيما عداها دليل على أنها مخالفة للوحي.

❁ **أيضًا من مميزات هذه العقيدة -وهو الأمر الرابع-: أنَّها عقيدة متوسطة بين طرفي الإفراط والتفريط**. إذا نظرت في مباحث الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة تجد أنها دائمًا تتوسط بين غلاة وجفاة، واعتبر هذا في مسائل الصفات، في مسائل الإيمان، في مسائل القَدَر، في مسائل الصحابة، في غير ذلك، تجد أن أهل السنة والجماعة يمثلون الوسطية الحقة.

إذا أردت أن تعرف ما هي الوسطية ومن أهلها فعليك أن تعلم أو تتعلم عقيدة أهل السنة والجماعة، يتكلم أناس كثيرون في الوسطية ويدَّعونها أو يحثون عليها، لكنهم قد لا يحسنون الوصول إليها، كُلٌّ يدَّعي أنه وسط أو أنه يمثل الوسطية، لكنك إن شئت أن تصل إلى الوسطية الحقة فاعلم أنها ما وافق كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبالتالي هذه العقيدة التي تَمتُّ إلى الكتاب والسنة بأوفق سبب لا شك أنها تمثل الوسطية الحقة.

إذن: هذه بعض المقدمات التي نحتاجها قبل أن نَلِج في مدارسة هذه الرسالة التي أسماها مؤلفها -جزاه الله عنا خيرًا- عقيدة أهل السنة والجماعة.



قال المصنف رحمه الله:

عقيدتنا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

قال الشارح وفقه الله:

ويتفرع عن هذه الأصول فروعٌ ترجع إليها.



قال المصنف رحمه الله:

فنؤمن بربوبية الله تعالىٰ، أي: بأنَّه الرب الخالق الملك المدبر لجميع الأمور.

قال الشارح وفقه الله:

الله عز وجل هو الربُّ لكل شيء، الربوبية ثابتة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهو وحده ربُّ كل شيء.

بدأ المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ ببيان الأصل الأول وهو: **الإيمان بالله** سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

- وأول ما بيَّن من مباحث الإيمان بالله عز وجل بيَّن: **أنَّ الله** سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ **متصفٌ بالربوبية، فهو ربٌّ كل شيء.**

ثم فصَّل معنى الربوبية فقال: (**فنؤمن بربوبية الله تعالى، أي: بأنه الرب الخالق المالك المدبر لجميع الأمور**)، هذه الأمور الثلاثة أصول الربوبية، وما

عدا ذلك من معاني الربوبية راجعٌ إليها، يعني: كون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ربَّ كل شيء يعني:

❁أنه الخالق لكل شيء.

❁ والملك لكل شيء.

❁ والمدبر لكل شيء.

هذا هو أصل معنى الربوبية لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

◉ الله هو: (الخالق)، قال سبحانه: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الفرقان:٢]، ما ثمة موجود إلا خالق ومخلوق، والله عز وجل وحده الخالق وكل ما عداه فهو مخلوق.

◉ والأمر الثاني قال: (المَلِك)، الله عز وجل هو الملك الذي له مُلْك كل شيء، قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الجاثية:٢٧].

◉الأمر الثالث قال: (المدبر لجميع الأمور) الله عز وجل له التدبير، وله التصـــريف في هذا الكون أجمع، له في ذلك كله التدبير المطلَق الكامل له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قال جل وعلا: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [السجدة:٥]، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس:٣١].

إذن: هذه أصول معاني الربوبية لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وما عداها فإنه راجع إليها.

۞ والأمر الثاني الذي يرجع إلى معنى الإيمان بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: **ما يرجع إلى ألوهية الله** سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن قبل أن ننتقل إلى المعنى الثاني قد يقول قائل: أليس يُضاف شيء من هذه المعاني وهي الخلق والملك والتدبير لغير الله عز وجل، فكيف يكون الله عز وجل منفردًا بهذا مع أنه قد يُضاف شيء من ذلك لغيره؟

والجواب عن ذلك أن يُقال: إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا شك أنه منفرد بالربوبية، فهو الرب وحده، أما ما يُضاف إلى المخلوق فلابد من فهمه على وجهه.

❁ نأتي الآن إلى المسألة الأولى وهي: الخلق.

اعلم -يا رعاك الله- أن الخلق يأتي بمعنى:

◉ التقدير.

◉ ويأتي بمعنى التغيير أو التحويل أو الصُّنع.

◉ ويأتي بمعنى الإيجاد من العدم.

❖ أما المعنى الأول فإنه يمكن أن يُضاف لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والعرب تعرف في لغتها أن الخلق يأتي بمعنى التقدير، ومن ذلك قول زهير:

فلأنت تفري ما خلقت ... وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾[العنكبوت:١٧] يعني: تقدرون كذبا، هذا الخَلْق بمعنى: التقدير، وهذا الخلق يمكن أن يُضاف إلى المخلوق، ولكن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أحسن الخالقين، أحسن المقدِّرين، بمعنى: أنَّ

المخلوق يُضاف له من هذا المعنى ما يليق به، والخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُضاف إليه ما يليق به، ثمة قَدْر مشترك وثمة قَدْر فارق.

❖ أما المعنى الثاني فهو بمعنى التغيير أو التحويل أو الصُّنع فإن هذا يمكن أن يُضاف -أيضًا- إلى المخلوق، ولذلك بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه عن عيسى عليه السلام أنه قال: ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ [آل عمران:٤٩]، هذا يرجع إلى هذا المعنى، فإنَّ عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هل كان يخلق هذا الطير من مادة موجودة أو يوجده من العدم؟ يوجد الطير من العدم؟ إنما هو يصنع ويصيِّر ويحول ويغير الطين إلى هيئة معينة، ولذلك يُسمى التصوير: خَلْقًا.

وهذا لا شك أنَّه يُضاف إلى المخلوق منه ما يليق به، ويُضاف إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من ذلك ما يليق به، فالله أحسن الخالقين ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤].

❖أما الأمر الثالث فهذا لا حظ للمخلوق فيه، ما هو الأمر الثالث؟ الإيجاد من العدم، الإبداع من لا شيء، كون الشيء يخرج من حيِّز العدم إلى حيِّز الوجود هذا شيء يتفردُ به الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا أحد قط يُشارك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذلك.

إذن: الله عز وجل ثبت أَنَّه المنفرد بالربوبية في المعنيين الأولين فيما يليق به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يشاركه فيه أحد، وفي المعنى الثالث لا يشاركه في ذلك أحد مطلقًا.

❁ نأتي إلى الأمر الثاني وهو المُلْك، الله عز وجل لا شك أنه المَلِك وله المُلْك، وأيضًا لا شك في أن المخلوقين من هو مَلِك وله مُلْك، ولكن المُلْك غير المُلك، والمَلِك غير المَلِك، شتان بين مُلْك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ومُلْك المخلوق، الله عز وجل له المُلْك المطلق الواسع، الله له كل شيء، له السلطان، وله المِلْك، كل من في السماوات والأرض مِلْك لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، له ملك السماوات والأرض.

أما المخلوق فإن مُلْكه ناقص، ومُلْكه -أيضًا- محدود، ومُلْكه لم يكن إلا بتمليك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإذا شاء أن ينزعه عنه فإنَّه ينزعه ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران:٢٦].

إذن: لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من هذه المعنى ما يليق به، وهذا لا شركة فيه بين الخالق والمخلوق، أمَّا ما للمخلوق فإنه شيء يناسبه ويليق به.

❁ كذلك الأمر في التدبير، الله عز وجل له التدبير المطلق، كل شيء فالله عز وجل يدبره ويصرِّفه، وهو الذي يأمر فيه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأمره الكوني، أما المخلوق فإنَّ تدبيره عاجز، وإنَّ تدبيره ناقص، وإنَّ تدبيره محدود، وإنَّ تدبيره قد يصيب

وقد يخطئ، قد يصيبُ الصواب وقد لا يصيبه، أمَّا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فتدبيره موافق للحكمة جل وعلا، وتدبيره واسع شامل لكل شيء.

إذن: ثبت أن هذا المعنى حق لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يشاركه فيه غيره.

إذن: تبين لنا انفراد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالربوبية، وبالتالي فمن ادَّعى أن لغير الله عز وجل شيءٌ من المعاني التي اختص الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها من الربوبية فلا شك أنه كافر بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بألوهية الله تعالىٰ، أي: بأنه الإله الحق، وكل معبود سواه باطل.

قال الشارح وفقه الله:

هذا هو المعنى الثاني من معاني الإيمان بالله الذي هو الركن الأول من أركان الإيمان، والمبحث الأول والأهم من مباحث الاعتقاد، كلُّ أركان الإيمان، كل المباحث التي تلي الإيمان بالله فإنَّها فرع عن الإيمان بالله.

الإيمان بالملائكة لم يكن من أركان الإيمان ولا من مباحث الاعتقاد إلا لأن الله عز وجل أخبر بذلك وأوجب علينا أن نؤمن به، فصار الأصل هو الإيمان بالله، ورجع الإيمان بالملائكة إلى الإيمان بالله، وقل مثل ذلك في بقية الأركان.

إذن المعنى الثاني من معاني الإيمان بالله: الإيمان بألوهية الله جل وعلا، قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ونؤمن بألوهية الله تعالى، أي: بأنه الإله الحق، وكل معبود سواه باطل**) دليل هذا في كتاب الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

الألوهية هي: العبودية، فالله عز وجل له الألوهية يعني: له العبودية، هو الذي يستحق أن يُعبد، وهو الذي يجب أن يُعبد.

الألوهية حق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يجوز أن يُشاركه في ذلك غيره، وهذا هو زبدة رسالة نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما هي زُبْدة رسالات الأنبياء جميعًا عليهم الصلاة والسلام.

الله عز وجل هو الإله، إله فِعال بمعنى مفعول، كفراش، كغراس، كبساط، ككتاب، فالله عز وجل إله، هذا على زِنة اسم المفعول بمعنى: أنه المعبود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، المعبود الحق ليس إلا الربَّ العظيم الخالق الرحيم الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن: كل معبود سواه فإنه باطل، كل من عبد غير الله عز وجل فإنه يكون قد اتخذ معبوده إلهًا مع الله عز وجل.

الأصل في هذه الكلمة لو أنَّ الناس استقامت على جادة الحق والتوحيد، الأصل أن لا يكون لهذه الكلمة جمع، الأصل أن لا يكون في اللغة جمع لكلمة (إله)، لكن لما انحرف كثير من الناس عن الفطرة واجتالتهم الشياطين أصبح لهذه الكلمة جمع، فصرنا نقول: (آلهة)، ولذلك المشركون يقولون: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ [ص:٥]، والأصل أن لا يكون إلا إله واحد، الله عز وجل هو الإله، يعني: هو الذي يستحق أن يكون الإله، أما ما عداه مما يُعبد سواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهل يصح أن نسميه إلهًا؟ **الجواب**: نعم هو إله لكنه إله باطل، والله عز وجل هو الإله الحق.

إذن: كل من عبد غير الله عز وجل، كل من صرف الألوهية لغير الله فإننا نقول: إنه اتخذ مع الله إلهًا.

وهل يُشترط أن يسميه إلهًا؟ أو مجرد كونه يتوجه إليه بالألوهية فهو إله، سماه بذلك أو لم يسمه، ولذا تجد أنَّ الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:٢٣] لكنَّك لا تجد إنسانًا يقول: الهوى هو إلهي، لكنَّ الواقع يدل على أنَّه اتخذ هواه إلهًا.

إذن: تبين بهذا أنَّ كلمة (إله) تنطبق على كل معبود، سواء كان بحق أو بباطل، ولذلك يخطئ من يفسر كلمة الإله في اللغة بأنَّه المعبود الحق، هذا ليس صوابًا، الإله هو المعبود، ثم بعد ذلك يُنظر: هل هو المعبود الحق وذلك ليس إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو هو معبود بباطل وذلك كل ما عُبِد سوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والألوهية -كما قلنا- هي العبادة، والعبادة: كمال الذل مع كمال الحب، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان

وعليها فَلَك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القُطبان

إذن: هذه هي العبادة: كمال الذل مع كمال الحب، وذلك شيءٌ لا يستحقه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأسمائه وصفاته، أي: بأن له الأسماء الحسنىٰ والصفات الكاملة العليا.

قال الشارح وفقه الله:

هذا هو الأمر الثالث مما يرجعُ إليه الإيمان بالله، **الإيمان بالله يعني: الإيمان بربوبيته والإيمان بألوهيته والإيمان بأسمائه وصفاته.**

الله عز وجل قد ثبتت له أسماء حسنى وصفات عُلَى، يجب على كل من بلغه شيء من ذلك أن يعتقده، وأن يصدق به.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ونؤمن بأسمائه وصفاته**) أي: بأن له الأسماء الحسنى، قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف:١٨٠]، والحسنى: الكاملة في الحُسن، كمال الحسن في أسماء الله عز وجل، ولذا لا يمكن بحال أن يقع في هذه الأسماء أو في معانيها شيءٌ من النقص أو العيب أو الخلل إطلاقًا، أسماء الله عز وجل مبرأة من كل ذلك، كمال الحسن في هذه الأسماء الجليلة العظيمة.

كذلك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له صفات، وهي نعوت الجلال والكمال والجمال لله عز وجل، قال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٨٠] مفهوم المخالفة: أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يتنزه عما يصفه به المؤمنون، أمَّا الملحدون في أسماء الله وصفاته الله عز وجل نزه نفسه عن ذلك، مفهوم المخالفة: أنه لا

يتنزه عما يصفه به المؤمنون، ولذا قال عقيب ذلك: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:١٨١] لسلامة ما قالوه، وصحة ما اعتقدوه.

فإذن: الله عز وجل له صفاتٌ عظيمة، ولذلك ثبت في «الصحيحين» قصة ذاك الصحابي الجليل الذي كان في سفر مع أصحابه فكان يقرأ في كل ركعة سورة الإخلاص، فلما سألوه بأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن سبب ذلك قال: «لأنها صفة الرحمن، فأنا أحبها». ومعنى كونها صفة الرحمن يعني: جاء في هذه السورة ذِكْر صفة الرحمن، ولا شك أن هذه السورة قد أُخلصت لبيان صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذن: الله عز وجل له الأسماء والصفات، يجب اعتقاد ذلك، وأنه متفرد في أسمائه وصفاته تبارك وتعالى.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بوحدانيته في ذلك، أي: بأنه لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته ولا في أسمائه وصفاته، قال الله تعالىٰ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

قال الشارح وفقه الله:

هنا ينبه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أمر هو واضح -إن شاء الله- لكنه يزيده بيانًا وهو: **أن الإيمان بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يجمع أمرين:**

- **يجمع إثباتًا.**
- **ونفيًا.**

لا يكون التوحيد توحيدًا إلا بمجموع هذين، التوحيد مجموع التجريد والتفريد، بمعنى: يجب أن يعتقد الإنسان بثبوت العبادة لله، وبثبوت الربوبية لله، وبثبوت الأسماء والصفات لله، هذا قَدْرٌ لابد منه في الإيمان، لكنَّه لا يكفي، بل يجب أن يضم الإنسان إلى هذا اعتقاد تفرُّد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بذلك ونفي الشريك له في ذلك.

إذن: التوحيد هو: اعتقاد أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الرب الذي لا ند له، والإله الذي لا شريك له، والذي له الأسماء والصفات فلا شبيه له. هذا هو التوحيد، يجب أن يجمع الإنسان في ذلك بين إثبات ونفي، إثبات هذه المعاني لله عز وجل

ونفي أن يشارك الله فيها أحد إطلاقًا، هذا هو التوحيد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا الذي نقول إنه النفي والإثبات، فلو أثبت إنسان لله عز وجل العبادة ووقف عند هذا الحد هل حقق الإيمان بالله؟ لو قال: الله هو المعبود، والله عز وجل يستحق العبادة وسكت، هل هذا القَدْر كافٍ أو لابد أن يضم إليه أنَّ كل ما يُعبد سواه فباطل؟ الإثباتُ وحده لا يمنع المشاركة، ولذا لابد حتى يكون التوحيد توحيدًا من ضم النفي إليه، وإلا فيمكن لهذا أن يقول عقيب هذا: وذاك الصنم أو ذاك الحجر أو ذاك المَلَك أو ذاك النبي أيضًا يستحق العبادة، وذاك -أيضًا- معبود كما أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ معبود. فهل هذا حقق التوحيد؟ الجواب: لا.

إذن: لابد من إثبات هذه المعاني: الربوبية والألوهية والأسماء والصفات لله عز وجل، لكن هذا ليس كافيًا حتى يضم إليه نفي الشريك لله عز وجل فيها.

وبالتالي يتبين لنا أنَّ الإيمان بالله يشتمل على هذه الأمور الثلاثة، وهي التي نسميها أنواع التوحيد الثلاثة:

◉ التوحيد في الربوبية.

◉ والتوحيد في الأسماء والصفات.

◉ والتوحيد في الألوهية.

وهنا يشغِّب بعض الناس في مسألة تقسيم التوحيد ويقول: هذا شيء لم يَرِد فيه آية ولا حديث، فمن أين لكم أن التوحيد ينقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة؟

والجواب عن ذلك أن يقال:

❁ **الدليل على هذا الاستقراء التام لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه الأدلة جاءت على ضربين:**

◉ هناك أدلة جمعت بين هذه الأنواع الثلاثة في سياق واحد، من ذلك قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، هذه الآية جمعت الأنواع الثلاثة.

◉ وهناك ضرب آخر وهو أن دلت أدلة على كل نوع باستقلال، فبالجمع بينها والتأليف بينها سوف نخلُص إلى أن التوحيد يرجع إلى هذه المعاني الثلاثة.

❁ **ثم يقال ثانيًا: هل التقسيم فيه إضافة شيء جديد، أو هو إبراز شيء موجود؟** إذن: لا محل لإنكار تقسيم التوحيد من حيث كونه شيئًا لم يَرِد به دليل، لأننا نقول: من قسَّم في أيِّ تقسيم في أيِّ فن في أيِّ علم فإنه لا يحدث شيئًا جديدًا، إنما يبرز شيئًا موجودًا، وبالتالي فلا مساغ للإنكار عليه. ناقش إن شئت في صحة هذا التقسيم وكونه جامعًا ولا يَنِدُّ عنه شيء، أو أنه أُدخل فيه ما ليس منه، يعني: كونه جامعًا مانعًا، أما أن تناقش في التقسيم لكونه تقسيمًا هذا شيء لا يستقيم على جادة العلم.

❁ **ثم يقال ثالثًا: هل يلتزم هذا الـمُنْكِر هذا المسلك في كل التقاسيم؟** يعني: ما جاء عند جميع الفقهاء المتأخرين من تقسيم مباحث الفقه إلى شروط وواجبات

وأركــان ونــواقض، يقولــون: نــواقض الوضــوء وواجبــات الصــلاة وأركانهــا وشروطها، هل هذا شيء جاء التنصيص عليه في دليل؟ هل وجدنا في الكتاب أو السنة آية أو حديثًا يقول إن شروط الصلاة كذا وكذا؟ الجواب: لا نجد شيئًا من ذلك.

إذن: الإنكار ينسحب إلى جميع العلماء الذين قسموا تقسيمات تعلَّقت بالحديث أو الفقه أو بالنحو أو بالصرف أو بغيرها من العلوم.

إذن: لا مسـاغ إطلاقًـا إلى الإنكـار عـلى مـن قـال بـما قالـت بـه الأدلـة مـن أن التوحيد ينقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنَّه ﴿ اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

قال الشارح وفقه الله:

بعد أن بيَّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة الواجب من الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو الإيمان بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته؛ جاء المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآن بالتفصيل لهذه الجملة، فإنَّ كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيهما الأدلة الكثيرة التي تبين تفاصيل ربوبية الله وألوهيته وأسمائه وصفاته.

والواجب على العبد أن يؤمن بهذه الأصول إجمالًا، وأن يؤمن بتفصيل ما جاء تفصيله إن ثبت عنده وبلغه علمه فالواجب عليه أن يؤمن به على وجه التفصيل، ومن ذلك ما جاء في هذه الآية العظيمة التي هي آية الكرسي، التي هي أعظم آية في كتاب الله كما بيَّن ذلك رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهي التي أخبر عنها أن من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح.

هذه آية عظيمة، ثبت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ من قرأها دُبر كل صلاة لم يكن بينه وبين دخول الجنة إلا الموت.

فضائل هذه الآية كثيرة.

وسُمِّيت بآية الكرسي؛ لأنَّه قد جاء فيها ذِكْر الكرسي، وسيأتي الكلام عن تفسيره إن شاء الله، **ولم يَرِد ذكره في القرآن قط إلا في هذا الموضع**.

يقول الله عز وجل: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، (الله) الاسم الجليل العظيم الذي هو الأصل في أسماء الله عز وجل، وكلُّ الأسماء تُضاف إليه وتُعرَّف به، فالله هو الغفور، والله هو الرحيم، والله هو الشكور، والله هو العزيز، ولا يقال: (العزيز هو الله)، أو (الغفور هو الله).

هذا الاسم اسمٌ مشتق على الصحيح من كلام أهل العلم، ومشتق من الألوهية، والأصل فيه: (الإله)، ثم حُذِفت الهمزة وأُدغمت اللامان فصار الاسم: الله، يعني: المألوه، يعني: المعبود.

وهذا الاسم أجمع الأسماء لنعوت الجلال والجمال والكمال له تبارك وتعالى.

وهذا الاسم من أكثر الكلمات ورودًا في كتاب الله عز وجل، بل لعله أكثر الكلمات ورودًا في كتاب الله عز وجل، شأن هذا الاسم شأن عظيم.

قال جل وعلا: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ بيَّن سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنه هو الإله الحق الذي يستحق العبادة على عباده أجمعين، ولا يجوز أن يتوجه أحد بالعبادة لما سواه.

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ هذه الكلمة العظيمة التي هي (لا إله إلا الله) هي مفتاح الإسلام، وهي مفتاح دار السلام، وهي أول ما يدخل به الإنسان في الإسلام، وآخر ما ينبغي أن يحرص على أن يخرج به من هذه الحياة، وهي التي كُفِلتْ السعادة بحذافيرها لمن عاش عليها، ساعيًا في تحقيقها ومات ثابتًا عليها.

(لا إله إلا الله) معناها: لا معبود حقٌّ إلا الله.

واحذر من خطأ من يفسرها فيقول: (لا معبود موجود إلا الله)، هذا الكلام غير صحيح، فإن المعبودات سوى الله عز وجل كثيرة، **فقول الإنسان: (لا معبود موجود إلا الله) يلزم منه أحد لازمين خاطئين:**

❁ **الأول: إنكار ما هو واقع لا شك فيه**، ولذا قال المشركون لما قال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**» قالوا: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥].

إذن: الآلهة غير الله عز وجل موجودة، لكنَّها جميعًا آلهة باطلة، والإله الحق إنما هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ [الحج:٦٢]، هذا هو تفسير لا إله إلا الله الحق الذي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمه: (لا معبود حق إلا الله).

إذن: هذه الجملة مكونة من جزءين، ويسميان الركنين عند أهل العلم:

◉ النَّفي.

◉ والإثبات.

اعتقاد بطلان عبادة كل معبود سوى الله عز وجل وإثبات العبادة لله وحده لا شريك له.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾هذان اسمان عظيمان، حتى قيل: إنهما الاسم الأعظم لله عز وجل.

۞ (الحي): يعني ذو الحياة التامة الكاملة التي لم تُسبق بعدم ولا يلحقها فناء، الله عز وجل حي هذه الحياة. والحي اسم لله عز وجل، والحياة صفة له سبحانه.

واعلم -يا رعاك الله- أن هذا الاسم وأشباهه من أسماء الله عز وجل يجمع كل واحد منها بين أمرين:

۞ بين كونه اسمًا، يعني: عَلَمًا على الذات العليَّة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

۞ والأمر الثاني: أنها تشتمل على صفة لله عز وجل.

فنستفيد من كل اسم فائدتين:

۞ أولًا: تسمية الله عز وجل بهذا الاسم، فهو عَلَم على الله عز وجل.

اسم يعين المسمى مطلقًا عَلَمه كجعفر وخرنقا

فهذه أسماء تدل على الله عز وجل.

۞ الأمر الثاني: أنها أفصحت عن صفة، هذه الأسماء كل اسم منها أفصح عن صفة لله عز وجل.

فإذا قرأت اسم الله العزيز فإنه دال على صفة العزة لله عز وجل، الرحيم دال على صفة الرحيم، الحي دال على صفة الحياة، وهلم جرا.

واحذر -يا رعاك الله- من القول الخاطئ الضال الذي يقول: إنَّ أسماء الله عز وجل أسماء جامدة لا تدل على معاني ولا تشتمل على صفات، لا شك أن هذا قول في غاية البطلان.

قال جل وعلا: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾.

۞ القيوم اسم لله عز وجل، ويدل على معنيين كلاهما حق، وكلاهما ثابت لله عز وجل:

۞ الأول: أنه القائم بنفسه.

۞ والثاني: أنه القائم على غيره.

◉ أما كونه قائمًا بنفسه: فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لم يزل ولا يزال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو الأول وهو الآخر، وهو الغني عن كل ما سواه، وهو الذي يفتقر إليه كل ما عداه، الله عز وجل لا يفتقر إلى شيء من الأشياء إطلاقًا، بل هو الغني عن كل شيء.

◉ والأمر الثاني: أنه قائم على كل شيء ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد:٣٣]، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم:٢٥]، فكل شيء إن لم يكن بالله عز وجل لم يكن، الله عز وجل به وُجِد كل شيء، وبه

قام كل شيء، وبه استتم كل شيء، فليس لشيء من الأشياء من ذاته حولٌ ولا طَول ولا قوة ولا أيُّ شيء من الأشياء إلا أن يكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذ يمدُّ، وهو الذي يمنُّ، وهو الذي ينعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال جل وعلا: ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾، السِّنة: هي: النعاس، والنوم هو: النوم المعروف، والله عز وجل منزَّه عن أن تأخذه سنة أو أن يأخذه نوم، وذلك لكمال حياته، ولكمال قيوميته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لما كان الحي أكمل حياة، ولما كان القيوم الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه قد تنزه وسَلِمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من السِّنة والنَّوم.

السِّنة وأشدُّ منها النَّوم لا تكون إلا من ضعف، لا تكون إلا من نقص في الحياة، ولذلك أهل الجنة لا ينامون، وذلك لكمال حياتهم، فالله عز وجل لكمال حياته وكمال قيوميته وكمال قوته فإنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تأخذه سنة ولا نوم.

قال جل وعلا: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾، كل شيء في السماوات وفي الأرض، كل ما هو موجود، كل ما في الكون فإنه مِلْكٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الله عز وجل مالكه والمتصرف فيه بما يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يخرج شيء عن سلطانه، ولا يمكن أن يُغالبه أحد جل في علاه.

قال سبحانه: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ **هذه الجملة فيها بيان شرط من شرطي الشفاعة التي تكون يوم القيامة:**

۞ الأول من هذين الشـرطين: رضا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن المشفوع له، لا يمكن أن تكون شفاعة لمن لم يرض الله عنه، ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء:٢٨].

۞ الشـرط الثاني: أن تكون الشفاعة بإذنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يمكن البتة أن يتقدم شافع بين يدي الله عز وجل بالشفاعة إلا والله عز وجل قد أذن له بذلك، ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، تأمل -رعاك الله- إلى هذا الاستفهام الإنكاري الذي هو مشوبٌ بالتحدي: من يجرؤ أن يشفع عند الله عز وجل والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لم يأذن بذلك؟ وهذا دليل على عظمة الله وكماله وعزته، لكماله تبارك وتعالى وسلطانه وقوته فإنَّه لا يجرؤ أحدٌ على أن يشفع عنده سبحانه إلا إذا أذن الله له، بل إلا إذا أمره الله عز وجل أن يشفع، ولذا يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يوم القيامة لأعظم الشفعاء وهو نبينا محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تُشفَّع**»، اشفع، يأمره الله عز وجل بالشفاعة ويستجيب نبينا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأمر ربه.

إذن: هذه هي الشفاعة التي تكون يوم القيامة، هي من الله وإلى الله، الأمر فيها كله لله، بخلاف الشفاعةِ التي تكون في الدنيا ويتعارفها الناس فيما بينهم، حيث يشفع الإنسان عند غيره ولو لم يكن هذا الغير مريدًا لذلك، يتقدم بين يديه، إذا كان حبيبًا عنده أو إذا كان وجيهًا عنده يتقدم بين يديه بالشفاعة ولا ينتظر منه

إذنًا ولا إشارة ولا أمرًا ولا شيئًا من ذلك، وذلك لأن الشفاعة في الدنيا شفاعةٌ لنِدٍّ عند نِدّ، فكلاهما شريك فيها، والله عز وجل وِتْرٌ لا أحد يشفعه، ولا أحد يشاركه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن -يا رعاك الله- ينبغي أن يُعلم أن حقيقة الشفاعة التي تكون في الآخرة هي إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ابتداءً وانتهاءً، تحقق في الإيمان بقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤]، من وَقَرَ هذا المعنى في قلبه فإنَّه لن يتعلق قلبه بشيء أو بشريك أو بشفيع البتة، بل سيتعلق قلبه بالله عز وجل.

فالشفعاء يوم القيامة من الأنبياء والملائكة ومن المؤمنين هؤلاء الأمر في الشفاعة ليس إليهم، إنَّما هو إلى الله عز وجل.

إذن: طلبها ينبغي أن يكون لمن هي بيده ولمن يأذن فيها وهو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن: خطأ وأيُّ خطأ ذاك الذي يقع من الذين يسألون غير الله عز وجل من الأموات والأولياء: اشفعوا لنا عند الله. هذا سؤال لا يحل، هذا إشراكٌ مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيما يختص به، هذا الولي أو هذا النبي لا يملك الشفاعة، أنت تسأله شيئًا لا يملكه، إنَّما سَلِ الشفاعة من يملكها وهو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا الشافع إنما يشفع حينما يأذن الله عز وجل له، ولذا تأمل في شيء، نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينما يخر ساجدًا تحت العرش ويحمد الله عز وجل بتلك المحامد العظيمة، فيأمره

الله عز وجل أن يرفع رأسه وأن يشفع، فيحد له حدًا يخرجهم من النار، ثم لما يريد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يشفع في آخرين ماذا يفعل؟ لو كانت الشفاعة مِلْكًا له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لتقدم بها بين يدي الله عز وجل، لكن لما كانت ملكًا لله يعود فيخر ساجدًا مرة أخرى، ويحمد الله عز وجل بمحامد يفتحها عليه، حتى يقول الله عز وجل له: «**ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع**»، يتكرر هذا منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كل مرة للدلالة على أن الشفاعة لله وحده لا شريك له.

إذن: هو الذي يجب أن تتعلق القلوب به، ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾.

قال سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾، ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ما بين أيدي العباد يعني: (ما هو كائن في المستقبل)، ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ يعني: (ما كان في الماضي)، وهذا دليل على إحاطة علم الله عز وجل بكل شيء، فالله بكل شيء عليم، علم ما كان وما هو كائن وما سيكون، بل ما لم يكن لو كان كيف يكون من الممكنات والممتنعات، حتى الممتنعات التي ما كانت ولن تكون ولا يمكن أن تكون؛ على فرض وقوعها يعلم الله كيف تكون، ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢]، وهذا أمحل المحالات، والله عز وجل علم كيف سيكون الحال، على فرض وقوعه كيف سيكون الحال، قال: ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢].

إذن: صدق الله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر:٧]، ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن:١١].

قال سبحانه: ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾، هذه الآية هل المراد فيها بقوله: ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾ يعني: ولا يحيطون بشيء من علمه يعني: بشيء يتعلق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يعلم العباد عنه شيئًا إلا إذا شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعلموه، فهو الذي يعلمهم، وهذا المعنى لا شك أنه حق، والله عز وجل لا يُحاط به علمًا، إنما يعلم العباد عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الأسماء والصفات ما شاء أن يعلموه، وثمة أشياء كثيرة لا يعلمها العباد، لله عز وجل أسماء وصفات اختص هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعلمها، ولذلك الله عز وجل لا يُحاط به علمًا، وإنما يعلم العباد عنه ما شاء هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعلمهم إياه.

وقد يكون المراد: ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾ يعني: ولا يحيطون بشيء من معلومِهِ إلا بما شاء، وذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم كل شيء، فالعلم كله ثابت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالعباد لا يعلمون شيئًا إلا إذا شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يُعْلِمَهُم، ولذلك تقول الملائكة عليها الصلاة والسلام: ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة:٣٢].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾، (وَسِعَ) يعني: أحاط.

كرسي الله عز وجل كرسي عظيم، حتى إنه أكبر من السماوات والأرض، بل هو محيط بهما، ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾، والكرسي هو: (موضع قدمي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ)، فسَّره بهذا حَبْر الأمة ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وفسَّره بهذا أبو موسى الأشعري الصحابي الجليل، وفسره بهذا ابن مسعود الصحابي الجليل رضي الله تعالى عنهم.

إذن: هؤلاء ثلاثة من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فسروا الكرسي بأنه موضع قدمي الله عز وجل.

إذن: هذا هو الذي يجب اعتقاده، وليس يخفاكم أن قول الصحابي فضلًا عن الصحابة إذا تعلق بأمر غيبي فإن له حكم الرفع إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإن مثل هذا لا يُقال عن طريق الاجتهاد.

وأخطأ في تفسير الكرسي اثنان:

۞ الأول: من فسَّره بـ:(العرش)، وهذا لا شك أنه تفسير خاطئ، فالكرسي شيء والعرش شيء آخر، والعرش أكبر من الكرسي، وهو الذي اختصه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ باستوائه عليه، قال جل وعلا: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:٥].

۞ الثاني: من فسر الكرسي بـ(العلم)، وهذا تفسير خاطئ أيضًا، والكرسي لا يمكن أن يُفسر بالعلم، الكرسي شيء والعلم شيء آخر.

المقصود: أن الذي يجب أن يُعتقد في الكرسي هو ما ثبت عن أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في تفسيره وهو أنه موضع قدمي الله عز وجل.

والسؤال: كيف هو هذا الكرسي؟ ما حجمه؟ ما شكله؟ ما لونه؟ هل يجوز لنا أن نسأل هذا السؤال؟ الجواب: لا والله لا يجوز لنا، من سأل هذا السؤال نقول له: هذا السؤال سؤالٌ خاطئ، والسبب: أن الإنسان إنما يجوز له أن يتحدث عن الشيء الذي يعلمه، أما ما كان غيبًا في حقه فإنه جاهل به، فكيف يتكلم الإنسان في شيء غيبي بجهل؟ إذن: الله عز وجل أعلمنا أنَّ له كرسيًا، لكنَّه ما أعلمنا بكنهه وكيفيته وحقيقته.

إذن: الواجب علينا أن نقول بما دلت عليه الأدلة ونسكت عما سكتت عنه الأدلة، فالعرش والكرسي وما يتعلق بيوم القيامة كالصراط والميزان، وأعظم من ذلك ما يتعلق بكيفية صفات الله عز وجل؛ كل ذلك غيبٌ لا يجوز لنا أن نتكلم في كيفيته.

ولذلك مر معنا قاعدة مهمة ينبغي علينا أن نحفظها وهي: **كلمتان ممنوعتان في بابين: (كيف) في مسائل الغيب، و(لِمَ) في مسائل القدر**، من سأل هذا السؤال بـ(كيف) في مسائل الغيب أو (لِمَ) في مسائل القدر فإنَّه يكون قد أخطأ خطًا فادحًا، وربما قاده ذلك إلى خللٍ عظيم في الاعتقاد، بل ربما إلى انحراف، نعوذ بالله من الأهواء!

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ يعني: الله عز وجل هو الحفيظ لكل شيء، هو الذي يحفظ السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما، وذلك شيء لا يُثْقِلُ الله عز وجل ولا يكرثه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بل كل ذلك هيِّن عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وذلك لكمال قوته وقيوميته جل وعلا.

﴿ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ختمت هذه الآية بهذين الاسمين العظيمين: (العلي) و(العظيم).

۞ أما العلي فإننا قلنا: إنه يدل على شيئين، ما هما؟

◉ الاسم، فنسمي الله بالعلي نقول: يا علي، ونعبِّد -مثلًا- بهذا الاسم لله عز وجل فنقول: عبد العلي.

◉ ونستفيد فائدة ثانية وهي: ثبوت صفة العلو لله عز وجل.

واعلم -يا رعاك الله- أن العلو الثابت لله عز وجل ثلاثة أنواع:

۞ عُلو القَدْر، فقَدْر الله عز وجل أعلى من كل قَدْر.

۞ وعلو القَهْر، فالله عز وجل قهر كل شيء، و(علا) تأتي في اللغة بمعنى قهر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾[المؤمنون:٩١] يعني: قهر بعضهم بعضًا.

فالله عز وجل له علو القَدْر، وله عُلو القهر.

۞ وله علو الذات، هو سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عالٍ على كل شيء، وفوقَ كل شيء، وكل شيء فهو تحته ودونه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ربنا جل في علاه له العلو المطلق سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ويدل على ذلك ليس عشرة أدلة، ولا يدل على ذلك عشرون دليلًا، ولا مائة ولا مائتان، بل أكثر من ذلك بكثير.

يا قومنا والله إن لقولنا ... ألفًا يدل عليه بل ألفان

عقلًا ونقلًا مع صريح الفطرة ... الأولى وذوق حلاوة القرآن

كُلٌّ يدل بأنه سبحانه ... فوق السماء مباين الأكوان

إذن: الله عز وجل فوق كل شيء، وهو عالٍ على كل شيء، قال سبحانه: ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك:١٦] يعني:

❖ (في العلو).

❖أو (هو فوق السماء المبنية).

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠]، وقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للجارية: «أين الله؟» قالت: في السماء. وأقرها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على ذلك، بل ووصفها بالإيمان.

۞**أما العظيم فإنه دال على:**

۞اسمه العظيم، فهو يتسمى بهذا الاسم.

۞ ودال -أيضًا- على صفة العظمة له جل وعلا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو العظيم بكل معنى يقتضي التـ ـعظيم لا يحصيه من إنسان

أقصى ما يكون من العظمة فهو ثابت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنَّه ﴿ هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤].

قال الشارح وفقه الله:

ثم أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان تفاصيل ما يرجع إلى ربوبية الله وألوهيته وأسمائه وصفاته، ذكر هاتين الآيتين العظيمتين من آخر سورة الحشر، وفيهما جملة من أسماء الله المشتملة على صفات عظيمة ونعوت جليلة للباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال سبحانه: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مختص بعلم الغيب والشهادة.

والغيب المراد هاهنا هو: الغيب المطلق، فالله عز وجل مختص بذلك، ﴿ قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل:٦٥]، هذا شيء اختص الله عز وجل به، ولا يمكن لأحد أن يشارك الله عز وجل في هذا العلم، حتى ولو كان جليلًا ذا قَدْر، بل حتى لو كان سيد ولد آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإنه قد ثبت في «الصحيحين» عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «**من حدثكم أن محمدًا**

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يعلم ما في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية**، ثم تلت قوله تعالى: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]».

فالغيب لله، ولا يمكن أن يعلم الإنسان شيئًا من الغيب إلا إذا أعلمه الله عز وجل بذلك، إذا أوحى الله لنبي من أنبيائه بأنه سيكون كذا وكذا من أمور الغيب فإن هذا يكون، كما أوحى الله عز وجل لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكثير من أمور الغيبيات التي تكون في الدنيا في آخر الزمان أو ما يكون في الآخرة، فهذا علمناه لأن الله أعلمنا به، ولو أن الله ما أعلمنا به فلا سبيل لنا إلى العلم به.

وأما الشهادة فالمراد أنَّه عالم بالمشاهَد.

إذن: ما غاب عنَّا أو كان مشاهدًا لنا فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليم به.

قال: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ هذان الاسمان العظيمان يدلان على ثبوت صفة الرحمة لله عز وجل.

فالرحمن ذو الرحمة، والرحيم ذو الرحمة.

وللناس في هذا الموضع بحث طويل في التفريق بين هذين الاسمين، **ما الفرق بين الرحمن والرحيم؟**

لا شك أنَّ العلماء متفقون على أن كليهما يدلان على ثبوت صفة الرحمة لله عز وجل، لكنهما ليسا مترادفين، يعني: الترادف التام أو المطلق بين هاتين الكلمتين غير موجود، بل لا يوجد ترادف في أسماء الله عز وجل، احفظ هذا يا رعاك الله!

أن يكون هناك ترادف تام بين اسمين أو أكثر من أسماء الله عز وجل هذا غير وارد، لابد أن يكون في كل اسم ما يختص به، قد يكون هناك قَدْر مشترك في المعنى بين اسم واسم، كما هنا كلاهما يدلان على ثبوت صفة الرحمة لله عز وجل، لكن لابد أن يكون كل اسم مختصًا بقدر مميز فارق.

◉ قيل: إنَّ الرحمن يدل على ثبوت رحمة الله عز وجل بكل المخلوقات، وأما الرحيم فإنه يدل على ثبوت صفة الرحمة بالمؤمنين، يعني: يدل على الرحمة التي اختص الله عز وجل بها عباده المؤمنين، واستدلوا على هذا بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٣]، لكن هذا فيه نظر من جهة أن اسم الله الرحيم قد تعلق ما دل عليه من الرحمة بالناس جميعًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة:١٤٣].

والذي حققه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «بدائع الفوائد»: أن اسم الله الرحمن إذا جُمِع إلى الرحيم -بمعنى: ذُكرا معًا في سياق واحد- فالرحمن لوحظ فيه صفة الرحمة القائمة بذات الله عز وجل، وأما الرحيم فلوحظ فيه الرحمة الواصلة إلى العباد، يعني: كأنَّ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن اسم الله عز وجل الرحمن لوحظ فيه الصفة الذاتية، والرحيم لوحظ فيه الصفة الفعلية، فالله يرحم من يشاء إذا شاء، مع أن الرحمة التي هي قائمة بذات الله عز وجل لابد أن يكون لها أثر في

العباد، لكن المقصود أنه في اسم (الرحمن) الدلالة أغلب على الصفة الذاتية، وفي اسم (الرحيم) الدلالة أغلب على الصفة الفعلية.

ومهما يكن من شيء فالمقصود أن هذين الاسمين يدلان على ثبوت صفة الرحمة لله عز جل، ولا شك أن لله رحمة عظيمة أعظم مما يتصورها الإنسان، أعظم مما يتصور الإنسان، ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[غافر:٧]، كل شيء فإنه قد ناله من رحمة الله عز وجل نصيب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال جل وعلا: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ ﴾[الحشر:٢٣] يعني: ذو السلطان التام سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، الذي له المُلك من جميع الوجوه، بل هو مالك الملك الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء.

❖ ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ من القُدْس، وإن شئت ضُم الدال -أيضًا-: القُدُس، القُدْس والقُدُس. وهذه الكلمة يدور معناها على الطهارة والنزاهة.

إذن: القدوس يعني: الذي تنزه عن كل عيب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لأن هذه المادة -كما علمنا- تدل على هذا المعنى، ولذلك العرب تسمي السطل الذي يُتطهر فيه: قُدْسًا أو قُدُسًا، ولذلك نقول -مثلًا-: بيت المقدس، يعني: المكان الذي يتطهر الإنسان من ذنوبه فيه. نسأل الله أن يرده إلى حوزة المسلمين.

كذلك: روح القُدُس وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، القُدُس يعني: الطاهر أو الروح الطاهرة، وهو كذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

إذن: هذا هو معنى القُدُّوس.

❁ ثم قال: ﴿ السَّلامُ ﴾ يعني:

◉ الذي سَلِمَ من كل نقص سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

◉ وقيل: إنه الذي سلم خَلْقه من ظلمه، فإن الله لا يظلم الناس شيئًا. وكلا المعنيين حق، فالله عز وجل هو السلام الذي سَلِمَ من كل نقص، وكذلك هو السلام الذي سلم عباده من ظلمه، وذلك لكمال عدله تبارك وتعالى.

ولعلكم تذكرون في دروس ماضية ما تكلمنا عنه من دلالة بعض أسماء الله عز وجل على النفي المجمل، وقلنا: إن من أسماء الله ما يدل معناها على النفي المجمل، من ذلك: (القدوس)، ومن ذلك: (السلام)، ومن ذلك: (السبوح)، ومن ذلك: (المتكبر)، فهذه الأسماء يدل معناها على النفي المجمل، وقلنا: إن النفي المجمل يستلزم الكمال المطلق، النفي المجمل في الأدلة يستلزم الكمال المطلق، وذكرنا أن عندنا ثلاثة أنواع من الأدلة على النفي المجمل، ما هي؟

◉أولًا: هذه الأسماء.

◉ وثانيًا: أدلة التسبيح، وهي كثيرة في الكتاب والسنة، كلها تدل على النفي المجمل المستلزم للكمال المطلق.

◉ وعندنا -أيضًا- أدلة التنزيه العامة، مثل: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١]، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم:٦٥]، ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

[الإخلاص:٤]، ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ ﴾ [النحل:٧٤]، ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة:٢٢].

إذن: هذا كله يدل على النفي المجمل، فالله عز وجل يُنفى عنه كل ما لا يليق بكماله.

ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾، قيل: إن هذا الاسم لله عز وجل يدل على:

◉ أنه المؤمِّن عباده المؤمنين من عذابه، فـ(مؤمن) بمعنى مؤمِّن، الذي يأمن المؤمنون من عذابه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أو أن يأخذهم بغير ما فعلوا.

◉ ويمكن أن يدل هذا الاسم على معنىً آخر ذكره بعض أهل العلم وهو أنه المؤمن بمعنى الذي يُصدِّق أنبياءه بما يعطيهم من الدلائل والآيات والبراهين والمعجزات، وكلا المعنيين حق، وكلاهما ثابت لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فالله عز وجل المؤمن بمعنى المؤمِّن، وكذلك الله عز وجل المؤمن الذي يصدق رسله وأنبياءه وعباده الصالحين.

ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾، (المهيمن) قيل:

◉ إنه الرقيب، الله عز وجل رقيب على كل شيء لا يغيب عنه شيء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، الشهيد على كل شيء.

◉ وقيل: إن المهيمن الذي له الهيمنة، يعني: الذي له السيطرة، والذي له نفوذ السلطان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كل هذا الملكوت. وكلا المعنيين حق لا شك فيه.

۞ ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ الْعَزِيزُ ﴾، (العزيز) من أسماء الله عز وجل التي كثر ورودها في النصوص، وأسماء الله عز وجل تتفاوت من حيث ورودها قلة وكثرة، فاسم الله الجليل العظيم (الله) ورد كثيرًا جدًا، حتى قيل: إنه ورد في نحو من ألفين وسبعمائة موضع في كتاب الله عز وجل، ولا يوجد اسم من أسماء الله عز وجل، بل لا توجد كلمة في القرآن جاءت في كثرة هذه الكلمة، وهناك أسماء أقل من ذلك، يعني مثلًا (السلام) ما جاء إلا في هذا الموضع. (العزيز) من الأسماء التي كثرت في كتاب الله عز وجل.

۞ واسم الله (العزيز) دال على صفة العزة له تبارك وتعالى.

واعلم -يا رعاك الله- أن العزة لله عز وجل ترجع إلى ثلاثة أنواع كلها ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

۞ أولًا: الله عز وجل له عزة الامتناع، بمعنى: أن الله عز وجل لا يمكن أن يُنال بسوء، ولا يمكن أن يصل إليه شر، الله منزه عن ذلك، عزَّ عن ذلك تبارك وتعالى.

۞ والمعنى الثاني: أنه العزيز بعزة هي عزة القهر، فالله عز وجل هو الذي يقهر كل شيء ويغلب كل شيء، ولا يغالبه شيء.

۞ والمعنى الثالث: أنه العزيز بعزة القوة، فعزيز بمعنى: قوي، ولذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو العزيز فلن يُرام جنابه	أنَّى يرامُ جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم	يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه	فالعز حينئذٍ ثلاث معان
وهي التي كَمُلَتْ له سبحانه	من كل وجه عادم نقصان

۞ ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ الْجَبَّارُ ﴾، **كذلك (الجبار) الذي هو اسم لله عز جل يدل على ثلاثة معان:**

۞ أولًا: الجبار بمعنى: ذو الجبروت، الله عز وجل ذو الجبروت، القاهر الذي يقهر ولا يُقهر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في «الصحيح» كان يسبح الله في ركوعه وسجوده في قيامه بقوله: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**».

۞ والمعنى الثاني: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الجبَّار الذي يجبر قلوب المنكسرين، فهو قريب من معنى الرحيم.

۞ والمعنى الثالث: أنه الجبار بمعنى العلي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

من قولهم جبارة للنخلة العليـ	ـا التي فاتت لكل بنان

قال جل وعلا: ﴿ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾.

۞المتكبر من أسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ودال على معنيين كلاهما حق، وكلاهما ثابت لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

۞ **أمَّا المعنى الأول**: فهو أن الله ذو الكبرياء، والكبرياء: هو العظمة والمُلْك وما إلى هذه المعاني، فالله جل علا له الكبرياء.

والكبرياء في حق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا شك أنَّ ذلك ممدوح؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يستحقُ الكبرياء، أمَّا بالنسبة للمخلوق فإنَّ الكبرياء مذموم؛ لأنَّه وضع للشيء في غير موضعه، أنَّى يكون الكبرياء حقًا في المخلوق الذي هو ضعيف، والذي هو عبدٌ مملوك لخالقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فالكبرياء من الله عز وجل كمالٌ يُحمد عليه، وأما من المخلوق فإنَّ ذلك نقص يُذم، كبرياء الله عز وجل شيء لائق به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا ككبرياء المخلوقين.

۞ **والمعنى الثاني**: أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ المتكبر الذي تكبَّر عن كل نقص وعيب ومماثلة للمخلوقين، فالله عز وجل كَبُر عن ذلك، فشأنه أجل وأعظم من أن يناله سوء أو شرٌ أو نقصٌ أو عيب، أو أن يكون في ذاته أو في صفاته مماثلًا لأحد من المخلوقين، تعالى الله عن ذلك وتكبر.

ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر:٢٣].

(سبحان الله) هذه الكلمة (سبحانَ) إعرابها أنَّها مفعول مطلق، والتقدير: (أسبح الله سبحانًا)، ومادة هذه الكلمة تدور على معنى التنزيه، أسبح الله سبحانًا يعني: أنزه الله تنزيهًا.

فإذا قال المسلم: (سبحان الله) فإنَّه ينبغي عليه أن يلحظ هذا المعنى، فينطق بلسانه ما يعلقه ويتيقنه قلبه من أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو المنزَّه عما لا يليق به، **وتنزيه الله** سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ **يجب أن يكون عن شيئين:**

۞ الأول: أن يُنزَّه الله سبحانه عن كل نقص وعيب، فشأن الله أعظم، كما مر معنا في الكلام على اسمه تعالى: المتكبر.

۞ والأمر الثاني الذي يجب تنزيه الله عنه: تنزيهه عن مشابهة المخلوقين، فشأن الله أعظم، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم:٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

إذن: يجب أن يلحظ المسلم هذا المعنى، كما أنَّه يجب أن يلحظ أن تسبيح الله عز وجل بمعنى: أن تنزيهه هذا التنزيه المجمل (سبحان الله) أنزه الله عن كل ما لا يليق بكماله، هذا يدل على الكمال المطلق لله عز وجل، فإنَّ القاعدة في صفات الله عز وجل -وتنبه لهذه القاعدة فإنها نافعة- **كل نفي جاء في صفات الله عز وجل فإنه يدل على كمال ضده**، وهذا النفي قد يَرِد نفيًا مجملًا كما في التسبيح، هنا تنزه الله عز وجل عن كل ما لا يليق به، وقد يَرِدُ نفيًا مفصلًا كما يُنزَّه الله عز وجل

عن الظلم والسِّنَة والنَّوم واللُغوب واللعب وما إلى ذلك مما جاء في النصوص، فكل ذلك يدل على كمال ضده.

الصفة الناقصة المعيَّنة التي نُزِّه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنها ونُفِيت في حقه تدل على كمال ضد معناها، وأمَّا النفي المجمل فإنه يدل على الكمال المطلق.

إذن: جمعت كلمة (سبحان الله) بين النفي والإثبات.

◉ النَّفي دلت عليه بدلالة المطابقة حينما تقول: أنزه الله، يعني: أنفي عن الله عز وجل ما لا يليق بكماله، هذا هو النفي الذي دلت عليه هذه الكلمة بدلالة المطابقة.

◉ ودلت هذه الكلمة (سبحان الله) على الإثبات، إثبات الكمال المطلق، وذلك بدلالة اللزوم، فكانت هذه الكلمة من الكلام الذي هو أحب الكلام إلى الله عز وجل، «**أحب الكلام إلى الله كما أخبر النبي** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**».

قال جل وعلا: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر:٢٣].

◉ (عَمَّا) الأقرب -والله تعالى أعلم- أن (ما) هاهنا موصولة (سبحان الله عن الذي يشركون)، أنزه الله عن حال هذه الأصنام وعن حال هذه المعبودات، فإن شأن الله عز وجل أعظم منها، حينما جعل المشرك مع الله عز وجل شريكًا فإنه يجب أن يُنزَّه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن هؤلاء الشركاء، فإن الله عز وجل لا

شريك له، الله واحد أحد، الله وتر، فلا يجوز أن يُجعل معه شريك، سبحان الله عن هذا الذي يشركونه به جل ربنا وعز عن أن يكون له شريك.

◉ ويجوز أن تكون (ما) هاهنا مصدرية، يعني: (سبحان الله عن شركهم)، أنزه الله عن الشرك الذي وقع فيه المشركون، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شأنه أعظم من أن يُشرك به، الشرك لا يليق به، قال جل وعلا في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»، شأن الله أعظم من أن يُشرك به.

❁ ثم قال سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:٢٤] هذه الأسماء الثلاثة المتوالية هاهنا تدل على معانٍ متقاربة، الخالق والبارئ والمصور.

◉ من أهل العلم من قال: إنَّ (الخالق) هو بمعنى الموجد من العدم، (والبارئ) يدل على هذا المعنى لكن بخاصية، بمعنى: أنَّ البارئ دل على خَلْق ما فيه روح، وهذا الذي نحا إليه الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من أهل العلم.

فالله عز وجل يبرأ ما فيه نَسَم، يعني: ما فيه روح، وبالتالي فإنَّه لا تُستعمل هذه الكلمة في حق ما لا روح فيه، ولذلك قال علي رضي الله عنه: «**والذي خلق الحبة، وبرأ النَّسْمة**»، فدل هذا على أن الباري أو البارئ هذا لا يكون إلا في خلق ما فيه روح.

وهاهنا نستفيد فائدة من فقه أسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهي: **أنَّ بعض الأسماء أخص في معناها من بعض**، بمعنى: أن من أسماء الله عز وجل ما يَرِد بعضه دالًا على معنى عام، ومن أسماء الله عز وجل ما يَرِد دالًا على معنىً خاص، فيكون في الأسماء ما هو ذو معنىً عام وما هو ذو معنى خاص، كما هنا الخالق والبارئ، كلاهما يدل على الخلق والإيجاد من العدم، لكن الخلق أعم، الخالق يدل على إيجاد كل شيء: ما فيه روح، وما ليس فيه روح، وأما البارئ فإنما يُستعمل فيما فيه روح.

وقل مثل ذلك في العليم والخبير، فالعليم يدل على صفة العلم الذي هو شامل لكل شيء، والخبرة: علم بدقائق الأمور وخفاياها، فهو يدل على معنىً أخص.

إذن: بعض الأسماء تدل على معانٍ أخص مما تدل عليه بعض الأسماء الأخرى التي تدل على ما هو أعم.

◉ ومن أهل العلم من يقول: إن هذا السياق يُحمل فيه قوله: (الخالق) على معنى الخلق الذي هو التقدير، ومر معنا أن الخلق يأتي بمعنى التقدير، ومن ذلك قول زهير:

فلأنت تفري ما خلقت... ....

يعني: (تنفذ ما قدَّرت).

فبالتالي يكون الخالق دالًا على التقدير، والباري يدل على إخراج هذا الذي قُدِّر من العدم إلى الوجود، إخراج ما قُدِّر من العدم إلى الوجود.

إذن: الله عز وجل يُقدِّر ويخرج الذي قدَّره من العدم إلى الوجود.

إذن: هذا هو البارئ يعني: الذي يوجد الشيء الذي قدَّره.

۞ أمَّا المصور فإنَّ المصور من التصوير، والتصوير هو: جعل الشيء على صورة، يعني: على شكل وهيئة، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما قدَّره وأوجده يرتبه على أشكال وهيئات وصور بحسب ما تقتضيه حكمته، فالله عز وجل يجعل الأشياء على صور، يجعل الإنسان على هيئة، ويجعل الجَمَل على هيئة، ويجعل الحشرة التي هي الذبابة على هيئة، كما يجعل الناس متفاوتين في صورهم، يجعل هذا على صورة والثاني على صورة والثالث على صورة، وهلم جرا.

إذن: الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُقدِّر ويوجد، وهذا ما دلت عليه هذه الأسماء الثلاثة، وهذا الذي نحا إليه ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ في تفسيره وجمع من أهل العلم.

والمقصود: أن هذه الأسماء الثلاثة تدور على معانٍ متقاربة، وهذا مما ينبغي أن يُلاحَظ في أسماء الله عز وجل، فإنَّ من أسماء الله ما يكون بين جمعٍ منها تقارب في المعنى، لكن لا يكون فيما بينها ترادف تام، ربما يكون هناك ترادف في الجملة، لكن أن يكون هناك ترادفٌ تام، بمعنى: أن يدل هذا على الاسم على ما يدل على ذاك الاسم من كل وجه، هذا لا يكون، بل لابد أن يكون هناك خاصية لاسم من أسماء الله عز وجل.

وهاهنا يحسن بنا أن نذكر أنفسنا بأمر مهم وشيء عظيم، وهو من أهم المهمات بالنسبة للمسلم، وهو أنه إذا تلا كتاب ربه فإنه ينبغي أن يقف عند أسماء الله عز وجل، وأن يحرص على أن يتأمل ويتفكر ويتفهم المعاني التي دلت عليها هذه الأسماء الجليلة العظيمة.

كيف بك أن تقرأ كتاب الله من الفاتحة وإلى الناس، تمر بك أسماء كثيرة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكن لا يتحرك في قلبك محرك يدعوك إلى أن تفهم وتعرف ما معنى كلمة (المهيمن)، وما معنى كلمة (الرقيب)، وما معنى كلمة (الحفيظ)، وما معنى كلمة (الجبار) و(العزيز) وإلى آخره، هذا فقه نفيس وعلم ثمين ينبغي علينا جميعًا أن نحرص عليه، فإن هذا مما يدخل في إحصاء أسماء الله عز وجل، معرفة معانيها والتفقه فيها والإفادة مما تدل عليها هذه الأسماء من المعاني والمسالك الإيمانية، هذا من جملة الإحصاء لأسماء الله عز وجل.

وتدري إذا أحصيت أسماء الله عز وجل أيَّ جائزة تنال؟ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبرنا كما في «الصحيح» قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة**»، عملٌ يسير وأجرٌ عظيم، «**من أحصاها دخل الجنة**»، الجنة التي يتمناها كل مسلم، ويسعى إليها سعيه، من أسباب دخولها: أن تحصيَ أسماء الله عز وجل، وذلك بأن تتعلم هذه الأسماء فتحفظها، وتتعلم وتتعرف على معانيها، مع أن المعاني التي دلت عليها أسماء الله عز وجل

شيء عظيم من الذي يحيط به؟ لكن حسب ابن آدم أن يحيط من ذلك باليسير، والعباد إنما يعرفون من معاني أسماء الله عز وجل ما هو كالقطرة من البحر.

فينبغي على الإنسان أن يحرص على أن يتأمل في هذا الموضوع ويتفكر فيه ويتدبره، وهذا من أعظم مقاصد إنزال هذا الكتاب، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص:٢٩] وأعظم ما في آيات الله عز وجل ما تعلق بالعظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من الأسماء والصفات، ولذا كانت (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن، وكانت أعظم آية في كتاب الله آية الكرسي التي فيها من أسماء الله وصفاته ما هو معلوم.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الحشر:٢٤] قلنا: إن أسماء الله عز وجل حسنى، يعني: أنها بلغت من الحُسْن الكمال، وحازت من الحُسْن الغاية، فأحسن الأسماء أسماء الله عز وجل.

ووجه كونها حسنى:

۞ أولًا: كونها مضافة إلى الله عز وجل، فهذا يكفي في كونها حسنى، استفادت كونها حسنى من أنها أسماء العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فكيف لا تكون حسنى بعد ذلك؟

۞ وهي حسنى -أيضًا- من وجه ثانٍ: وهو أنها دلت على أحسن المعاني، فأحسن المعاني ما دلت عليه أسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

۞ كما أنها حسنى من وجه ثالث: وهو أنها منزَّهة في معانيها عن كل نقص وسوء وما لا يليق بكمال الله عز وجل.

وأسماء الله الحسنى كثيرة، من تلك الأسماء ما يعلمه العباد، ومن تلك الأسماء ما لا يعلمه العباد، فالعباد إنما يعلمون بعض أسماء الله عز وجل.

والأسماء الواردة في كتاب الله وفي سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليست **محصورة** في التسعة والتسعين، يعني: ليست الأسماء التي جاءت في الكتاب والسنة تسعة وتسعين اسمًا فقط، بل هي أكثر من ذلك كما يدل على ذلك تتبعها، وعلى هذا جماهير أهل العلم، إنما لتسعة وتسعين اسمًا منها مزية وهي أنَّ من أحصاها دخل الجنة، فقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة**» هذا لا يدل بوجه على حصر. أسماء الله عز وجل في هذا العدد، إنما يدل ذلك على أن من جملة أسماء الله هذا العدد -يعني: الذي هو تسعة وتسعون اسمًا- ومن أحصاها فإنَّ جزاء ذلك أن يكون من أهل الجنة.

قال سبحانه: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر:٢٤]، أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هاهنا بخبر عظيم وهو أن ما في السماوات والأرض يُسبح له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا المعنى قد دلت عليه أدلة عدة في كتاب الله عز وجل، قال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

وتسبيح الله عز وجل من كل ما في السماوات والأرض يرجع إلى معنيين:

۞ إلى تسبيح بلسان المقال.

۞ وإلى تسبيح بلسان الحال.

كل من وكل ما في السماوات والأرض يسبح الله عز وجل بلسان الحال وبلسان المقال، اللّهم إلا المردة الكفرة من الجن والإنس فإنهم قد لا يسبحون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بلسان مقالهم، ولكنهم يسبحون الله بلسان حالهم.

إذن: كل شيء يسبح الله عز وجل بلسان الحال، كل مخلوقات الله عز وجل تشهد وتنطق بعظمته وعلمه وحكمته وعزته، وكل المخلوقات -أيضًا- تسبح الله عز وجل بلسان المقال، وإن كنا لا نفقه تسبيح كثير من مخلوقات الله عز وجل.

والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سمع أصحابه معه تسبيح الطعام، فكل شيء يسبح بحمد الله عز وجل وإن كانت أشياء كثيرة لا نفقه ولا نعرف كيف هي تسبح.

إذن: التسبيح بلسان المقال هذا حاصل -أيضًا- من جميع المخلوقات، اللّهم إلا من الكفار، فإنهم لا يسبحون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بلسان المقال.

قال سبحانه: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر:٢٤]، يَرِد في النصوص في القرآن كثيرًا أنْ تُعطف بعض الأسماء على بعض كالعزيز مع الحكيم، يَرِد كثيرًا عطف هذا الاسم على ذاك، وهذا بابٌ لطيف من

العلم، الذكي الحاذق من التفت إليه وانتبه إليه وهو الفائدة العظيمة التي تُستفاد من هذا العطف.

أسماء الله عز وجل كلها باعتبار أفرادها حسنى، وتزداد حسنًا فوق حُسْن بعطف بعضها على بعض، وبضم بعضها إلى بعض.

تأمل في هذين الاسمين العظيمين: العزيز من حيث هو اسم جليل عظيم يدل على أحسن المعاني، وكذلك الأمر في الحكيم، وبضمهما ازداد الحُسْن حُسْنًا.

إذن: عزة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليست عزة مقرونة بطيش وعبث وظلم، حاشا وكلا! إنما عزة الله مقرونة بحكمته، كما أنَّ حكمة الله عز وجل ليست حكمة الضعيف، ولا حكمة فاقدي السلطان، إنما هي حكمة العزيز، فما أعظم اجتماع هذين المعنيين: العزة مع الحكمة، والحكمة مع العزة.

۞ قال جل وعلا: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر:٢٤]، العزيز مر بنا الكلام فيه في درس البارحة، وقلنا: إن العزيز دال على صفة العزة، والعزة في صفات الله عز وجل ثلاثة معانٍ: عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة. فالله عز وجل عزيز بهذه المعاني.

۞ بقي الكلام في الحكيم، الحكيم -أيضًا- يدل على ثلاثة معانٍ، كل هذه المعاني ثابتة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

◉ فالله عز وجل الحكيم من الحُكْم، فعيل بمعنى فاعل، حكيم بمعنى حاكم، الحُكْم لله عز وجل، ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام:٥٧].

والحُكْم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وإن شئت فقل: حكم الله عز وجل نوعان:

❖ حكم كوني.

❖وحكم شرعي.

والحُكم كوني وشرعي ولا يتلازمان وما هما سيان

تأمل في كتاب الله عز وجل تجد أن الحُكْم جاء تارة بمعنى الحكم الشرعي، ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة:١٠] هذا الحكم حكم شرعي، وهناك حكم كوني، ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ [يوسف:٨٠].

حُكْم الله الشرعي هو كل حكم لله عز وجل بيَّنه وأنزله في كتابه أو سنَّه رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في سنته، والأحكام معروفة يعني من جهة أصول الفقه ومن جهة ما جاء في الفقه مستفاد من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

أما الحُكْم الكوني فهو ما حكم الله عز وجل به في كونه مما قدَّره جل وعلا، فهو يحكم برزق فلان، وبعز فلان، وبذل فلان، وبحياة فلان، وبموت فلان، وبهبة فلان.. إلى غير ذلك من أحكام الله عز وجل الكونية.

والفرق بين هذين الحكمين: أن الحكم الشرعي ملازم لمحاب الله عز وجل، كل ما حكم الله عز وجل به شرعًا فإنَّه محبوبٌ له، ولا يلزم هذا في الحكم الكوني،

يعني: لا يلزم أن كل ما حكم الله عز وجل به كونًا أن يكون هو في ذاته محبوبًا لله، لكن لابد أن يكون ما يترتب على وجوده محبوبًا لله، ولذلك حكم به.

أيضًا الحكم الكوني لابد أن يقع، ما حكم الله عز وجل به كونًا فإنه لا يمكن أن يتخلف، لا يمكن أن يكون هناك من يدفع حكم الله ويمنع نزوله، حاشا وكلا!

أما حكم الله الشرعي فإنه قد يقع وقد لا يقع، من الناس من لا يستجيب لحكم الله عز وجل، ولا يحكم بما أنزل الله، ولا بما شرع الله، لكن ما حكم الله به كونًا فإنه لابد من وقوعه ولا شك.

إذن: هذا هو المعنى الأول للحكيم وهو: من له الحُكْم، يعني: الحاكم الذي له الحكم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولا شك أن الأول والثاني كلاهما مما يختص به الله عز وجل، فلا يجوز لأحد أن يحكم شرعًا من عنده، لا يجوز أن يُنازع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الأحكام الشرعية، الأحكام الشرعية إنما هي لله، الله يحكم بما يشاء.

وكذلك الأمر في الحكم الكوني، فالذي يحكم في هذا الكون ويتصرف فيه بما يشاء إنما هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فمن نسب هذا أو هذا لغير الله عز وجل فقد جعل مع الله شريكًا، وهذا حقيقة الشرك.

◉ المعنى الثاني: أنَّ الحكيم بمعنى المحكِم، فتكون هذه الكلمة راجعة إلى معنى الإحكام، بمعنى: الإتقان، والله عز وجل قد أتقن وأحسن وأحكم كل شيء من أحكامه الشرعية ومن أحكامه الكونية، خَلْقُ الله عز وجل محكم، ولا ترى فيه تفاوتًا، أتقن كل شيء خلقه تبارك وتعالى، ولا يمكن أن ترى في خلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سوءًا أو خللًا، إنما كل ما خلقه الله عز وجل فإنه محكم.

كذلك ما شرعه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو أحسن الشرع، وما حكم به شرعًا هو أحسن الحكم، لا يمكن أن يتطرق إليه خلل، ولا يمكن أن يقع فيه تناقض، حاشا وكلا!

إذن: الله الحكيم بمعنى المحكِم.

◉ المعنى الثالث: أن الله هو الحكيم بمعنى أنه ذو الحكمة، والحكمة: وضع الأشياء في مواضعها وتنزيلها منازلها، والله سبحانه الحكيم بهذا المعنى، فكل ما يخلقه ويقدِّره ويشرعه ويحكم فيه فله فيه الحكمة البالغة.

وأدلة ثبوت الحكمة في خلق الله عز وجل وأمره وشرعه أدلة كثيرة لا تكاد أن تُحصى، تبلغ العشرات بل المئات بل الألوف، وهذا بيِّن ظاهر لمن تأمل كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

كل ما يقع في هذا الكون، كل ما بلغك علمه مما قدَّره الله، كل ما تقرؤه في الكتاب والسنة من الأحكام، أو من الأخبار، أو مما يكون في الآخرة فاعلم أن لله

في ذلك حكمة بالغة، ولكن حذارِ أن تروم الوصول إلى كل حكمة في كل شيء شرعه أو خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا باب من أبواب الزلل، وسبب من أسباب الانحراف.

وأصل ضلال الخلق من كل فرقة هو الخوض في فعل الإله بعلة

فإنهمو لم يفهموا حكمة له فصاروا على نوع من الجاهلية

هذا الذي ينقِّر عن حكمة الله عز وجل في كل شيء: لماذا شرع الله كذا؟ ولماذا جعل الله هذه العبادة على هذه الصفة؟ ولماذا أعطى الله فلانًا ومنع فلانًا؟ ولماذا هدى هذا وأضل ذاك؟ لماذا ولماذا ولماذا؟

اعلم يا عبد الله أن العباد الضعاف الذين هم محدودون في تفكيرهم وعقولهم وإدراكهم لا يمكن أن يحيطوا علمًا بحكمة الحكيم العليم العظيم الواسع الكبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إنما حسبهم أن يعلموا ثبوت الحكمة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إجمالًا، فيستدلوا بما علموا على ما جهلوا. انتبه لهذه القاعدة! **نحن بني آدم نستدل بما علمنا من حكمة الله على ما جهلنا، قد نعلم تفاصيل لكنها تفاصيل محدودة، لكننا لا نعلم التفاصيل في كل شيء من الخلق والأمر.**

إذن: **نستدل بما علمنا على ما جهلنا**، أما أن نتطلب حكمة الله في كل شيء.. أنت لا تستطيع أن تحيط علمًا بحكمة مخلوق مثلك في كل فعل أو تصرف يفعله، فكيف تريد أن تحيط علمًا بحكمة الخالق العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

هذا مما ينبغي التنبه له، يكفينا أن نعلم ثبوت الحكمة لله عز وجل إجمالًا، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد أطلعنا على شيء من حكمته في هذا الشرع البديع، وفي هذا الكون المخلوق البديع، فإذا بقيت هناك أشياء جهلنا وجه الحكمة فيها فينبغي أن نَكِل هذا الذي جهلناه إلى الذي علمناه ولا نتحيَّر، وأسوأ من ذلك أن نتهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في حكمته.

إنْ أعطانا الله فإعطاؤه بحكمة، وإن منعنا الله فمنعه بحكمة، إن أمر الله فأمره لحكمة، وإن نهى فنهيه لحكمة، كل شيء من الله عز وجل فهو لحكمة.

هذا ما يتعلق باسم الله الحكيم، والذي ينبغي علينا أن نفيد منه من هذا الاسم وأمثاله: أن نخرج بفائدة مسلكية تعود علينا في قلوبنا وفي أفعالنا وفي أخلاقنا، فائدة حقيقية حينما نعرف -مثلًا- أن الله عز وجل له الحُكْم، وأن حكمه كوني وشرعي، فالواجب علينا أن نعتقد أن حكم الله عز وجل له حكمة في شرعه وفي قَدَره، كذلك أن نصبر لحكم الله عز وجل، ولذلك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور:٤٨]، نصبر لأيِّ الحكمين: الشرعي أو الكوني أو لكليهما؟ نصبر لحكم الله عز وجل الشرعي والكوني.

هل حكم الله الشرعي يحتاج إلى صبر؟ إذا أمرك الله بأمر هذا حكمه، حكم الله بوجوب الصلاة، الصلاة تحتاج إلى صبر، أليس كذلك ؟ الله عز وجل حكم كونًا وقَدَرًا بأن يكون الإنسان فقيرًا، هذا يحتاج إلى صبر.

إذن: الواجب أن نصبر للحُكْمين: الشرعي والكوني.

إذن: هذا الذي ينبغي أن نتلمسه في تفقهنا وفي تعلمنا لأسماء الله عز وجل وصفاته، أن نخرج بفوائد تعود علينا في إيماننا وفي سلوكنا بفائدة عظيمة.

واعلموا أنَّ السير إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من طريق أسمائه وصفاته شأنُه عظيم، ولا يُوفَّق إليه إلا السعداء الموفَّقون، إذا فتحَ الله عز وجل عليك بابًا إلى السير إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من خلال تدبرك أسماءَهُ وصفاته، وإفادتك من هذه الأمور العظيمة؛ فإن هذا باب من الخير ينبغي عليك أن تحرص عليه، فإنه لا يصل إليه إلا الأفراد.

أسأل الله جل وعلا أن يجعل لنا من ذلك حظًا.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن له ﴿ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].



قال الشارح وفقه الله:

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ونؤمن بأن له ملك السماوات والأرض**)، الله عز وجل -كما مر بنا- له مُلْك السماوات والأرض، كل شيء فالله مالكه والمتصرف فيه بحكمه ومشيئته وحكمته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، لا يُنازَع الله عز وجل في شيء، ولا يملك أحد معه شيئًا ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا ﴾ [سبأ:٢٢] يعني: في السماوات والأرض ﴿ مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ:٢٢]، ليس لأحد من المخلوقين مهما علت درجته شيء مع الله عز وجل، فكل من في السماوات والأرض لا يملكون شيئًا ملكًا حقيقيًا، قد يملك الإنسان شيئًا ملكًا إضافيًا بتمليك الله عز وجل له، وهو مُلْك ناقص محدود محكوم بأمر الله القدري وبأمر الله الشرعي، أما المِلْك الحقيقي المستقل فهذا لا يمكن أن يكون لأحد، ولا حتى لذرة في السماوات ولا في الأرض.

وإذا لم يكن لأحد مِلك مستقل لشيء فهل له مشاركة مع الله عز وجل؟ يتشارك هو مع الله في ملْك هذا الشيء؟ الجواب: لا، الله عز وجل نفى هاهنا حتى المشاركة، لا الاستقلال بل حتى المشاركة.

قد لا يكون لأحد مِلْك مستقل ولا مشاركة، لكن هل يمكن أن يكون لأحد معاونة لله عز وجل؟ يعين الله؟ الجواب: لا، ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢] يعني: معاون، فالله هو الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فهو مفتقر إليه.

إذن: الله له ملك السماوات والأرض.

إذن: ينبغي أن يستيقن الإنسان بذلك، فيطلب حين يطلب من المالك لكل شيء، لماذا يتوجه الإنسان لمن لا يملك فيسأله ما يملكه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ وأشنعُ شيء في هذا أن يكون سؤاله سؤالًا شركيًا. سبحان الله! يسأل الإنسانُ الأموات ويَدَعُ ملك الأرض والسماوات، يا لله العجب! أيُّ خذلان كهذا الخذلان!

المقصود: أنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أعاد علينا التأكيد على هذا المعنى وهو أن الله عز وجل له مُلْك السماوات والأرض، وعطف على هذا قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

يقول الله عز وجل: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ خَلْقُ الله عز وجل إنما يكون بعد مشيئته، فالله عز وجل علم ثم كتب ثم شاء ثم خلق، يخلق الله عز وجل عقيب مشيئته.

وهنا وقفة يقفها بعض أهل التفسير وهي: أن الله عز وجل يقول: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ومعلوم عندكم أنَّ (ما) تُستعمل في غير العاقل، فكأن الأمر -والله تعالى أعلم- ذُكِر هاهنا (ما) وليس (من) لأن غير العاقل أكثر من العاقل، في مخلوقات الله عز وجل غير العاقل أكثر، فلوحظ الأغلب فقال جل وعلا: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٤٩-٥٠]، القسمة في هبة الأولاد أربعة:

◉ من الناس من يُرزق الإناث، كل ذريته إناث، ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا﴾.

◉ القسم الثاني: من يوهب من قِبَل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذكور فقط، كل ذريته ذكور.

◉ ومن الناس -وهو القسم الثالث- من يُعطيه الله عز وجل الذكور والإناث، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ يعني: يُرزق ذكورًا وإناثًا، ولا شك أن هذا هو الشيء الذي يتمناه أكثر الناس، أن تكون ذريته ذكورًا وإناثًا.

◉ والقسم الرابع: مَن يجعله الله عقيمًا، لا يُرزق لا ذكرًا ولا أنثى. كل ذلك راجع إلى حكمة الله عز وجل ومشيئته، الله عز وجل شاء ذلك بمشيئة مقرونة بحكمة.

إذن: حينما خلق الله عز وجل هذا وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فاعلم أنها ليست مشيئة مجردة، وإنما هي مشيئة مقرونة بحكمة، من رُزِق الإناث فليعلم أن هذا أحسن شيء يُرزقه، وأن الله عز وجل أراد له الخير في ذلك.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

❀ ❀ ❀

قال الشارح وفقه الله:

فَكُنَّا قد بدأنا الكلام في ما يتيسر من معنى هذه الآية التي بين أيدينا، وتوقف الحديث تحديدًا عند كون الآية قد بينت أن الناس منقسمون في الذرية إلى أربعة أقسام:

- منهم من رزقه الله الإناث فحسب.
- ومنهم من رزقه الله الذكور فحسب.
- ومنهم من جمع الله له بين الذكور والإناث، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ [الشورى:٥٠].
- أمَّا القسم الرابع فالعقيم الذي لم يولد له.

وقلنا: إنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حكيم فيما يرزق، لطيف رحيم فيما يعطي، وخيرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للعبد خير من خيرته لنفسه، فإن العبد قد يحب شيئًا ما أو يكره شيئًا ما لكنه لا يعلم ما الذي فيه الخير له وما الذي فيه الشر له، فقد يحب العبد ما يضره، وقد يكره ما يسعده، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٣٢].

فعلى العبد أن يكون راضيًا بقسمة الله وقدره، وما يهبه له مهما يكن، إذا رزقت الإناث فحسب وأنت تحب أن تُرزق الذكور فاعلم أن هذا هو الخير لك فاحمد الله، واعلم أن هذا خير ما تعطاه، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠].

وما يدريك لعل سعادتك قد جُعِلت مرتبطة بوجود هؤلاء البنات التي رزقك الله عز وجل إياهنَّ على كُرْه منك، فعلى العبد أن يحمد الله مهما كان تقدير الله عز وجل له في رزقه في ذريته، حتى لو كان من القسم الرابع: ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ [الشورى:٥٠]، ما يدريك لو كُشِف لك الحجاب واطلعت على الغيب لسجدت لله عز وجل شكرًا أنْ ما رزقك الله الولد، لعل هذا الولد الذي نفسك تتوق إليه يكون سبب تعاستك وسبب شقائك، فاختار الله لك ما هو الخير لك، فالرضا والتسليم علامة أهل الإيمان والتوحيد.

قال سبحانه: ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى:٥٠]، عليم متصف بالعلم، ومضى الكلام عن صفة العلم لله عز وجل.

❖ و(قدير) هذ الاسم دال على ثبوت صفة القدرة لله عز وجل، والله القدير، والله القادر، والله المقتدر، أي: الذي لا يعجزه شيء.

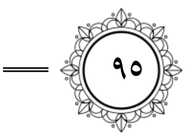
وهو القدير فليس يعجزه إذا ... ما رام شيئًا قط ذو سلطان

فـالله عـز وجـل لا يعجـزه شيء في الأرض ولا في السـماء، ﴿ وَمَـا كَـانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر:٤٤].

إذن: الله عز وجل على كل شيء قدير، و(كل شيء) هذا عموم لا تخصيص فيه، ليس هناك تخصيص في هذه الآية، فالله على كل شيء قدير مما كان أو ما سيكون أو ما لم يكن أيضًا، فما لم يكن عدم كونه ليس راجعًا إلى عدم قدرة الله، حاشا وكلا! إنما عدم وجوده وكونه لأن الله عز وجل ما شاء وجوده، ولو شاء وجوده فإنه سيكون، فهو على كل شيء قدير سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن: من علم أن الله عز في علاه على كل شيء قدير اطمأن وسكنت نفسه، وعلم أن مولاه ومن يتوكل عليه ومن اتخذه ربًا لا شريك له أنه إذا شاء شيئًا فإنه لا يُغالَب ولا يعجزه شيء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فيفوض الأمر كله له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالله قدير، والله قوي، والله متين، هذه أسماء متقاربة في المعنى تدل على أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يعجزه شيء البتة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.





قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۞ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الشورى:١١-١٢].

قال الشارح وفقه الله:

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أهل السُّنَّة والجماعة يؤمنون أن الله جل في علاه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، هذه آية جليلة عظيمة وهي أمُّ الباب في مبحث الأسماء والصفات، فجُلُّ كلام العلماء في باب الأسماء والصفات يدور على هذه الآية، آية عظيمة يُستفاد منها جملة من القواعد والضوابط المتعلقة بباب الأسماء الحسنى والصفات العلى للباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الله جل وعلا ليس كمثله شيء، هنا بحث طويل عند أهل العلم في معنى قوله: ﴿ كَمِثْلِهِ ﴾ [الشورى:١١] فإنه من المعلوم يقينًا أنَّ الله لا مثيل له ولا سمي له ولا كفؤ له، فكيف يكون النفي هاهنا لوجود مشابه لمثيل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا ظُنَّ أنَّ الكاف هاهنا للمشابهة، كما استشكل بعض الناس ذلك لأنهم توهموا هذا المعنى.

والحق أن هذه الآية لا تدل على ذلك البتة، بل تدل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا مثيل له بأبلغ ما يكون من الكلام.

أمَّا قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] فالكاف هاهنا ليست للتشبيه، إنما الكاف هاهنا هي المسماة عند النحويين بالزائدة يعني: إعرابًا، لكنها من حيث المعنى تدل على التوكيد، وقد ذكر ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعض النحويين: أنَّ زيادة الكاف تفيد التوكيد من جهة أنها تقوم مقام تكرار الكلام، والعرب إذا كررت الكلام فإنها تريد تأكيده، فكأن الجملة في غير القرآن: ليس مثله شيء، ليس مثله شيء، ليس مثله شيء، فانظر كيف كانت الكاف هاهنا تدل على فائدة عظيمة وهي تأكيد الكلام، لأن المقام مقام عظيم، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس له مثيل.

وقيل: إن المِثْل هاهنا يُراد به الذات، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] يعني: ليس كَهُو شيء، والعرب تطلق المِثْل وتريد الذات، وهذا من بليغ كلامهم، فإنهم قد يقولون: مثلك لا يُقال فيه كذا، أو مثلك يفعل كذا، والمراد أنتَ، فقد يكون هذا هو المراد في هذه الآية، والعلم عند الله عز وجل.

فالمقصود: أن هذا بعض ما قيل في تفسير هذه الآية، وقيل: إن المِثْل بمعنى المَثَل، والمَثَل والمِثْل يعني: الوصف، كما قال جل وعلا: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ [محمد:١٥] يعني: وصفها، فليس كصفة الله عز وجل شيء، فالله متفرد بصفاته، ليس له فيها مشارك أو سمي أو كفؤ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المقصود: أنَّ الآية تدل دلالة صريحة على أن الله عز وجل لا مثيل له، لا في ذاته ولا في صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل هو الواحد الأحد جل في علاه، فمهما توهم الإنسان أو وسوس الشيطان له أن غير الله يمكن أن يكون مماثلًا لله عز وجل في شيء من الأشياء: في ذاته، في صفة من صفاته؛ فينبغي عليه أن يراجع إيمانه، فإن الأدلة قاطعة بأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس له مثيل وليس له شبيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

وهذا النفي المجمل قلنا: إنَّه دالٌ على الكمال المطلق، فليس لله مثيل؛ لأن الله منفرد بجميع الكمالات وأقصى غاياتها، فليس لله عز وجل مثيل لأنه منفرد بالكمال المطلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والجمع بين قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] فيه رد على طرفي الضلال: على أهل التمثيل وعلى أهل التعطيل، فإن أهل التمثيل يعبدون صنمًا، وإن أهل التعطيل يعبدون عدمًا، والجامعون بين هاتين الجملتين الذين عبدوا الله سبحانه وآمنوا بنعوت جلاله وجماله على ما يليق به، هؤلاء عبدوا ربًا عظيمًا وإلهًا كريمًا لا شريك له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإن قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] فيه أعظم الرد على الممثلة الذين قالوا: إن غير الله عز وجل قد يكون مماثلًا له في شيءٍ من صفاته، تعالى الله عن

ذلك علوًا كبيرًا! وقد أجمع السلف على أنَّ من شبه الله بخلقه فقد كفر، وعلى أن القرآن والسنة منزهان عن أن يكون ما فيهما من صفات الله عز وجل دالًا على التشبيه، حاشا وكلا!

أما قوله: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] فإنه دال على الرد على أهل التعطيل الذين عطلوا صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ونفوا عن الله هذه الصفات العظيمة، وارتكبوا في سبيل ذلك جملة من المحرمات: من تحريف النصوص، ومن حملها على غير محملها، ومن القول على الله بغير علم، فالله أثبت لنفسه أنه سميع بصير سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن: الله يتسمى بالأسماء الحسنى ويتصف بالصفات العلى.

ومن فوائد هذه الآية: أنها تدل على قاعدة عظيمة عند أهل السنة والجماعة وهي: قاعدة القَدْر المشترك والقدْر المميِّز، فإن قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] دال على ثبوت القَدْر المميِّز الفارق، وقوله: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] دال على ثبوت القَدْر المشترك.

بيان ذلك: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد وصف نفسه في هذه الآية بصفة السمع والبصر، سمى نفسه بالسميع البصير، ومع ذلك فإن الله عز وجل في كتابه قد وصف المخلوق بالسمع والبصر، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان:٢]، ومن المعلوم أن السميع ليس

كالسميع، وأن البصير ليس كالبصير، وأن سمع الله ليس كسمع المخلوق، وأن بصر الله ليس كبصر المخلوق، مع ثبوت قَدْر مشترك وهو الصفة قبل الإضافة، فالسمع من حيث هو: إدراك الأصوات، والبصر من حيث هو: إدراك الأشياء، يعني: رؤيتها، ومع ذلك فالذي ثبت لله عز وجل من السمع والبصر أعظم بكثير، بل لا مقارنة بينه وبين ما ثبت للمخلوق، سمع الله عز وجل سمع واسع يسع جميع الأصوات، وسمع الله عز وجل سمع قديم، لم يزل الله عز وجل سميعًا، وسمع الله سبحانه لا يلحقه نقص ولا يطرأ عليه فناء.

أما المخلوق فإنه لم يكن سميعًا ثم جعله الله عز وجل سميعًا، ثم سيطرأ الفناء على هذا السمع، فإذا مات الإنسان فإنه لا يسمع، الإنسان إذا مات فإن هذا السمع الذي كان له في الدنيا سوف يزول وينتهي، كما أنه في الدنيا مُعَرَّضٌ لحصول النقص والضعف والمرض، كما أنه ولو كان صحيحًا فإنه سمع محدود وسمع ناقص، أما سمع الله عز وجل فليس الأمر فيه كذلك.

إذن: ثبت قَدْر مشترك بين صفة الخالق والمخلوق، وإثبات هذا أمر ضروري، وليس من التشبيه والتمثيل في شيء، إنما التمثيل والتشبيه الممنوع هو الاشتراك في الخصائص، يعني: فيما يختص به الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، من قال: إن غير الله يشبه الله عز وجل في هذا القَدْر فلا شك أنه وقع في أمر عظيم.

وقل مثلما قلنا في السمع في البصر وفي بقية صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

قال سبحانه: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] هذان اسمان ثابتان لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يدلان على صفتي السمع والبصر.

أمَّا السميع فيدل على ثبوت السمع لله عز وجل، والسمع جاء في صفات الله عز وجل على معنيين كلاهما حق:

◉ أمَّا المعنى الأول فإنه إدراك الأصوات، فالله يسمع كل صوت مهما دَق، ولا تشغله الأصوات، ولا تختلط عليه تبارك وتعالى، ولذلك علَّق البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحه» عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أنها قالت: «**الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، كانت المجادلة تكلم رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **وأنا في البيت، فكان يخفى علي بعض كلامها وقد سمع الله كلامها من فوق سبع سماوات**»، ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [المجادلة:١].

إذن: الله عز وجل يسمع كل شيء، حتى دبيب النملة على الصفاة يسمعه الله عز وجل، ولا يمكن أن يكون ثمة صوت لا يسمعه الله عز وجل، الله يسمع كل صوت.

وهذه الصفة لله عز وجل صفة ذاتية فعلية.

❖ذاتية من حيث كون الله عز وجل لم يزل سميعًا، لم يكن الله معطلًا عن السمع ثم صار يسمع، فمن هذه الجهة هي صفة ذاتية.

❖وهي صفة فعلية من حيث كونه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يسمع كل صوت عند حدوثه وليس في الأزل، كما نقول -مثلًا- في صفة العلم التي هي صفة ذاتية: إن الله يعلم الأشياء قبل حدوثها بعلمه القديم، والكلام هاهنا في العلم يعني: في العلم القديم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإنه لم يزل ولا يزال عليمًا، أما السمع فالله يسمع الأصوات عند حدوثها، ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة:١] في ذلك الوقت سمع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ صوتها، لا قبل ذلك ولا بعده.

◉ ويأتي السمع بمعنىً ثانٍ وهو الإجابة، ولذلك يقول المصلي: سمع الله لمن حمده، يعني: أجاب حمد من حمده، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران:٣٨] يعني: مجيب الدعاء.

وكلا المعنيين حق، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ متصف بكليهما.

۞أما (البصير) فإنه دال على صفة البصر لله عز وجل، والبصر جاء في النصوص على معنيين:

◉ الأول: إدراك الأشياء، يعني: رؤيتها والنظر إليها، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ متصف بهذه الصفات الثلاث، وهي متقاربة في المعنى: البصر، والرؤية، والنَّظر.

❖ البصر كما معنا هنا.

❖ والرؤية كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦].

❖ وكذلك النظر كما دل على هذا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ [آل عمران:٧٧]، وكما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في «صحيح مسلم»: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

◉ أما المعنى الثاني للبصر. فإنه بمعنى: العلم والخبرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:١٥]، يعني: عليم بأحوالهم، خبير بما هم عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكلا المعنيين حقٌّ ثابت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال جل وعلا: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الشورى:١٢]، المقاليد: جمع مِقْلَاد، ومعنى هذه الآية: أن أَزِمَّة الأمور بيد الله عز وجل، هو الـمُدَبِرُ لها المتصرف فيها، الذي كل شيء يكون بأمره وتحت سلطانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الشورى:١٢]، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يعني: يوسع الرزق، ﴿وَيَقْدِرُ ﴾ يعني: يضيق، ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق:٧] يعني: ضُيِّق عليه في رزقه، وكل ذلك بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المقرونة بحكمته، ولذا ينبغي أن نفهم أن قوله: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ يعني: بمشيئته المقرونة بحكمته، كما دل على هذا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

إذن: الله عز وجل إذا شاء فليست المشيئة مشيئة محضة، إنما هي مشيئة مقرونة بحكمة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال سبحانه: ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الشورى:١٢] كما قلنا: صفة العلم ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهاهنا عموم لا تخصيص فيه، الله بكل شيء عليم، ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر:٧].



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنه ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود:٦].

قال الشارح وفقه الله:

يؤمن أهل السنة والجماعة -أيضًا- أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الرزاق الذي أرزاق العباد عليه، وخزائن الرزق بيده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، الدابة هاهنا كلمةٌ تفيد العموم؛ لأنَّها نكرة في سياق النفي، كل دابة، والدابة في هذا الموضع: كل ما يدب من إنسان ومن حيوان بري أو بحري أو برمائي، يطير أو يمشي. أو يزحف، من ذكر أو أنثى، كل ما يدب فإن رزقه عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ومنه وعليه، وليس من ذات هذا المخلوق ولا من غير الله عز وجل، إنما من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحده.

فخزائن الرزق عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يَمُنُّ ويهب ويرزق من يشاء بما يشاء، وكل إنسان وكل مخلوق لله عز وجل شيء قدَّره في رزقه قد كُتِب له، ولن تفارق روحه جسده إلا إذا استكمل هذا الرزق، «**إنَّ روح القدس قد نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها**»، فالله عز وجل قد شاء وقدَّر وكتب لكل إنسان مقدارًا من الرزق سوف يأخذه لا محالة، ومهما سعى الناس في منع هذا الرزق والله قد كتبه فإنه سيصل إلى من كُتِب له ولابد.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، الرِّزق يعني الشيء المرزوق، والرَّزق صفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ففرِّق بين كلمتي (الرَّزق) الصفة، يعني: الإعطاء والهبة، و(الرِّزق) هو الشيء الذي يرزقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المخلوق.

ويبحث العلماء هاهنا مسألة، وهي من المسائل التي حصل فيها خلاف بين أهل السنة وأهل البدعة، وهي: هل الحرام رزق؟ هل يدخل في الرزق؟ هل يدخل -مثلًا- في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]؟ هل يدخل -مثلًا- في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك:١٥]؟ هل يدخل في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [المنافقون:١٠]؟ هل يدخل في ذلك أو لا؟

ينبغي أن نعلم أن الحق الذي دلت عليه النصوص أن الرزق ينقسم إلى قسمين:

❁ أولًا: الرزق العام.

❁ والثاني: الرزق الخاص.

أما الرزق العام: فهو كل ما ينفع من حلال أو حرام، كل ما ينفع من حلال أو حرام فإنه رزق، وهذا الذي دلت عليه هذه الآية التي بين أيدينا وهي: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، فالله هو الذي خلق هذا الرزق،

والله هو الذي كتب هذا الرزق، والله هو الذي يشاء هذا الرزق، والله هو الذي يسوق هذا الرزق لمن كُتِب إليه، سواء كان حلالًا أو كان حرامًا.

أمّا النوع الثاني فإنه الرزق الخاص، وهذا ينقسم إلى قسمين:

۞ أولًا: الرزق الحلال للأجساد.

۞ والثاني: رزق العلم والإيمان للقلوب.

أما الأول الرزق الحلال مما تغتذيه الأجساد وتنتفع به فهذا هو الذي جاء في نحو قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ [سبأ:١٥]، ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [المنافقون:١٠] هذا كله داخل في الرزق الحلال فحسب، بمعنى: لو جاء سارق وقال: هذا الطعام مسروق، كلوا منه، لأن الله أمر أو أباح الأكل من رزق الله وهذا من رزق الله، ماذا نقول؟ نقول: هذا ليس داخلًا في هذه الآية.

كذلك إذا أراد أن يتصدق ويقول: هذا داخل من النفقة فيما رزق الله عز وجل، نقول: هذا لا يدخل في ذلك، «**الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**» لكنه يدخل في الرزق العام، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود:٦].

والقسم الثاني من هذا النوع الثاني: هو رزق القلوب: العلم والإيمان، وهذا أرفع النوعين، وهذا الذي ينبغي إذا دعوت الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالرزق ينبغي عليك أن لا تنسَ قصد هذا النوع، ما أكثر ما ندعوا بأن يرزقنا الله عز وجل لكن الغالب أن نَقْصُدَ الأموال والأطعمة والأولاد، ولا يَرِد على ذهن الداعي أن يدعو بما هو

أهم وأولى وأنفع وهو أن يرزق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عبده بعلم ينفعه وإيمان يملأ جوانحه وقلبه، هذا لا شك أنَّه أولى بأن يُقْصَد إذا دعا الإنسان بطلب الرزق من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهذا المعنى الذي ذكرته وهذا التقسيم الذي أبنته قد فصله أهل العلم رحمهم الله، ومن ذلك ما فصَّل ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في «النونية» حينما تكلم عن القسم الثاني وبيَّن أنه منقسم إلى هذين القسمين وهو الرزق الخاص، حينما قال:

رزق القلوب العلم والإيمان — والرزق المعد لهذه الأبدان

هذا هو الرزق الحلال وربنا — رزاقه والفضل للمنان

والثان سوق القوت للأعضاء في — تلك المجاري سوقه بوزان

هذا يكون من الحلال كما يكو — ن من الحرام كلاهما رزقان

والله رازقه بهذا الاعتبا — ر وليس بالإطلاق دون بيان

إذن: لابد من التفصيل في هذا الموضع، فإن من أهل البدع من يقول: إن المال الحرام ليس رزقًا من الله، والله ما رزقه. وهذا الإطلاق غير صحيح، إنما نقول: ليس من رزق الله باعتبار، وهو من رزق الله باعتبار آخر، هذا هو التفصيل الحق في هذه المسألة.

والخلاصة التي أود أن نستفيدها: هي أن إيمان العبد بأن الرزق له مكفول والله عز وجل قد تولى ذلك، هذا يدعوه إلى أن يكون مطمئنًا، ويدعوه إلى أن

يكون ساكن النفس، لا وجلًا ولا مصابًا بالهلع، إنما يكون مطمئنًا وراضيًا، لأنه يعلم أن الرزق الذي قدَّره الله سبحانه له فإنه لابد أن يأتي، والله وبالله لو سعى كل من على وجه الأرض أن يمنعوك لقمة شاء الله عز وجل أن يرزقها إياك وقد كتبها لك والله إنهم لا يستطيعون، رزقك آتيك شاءوا أم أبوا، شئت أم أبيت.

فعلى الإنسان أن يكون مطمئنًا هادئ البال، كما أن عليه أن يكون متوكلًا على الله معتمدًا عليه، مفوضًا الأمر له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ألم نسمع إلى قول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا**» يعني: جائعة، «**وتروح بطانًا**» يعني: شبعة، بطونها ملأى.

إذن: على العبد أن يستيقن بذلك، وأن يعلم أن الأمور من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإليه، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢].

إذن: اطلب الرزق من الله، واعتمد في تحصيله عليه، ولا تثق في نفسك، ولا تعتمد على حولك، ولا يلتفت قلبك إلى مخلوق، إنما اجعل همتك واجعل قلبك مُعَلَّقًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واعلم أن ذلك من أعظم أسباب تحصيل الرزق إن اتقيت الله، ومن أعظم التقوى: التوكل على الله سبحانه؛ هذا من أوسع الأبواب التي يأتيك الرزق من خلالها، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

والله إن هذا باب عظيم للرزق، الناس تلتفت يمنة ويسرة تبحث عن الرزق، وربما يغفل كثير منهم عن هذا الباب العظيم وعن هذا السبب اليسير لتحصيل الرزق، اتق الله وأبشر بأرزاق الله ستأتيك من حيث لا تحتسب، ولا تستعظم على الله شيئًا، فالله عظيم قدير، وخزائن الله ملأى، ما أنفق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ منذ خلق السماوات والأرض، كل ما في الكون وكل ما يدب ويدرج فيه يأكل من رزق الله عز وجل ومع ذلك ما نقص شيء من خزائن الله، خزائن الله ملأى.

أرأيت لو أن ملكًا من ملوك الدنيا إذا قال فعل، غني وبيده خزائن بلده يقول لك: اطمئن، ما تعطاه من الأرزاق والمكافآت والرواتب من عندي، لا تحمل همًا، بالله عليك كيف تصبح وكيف تمسي.؟ ألست بطمأنينة وسعادة؟ وحتى لو تأخر بعض الشيء ما تعطاه من هذا الرزق فإنك آمن.. من هذا الرَّزق، الرَّزق هو العطاء، والرِّزق من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإنك تكون مطمئنًا ساكنًا هادئًا، لأنك تعلم أن هذا الذي وعدك قادر، فما بالك بالرزاق العظيم وهو الله الكريم الواسع الكبير القدير سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ وعدك بأنه يعطيك، وأنه ينالك من فضله ما كتب لك، فاطمئن وأجمل في الطلب.

وهل هذا الكلام يعني أن يميل الإنسان إلى الكسل والدَّعة ويدَع طلب الرزق؟ الجواب: لا، أبدًا، هذا لا يُستفاد من هذا الكلام، ألم تسمع إلى قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ السابق: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق**

الطير» ماذا تصنع؟ تجلس وتنام أو قال تغدو؟ إذن: العمل لابد منه، إنما مقصود هذا الكلام أنه لابد أن يصحب العمل توكل وثقة وتفويض واعتماد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبهذا يجمع الإنسان بين الحُسْنيين: بين فعل الأسباب التي أمر الشرع بها، وبين التوكل الذي أمر الله به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود:٦]، اختلف العلماء في مستقرها وفي مستودعها ما هما؟

❖روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ المستقر ما تأوي إليه هذه الدواب، والمستودع: المكان الذي تموت فيه، فالله يعلم هذا وهذا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❖وقيل: إن المستقر هو الرحم، يعني: أرحام النساء، والمستودع هو الصُّلْب، صلب الرجل، أصلاب الرجال.

❖ومن أهل العلم من قال: إن المستقر ما تستقر فيه هذه الدواب، وهو الآخرة. وأما المستودع فهو الدنيا، لأن هذه الدنيا ما هي إلا وديعة، والوديعة تُسترد، يعني: كأنها حالة مؤقتة، هذه حقيقة الدنيا، ما هي إلا شيء مؤقت وعن قريب سيكون المصير إلى المستقر.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنه ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

قال الشارح وفقه الله:

قال: ونؤمن معشر أهل السنة والجماعة بأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو.

(مَفَاتِح) جمعُ مِفْتَحْ، والمِفْتَح كالمفتاح، لكنْ مفتاح تجُمع على مفاتيح، ومِفْتَح تُجمع على مفاتح.

❖وكثير من أهل العلم على أن المِفْتَح أو المفاتح هي: تلك الآلة التي يُحل بها ما استغلق.

❖ومن أهل العلم من يقول: إن المفتح يعني: الخزائن، يعني: المكان الذي يُخزن فيه الشيء.

والمقصود بهذا: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الغيبُ إليه، إما على أن الأسباب الموصلة إلى هذا الغيب -وهي مفاتحه- أو أن خزائن الغيب عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فلا يعلمها إلا هو.

وقوله هنا: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام:٥٩] تلحظ أن في هذه الآية قُدِّمَ الخبر؛ لأن قوله: ﴿وَعِنْدَهُ﴾ خبر مقدم، والمفاتح مبتدأ مؤخر، وتقديم الخبر يفيد الحصر.

إذن: هذه الآية تدل على أن هذا الغيب لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، عِلْمه إليه لا يشارك الله عز وجل في هذا العلم غيره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وسيأتي في الآية القادمة معنى (مفاتح الغيب).

قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٥٩] (ما) هاهنا الموصولة، ومر بنا في الأصول أنَّ (ما) تفيد العموم، يعني: كل ما في البر والبحر فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يعلمه، ويدخل في (ما) هاهنا كل شيء يكون في البر وكل شيء يكون في البحر من حي ومن جامد ومن غير ذلك، كله إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علمه.

قال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩]، أيُّ ورقة تسقط فالله عز وجل يعلمها من حيث وجودها قبل أن تسقط، وإذا سقطت علم الله سقوطها، وعلم الله متى سقطت وإلى أين ذهبت، ولك أن تتخيل كم ورقة تسقط على وجه الأرض كلَ لحظة في هذه الدنيا، فالله عز وجل علم كل ذلك، بل كتب ذلك في اللوح المحفوظ.

وجاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن الله عز وجل قد وكَّل بكل شجرة ملكًا يكتب الأوراق إذا سقطت، والله عز وجل أعلم من هذا المَلَك بذلك سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

﴿ وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ﴾ [الأنعام:٥٩] أيُّ حبة فإنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بعينها قد علمها، سبحان الله العظيم! شيء تتحير فيه الألباب وتندهش عنده العقول، حتى حبات الرمل، كل حبة فإنَّها معلومة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بعينها، بل مكتوبة في اللوح المحفوظ، حتى لو كانت حبة في أقصىٰ قاع البحر في هذه الظلمات العظيمة: ظلمة ليل وظلمة بحر وظلمة جوف البحر من الطين والله عز وجل علمها بعينها، فضلًا عما هو أكبر منها وأعظم.

إذن: علم الله عز وجل واسع شامل لكل شيء، بل الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ، هذه الحبات التي لا يمكن حصرها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليس علمها فقط، بل كتب ذلك -أيضًا- في اللوح المحفوظ.

قال سبحانه: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ ﴾ [الأنعام:٥٩] حتى ما هو رطب أو ما هو يابس فإنه معلوم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنه ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

قال الشارح وفقه الله:

بقي معنا الكلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ﴾ [الأنعام:٥٩] والرطب واليابس إليهما تنقسم الأشياء، فهي إما أن تكون رطبة وإما أن تكون يابسة، وبالتالي فيكون المذكور هاهنا من ذكر العام بعد الخاص، فيشمل كل شيء، كل شيء فإنه معلوم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، بل إنه مكتوب في اللوح المحفوظ.

❖ومن أهل التفسير من قال: إن الرطب ما ينبِت، واليابس ما لا ينبِت.

❖ومنهم من قال: إن الرَّطب هو الحي، واليابس هو الميت. والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أعلم.

قال سبحانه: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] هذا الكتاب المبين هو اللوح المحفوظ، الذي هو محفوظ عن الخطأ، ومحفوظ عن الزيادة والنقصان، والله عز وجل كتب في هذا اللوح المحفوظ مقادير كل شيء قبل خلق السماوات والأرضي بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء سُبْحَانَهُوَتَعَالَى إذ ذاك.

فهذا لوحٌ محفوظ عظيم وكتاب مبين، كتب الله عز وجل فيه كل شيء، وذلك مُدوَّن إلى قيام الساعة، كل ما يقع وكل ما يكون فإنه مكتوب في هذا اللوح المحفوظ.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن ﴿ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤].

قال الشارح وفقه الله:

هذه مفاتح الغيب التي جاءت في الآية السابقة: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام:٥٩]، هذه الخمس مفاتح الغيب هي المذكورة في هذه الآية التي معنا الآن، وهذا الذي فسر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية فقال كما في الصحيح في «البخاري» وغيره: «**مفاتح الغيب خمس، ثم تلا هذه الآية**».

وفي رواية -أيضًا- في «صحيح البخاري» أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى ينزل الغيث إلا الله**»، الحديث في «البخاري».

فهذه مفاتح الغيب، يعني: هذه أمهات الغيب، وإلا فمسائل الغيب لا حصر لها، لكن هذه أمهات مسائل الغيب.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [لقمان:٣٤] يعني: متى تكون، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اختص بعلم وقتها، فلا أحد يشارك الله سبحانه في علم وقت الساعة، إنما هذا شيء يختص الله عز وجل به.

وفي حديث جبريل لما سأل عليه السلام نبينا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»، فإذا كان أعلم الخلق بالله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يعلم متى الساعة، فكيف بمن سواه؟ فعلم الساعة إلى الله عز وجل، ولكن الله سبحانه قد جعل لها علامات وأمارات، فقد جاء أشراطها وذلك حتى يستيقظ الغافلون من غفلتهم، هناك علامات تدل على قُرْب قيام الساعة.

وهذه العلامات يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

۞ علامات مضت وانقضت، كمثل بعثة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فإنها من علامات الساعة، «**بُعثت أنا والساعة كهاتين**».

۞ والقسم الثاني: علامات ظهرت مباديها ولما تستتم.

۞ والقسم الثالث: علامات لم تقع وستقع، ومن ذلك العلامات التي يعدُّها جمهور أهل العلم المتأخرين بالعلامات الكبرى، فأشراط الساعة الكبرى هذه لم تقع بعد ولكنها ستقع، لأن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبر بوقوعها.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان:٣٤]، إنزال الغيب إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، علم وقته إلى الله كما مر معنا في الحديث السابق حديث «البخاري» قال: «**ولا يعلم متى ينزل الغيث إلا الله**»، فنزول الغيث علمه إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقد يقول قائل: ماذا نقول فيما نسمع في نشرات الأخبار الجوية باحتمال أن ينزل المطر غدًا مثلًا؟

الجواب عن هذا أن يقال: إنه لا يستطيع أحد البتة من هؤلاء أو من غيرهم أن يجزم بأن الغيث الذي إنزاله من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سيقع يقينًا في وقت محدد، هذا لا يمكن أن يكون من أحد، وكم ظهرت علامات تدل على أن نزول الغيث قريب ثم لم ينزل شيء، لأن أمر ذلك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحتى أصحاب هذه الأرصاد إنما يقولون: إن الفرصة مهيأة لنزول الغيث، لا يجزمون بنزول الغيث، ومن جزم بذلك فإنه ادَّعى ما لا علم له به، بل ادعى مشاركة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يختص به، فلا يعلم متى ينزل الغيث على وجه اليقين إلا الله تبارك وتعالى.

قال سبحانه: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾ [لقمان:٣٤]، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم ما في الأرحام.

ومتعلقات ما في الأرحام كثيرة، من ذلك:

❖جنس ما في الأرحام من ذكر أو أنثى.

❖كذلك: رزقه.

❖كذلك: عمله.

❖كذلك: كونه شقيًا أو سعيدًا.

ما مآله في الآخرة، إلى غير ذلك من متعلقات ما في الأرحام، عِلْم ذلك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا أحد يشارك الله جل وعلا في هذا العلم.

وهاهنا -أيضًا- يُطرح سؤال فيقول قائل: وماذا عن هذه الأجهزة الحديثة التي تحدد جنس الجنين، أهو ذكر أم أنثى؟

والجواب عن هذا أن يُقال:

❖ إن متعلقات ما في الأرحام لا تتعلق بالجنس فقط، إنما هي متعلقات أخرى كثيرة، وليس فقط ما يتعلق بالجنس، هذا هو الأول.

❖ والأمر الثاني: متى علم هؤلاء ما في الأرحام؟ لما علم ذلك غيرهم، فالمَلَك يعلم ذلك، فإن هناك وقتًا يعلم فيه من المخلوقين من يُعلِمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بجنس هذا الجنين، وذلك أنه إذا مرت أربعون يومًا ثم أربعون يومًا ثم أربعون يومًا يرسِلُ الله عز وجل المَلَك فيسأل: أذكر أم أنثى، فيخبره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هل هو ذكر أم أنثى، فحينئذٍ يعلم المَلَك، لكن قبل ذلك عِلْم هذا مخزون عن الخلق، عِلْمه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بمعنى: أرأيتَ لما كان الجنين نطفة هل يعرف أحد جنس هذه النطفة أهي ذكر أم أنثى؟ لا أحد يعلم ذلك.

إذن: مرجع ذلك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومعرفة العباد بهذه المعرفة إنما كانت متأخرة لمَّا أعلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خَلْقه بذلك.

قال سبحانه: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾[لقمان:٣٤] ما يكون في المستقبل، ما يكون في يوم غد هل سيكون الأمر الذي نحب أو الأمر الذي نكره؟ ما الذي سيحصل على وجه التحديد؟ عِلْم هذا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يعلم ما يكون غدًا إلا الله، والإنسان قد يقدِّر في نفسه أنه سيفعل كيت وكيت غدًا، ولكن هذا قد يقع وقد لا يقع، إنما على وجه اليقين والتحديد لا يمكن لأحد أن يجزم بما سيكون، إنما عِلْم ذلك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكم تمنى أناس وخططوا أن يكون

في اليوم المقبل أو الليلة المقبلة أن يكون كذا وكذا ولكن حصل ضد ما كانوا يقدِّرون أو يتمنون.

إذن: ما يكون في الغد في المستقبل علمه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا غيب اختص الله جل وعلا به، ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

قال سبحانه: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان:٣٤]، المكان الذي يتوفى فيه الإنسان علمه إلى الله عز وجل، والله لا يمكن لأحد أن يعلم أين سيموت، وإذا كان لا يعلم أين سيموت مع أنه يمكن أن يلزم نفسه بمكان ومع ذلك فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادر على أن ينقله عنه رغبة أو رهبة.

إذن: لأن يكون جهله بالزمان من باب أولى، وهو الذي لا يمكنه فيه أيُّ تحديد ولا يمكن فيه أيُّ تقييد، بخلاف المكان، يعني: إذا كان المكان الذي يمكن أن يُلْزِمَ الإنسان نفسه بالبقاء فيه ومع ذلك فإنه لا يمكن الجزم بأنه سيموت فيه، فكيف بالزمان؟ إذن: من باب أولى أن لا يعلم متى يموت الإنسان إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان:٣٤] عِلْم ذلك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكم من الناس مَنْ لازم بقعة من بقاع الأرض رجاء أن يموت هناك، ولكنه في اللحظات الأخيرة من حياته ساقه الله إلى البقعة التي شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يموت فيها فذهب إليها فمات.

إذن: عِلْم ذلك إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

يبقى عندنا هاهنا سؤال وهو: ماذا نقول في قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من استطاع منكم أن يموت في المدينة فليفعل**»؟ هذا حثٌ من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على أن يموت الإنسان في المدينة، مع أن عِلْم موقع وفاة الإنسان إلى الله عز وجل، فما توجيه هذا الحديث؟

الجواب: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حثَّ في هذا الحديث على اتخاذ سبب من أسباب الوفاة في المدينة وهو ملازمة البقاء فيها، فهذا سبب للوفاة بها، وقد مر بنا في بحث الأسباب **أن السبب لا يوجب المسبَّب، وإنما مرجع ذلك إلى مشيئة الله** سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعلمنا أن كل سبب هو بحاجة إلى سبب يعينه فأكثر، وإلى أن تزول الموانع، وأعظم مانع مشيئة الله عز وجل، قد تفعل السبب ويشاء الله عز وجل أن لا يوصِل هذا السبب إلى المسبَّب، وبالتالي نفهم هذا الحديث على أنه حث على فعل السبب لا غير، لا على أن الإنسان يعلم أنه سيموت في المدينة أو يموت في غيرها، والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علَّق هذا بالاستطاعة فقال: «**من استطاع منكم أن يموت في المدينة فليفعل**» يعني: ليلازم البقاء في المدينة لعل هذا أن يكون سببًا لأن يتوفاه الله عز وجل في هذه المدينة الطيبة، فينال الأجر العظيم بأن يكون النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ له شفيعًا أو شهيدًا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يوم القيامة.

قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤] هذه الجملة أظن أنه مر الكلام فيها، وهي أنَّ اسم الله (العليم) دال على ثبوت صفة العلم لله عز وجل، و(الخبير) دال على صفة ثبوت الخبرة، وقلنا: إن بعض الأسماء أخص من بعض،

ولذلك فالخبرة هي تفيد معنى العلم لكنه علم خاص، وهو العلم ببواطن الأمور وخفاياها، فصفة العلم صفة عامة تدل على ثبوت علم الله عز وجل بكل شيء، خفي أو جلي، والخبرة تدل على ما هو أخص.

إذن: بعض الأسماء أخص من بعض.

والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن الله يتكلم بما شاء متىٰ شاء كيف شاء، قال تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢].

قال الشارح وفقه الله:

بعد أن أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض الأدلة التي تتعلق باعتقاد أهل السنة والجماعة بعلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ انتقل إلى ما يتعلق باعتقاد أهل السنة والجماعة في كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ونؤمن بأن الله يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء**).

الكلام صفة كمال اتصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، والله عز وجل أخبر عن نفسه بأنه يتكلم، وأخبر بثبوت صفة الحديث له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك أخبر بثبوت صفة المناداة، وكذلك أخبر بثبوت صفة المناجاة، كل ذلك ثابت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أدلة الكتاب والسنة.

أهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله عز وجل يتكلم بكلام حقيقي، وأن كلامه يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا ككلام المخلوقين على حدِّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

إذن: نثبت لله عز وجل الكلام حقيقة ومع ذلك فإننا نعتقد أن كلام الله عز وجل ليس ككلام المخلوقين، وبالتالي فإننا نفوض العلم بكيفية كلام الله عز

وجل إليه، فنقول: الله أعلم كيف هو كلامه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكننا نجزم بثبوت كلامه، بل وأنه يتكلم بما شاء، وذلك أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يُحدُّ كلامه، فهو يتكلم بما شاء، إذا شاء أن يتكلم بالقرآن بالعربية تكلم، وإذا شاء أن يتكلم بالتوراة بالعبرية تكلم، وإذا شاء أن يتكلم بالإنجيل بالسريانية تكلم، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يتكلم بما شاء.

متى شاء، في الوقت الذي يشاؤه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يتكلم، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لم يزل متكلمًا، صفة الكلام صفة ذاتية فعلية، ذاتية من حيث أن الله عز وجل لم يزل متصفًا بها، ما كان معطلًا عن الكلام ثم حدث له الكلام، تعالى الله عن ذلك! إنما لم يزل الله عز وجل متكلمًا.

أما آحاد الكلام فالله عز وجل يتكلم به إذا شاء، فقد تكلم سبحانه بالقرآن لما شاء، وتكلم بالفاتحة لما شاء، وتكلم بسورة البقرة لما شاء، فهو يتكلم بما شاء متى شاء.

كيف شاء، بالكيفية التي يشاؤها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مما لا نعلمه ويعلمه هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ مستدلًا على ما ذكر: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤].

تأمل معي كيف أن هذه الآية قد دلت على ثبوت الكلام حقيقة ويقينًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإن الله عز وجل قد أكد ثبوت كلامه بذكر المفعول المطلق، **والقاعدة في العربية: أن المفعول المطلق المؤكِّد لعامله يرفع توهم المجاز.** هكذا يذكرون اللغويون والبلاغيون، يعني: إياك أن تظن أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا

يتكلم حقيقة، بل الله عز وجل يتكلم حقيقة، إياك أن تشك في ذلك، ولذا تأمل -مثلًا- في قوله تعالى: ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان:١٤]، إذن: هذا تذليل حقيقي واقع ولابد، دل على هذا التأكيد بالمفعول المطلق.

كذلك الأمر في قوله: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤].

إذن: إياك أن ينتابك شك في ثبوت تكليم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لموسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

وقد ذكر شارح الطحاوية قصة طريفة: وهي أن أحد المبتدعة من المعتزلة جاء إلى الإمام أبي عمرو بن العلاء -أحد القراء السبعة المشهورين عند المسلمين- ومعلوم أن المعتزلة ينفون صفة الكلام عن الله عز وجل، عندهم: الله لا يتكلم، الكلام عندهم ليس صفة قائمة بالله، إنما هو شيء مخلوق كالسماوات والأرض والحيوانات، ولا شك أن هذا ضلال مبين، بل كفر بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

المقصود: أن هذا الرجل جاء إلى هذا الإمام وقال: إني أشتهي أن تقرأ هذه الآية: (وكلم اللهَ موسى تكليمًا) وبناءً على هذا يكون المتكلم موسى، يعني: موسى هو الذي كلم الله، لينفي عن الله أن يكون هو المتكلم.

فقال الإمام أبو عمرو بن العلاء رَحِمَهُٱللَّهُ: هبني قرأتها كذلك، فماذا سنصنع في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف:١٤٣]، ما الحيلة في هذه؟ ولذلك جمع المؤلف -رحمة الله تعالى عليه- بين هاتين الآيتين فأوردهما عقيب بعض.

المقصود: أنَّ هذه الآية فيها إثبات صفة الكلام لله عز وجل، وفيها أن الله عز وجل خص الكليم موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذا الشرف العظيم، ولذلك قد أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه اصطفاه لذلك: ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي ﴾ [الأعراف:١٤٤]، فالله عز وجل خصه بذلك، كما أنه قد خص آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بكلامه، كما أنَّه قد خص نبينا محمدًا صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلامه؛ لأنَّ الله عز وجل قد كلَّمه بلا واسطة، لما عُرِج به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى السماء في ليلة الإسراء والمعراج.

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف:١٤٣]، هذه -أيضًا- فيها إثبات صفة الكلام لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه يكلِّم من يشاء جل وعلا.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يكلم عباده بلا واسطة، وقد يبلغ كلامه لعباده بواسطة، الكلام بلا واسطة كما حصل مع موسى وكما حصل مع آدم ومع نبينا محمد عليهم الصلاة والسلام.

وقد يبلغ العبادَ كلامه بواسطة الملَك الموكَّل بإبلاغ وحي الله صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وكلام الله عز وجل يقسمه العلماء إلى قسمين:

۞كلام شرعي.

۞وكلام كوني.

أما الكلام الشرعي فمنه ما أنزل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في كتبه التي أنزلها على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وأما الكلام الكوني فإنه الكلام الذي يدبر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به هذا الكون ويخلق المخلوقات، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فبـ(كن) توجد الأشياء وتخرج من حيِّز العدم إلى الوجود، وسبحان الخالق العليم جل وعلا!

قال سبحانه: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، هذا -أيضًا- يتعلق بموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ناداه وناجاه.

والفرق بين المناداة والمناجاة:

❖أن المناداة تكون بالصوت الرفيع.

❖وأما المناجاة فإنها بصوت خفيض.

ولذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في النونية:

أم أجمع العلماء والعقلاء من ... أهل اللسان وأهل كل لسان

أن الندا الصوت الرفيع وضده ... فهو النجاء كلاهما صوتان

وهذا يدلنا على أن المعتقد الحق -معتقد أهل السنة والجماعة- هو الصواب في هذا الباب من أن كلام الله عز وجل كلام بحرف وصوت، فالله عز وجل يتكلم بصوت، ولو لم يَرِد في الأدلة.. قد جاء في عدد من الأحاديث عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثبوت الصوت في كلام الله عز وجل، أقول: لو لم يَرِد هذا فإن الكلام من حيث هو كلام لابد أن يكون بصوت، ولذلك ذُكِر الصوت هاهنا من باب التأكيد أنه كلام حقيقي، ومن ذلك ما ثبت في «الصحيح» عن النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله تعالى ينادي يوم القيامة بصوت: «**يا آدم، أخرج بعث النار من ذريتك**»، فهذا وبضعة أحاديث أخرى تدل على ثبوت الصوت في كلام الله عز وجل.

كذلك الحرف، كلام الله عز وجل بحرف، ويدل على هذا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قرأ بحرف من كتاب الله فله به عشر حسنات، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**».

المقصود: أن هذا هو الفرق بين المناداة والمناجاة، وكلاهما ثابت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالكيفية التي لا نعلمها ويعلمها هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنه ﴿ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ [الكهف:١٠٩]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧].

قال الشارح وفقه الله:

هاتان الآيتان تدلان على أن كلام الله عز وجل كلام عظيم، وكلام كثير لا حد له، ويكفي أن تعلم أن كل مخلوق يُخلق فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يخلقه بكلامه، وتصريفه وتدبيره سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لهذا الكون يكون بكلامه، فكم هي المخلوقات التي تنشأ في اللحظة الواحدة، وكم هي الأمور التي تتصرف وتُدبَّر في هذا الكون في اللحظة الواحدة، وكل ذلك بكلامه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

إذن: هذا يدل على أن كلام الله عز وجل كلام كثير عظيم لا يمكن للعباد أن يحصوه.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ ﴾ [لقمان:٢٧] و(أل) في (البحر) تدل على الاستغراق، يعني: كل بحار الأرض، لو أنها جميعًا كانت حبرًا يمدُّ هذه الأقلام بحيث تكتب كلام الله عز وجل فإن كل ذلك ينفد، وكلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لا ينفد، ﴿ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧].



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن كلماته أتم الكلمات صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، وحُسْنًا في الحديث، قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧].

قال الشارح وفقه الله:

كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أحسن الكلام، والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد قال كما في «صحيح مسلم»: «**أما بعد، فإن خير الحديث كلام الله**»، كلام الله عز وجل خير الحديث، ويكفي أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وصفه بالصدق والعدل، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] قال أهل التفسير: (كلمات الله عز وجل صدق في الأخبار وعدل في الأحكام). يعني: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جميعًا صدق، والصدق معروف، وهو مطابقة الكلام للواقع، لا يمكن أن يقع في كلام الله عز وجل مخالفة للواقع، حاشا وكلا أن يكون كذب في كلام الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا!

كذلك أحكامه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، سواء أكانت أحكامًا تكليفية، أو كانت أحكامًا جزائية، كل ذلك هو من عدل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فلا يمكن أن يكون في كلام الله ظلم.

كذلك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كلامه موصوف بالحُسْن، بل هو أحسن الكلام، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣]، إلى آخر ما بيَّن سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن: أحسن الكلام وخير الكلام كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهو صدق وعدل، والعقول إن رُزِقت إنصافًا وتأملت شيئًا من كلام الله عز وجل فإنها مضطرة للإذعان بذلك أن خير الكلام كلام الله عز وجل، بل فضل كلام الله على كلام غيره كفضله هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على غيره، وهذا مما لا شك فيه ولا ريب، ومن أحاط بشيء من العلم بكلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإنه ولا شك سيصل إلى هذه النتيجة.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن القرآن الكريم كلام الله تعالىٰ، تكلم به حقًا، وألقاه إلىٰ جبريل عليه السلام ونزل به جبريل علي السلام علىٰ قلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بعد الكلام عن صفة الكلام إلى الكلام عن القرآن، والعلاقة بين الكلام والقرآن علاقة عموم وخصوص، فإن القرآن أخص من صفة الكلام؛ لأنه بعض كلام الله عز وجل.

إذن: القرآن من كلام الله عز وجل، والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى يقول: (**ونؤمن بأن القرآن الكريم كلام الله تعالى تكلم به حقًا**)، إي والله! ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، ما هو الكلام الذي يسمعه؟ أليس هو القرآن؟ إذن: القرآن كلام الله عز وجل، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان يعرض نفسه على القبائل في مواسمهم، في مواسم العرب كان يقول: «**ألا رجل يحملني فأبلغ كلام ربي، فإن قريشًا منعتني أن أبلغ كلام ربي**».

إذن: القرآن كلام الله عز وجل حقًا، الذي قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] هو الله عز وجل، والذي قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس:١] هو

الله عز وجل، والذي قال ما بين هذا وهذا هو الله عز وجل، والكلام يُنسب لمن قاله مبتدئًا لا لمن تكلم به مبلِّغًا، الكلام كلام الباري والصوت صوت القاري، هذه مسألة مهمة قد يُلبِّس بها بعض الناس: كيف نقول إن القرآن كلام الله والعباد يتكلمون به؟

والجواب عن هذا ما ذكرت لك: الكلام يُنسب لمن قاله مبتدئًا لا لمن تكلم به مبلِّغًا، فالكلام كلام الباري والصوت صوت القاري، إذا ذكرت بيتًا من الشعر وتكلمت به بلسانك فهل نقول: هذا كلامك أو نقول: هذا كلام الشاعر الفلاني؟ نقول: هذا كلام الشاعر الفلاني وإن كنت قد بلَّغته، فالقرآن إذن كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تكلم به حقيقة.

إذن: ليس عبارة عن كلام الله ولا حكاية عن كلام الله، بل القرآن كلام الله لفظه ومعناه، ولذلك أطبق السلف رحمهم الله على بيان عقيدتهم في القرآن الكريم بقولهم: القرآن كلام الله منزَّل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود.

(القرآن كلام الله) هو الذي تكلم به، منزَّل منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كما أخبر الله عز وجل فيما سمعت من الآيات، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

(غير مخلوق) كلام الله عز وجل ليس مخلوقًا، المخلوق هو المفعول الذي يخلقه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أمَّا الصفة التي تقوم بالله عز وجل فحاشا وكلا أن تكون شيئًا مخلوقًا، إنَّما الكلام صفة للمتكلم، فإذا كان المتكلم مخلوقًا فكلامه مخلوق،

أما إذا كان المتكلم هو الحي الذي هو الأول والآخر، الحي الذي لا يموت سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإن كلامه غير مخلوق.

(**منه بدأ**) فهو الذي تكلم به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ابتداءً.

(**وإليه يعود**) يعني: يعود القرآن إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في آخر الزمان، كما ثبت بهذا الحديث عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإن الأرض إذا لم يبق فيها إلا شرار الخلق الذين هم معرضون عن كلام الله عز وجل لا يلتفتون إليه، فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يرفعه من المصاحف ومن صدور الناس، هذا القرآن عزيز، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت:٤١]، متى ما انصرف الناس عنه وأعرضوا عنه ولم يبالوا به فإنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يرفعه، وأسأل الله أن لا ندرك ذلك الوقت الذي لا يبقى فيه عند الناس شيء من كلام الله عز وجل. أيُّ قيمة للحياة إذا لم يبق بين الناس كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ نعوذ بالله من تلك الحال!

المقصود أن القرآن كلام الله، منه نزل وإليه يعود، أو كما يقول بعض أهل العلم: إليه يعود حكمه، فيكون هذا كالتأكيد للجملة الأولى: (منه بدأ وإليه يعود) يعني: يعود إلى الله عز وجل حكمه.

قال المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ: (**تكلم به حقًا، وألقاه إلى جبريل عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فسمعه جبريل من الله**)، هذا الذي يعتقده أهل السنة والجماعة أن جبريل عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ سَمِعَ كلام الله لما تكلم الله به، سمع هذا القرآن من الله لما تكلم به، ثم إن جبريل عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ نزل به على قلب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ،

فسمعه النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من جبريل الذي سمعه من ربه العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي تكلم به.

ثم إنَّ أصحاب النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تلقوا هذا القرآن وسمعوه من النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ثم تلقاه عنهم التابعون، وهلم جرا إلى يومنا هذا.

إذن: القرآن يرجع سنده إلى النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سمعه من جبريل، وجبريل سمعه من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

هذا الذي عليه معتقد أهل السنة والجماعة، وحذارِ من بُنيَّات الطريق، يعني: من المذاهب الرديئة التي عليها المبتدعة المخالفون للحق في هذا المقام.

بقيت عندنا هاهنا وقفة تتعلق بكلام المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ وهو: (**ونؤمن بأن القرآن كلام الله تعالى تكلم به حقًا**).

القرآن كلام الله عز وجل لا شك في ذلك ولا ريب، وهذا مما ينبغي أن نتنبه له وهو أن هذا القرآن الذي بين أيدينا كلام الله عز وجل، فما أكثر المشككين في ذلك في هذا الزمان، وما أكثر الشبه التي تُثار على كتاب الله وعلى نبوة نبينا محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فحذارِ من هذا الأمر، لابد من أن نصل إلى اعتقاد جازم ويقين تام بأن هذا القرآن الذي بين أيدينا كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حقًا وصدقًا، والدلائل والبراهين التي تدل على ذلك كثيرة جدًا.

ولو تأمل الإنسان في هذا القرآن فقط، فإنه -والله- لو تأمل في أدنى أو في أقل سورة فيه لجزم بأنَّه كلام الله، وأن الذي بلَّغنا إياه رسول الله حقًا، فهو أعظم دليل وبرهان على أنَّ نبينا محمدً صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رسول من عند الله عز وجل حقًا،

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١]، والله إنه لكافٍ وشافٍ، وإنه لدليل قاطع على صدق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى أن هذا كلام الله عز وجل حقًا.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنَّ القرآن الكريم كلام الله تعالىٰ، تكلم به حقًا، وألقاه إلىٰ جبريل عليه السلام، فنزل به جبريل عليه السلام علىٰ قلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

قال الشارح وفقه الله:

كان الحديث قد توقف بنا عند الكلام عن الكتاب الكريم والقرآن العظيم، الذي هو الكتاب المعجز، الذي هو أعظم آيات وبراهين رسول الله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وكنت قد وعدت أن نتكلم عن جملة من الدلائل والبراهين التي تدل على أن هذا القرآن كلام الله حقًا، وأنَّه تكلم به سبحانه صدقًا، وأنَّه أُنزل على النبي الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ **من جملة تلك الأدلة أولًا**: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تحدى الخلائق جميعًا أن تأتي بمثل هذا القرآن، هذا التحدي قائم منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام وإلى اليوم ما تجرأ إنسان على أن يأتي بكتاب كهذا الكتاب يزعم أنه يضارعه أو يشابهه أو يماثله.

قـرآن عظـيم متفـرد في كـل شيء: في لفظـه، وفي نظمـه، وفي بلاغتـه، وفـيما تضمنته آياته من العلوم النافعة والمباحث الشريفة.

أن يأتي أحد بمثل هذا القرآن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تحدى بهذا وما تجرأ أحد على ذلك، مع أن هذا التحدي قد بلغ العرب وهم في أوج بلاغتهم ونشاطهم اللُغوي وما استطاعوا مع هذا أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

نعم، كان منهم أن ادعوا دعاوى فارغة، ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:٣١]، لكن لما تحداهم الله عز وجل أن يأتوا بمثل هذا القرآن: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٢٣] والله ما استطاعوا.

ثـم انظر مـاذا قـال الله عـز وجـل بعـد ذلـك: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة:٢٤]، عجيبٌ شأن هـذا التحـدي، هـذه الجملـة كافيـة في أن تستثير همتهم لينشطوا في معارضة القرآن والإتيان بمثله، فهو يقول لهم: لم تفعلوا ولن تفعلوا، ومع ذلك خرسوا جميعًا وما استطاعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن، بل بمثل عشر سور منه، بل بمثل سورة منه، أليس هذا دليلًا على أنَّه كلام الله حقًا؟

انظر إلى التحدي العظيم في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، لـو تعـاونوا واجتمعـوا واحتشـدوا، يعـين بعضـهم بعضًـا ويظاهر بعضهم بعضًا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، صدق الله، والله ما أتوا ولن يأتوا.

وهـذه اليـوم ألـف وأربعمائـة سـنة مضـت وهـم إنسـهم وجـنهم خارسـون عاجزون، ما استطاعوا، هذا دليل على أنَّه كلام الله حقًا.

❁ **الأمــر الثــاني**: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد تكفل بحفظ هذا القرآن، فكان محفوظًا بحفظ الله، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] حفظه الله عز وجل وما استطاع أحد أن يدخِل فيه ما ليس منه، ولو كان هذا حرفًا واحدًا. يعني: لـو أراد أحـد أن يحـذف حرفًـا مـن جملـة آلاف مـن حـروف القـرآن، هـل يستطيع؟ أو يبـدل حرفًـا بحـرف، ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، لو أراد أحد أن يبث في الناس مصحفًا يغير فيه فقط هذا الحرف الواو بالفاء: (فإن كنتم) يستطيع؟ والله ما يستطيع، ولا يمكن أن يروج هذا.

وفي مجلسنا هذا لو أنني نطقت خطأً بآية فيها حرف واحد أخطأت فيه، بل أخطأت في حركة من حركاته سيكون في هذا المجلس عدد من الإخوة من ينبهني على الخطأ ، أليس كذلك؟ لأنَّ القرآن حفظه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن: هو على حاله منذ ألف وأربعمائة عام، كتاب عظيم فيه أربع عشـرة ومائة من السور، فيه ستة آلاف ومائتين وست وثلاثين آية ومع ذلك هو محفوظ منذ أن أنزل على محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإلى هذا اليوم كما هو، يحفظه الآلاف المؤلفة من البشر في كل جيل من الأجيال، يحملونه ويحفظونه في صدورهم، ويدوِّنونه في المصاحف، محفوظ بحفظ الله عز وجل، هذا لا يمكن أن يكون في كلام إلا إذا كان كلام الله القدير العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

۞**الدليل الثالث**: أن هذا الكتاب سالم من وقوع خطأ أو نقص أو تناقض أو اختلاف، مهما دق، كتاب عظيم فيه هذا العدد من الصفحات والسور والآيات، ومع ذلك فما استطاع أحد مع كثرة أعداء المسلمين ومع كثرة المتربصين، فإنهم ما استطاعوا أن يثبتوا على هذا القرآن خطًا واحدًا، ولا معلومة ناقصة، ولا شيئًا من التعارض والتناقض والاختلاف، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، لكنه من عند الله، إذن لا اختلاف فيه ولا تناقض.

كتابٌ متشابه يشبه بعضه بعضًا ويصدق بعضه بعضًا.

إذن: هذا كتاب من عند الله عز وجل حقًا، ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

۞**الدليل الرابع**: أن هذا الكتاب العظيم اشتمل على جملة من الآيات الكونية والنفسية، أو ما يسمى في اللسان المعاصر بالإعجاز العلمي العظيم، وابتداءً أنبه إلى أن القرآن ما نزل ليكون كتاب كيمياء أو فيزياء أو كتاب فَلَك أو كتاب تشريح، إنما هو كتاب هداية وكتاب صلاح وإصلاح، ومع ذلك فإنه قد اشتمل على جملة من البراهين والآيات التي ترشد العقول والقلوب إلى أنه كلام الله عز وجل حقًا، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

هذا القرآنُ العظيم اشتمل على جملة من الأمور التي ما عرفها الناس إلا منذ سنوات قليلة، لا أقول منذ قرون قليلة، بل منذ سنوات قليلة، أخبر بذلك هذا القرآن الذي بلَّغه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام، سبحان

الله العظيم! فمن أين كان ذلك إلا إذا كان هذا كتابًا مُنْزَلًا من العليم القدير سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ما الذي أعلم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأن هناك أمواجًا عاتية في باطن البحر، ﴿ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ [النور:٤٠]، من الذي أعلم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بذلك؟ وهذا شيء يفاخر علماء البحار والمختصون بهذا الجانب في هذه السنوات الأخيرة أنهم وصلوا إليه، والقرآن يحدثنا بذلك منذ قرون طويلة.

من أين للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يعلم الأطوار التي يُخلَقُ فيها الإنسان، ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٤]، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ خلق ابن آدم في أطوار، ينتقل من طَور إلى طَور، ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ [الزمر:٦]، هذا شيء ما عرفته البشرية إلا في هذا العصر الحديث، من أين علم هذا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب؟

من أين علم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن الرياح لواقح؟ من أين علم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأن هناك برزخًا دقيقًا بين البحرين؟ ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:٢٠] وهو شيء ما اكتُشف إلا في هذا العصر الحديث.

من أين لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يعلم أن صعود الإنسان إلى الطبقات العليا يعني أن يَقِل الأوكسجين فيضيق الصدر لقلة الأوكسجين الذي يتنفسه الإنسان؟ من أين علم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو الذي بلغنا ما يدل على هذا المعنى حينما أخبر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بذلك: ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام:١٢٥].

من أين لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يعلم أن هذا الكون يتوسع؟ هذه السماء في توسع مستمر، وهذا ما يحدثنا عنه العلم الحديث، وفي كتاب الله عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]، كونٌ يتوسع، كيف علم هذا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ذلك العصر البعيد، حيث لا تليسكوبات ولا مناظير ولا مكوك فضائي يصعد فينظر ويرصد، لم يكن شيء من ذلك، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يخبرنا بهذا في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

إذن: هذه جملة، والمتتبع يجد أكثر منها في كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تدل العقول المنصفة على أن هذا القرآن كلام الله عز وجل حقًا.

❁ **الدليل الخامس:** إخبار هذا القرآن بالأمور المغيبة المستقبلَة، وهذا برهان لا يجد العقل أمامه إلا أن ينصاع إلى أن الذي تكلم به هو الله العليم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

خذ مثلًا: النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بلَّغ الناس كلام الله عز وجل وفيه ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم:١-٤]. تأمل -أولًا- كيف أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تكلم بهذا وبلغ الأمة هذا مع أن هذا القرآن دليل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الأعظم على نبوته، وبالتالي لو ثبت أن هذه الغلبة ما كانت في بضع سنين فإن هذا كافٍ في إسقاط دعوة الإسلام، ولذا لو كان هذا القرآن من عند غير الله، شيئًا تقوَّله رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -وحاشاه- والله ما كان ليغامر بإسقاط دعوته، لكن لما بلَّغ الناس هذا وأخبرهم

بهـذا، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قـال بحـدوث الغلبـة في بضـع سـنين؛ تكلـم النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهذا ثم كان ما أخبر به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في هذا القرآن.

إذن: الدلالة هاهنا من وجهين:

❁ **أولًا**: في مجرد كون النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُبَلِّغُ هذا الكلام ابتداءً.

❁ **والوجه الثاني**: من جهة أنَّه قد حَدَثَ الذي أخبر به عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

خـذ مثلًا: النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قـد بلَّـغ كـلام ربـه جـل وعـلا وفيـه مـا قـال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في شـأن بنـي قينقـاع: ﴿قُـلْ لِلَّـذِينَ كَفَـرُوا سَـتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران:١٢]، وقد وقع الذي أخبر به القرآن، غُلِبوا وهلكوا ومصيرهم إلى النار، تكلم بهذا قبل وقوعه فكان ما أخبر به.

يخـبر القـرآن أهـل الإيـمان مـن أصـحاب رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بـأنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين، وكان ما أخبر به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، دخلوا المسجد الحرام آمنين محلِّقين رءوسهم ومقصرين. في جملة من الأخبار المستقبلة التي لم تقع وأخبر القرآن أنها ستقع فوقعت كما أخبر.

ما كان هذا القرآن أن يُفترى من غير الله، بل هذا كلام الله حقًا.

❁ بل خذ دليلًا قريبًا من هذا -وهو **الـدليل السـادس**- وهو أن القرآن يخبر بأشياء أنها لـن تقع في المستقبل، الـدليل المـاضي فيه أشياء أنها ستقع، الآن يخبر القـرآن بـأن هنـاك أشـياء لـن تقـع، مـع أنـه مـن جهـة الإمكـان العقـلي ومـن جهـة الاستطاعة من حيث الخبر الـذي توجه إلى هـؤلاء فإنـه باستطاعتهم، ومـع ذلـك

يخبر القرآن أنه لن يكون منهم ذلك، والله إن هذا لكافٍ في إثبات أن هذا القرآن كلام الله.

تأمل، أخبر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بخبر في حق أبي لهب عم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد:١-٣].

هذه الآية: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد:٣] وما قبلها نزلت قبل وفاة أبي لهب بعدة سنوات، مفاد هذه الآية: أن أبا لهب كافر وسيبقى كافرًا، ولن يسلم إلى أن يموت فيصلى بعد ذلك نارًا ذات لهب.

كون النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يخبر بهذا هذا لابد قطعًا أن يكون كلام الله، لم؟ لأنه لو كان من عند النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فلا يمكن أن يغامر هذه المغامرة، لأنه أبو لهب كان يكره النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ويكره دينه، ولذلك كان حريصًا على سقوط دعوته، فكان بإمكان أبي لهب أن يقف على مجامع الناس ويقول: محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: إني سأموت كافرًا وأصلى نارًا ذات لهب، وها أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله، يمكنه أن يقول هذا ولو كاذبًا فتسقط دعوة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالكلية، ومع ذلك ما فعل؛ لأنَّ الذي تكلم بهذا هو الذي يعلم ما سيكون، ولأن الذي تكلم بهذا هو الذي قلب أبي لهب بين أصبعين من أصابعه يقلِّبه كيف يشاء.

وقل مثل هذا في الوليد بن المغيرة الذي قال الله عز وجل في حقه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۞ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ [المدثر:١١-١٢]، ثم قال بعد ذلك:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:٢٦]، ما مفاد هذا؟ أنه سيموت كافرًا، ومع ذلك كان باستطاعته أن يكذب هذا القرآن لو كان هذا من عند غير الله فيقول: هاهنا أسلمت، ماذا ستقول؟ لكنه ما فعل.

إذن: هذه آية عجيبة.

خذ مثلًا في شأن اليهود، الله عز وجل أخبر عنهم في شأن محبتهم للحياة الدنيا وكراهتهم للموت ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾ [البقرة:٩٥] يعني: الموت ﴿أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:٩٥]، لو أنَّ يهوديًا واحدًا وقف على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: ها أنا أتمنى الموت، انتهت الدعوة الإسلامية؛ لأنَّ هذا تكذيب للقرآن، القرآن يقول: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة:٩٥] ومع ذلك أُخرسوا جميعًا، وما تجرأ أحد أن يقول هذه الكلمة ولو على سبيل الكذب.

إذن: الذي أنزل هذا القرآن هو الله العليم القدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❁**الدليل السابع** على أن هذا القرآن كلام الله عز وجل حقًا: هو سموُّ تشريعاته وكمال أحكامه، وشمولها لكل مناحي الحياة، عجيب شأن هذا القرآن! ليس فقط أنه يجد فيه كل أحد بغيته ويقف فيه على ما يبهره، كل أحد يمكنه أن يغرف من معين هذا القرآن علومًا عجيبة، يجد فيه الطبيب شيئًا مُبْهِرًا، يجد فيه اللغوي شيئًا عجيبًا، يجد فيه الأديب، يجد فيه المتخصص في أمور النفس والاجتماع وإلى آخره.

ليس هذا فقط، بل الموضوعات التي عالجها القرآن، المسائل التي دعا إليها، الأحكام التي قررها، التوجيهات التي وجهها شيء عجيب، شيء شامل لكل

شيء، العلاقات الدولية، علاقة الحاكم بالمحكوم، أحكام الأسرة من زواج وطلاق وحضانة ونفقة وما إلى ذلك، الحدود، مسائل السِّلم والحرب، مباحث المعاملات وحدِّث ولا حرج، ناهيك عما يتعلق بالعقيدة، ناهيك عما يتعلق بالعبادة، ناهيك عما يتعلق بالآداب، إلى أدق ما يكون من الآداب، حتى الوقت الذي لابد فيه من الاستئذان ما أغفله القرآن.

علوم عجيبة وأحكام سامية شاملة لكل مناحي الحياة، ليس هذا فقط، بل إنها جميعًا تحقق المصالح وتدرأ المفاسد، وتحفظ الضروريات، وتكفل السعادة للأفراد وللمجتمعات، كتاب عجيب.

ولذلك الوليد بن المغيرة لما -وهو الذي تكلمنا عنه قبل قليل- سمع قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل:٩٠] أصابته دهشة عظيمة من بلاغة هذا القرآن، فقال كلمة سارت بها الركبان، بل تناقلتها الأجيال، وصف هذا القرآن بوصف عجيب، كلمة حق نطق بها هذا الضال الكافر، قال: (إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه يحطم ما تحته، وإنه يعلو ولا يُعلى).

كلام عجيب في وصف هذا القرآن، وهذا الرجل لما يتكلم وهو من الفصحاء البلغاء العقلاء فكلامه أصاب فيه عين الحقيقة، لكن سبحان الله العظيم الذي طمس على قلبه، مع معرفته بهذا ومع إقراره بذلك فإنَّه ما اهتدى إلى الحق، رجع فقال: ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر:٢٤].

المقصود: أن ما تضمنه القرآن، ما اشتملت عليه آياته كافٍ لأن يُذعن كل منصف بأن هذا القرآن تكلم الله عز وجل به حقًا، لا يمكن أن يكون شخص مهما بلغ من الذكاء والعلم والفصاحة أن يأتي بمثل هذا القرآن، اليوم الناس إذا ارادت أن تضع نظامًا من الأنظمة يتعلق في جزئية من الجزئيات، إذا أرادوا أن ينظموا شيئًا من مناحي الحياة ماذا يصنعون؟ يشكلون لجنة من كبار الشخصيات وحملة الشهادات والخبراء، واللجنة يتبعها لجنة وبعد ذلك لجنة فاحصة، وبالكاد يخرجوا بنظام ينظم شيئًا ما، ومع ذلك فإن هذا النظام ربما عادوا إليه بعد سنوات يعيدون فيه النظر ويجدون فيه ثغرات، لكن القرآن نظام شامل لكل ما يسعد الأفراد والمجتمعات، بل يكفل الخير لهذا الكون كله، ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء:١١٢]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام:١١٥]، لا يحتاج الناس بعده إلى شيء، إذا ضم الإنسان إليه سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه والله بعده لا يحتاج إلى شيء في كل شيء من مناحي الحياة، هذا الكتاب جمع بين دفتيه ما يسعد الإنسان في الدنيا وفي الأخرى، في دنياه وفي دينه.

۞ أيضًا من الدلائل والبراهين على أن هذا القرآن كلام الله حقًا -وهو **الدليل الثامن**- أن هذا القرآن موافق للعقول والفِطَر، ولذا ما سمعه أو سمع آياته أحد وعَقِل ذلك إلا وسلَّم بأن هذا الذي تُلِي عليه معقول ومقبول، لا يمكن أن يأتي القرآن بأمر فيقول العقل: ليته ما أمر به، ولا يمكن أن ينهى عن شيء فيقول العقل: ليته ما نهى عنه، وهذا من أعظم الدلائل والبراهين على أنه كلام الله عز وجل، لأن الله هو الذي تكلم بهذا الكلام، وهو الذي خلق الخلق، وهو الذي

أعطاهم هذه العقول، فكانت هناك ملاءمة بين ما تكلم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به في هذا القرآن وبين ما تقبله العقول وتسلِّم به الفطر.

إذن: الذي يؤمن بهذا القرآن يجد في قلبه طمأنينة وراحة وسكينة، ليس هناك شيء معقَّد أو صعب الفهم، أو تنبو عنه الأفهام، أو تنفر منه الفِطَر، ليس هناك شيء من الأشياء التي في الكتب المحرَّفة التي تُزعم بأن كل ما فيها كلام الله عز وجل، وبالتالي اشتملت على أشياء كثيرة لا تقبلها الفِطَر ولا تسلم بها العقول، ويحتاج أربابها أن يركبوا الصعب والذلول لأجل تأويلها وتحريفها وصرفها عن ظاهرها، لا يُحتاج إلى شيء من ذلك في كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كله موافق للعقول والفِطَر، تطمئن إليه وتسكن إليه وتقبل ما فيه.

❁ **الدليل التاسع** على أنَّ هذا القرآن كلام الله حقًا: تأثيره العجيب على النفوس، القرآن له سلطان وأيُّ سلطان على القلوب، يؤثر فيها تأثيرًا عجيبًا، ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]، ليس على القلوب قلوب الناس الضعيفة، بل والله لو نزل على جبل كله صخر وثابت راسخ ومع ذلك فإنه يتصدع لهذا الكلام العظيم، ولذلك يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣]، ولذلك لا يسمع أحدٌ بهذا القرآن وهو ينصت إليه ويفرِّغ قلبه له إلا ويجد في نفسه أثرًا عظيمًا لهذا القرآن، هو حقًا يهدي للتي هي أقوم، بشرى للمسلمين، يصلح القلوب ويهذب الأخلاق ويزكي النفوس، بل والله إن تأثير هذا القرآن يقع حتى على

الكفار الذين ما آمنوا به بعد، وهذا شيء وقفنا عليه حقيقة وسمعنا أخبارًا من الناس في هذا، يجدون راحة طمأنينة أن يسمعوا هذا القرآن حتى ولو كانوا لا يفهمون منه شيئًا، ولن تجد أبدًا كلامًا لبشر له مثل هذا التأثير.

ولذلك من خصائص هذا القرآن: أنه لا يَخْلَق مع كثرة الرد، كم مرة يختم المسلم القرآن؟ يختمه مرات كثيرة، إذا كان على صلة به وإذا كان قائمًا بحقه فإنه يختمه مرات كثيرة، ومع ذلك هل يجد في نفسه أنه قد مَلَّ منه؟ وإلا كأنَّه يقرؤه أول مرة؟ كم مرة -يا رعاك الله- قرأت سورة تقرؤها كثيرًا في صلاتك وفي خارج صلاتك ثم إذا بك تقف أمام آية في هذه السورة تقول: عجيب معنى هذه الآية، كأني أسمعها أول مرة، مع أنك تلوتها كثيرًا، ومع ذلك تجد أن آثار هذا القرآن تتجدد في النفوس، سبحان الله العظيم!

أرأيتم لو أنَّ أبلغ البلغاء وأعظم الأدباء كتب قصة جميلة بلغت الغاية في الجمال، ثم قرأتها المرة الأولى كيف شعورك؟ تشعر بجمالها ولذة في نفسك، وإذا قرأتها مرة ثانية كيف تجد في نفسك؟ وإذا قرأتها الثالثة والرابعة والخامسة إلى العاشرة كيف سيكون الوضع؟ سيبلغ الملل بك حدًا، يعني: أكثر من مرة مرتين خلاص تملها، صعب إنَّك ترجع تقرأها مهما كانت جميلة، لكن كلام الله عز وجل أسألكم بالله هل تجدون شيئًا من الملل حينما تقرؤونه؟ بل في كل مرة والله كأنك تقرؤه أول مرة، وتقف فيه على نكات ولطائف وأشياء عجيبة، تشتهي أن تتأمله وتكتشف من ما فيه من كنوز العلم والإيمان كلما قرأته. وهذا برهان على أنه كلام الله عز وجل، تأثيره تأثير عجيب.

۞ أيضًا من الدلائل والبراهين -وهو **الدليل العاشر**- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسر هذا القرآن للذكر، جعله شيئًا ميسرًا، ولذلك من عجيب شأن هذا القرآن أن الذي يقبل عليه ونفسه خاشعة مريدة للحق فإنه ينفتح باب الخير أمامه الذي يَرِده منه، كتابٌ إذا أقبل عليه الإنسان بصدق فإنه يصبح شيئًا سهلًا جدًا.

ولذلك من دقيق ما يتعلق بالقرآن أنكم تعلمون وأنا أعلم أن من الناس مَن يستطيع أن يقرأ القرآن، ولكن إذا أعطيته أيَّ كتاب فإنه لا يستطيع أن يقرأه، وُجِد أناس من الأعاجم ليسوا من العرب لا يعرفون أن يقرؤوا، لكنهم مع ذلك يقرؤون القرآن، أليس هذا عجيبًا؟ القرآن مكتوب بحروف عربية، ولا يفرق من حيث كونه مكتوبًا بهذه الحروف عن الكتب الأخرى، لكن تجد أن مِن الناس مَن يستطيع أن يقرأ القرآن ولا يستطيع أن يقرأ غيره، نجد من النساء والشيوخ يعني: من العجائز أو الشيوخ من هو أو هي أمِّي أو أميَّة ما يقرؤون، لكن مع ذلك يسهل عليهم أن يتعلموا القرآن ويقرؤوه، لكن تأتيه بصحيفة أو كتاب يقف عاجزًا ما يستطيع، يقول: أنا لا أقرأ. القرآن شيء خاص.

تجد أن قراءته شيء عجيب، مميزة في كل العالم، كل المسلمين قراءتهم للقرآن شيء وقراءتهم لغيره شيء آخر.

إذن: هذا دليل على أن الذي أنزله قد يسَّره، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

إذن: هذه جملة من الآيات والبراهين التي تدل على أن هذا القرآن كلام الله عز وجل حقًا، والقرآن حينما نتكلم عن إعجازه، نتكلم عن عظمته، فإننا نتكلم

عن بحر لا ساحل له، كل كلمة، كل آية، كل حرف من هذا القرآن فيه إعجاز عجيب، ألفاظه معجزة، معانيه معجزة، نظمه معجز، آياته معجزة، أحكامه معجزة، عقائده معجزة، أخلاقه معجزة، إخباره بالمغيبات.. إلى آخره، كل شيء فيه معجِز، قراءاته معجزة، عجيب أن يُقرأ أو أن تُقرأ الآية الواحدة على وجهين أو ثلاثة أوجه أو أربعة أوجه وكلها حق، وكل وجه يدل على معنىً جديد وعظيم، وينفتح فيه باب من أبواب العلم وهو كلام واحد، ولكنه يُقرأ بقراءات متعددة، أيُّ كلام من كلام البشر حاله كحال هذا القرآن؟ لا شك ولا ريب أنه لا كان ولا يكون.

إذن: هذا كلام الله حقًا وصدقًا.

أنا ركزت وأركز على هذا الموضوع لأنَّ هذا الزمان الذي نعيش فيه -وقد ذكرت هذا في الدرس الماضي- قد كثرت فيه الشُّبَه التي تصطاد الأغمار وضعاف العلم من خلال وسائل متعددة ومنتشرة في هذا الزمان، تشككهم في كتاب ربهم، في نبوة نبيهم، بل في وجود ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبالتالي فنحن بحاجة ماسة إلى أن نتذاكر ونتواصى بمثل هذه المسائل والموضوعات، الدلائل والبراهين على أن هذا القرآن كلام الله، على صدق نبوة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، شمائل النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وجليل أخلاقه، مثل هذه الموضوعات نحن بحاجة إلى أن نتذاكر فيها، وإلى أن نذكر بها، لا سيما الجيل الصاعد -كما يقال- والشباب والناشئة، هؤلاء بحاجة إلى أن يُذكَّروا بمثل هذا القرآن، وأن يعتنوا به، وأن يعتنوا

بكل ما يتعلق بنبينا صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من حيث سيرته وأحكامه وسنته ودلائل نبوته، هم بحاجة ماسة إلى هذا.

كثير من الناس هجروا القرآن لأنهم ما عرفوا عظمته ولا قدره العلي، اتخذوه مهجورًا، ولذلك إذا عرفنا قدره وقيمته فينبغي علينا أن نكب عليه، هذا كلام الله، هذا وحي من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذا كان القرآن بهذه المثابة فحري بكل مسلم آمن به أن يعتني به، ولذلك أعود فأقول: القرآن تنفتح أبواب ما فيه من العلم والإيمان لمن يقرؤه مريدًا للخير، وهذا -أيضًا- من أوجه إعجازه أنه كلام واحد، ومع ذلك فإنه يكون سببًا لهداية قوم وسببًا لتعاسة قوم، هذا شيء عجيب، أليس الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ [فصلت:٤٤] هذا قسم، ﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت:٤٤] سبحان الله العظيم! وهو كلام واحد، إذن: صدق الله ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت:٤١] من عزته أنه لا ينال ما فيه من الخير إلا من يأتيه وهو صاغر متواضع يريد الحق والخير، أما الذي يأتيه يمسكه بأطراف أصابعه وهو شامخ بأنفه، مستكبر عنه، معرض عنه؛ فإنه يزيده عمى، كتاب عزيز.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ ﴾ [النحل:١٠٤] الذي يقرأ هذا القرآن وهو لا يريد الهداية منه، ولا يؤمن بما فيه؛ هذا لا يهديه الله عز وجل، إنما الذي يأتيه مقبلًا عليه، محبًا له، متواضعًا، هذا الذي ينال ما فيه من ينابيع الخير والهدى والعلم والإيمان.

أسأل الله عز وجل أن يجعلني وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

استدل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه الجملة بقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢] القرآن نزل بالحق ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥]، ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ [يونس:٥٣] يأمر الله عز وجل نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يقسم بربه العظيم أنه حق.

إذن: القرآن حق لا ريب فيه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]، ﴿بِلِسَانٍ﴾ يعني: بلغة عربية مبينة، ﴿مُبِينٍ﴾ يعني: فصيح، بلغ الغاية في البلاغة وحُسْن النظم وجمال اللفظ، هذا كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعجز البلغاء وتحير أمامه الأدباء، وما استطاع أحد أن يجاري ما فيه من هذا اللسان العربي المبين.

❖ وهذه الجملة وهي قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] دليل على أن هذا القرآن يجب أن يُحمل على ظاهره، ولا يجوز العدول عن ظاهره إلا بدليل، فلا يمكن لأحد أن يدَّعي أن شيئًا فيه على غير ظاهره إلا إذا أقام الحجة على ذلك بآية أو حديث، لم؟ لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فواجب إذن أن يُجرى على ظاهره، هذه قاعدة مهمة من قواعد منهج التلقي والاستدلال عند أهل السنة والجماعة، لسنا بحاجة إلى أن نتكلف السبل الوعرة والحمل على الغريب

والوحشي. وضروب ما يُزعم من المجازات لأجل أن نحمل القرآن على خلاف ظاهره، بل هو على ظاهره؛ لأنه نزل بلسان عربي مبين.

❖ وفائدة ثانية -أيضًا- وهي: أن ظاهر هذا القرآن مفهوم للمتلقي، من كان من أهل اللسان يفهم لغة العرب فإن هذا القرآن سيكون مفهومًا له، وبالتالي لا يُقبل أن يُدَّعى أن شيئًا في هذا القرآن مجهول المعنى مطلقًا، بمعنى: لا يُقبل أن يقال إن في القرآن متشابهًا تشابهًا مطلقًا، بمعنى: أنه يُستغلق معناه ولا يمكن الوصول إلى إدراك ما فيه من المعنى، مستحيل، الله عز وجل إنما أنزل هذا القرآن لأجل أن يتدبره تاليه وسامعه، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص:٢٩]، كتاب جعله الله عز وجل بلسان عربي مبين.

إذن: من الواجب أن نقول ونعتقد أن هذا القرآن كل كلمة فيه فإنه يمكن الوصول إلى فهم معناها، ربما يكون هناك نقص في علم الإنسان فيجهل ما دلت عليه هذه الكلمة أو هذه الآية، لكنه لو بحث وسأل فإنه سيصل إلى ما استغلق عليه فهمه.

وهذه القاعدة لها أثر في مسائل عقدية يحتاج أن يعرفها طلاب العلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن الله عز وجل عَلِيٌّ علىٰ خلقه بذاته وصفاته، لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى:٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨].

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن بيَّن معتقد أهل السنة والجماعة في صفة الكلام لله عز وجل؛ انتقل إلى بيان صفة العلو للعلي العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ونؤمنُ بأن الله عز وجل عَلِيٌّ على خلقه بذاته وصفاته).

أطبق المسلمون جميعًا على إثباتِ صفة العلو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلا شرذمة من الذين انحرفوا عن جادة الحق من أهل البدع والضلال، فلم يثبتوا لله عز وجل صفة العلو، أمَّا المسلمون المستقيمون على جادة الكتاب والسنة بل الرسل جميعًا وأتباعهم عليهم الصلاة والسلام كلهم مطبقون على إثبات صفة العلو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وصفة العلو ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها تنقسم إلى قسمين:

- علو ذات.
- وعلو صفات.

المراد بعلو الصفات: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صفاته أعلى وأشرف وأعظم من صفات المخلوقين، فأعظم الصفات وأرفعها وأحسنها: صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأما علو الذات فالمراد به أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو في ذاته عالٍ على جميع خلقه، فهو في العلو المطلق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو فوق كل شيء، وكل شيء فهو دون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ومن أهل العلم من يجعل العلو ثلاثة أقسام، وعلى هذا أكثر أهل العلم، وذلك ما بيَّنه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في النونية حينما قال:

وله العلو من الجهات جميعها ... ذاتًا وقهرًا مع علو الشان

فهذه هي الأنواع الثلاثة:

۞ علو الذات.

۞ وعلو القَدْر، فقَدْر الله عَلِيٌّ عظيم،

۞ وكذلك علو القهر، فالله قاهر جميع الخلق، العلو يأتي بمعنى القهر كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون:٩١] يعني: قهر بعضهم بعضًا، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له علو القَدْر، وله علو القهر، وله علو الذات.

أما علو الصفات أو علو القَدْر وعلو القَهْر فهذا مما لم يحصل فيه نزاع بين أهل السنة وأهل البدعة، الكل متفق على ذلك، اللَّهم إلا الممثلة المشبهة فإنهم بتشبيههم صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بصفات المخلوقين فإنهم يكونون بهذا قد وقع منهم نقص عظيم في إثبات علو صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إنما الخلاف العظيم الذي حصل بين أهل السنة وأهل البدعة في إثبات علو الذات لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فأهل البدع نفوا صفة العلو لله عز وجل، **وانقسموا إلى فريقين:**

۞ **فريق يقول**: إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في كل مكان، حالٌّ في خلقه، مع خلقه بذاته، هو عندهم في كل مكان، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا!

۞ **والفريق الثاني يقول**: إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا داخل العالم ولا خارجه، ولا فوق ولا تحت، ولا عن يمين ولا عن شمال، إلى آخر ما يذكرون.

وهذا الشيء الذي ذكروا أحسن ما يمكن أن يوصف به العدم، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا!

إذن: الحق الذي لا شك فيه أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عالٍ على خلقه، وهذا الذي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يؤمن به، **فإنه قد اجتمع على إثباته أدلة الكتاب وأدلة السنة ودليل الإجماع ودليل العقل ودليل الفطرة**، هذه أنواع الأدلة التي يندرج تحت بعض هذه الأنواع أفراد من الأدلة لا تكاد تحصى.

هل تعلم -يا رعاك الله- أن عددًا من أهل العلم قد نصوا على أن علو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد دل عليه نحو ألف دليل من الكتاب والسنة، وبعض أهل العلم يقول: إن الأدلة تبلغ ألفي دليل، قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ:

يا قومنا والله إن لقولنا ... ألفًا يدل عليه بل ألفان

عقلًا ونقلًا مع صريح الفطرة الأ ... ولى وذوق حلاوة القرآن

كل يدل بأنه سبحانه ... فوق السماء مباين الأكوان

أترون أنا تاركون ذا كله ... لجعاجع التعطيل والهذيان

وأدلة الكتاب والسنة تتنوع إلى أنواع كثيرة، لو تأملها الإنسان لوجدها دالة دلالة قطعية على ثبوت علو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:

◉ فالله سمى نفسه بالعلي، وأخبر عن نفسه بأنه الأعلى، وسمى نفسه بالمتعال، فهو العلي والأعلى والمتعال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

◉ كذلك أخبر عن نفسه أنه في السماء: ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾ [الملك:١٦]، وفي «صحيح مسلم» لما سأل النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك الجارية: «**أين الله؟**» قالت: «**في السماء**». فقال النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعتقها فإنَّها مؤمنة**». **والمقصود بكونه في السماء** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **يعني**:

❖ في العلو المطلق فوق كل شيء، فوق السماوات السبع، وفوق الجنة وفوق العرش سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❖ أو يكون المراد بقوله: (في السماء) يعني: على السماء، فإن (في) تأتي بمعنى (على) وشواهد هذا في اللغة كثيرة.

◉ كذلك دلت الأدلة على أن الأشياء تعرج إليه وتصعد إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما دلت الأدلة على أن هناك ما ينزل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كالوحي، تنزيل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

◉ ومن تلك الأدلة -أيضًا- ما دلت عليه الأدلة من ثبوت الفوقية لله عز وجل، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠] في جملة من الأدلة التي تدل على إثبات علو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن: هذا شيء قطعي لا شك فيه ولا لبس، ولا يتنابه أدنى ريب، وليس هناك أدنى شك في دلالة هذه الأدلة على ثبوت علو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه فوق كل شيء تبارك وتعالى، وهذا هو الكمال، وهذه هي العظمة.

۞ **أيضًا دل على ثبوت علو الله** سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: **الإجماع**، فأصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والتابعون وأتباعهم وأئمة الهدى مطبقون مجمعون على إثبات علو الله عز وجل، أخرج البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات» بإسناد صحيح عن الإمام الأوزاعي -إمام أهل الشام المتوفى سنة سبع وخمسين ومائة- أنه قال -عليه رحمة الله-: «كنَّا والتابعون متوافرون نقول: إنَّ الله تعالى ذِكْره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته».

فهذا نقل واحد من نُقُول كثيرة تدل على إجماع أهل السنة والجماعة أهل الحق أهل الاتباع على علو الله عز وجل فوق كل شيء.

۞ الدليل الرابع: **دليل العقل**، فالعقل يدل على ثبوت علو الله عز وجل، لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إما أن يكون موجودًا أو هو معدوم، تعالى الله عن كونه معدومًا، بل وجوده أعظم الوجود سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإذا كان موجودًا فهو إما أن يكون داخل هذا العالم المخلوق أو خارجه، وتعالى الله العلي الواسع الكبير العظيم عن أن يكون في جوف شيء من خلقه، بل هو قطعًا أكبر من ذلك وأعظم، فهو خارج عن هذا العالم المخلوق.

وإذا كان خارجًا عن هذا العالم المخلوق فهو إما أن يكون أسفل منه، أو أن يكون أعلى منه، ومعلوم عند العقلاء أن العلو أشرف من السفل، وأن السفل أدنى من العلو منزلة وقدرًا، ومعلوم عند جميع المسلمين أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إنما يوصف بالكمال والعظمة، ويُنَزَّه عن كل ما لا يليق بكماله تبارك وتعالى.

إذن: ثبت أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لابد أن يكون في العلو.

۞ أما **الفطـرة** فذلك الدليل القوي الغالب الذي يُواجَه به كل من يزعم إنكار علو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فطرته هو ذاك المنكر تغلبه وتثبت له أنه يغالط الحق بلا شك، فالنفوس جميعًا نفوس البشر جميعًا، بل حتى الحيوانات مفطورة على أن ربها وخالقها وإلهها ومعبودها فوق لا تحت ، ولذلك ماذا يصنع كل المسلمين إذا دعوا الله عز وجل؟ ماذا يصنعون؟ أليسوا يرفعون أيديهم إلى السماء؟ ربما يكون كثير منهم ما تعلموا شيئًا من كتب الاعتقاد ولا قرؤوا شيئًا من كتب السنة التي تدل على إثبات علو الله عز وجل، وربما -أيضًا- يكونون أعاجم يقرءون القرآن لكن لا يفهمون معانيه، ومع ذلك فإنهم جميعًا يرفعون أيديهم إلى السماء إذا دعوا الله عز وجل.

بل إنَّ الكفار -أيضًا- الذين يثبتون وجود الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فطرتهم تدلهم على أنَّ ربهم عالٍ على كل شيء، وقد رأيت هذا بعيني مع بعض الكفار الوثنيين، فإني التقيت بمجموعة من هؤلاء الوثنيين في ديار نائية، هؤلاء ما تديَّنوا بالإسلام بل ما سمعوا بالإسلام، ولا قرؤوا شيئًا من كتب العقيدة، لا عقيدة أهل السنة والجماعة ولا الواسطية ولا شيء من هذه الكتب، إنما هم وثنيون يعبدون أشياء يتوجهون لها بالعبادة، فسألتهم وقلت لهم: إذا تأخر عليكم نزول المطر ماذا تصنعون؟ والله إنهم رفعوا أيديهم إلى فوق وقالوا: ندعوا الإله الذي في السماء، ما الذي علمهم ذلك؟ لا شك أنها الفطرة، إنها فطرة الله عز وجل التي فطر الناس عليها.

إذن: هذا هو الحق الذي لا شك فيه، ومن غالط ذلك فنفسه تخبره -إن أنصف- أنه مخطئ في ذلك أشد الخطأ.

وثمة قصة مشهورة معروفة لا بأس بإيرادها تدل على أن النفوس مفطورة على إثبات علو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأنه فوق كل شيء.

فذلكم ما أخرج الذهبي رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابه «العلو»، وغيره من أهل العلم -أيضًا- بإسناد صحيح مسلسل بالحفاظ: أن أحد الذين كانوا ينكرون علو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ واسمه أبو المعالي الجويني، كان يقرر نفي علو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بشقشقة من الكلام، فكان حاضرًا في هذا المجلس أحد علماء المسلمين وهو أبو جعفر الهمداني، فقال له: يا أستاذ، دعنا من هذا وأخبرنا: هل تجد عندك للضرورات من حل؟ فقال: إلى أي شيء ترمي بهذه الإشارة؟ وماذا تريد بهذا الكلام؟ فقال له: هل عندك للضرورة من جواب؟ فإنه ما قال عارف قط يا الله إلا ووجد في نفسه شيئًا يدعوه إلى جهة العلو قبل أن ينطق بلسانه، فهل عندك حلٌّ لهذا فنستريح من فوق ومن تحت؟ يقول الراوي عن أبي جعفر الهمداني: فبكيت وبكى الناس، فما كان من هذا الذي كان يقرر نفي علو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إلا أن أجاب بقوله: يا حبيبي الحيرة الحيرة، والدهشة الدهشة! ثم إنه بعد ذلك -كما يقول أبو جعفر الهمداني- قال: أخبرني بعض أصحابه أنه قال: حيرني الهمداني.

نعم، حُقَّ له أن يتحير، فإنه يقول بلسانه ما تكذِّبه فطرته، ولا يمكن له أن يغالب الفطرة التي فطر الله الناس عليها دائمًا، أن يكون دائمًا مغالبًا لفطرته لابد أن تغلبه فطرته في وقت من الأوقات.

المقصود: أن إثبات علو الله عز وجل هذا هو الحق الذي لا يجوز لأحد أن ينطق بغيره، أو أن يعتقد سواه.

إذن: أولئك الذين يقولون: إن الله في كل مكان مخطئون خطًا فادحًا، قولهم هذا يكذِّب الكتاب ويكذِّب السنة، ويكذب آثار الصحابة والتابعين وأتباعهم وأئمة المسلمين وإجماعهم، لا شك في ذلك ولا ريب، لا يجوز لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر إلا أن يعتقد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالٍ فوق كل شيء.

هذا أشرف الخلق محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أعظم مجامع المسلمين، وذلك في يوم عرفة في خطبة عرفة سأل أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إنكم مسؤولون عني فماذا أنتم مجيبون؟**» قالوا: نشهد أنك بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة. فما كان من النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلا أن رفع إصبعه الشريفة إلى السماء فقال: «**اللهم فاشهد**» ينكتها عليهم، «**اللهم فاشهد**»، فعل هذا أعلم الخلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهل يجوز لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر بعد ذلك أن يخالف هذا الحق المبين؟ لا شك أنه لا يجوز.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى:٤]) اسم الله (العلي) دال على ثبوت صفة العلو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقلنا -أيضًا-: الله هو الأعلى، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى:١].

كذلك هو المتعالي جل وعلا، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨])، الفوقية كالعلو، **فوقية الله عز وجل:**

- فوقية صفات.
- وفوقية ذات.

فيقال في الفوقية ما قيل في العلو، أدلة الفوقية هي هي أدلة العلو أو تدل على ما دلت عليه أدلة العلو.

ومن عجيب حال أهل البدع أنهم لما استُدل عليهم بهذه الآية على إثبات علو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قالوا: إن المراد بقوله: ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام:١٨] يعني: (أنه خير من عباده). يا لله العجب!

ألـم تـر أن السـيف يـنقص قـدره   إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ما رأيكم؟ هل تجدون بليغًا يقول قط: إنَّ الذهب أفضل من قشر البصل؟ ويش رأيكم بهذا الكلام؟ أولًا هو صدق وإلا كذب؟ الذهب أشرف من قشر البصل، كلام صدق، لكن هذا كلام بليغ وإلا هذا فيه إنزال من قَدْر الذهب أن

يقال: الذهب أفضل من قشر البصل، هل الأمر يحتاج إلى أن يُنبه على هذا؟ هذا إنزال من قَدْر الذهب.

فهل الله عز وجل أراد أن يخبرنا هنا أنَّ قَدْره أرفع من قدر عباده؟ وهل ثمة مقارنة أصلًا؟

ثم إننا نقول: سلمنا جدلًا بصحة هذا، فماذا أنتم قائلون في قوله تعالى عن الملائكة عليهم السلام: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠] **وقد عُلِم في لغة العرب التي نزل بها القرآن أن (مِنْ) إذا دخلت أو سبقت فوق فإنه لا يُراد بالفوقية هاهنا إلا فوقية الذات**، (مِن) إذا سبقت كلمة (فوق) إذا قيل: هذا من فوق هذا، إذن ما المراد؟ فوقية القَدْر؟ لا، المراد فوقية الذات.

إذن: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فوق كل شيء جل ربنا وعز.

وأما أسماؤه الجليلة العظيمة -وهي العظيم والحكيم والخبير- فهذه قد مضى الكلام فيها في دروس ماضية.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوىٰ علىٰ العرش يدبر الأمر، واستواؤه علىٰ العرش: عُلُّوه بذاته عليه علوًا خاصًا يليق بجلاله وعظمته، لا يعلم كيفيته إلا هو.

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن تكلم عن صفة العلو إلى إثبات صفة استوائه على العرش: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الفرقان:٥٩] في سبعة مواضع في كتاب الله عز وجل أثبت الله عز وجل استواءه على العرش في سبعة مواضع، هذا الذي أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحدها وهو في سورة يونس، وكذلك في ستة مواضع سوى هذا.

أعراف يونس رعد ثم في طه　　فرقان سجدة والحديد بها استوى

هذه سبعة مواضع كرر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ استواءه جل وعلا على عرشه.

ولغة العرب جاء فيها أن استوى على بمعنى: علا وارتفع على شيء، ولذا يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن سفينة نوح: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود:٤٤]، قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف:١٢-١٣]. قال سبحانه: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨] في هذه المواضع وفي غيرها مما يشبهها في الصيغة.

على أيِّ شيء يدل قوله: (استوى على)؟ يعني: علا وارتفع، **ولذلك فسر السلف رحمهم الله بالإجماع استواءه على العرش بـ(علا وارتفع)** أو ما قارب

هذا من التفسيرات، جمهور السلف تدور تفسيراتهم لاستواء الله عز وجل على العرش على أربعة تفسيرات، جمعها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله:

فلهم عبارات عليها أربع قد حصلت للفارس الطعان

وهي استقر وقد علا وكذلك ار تفع الذي ما فيه من نكران

وكذاك قد صعد الذي هو رابعٌ

إذن: هذه أربعة تفسيرات، ما هي؟ استقر، علا، ارتفع، صعد. هذه أربعة تفسيرات متقاربة المعنى كلها تدور على معنىً قريب، وهو أنه عالٍ على العرش مرتفع عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأهل العلم يقررون ثبوت استواء الله عز وجل على العرش، لكنهم لا يخوضون في كيفية استواء الله عز وجل على العرش، ونستفيد من هذا قاعدة مهمة عند أهل السنة وهي: **أن إثبات الصفات عند أهل السنة إثبات وجود لا إثبات تكييف**، يعني: نحن نثبت أن هذه الصفة تقوم بذات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الله اتصف بهذه الصفة، لكن كيف اتصف؟ هذا شيء خارج عن حدود معلومنا، ولا يجوز للإنسان أن يتكلم بجهل، ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء:٣٦]، فكيف إذا كان الكلام يتعلق بالله العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ ولذلك من أعظم المحرمات أن يتكلم الله عز وجل في شيء يختص به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بغير علم، قال جل وعلا لما بين أصناف المحرمات: ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، أعلمنا الله أنه استوى على العرش، لكن ما أعلمنا كيف استوى عليه، إذن: واجب أن نفوض العلم بكيفية اتصاف الله عز وجل بهذه الصفة إليه،

نقول: الله أعلم كيف استوى على العرش، لكننا نجزم بأنه استوى عليه استواءً يليق بجلاله وعظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما بيَّن هذا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما قال: **(واستواؤه على العرش: علوه عليه بذاته علوًا خاصًا يليق بجلاله وعظمته، لا يعلم كيفيته إلا هو).**

ومن محاسن الكلام التي وفق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إليها إمام هذه البلدة الطيبة الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه وقف عليه أحدهم فقال: يا أبا عبد الله، الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟ فأطرق رَحِمَهُ ٱللَّهُ برأسه وعلاه الرُّحضاء، استعظم هذا السؤال كيف يجرؤ مخلوق ضعيف عاجز ناقص العلم، كيف يجرؤ على أن يسأل هذا السؤال العظيم؟ كيف استوى الرحمن على عرشه؟ ثم رفع رأسه فقال تلك الجملة الذهبية التي تلقاها عنه أهل العلم بالقبول، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عن ذلك بدعة، وما أُراك إلا مبتدعًا، ثم أمر به فأُخرج من المسجد.

هذه قاعدة يمكن أن تُطبقها على جميع الصفات، هذا ميزان زِنْ به كل ما يَرِد عليك من صفات الله عز وجل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الاستواء غير مجهول)، يعني: أنه شيء معروف في لغة العرب، إذا كنت تفهم لغة العرب فإنك ستفهم ما معنى كلمة (استوى على) يعني: علا وارتفع.

إذن: الاستواء شيء غير مجهول، لكن الكيف غير معقول، كيف استوى؟ هذا شيء لا نعقله، إذا قال لنا أحد: كيف هي صفته؟ سنسأله مباشرة فنقول:

وكيف هو في ذاته؟ فإذا قال: أنا لا أعرف كيف ذاته، فإننا نقول: ونحن لا نعرف كيف صفاته، لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحذو حذوه.

إذن: الكيف غير معقول.

وإذا كان المخلوقون وهم مخلوقون مشتركون في كونهم مخلوقين ومع ذلك فإن كيفية استوائهم متفاوتة، تأمل معي هذه المواضع في كتاب الله عز وجل، قال الله عن سفينة: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود:٤٤]، قال الله عز وجل عن الناس: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف:١٣] يعني: ما رزقكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من السفن ومن الدواب، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨].

لاحظوا معي -رعاكم الله- عندنا ثلاث صور للاستواء:

- علو سفينة على رأس جبل، تخيل هذه الصورة.
- وعندنا استواء إنسان على سفينة.
- وعندنا استواء إنسان على دابة.

هل الاستواء في كل موضع من هذه المواضع الثلاثة يساوي الآخر؟ هل هذه متماثلة وإلا كل استواء له كيفية تختلف عن الاستواء الآخر؟ لا شك أن الكيفيات هنا مختلفة، مع أن هذا الاستواء قد وُصِف به مخلوقون، بل الإنسان نفسه استواؤه على السفينة ليس كاستوائه على الدابة، هذا له هيئة واستواؤه على السفينة له هيئة أخرى، ربما يكون واقفًا على السفينة وهو مستوٍ عليها، لكنه إذا استوى على الدابة يكون على هيئة أخرى.

إذن: هو إنسان باختلاف ما استوى عليه فإنه اختلفت كيفية استوائه، فكيف باستواء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي ليس كمثله شيء، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤]، ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤].

إذن: الكيف غير معقول.

والإيمان به واجب؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد أخبر بذلك، وأخبر بهذا نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ما حقيقة إيمانك -يا عبد الله- إذا كان الله عز وجل يخبر بخبر ونبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يخبر بخبر ثم إنك لا تؤمن بذلك؟ لا شك أن من لم يؤمن بما أخبر الله به وبما أخبر به رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فليس له من الإيمان حظ.

ثم قال رَحِمَهُٱللَّهُ -رابعًا-: (والسؤال عن ذلك بدعة). السؤال عن كيفية صفة الله عز وجل سواء كان الاستواء أو النزول أو الضحك أو السمع أو البصر. أو غير ذلك من الصفات، السؤال عن ذلك بدعة، لم؟ لأنه خوض فيما لا دليل عليه من الوحي، وهذه مسائل شرعية غيبية لا يجوز للإنسان أن يتكلم فيها بغير دليل، وُجِد المقتضي لهذا السؤال في عهد أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينما كانوا مع نبيهم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وزال المانع من السؤال ومع ذلك ما سألوا.

إذن: السؤال بدعة لا يجوز أن ينطق به إنسان.

إذن: هذا ميزان يجب أن نَزِن به جميع الصفات، كل الصفات. إذا قال قائل: كيف سَمْع الله؟ نقول: السمع غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عن ذلك -يعني: عن الكيف- بدعة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونؤمن بأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر)**، ذكر هذه الصفة عقيب كلامه عن صفة العلو، **وعندنا فرقان بين صفة العلو وصفة الاستواء:**

۞ **أولًا: صفة العلو صفة ذاتية**، بمعنى: أن الله لم يزل ولا يزال عَلِيًّا، فلا كان ولا يكون على خلاف ذلك، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يزل ولا يزال عَلِيًّا، ولا يمكن أن يكون إلا عَلِيًّا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما الاستواء فإنما أعلمنا الله عز وجل أنه استوى على العرش لما خلق السماوات والأرض، إذن: هذا شيء أو هذا فعل كان منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما شاءه، شاء أن يستوي على العرش بعد خلق السماوات والأرض.

إذن: **الاستواء صفة فعلية اختيارية**، أما العلو فإنها صفة ذاتية ملازمة لذات الله عز وجل.

۞ **الفرق الثاني: أن العلو صفة عامة، وأما الاستواء على العرش فإنه صفة خاصة**، بمعنى: هو علو خاص، أما ما جاء في أدلة العلو فهذه تدل على علو عام على كل شيء، ولذا هل يجوز لنا أن نقول: إنَّ الله عالٍ على الناس وعلى الأرض وعلى الجبال أو لا يجوز؟ نعم. هل يجوز لنا أن نقول: الله مستوٍ على الجبال والأرض؟ الجواب: لا.

إذن: الاستواء عُلُوٌّ خاص، أما ما جاء في العلو من الأدلة فإنه يدل على عُلوٍّ عام على كل شيء، كل شيء فالله عالٍ عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والكلام في هذه الصفة يجرنا إلى الكلام على ما استوى عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو العرش، لأننا قلنا: هو علو خاص يعني: علو خاص على العرش، فما هو العرش؟

❖ **العرش في اللغة:**

◉ سرير المُلْك.

◉ أو السرير الذي يجلس عليه المَلِك.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠]، وقال: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل:٤١]، إذن: هذا هو العرش في اللغة.

أَمَّا إذا ذُكِر الاستواء على العرش، أو ذُكِر العرش الذي هو مخلوق من مخلوقات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والذي خصه باستوائه عليه؛ فإن هذا العرش هو: **مخلوق عظيم خصه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخصائص ووصفه بصفات.**

❖ **أما صفاته:**

◉ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد وصفه بأنه عظيم.

◉ ووصفه بأنه كريم، وكذلك هذا كان منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

◉ كما أنه وصفه بأنه مجيد، والمجد هو: الشرف، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ [البروج:١٥] المجيدُ أو المجيدِ؟ فيها قراءتان، ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥] وهذه قراءة الجمهور، وهذه ما يقرأ بها عامة الناس في رواية

حفص عن عاصم، لا سيما في بلادنا. وعلى هذا فالمجيد هاهنا صفة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقرأ بعض القراء -وهم حمزة والكسائي وخلف- بكسر الدال: (ذو العرش المجيدِ)، إذن: هي قراءة متواترة ثابتة، وعلى هذا فتكون هذه الكلمة صفة للعرش.

إذن: الله عز وجل وصف العرش بأنه عظيم، ووصفه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأنه كريم، ووصفه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأنه مجيد.

◉ كما أن الله عز وجل وصف نفسه بأنه ذو العرش فقال سبحانه: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر:١٥] فهذا -ولا شك- يدل على أنَّه عرش كريم، ويدل على أنَّه عرش عظيم حقًا.

◉ كما أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد كرر ذكر العرش في كتابه، ورد ذِكْر العرش في القرآن في واحد وعشرين موضعًا، وهذا التكرار يدل على عظمة العرش ويدل على شرف العرش.

◉ وهذا العرش وُصِف في النصوص بأنَّ له قوائم، كما دل على هذا ما جاء في إخبار النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما في «الصحيحين» من أن الناس يُصعقون يوم القيامة، قال: «**فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشًا بقائمة من قوائم العرش**»، إذن: العرش له قوائم.

◉ كما أن العرش له حَمَلة من الملائكة، ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر:٧] مع أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ غني عن العرش وعن حملته، والعرش وحملته مفتقرون إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

◉ كما أن هذا العرش دلت الأدلة على أنه مخصوص بخصائص، له خصائص اختص بها دون بقية المخلوقات، هذه الخصائص أربع خصائص:

❁ **أولًا**: أن هذا العرش أعلى المخلوقات وأرفع المخلوقات، فهو سقف العالم، سقف المخلوقات جميعًا.

❁ **الأمر الثاني**: أن العرش أكبر المخلوقات فيما نعلم، ما أعلمنا الله عز وجل به ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ استفاد منه أهل العلم أن العرش أكبر وأعظم المخلوقات، ولذلك يقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما السماوات في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة**» يعني: في صحراء، «**وفضل العرش على الكرسي كفضل الكرسي على السماوات**»، وثبت عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال: «**الكرسي موضع القدمين، وأما العرش فلا يقدْر قدره إلا الله**»، إذن: هو شيء عظيم وكبير.

❁ **الأمر الثالث**: أن العرش أثقل المخلوقات، ويدل على هذا ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث جويرية رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا لما مر بها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهي تسبح ثم رجع إليها وهي تسبح، فأخبرها أنه قال من بعدها أربع كلمات تَزِن ما قالت، ما هي؟ سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته. قال أهل العلم: قوله: (زنة عرشه) يدل على أن العرش أثقل المخلوقات، لأن المقام مقام ذِكْر أعظم الأشياء، فلما جاء ذِكر الوزن ذَكَر العرش.

إذن: العرش أثقل المخلوقات.

❁ **الأمــر الرابــع**: أن العرش اختصه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ باستوائه عليه، فما استوى الله عز وجل على شيء فيما أخبرنا به في كتابه أو ما جاء في سنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما استوى على شيء إلا على العرش، إذن: هو دون المخلوقات خصه الله عز وجل باستوائه عليه.

والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنه تعالىٰ مع خلقه وهو علىٰ عرشه، يعلم أحوالهم، ويسمع أقوالهم، ويرىٰ أفعالهم، ويدبر أمورهم، يرزق الفقير، ويجبر الكسير، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهو علىٰ كل شيء قدير.

ومن كان هذا شأنه كان مع خلقه حقيقة وإن كان فوقهم علىٰ عرشه حقيقة، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

ولا نقول كما تقول الحلولية من الجهمية وغيرهم: إنه مع خلقه في الأرض، ونرىٰ أن من قال ذلك فهو كافر أو ضال؛ لأنه وصف الله بما لا يليق به من النقائص.

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك إلى الكلام عن إثبات أهل السنة والجماعة صفة المعية لله عز وجل، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع خلقه، وهذا ما دل عليه كتاب الله عز وجل، ومن ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد:٤]، وقال جل وعلا: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧]، وكذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨].

إذن: الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مع خلقه، ولكن ما هي هذه المعية وكيف تُفسَّر وكيف نفهمها؟ **هذه المعية عند أهل العلم تسمى: معية العلم أو معية الإحاطة،** يعني: الله عز وجل مع خلقه بعلمه وإحاطته وما يندرج في هذا المعنى -أيضًا- من الصفات، فهو معهم بسمعه وبصره وتدبيره وسلطانه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولا يجوز أن يُفهم من هذه الآيات أنَّ الله عز وجل مع خلقه بذاته كما تقوله الحلولية، فلا هذا مدلول الآية ولا هذا ما تقتضيه اللغة ولابد، وهذا موضع يحتاج إلى توضيح وتجلية وتفصيل، ونؤجل ذلك -بعون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وتوفيقه- .



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنه تعالىٰ مع خلقه وهو علىٰ عرشه، يعلم أحوالهم، ويسمع أقوالهم، ويرىٰ أفعالهم، ويدبر أمورهم، يرزق الفقير، ويجبر الكسير، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير وهو علىٰ كل شيء قدير.

ومن كان هذا شأنه كان مع خلقه حقيقة، وإن كان فوقهم علىٰ عرشه حقيقة، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

ولا نقول كما تقول الحلولية من الجهمية وغيرهم: إنه مع خلقه في الأرض، ونرىٰ أن من قال ذلك فهو كافر أو ضال، لأنه وصف الله بما لا يليق به من النقائص.

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

كنا قد بدأنا الكلام في موضوع صفة المعية لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولكن الكلام لم يستتم، وقلنا: إنَّ أهل السنة والجماعة يعتقدون بثبوت صفة المعية لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والمؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ أورد هذه المسألة وبيَّن حقيقة معتقد أهل السنة السالم من أدران مذهب الحلولية.

وقد علمنا أن هذه المعية تسمى عند أهل العلم بالمعية العلمية أو معية الإحاطة، فالله عز وجل مع خلقه بعلمه وإحاطته وتدبيره وسمعه وبصره، وما

إلى هذه المعاني، وهذا هو الذي دل عليه كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ودلت عليه سنة رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والحق أن التأمل في أدلة الكتاب والسنة يتجلى بها أن المعية في صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **تنقسم إلى قسمين:**

۞ القسم الأول: ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي المعية العلمية، وهذه معية عامة، الله عز وجل مع جميع خلقه بهذه المعية: معية العلم والإحاطة.

۞ وثمة معية أخرى وهي: المعية الخاصة، وهذه هي التي يخص بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من شاء من خلقه من عباده المؤمنين، مِن الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من الصالحين، وهذه هي التي جاءت في نحو قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦]، ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، فالله عز وجل مع نبيه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر لما كانا في الغار، وكذلك كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع موسى وهارون ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦] بهذه المعية.

كذلك هو مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وكذلك هو مع الصابرين إلى آخر ما جاء في النصوص المتعلقة بهذه المعية، وهي في كتاب الله أكثر ورودًا من المعية العامة.

هذه المعية مقتضاها النصرة والتأييد والحفظ، وما إلى هذه المعاني، وهذا شيء يخص الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به مَن شاء من عباده المؤمنين، كما دلت على ذلك الأدلة السابقة.

وفي الجملة الفروق بين المعيتين ترجع إلى أربعة فروق:

۞ أولًا: أن المعية العامة صفة ذاتية لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بمعنى: أن الله عز وجل لم يزل ولا يزال مع عباده بعلمه وإحاطته، ولذلك نقول: إن المعية العلمية صفة ذاتية.

أما المعية الخاصة فإنها صفة اختيارية متعلقة بمشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالله مع مَن شاء مِن خلقه بنصره وتأييده وإعانته وحفظه وكلاءته إذا شاء ذلك، فهو يختص من يشاء بهذه المعية، ولذلك قلنا: إنها صفة اختيارية.

۞ الفرق الثاني: المعية الأولى معية عامة، وهي المعية العلمية، فالله مع جميع خلقه بهذه المعية.

أما المعية الثانية فإنها معية خاصة، والمتأمل في النصوص يجد أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد خص بها أنبياءه والمرسلين والصالحين من عباده الذين قاموا بصفات اقتضت ثبوت هذه المعية في حقهم منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وقد جاءت منثورة في الكتاب والسنة، فمن أراد أن يكون من أهل هذه المعية فعليه أن يلزم الصفة

التي رُتِّبت المعية عليها؛ كالتقوى والإحسان والصبر وما إلى هذه الصفات الواردة في الكتاب والسنة.

۞ الأمر الثالث: أن هذه المعية العامة مقتضاها -كما علمنا- العلم والإحاطة وما إلى هذه المعاني التي ترجع إلى ربوبية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على خلقه.

أما المعية الثانية أو المعية الخاصة فهذه -كما ذكرت- مقتضاها النصرة والتأييد والإعانة والحفظ وما إلى هذه المعاني.

۞ الفرق الرابع يرجع إلى أثر الإيمان بهذه الصفة.

المعية العامة تورث الخوف من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والمعية الخاصة تورث الرجاء في الله عز وجل.

المعية العامة تورث في قلب الذي يؤمن بها ويحققها في نفسه: الخوف من الله عز وجل، وبالتالي فإنه لا يجرؤ على أن يقارف معصية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأنه يعلم أن الله يراه ويسمعه ويعلم حاله، وهو في قبضته وسلطانه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فاستحضار هذا المعنى يورث في نفس كل مؤمن الكف عن محارم الله عز وجل، وأن يكون خائفًا وجلًا منه تبارك وتعالى، أين يذهب من علم الله؟ وأين يذهب من سمعه وبصره؟ أين يختفي عن الله؟ هل ذلك ممكن؟ الجواب: بالتأكيد لا، فالله يرى كل شيء، ويعلم كل شيء، ويسمع كل شيء.

أما المعية الخاصة فإنها تورث في قلب المحقق لها: الرجاء في الله عز وجل، وحسن الظن به، والسكينة والطمأنينة والتفاؤل، فمهما كاده من في السماوات ومن في الأرض والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معه فإنه لا يبالي بهذا كله، واثق بالله وبنصر الله وبتوفيق الله، ولذلك فإنه لا يتحرك فيه مثقال ذرة من الخوف والوجل من غير الله عز وجل؛ لأنه مطمئن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، متوكل عليه، محسن الظن به.

أرأيت لو أن ملكًا من ملوك الدنيا اتصل بك وقال: يا فلان، لا تخف، فأنا معك أرعاك وأحميك وأبث جنودي لأجل أن يمنعوا من أراد بك سوءًا، كيف تجد هذا الإنسان؟ تجده ساكنًا مطمئنًا هادئًا، لا يبالي بأحد ومهما كثرت أعداؤه، فكيف إذا كان مَلِك الملوك الذي يدبر كل شيء، وكل شيء بإرادته ومشيئته، فكان هذا الرب العظيم معك، فوالله لا يضرك شيء حتى ولو كنت بين فكي أسد والله لا يضرك شيء، الله عز وجل يحميك ويحوطك.

إذن: هذه أوجه أربعة يظهر بها الفرق بين المعيتين، وكلاهما ثابت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهاهنا مسألة تُثار دائمًا وهي: أن المعلوم من عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يجرون نصوص الصفات خاصة وبقية النصوص عامة على ظاهرها، ويصونونها عن التحريف والحمل على خلاف الظاهر بغير دليل، يورد على هذا أهل البدع: أن أهل السنة والجماعة جنحوا في صفة المعية إلى التحريف والتغيير وحمل هذه

الأدلة على خلاف الظاهر، فإنهم يزعمون أن ثبوت المعية على ظاهرها يقتضي حلول الله عز وجل في خلقه واختلاطه بهم، وبالتالي فلما رأى أهل السنة والجماعة هذا اللازم جنحوا إلى التأويل والتحريف.

وهذا القول لا شك أنه خطأ، ومبني على خطأ، ومن قال: إن المعية تقتضي -ولابد- المخالطة والحلول والامتزاج هذا ليس بلازم، **ومن عرف لغة العرب ومواردها فإنه يدرك أن (مع) في اللغة تقتضي مطلق المقارنة**، ثم بعد ذلك ثبوت الخلطة والامتزاج والحلول هذا شيء بحسب السياق، قد يقتضي السياق ذلك وقد لا يقتضيه.

أرأيت في قولنا: إن الماء مع اللبن، هذه المعية تقتضي الامتزاج والاختلاط، لأن السياق يدل على ذلك، لكن لو قلت لك مثلًا: إن فلانة مع فلان، يعني: أنها زوج له، فإن المراد بذلك أنه قد حصل بينهما اقتران بعقد الزوجية، ولا يستلزم هذا حصول الممازجة والاختلاط بالأبدان، لأنها ربما تكون في ذاك الوقت في بلد وهو في بلد، ألا يصح الكلام على هذا المعنى؟

ثم قل لي -يا رعاك الله- ما الذي تفهمه من قول الله عز وجل: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩]، هل تفهم من ذلك أنك تزاحمهم بأكتافك؟ أو أن المراد أن تقارنهم وتكون مثلهم في هذه الصفة وهي الصدق؟ أن تكون صادقًا كما الصادقون، هذا الذي يفهمه كل من يفهم لغة العرب من هذه الجملة

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩] قارنوهم ووافقوهم في صفة الصدق، وما اقتضى هذا امتزاجًا أو حلولًا أو اختلاطًا.

إذن: المعية في كل سياق بحسبها، وإذا كان ذلك كذلك فإننا نعلم يقينًا أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أكبر من كل شيء، وهو العظيم الواسع سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كيف يُعتقد مع هذا أنه يحل في خلقه، أو أن مقتضى. ما أنزل في كتابه يدل على هذا المعنى؟ بل الله عالٍ على خلقه، محيط بهم، مستوٍ على عرشه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ويدل على هذا ثانيًا: سياق الآيات، تأمل -يا رعاك الله- قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [المجادلة:٧] قف عند كلمة (يعلم) واستذكرها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧]، قال ابن عباس والإمام أحمد وغيرهم من أهل العلم: بدأ بالعلم وختم بالعلم، إذن: ما بين ذلك -وهو ثبوت المعية لله عز وجل- يقتضي علم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

تأمل -مثلًا- قول الله عز وجل: ﴿ يَعْلَمُ ﴾ واستذكر كلمة (يعلم)، ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ

أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤]، بدأ بالعلم وختم بالبصر، إذن: المعية التي بين ذلك معية علم وبصر وإحاطة.

تأمل في قول الله عز وجل: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء:١٠٨] ختم بالإحاطة، إذن: المعية التي كانت قبل ذلك هي معية الإحاطة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن: سياق الآيات -وهو أمر معتبر في التفسير كما يعرف هذا أهل العلم- يدل على أن معية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معية علم وإحاطة وتدبير منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا تقتضي اختلاطًا ولا حلولًا ولا ممازجة، ولذلك نبه على هذا الإمام ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: (**ولا نقول كما تقول الحلولية من الجهمية وغيرهم: إنه مع خلقه في الأرض، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، بل الله عالٍ على خلقه، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]، ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك:١٦]، ونرى أن من قال ذلك فهو كافر أو ضال، لأنه وصف الله بما لا يليق به من النقائص**) وصَدَق، الذي يقول هذا عن علم والحجة قائمة عليه فلا شك في كفره، ومن كان قائلًا بهذا وهو جاهل اشتبه عليه الأمر فإنه قد ضل في هذا القول، ولا يُتعجل في الحكم عليه قبل إقامة الحجة عليه.

ولـذلك أهـل السـنة والجماعـة أهـل عـدل وإنصـاف، يتريثـون ويتئـدون، ولا يتعجلون في مثل هذه المسائل الكبيرة وهي الحكم في مثل هذه المسائل التي قد يحصل فيها نوع اشتباه على من لم يتأمل، أو كان من أهل الجهل، أو الذين يرخون أسماعهم لأهل الضلال.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (**ومن كان هذا شأنه كان مع خلقه حقيقة**)، وليت أن العبارة (كان مع خلقه بعلمه، كان مع خلقه بإحاطته) وهذا أبعد عن أن يُظن أن المعية معية ذاتية، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا!

والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بما أخبر به عنه رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه «ينزل كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له».

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

بالنسبة للتعليق الماضي قد يقال: إن المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ أراد بقوله: (حقيقة) يعني: أن هذه المعية على هذا المعنى ليست مجازًا، وليس المقصود أن يُعبَّر عن هذا بأنها حقيقة توهم أنها معية ذاتية، إنما الذي يبدو -والله أعلم- أنه أراد أنها بهذا المعنى ليست مجازًا، بل هذا هو مقتضى السياق، وبالتالي هذا حقيقة وليس مجازًا.

ثم انتقل المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ إلى ذِكْر معتقد أهل السنة والجماعة في صفة النزول لله تبارك وتعالى، قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**ونؤمن بما أخبر به عنه رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا**)، السماء الدنيا هي الأقرب إلى الأرض، والسماوات سبع بعضها فوق بعض، وجاء هذا التحديث في حديث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الذي هو أعلم الخلق بربه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فهو ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له.

هذا حديث عظيم ثابت صحيح، ثبوته قطعي لا شك فيه، قد أخرجه الشيخان وأصحاب الصحاح والسنن والمسانيد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورواه جَمٌّ غفير من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جمعهم بعض أهل العلم فبلغوا تسعة وعشرين من أصحاب النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإذا كان بهذه المثابة فهو حديث متواتر من أشهر الأحاديث وأكثرها ورودًا في كتب العلماء الذين صنفوا في سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا، وإذا كان الذي قال هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فما الذي يجب علينا؟ الذي يجب علينا أن نؤمن بهذا إيمانًا يقينيًا قطعيًا، لا يداخله أدنى ريب أو شك، لأن هذا مقتضى شهادتك أن محمدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن تصدقه فيما أخبر، فإذا كان قد صح عنه إخباره أن الله تعالى ينزل إذا بقي ثلث الليل الأخير فالواجب عليك أن نؤمن بذلك ونصدق، لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، والنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعلم بالله وبما هو مستحق له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من نعوت الجلال والكمال والجمال، فإذا كان ذلك كذلك فالواجب علينا أن نؤمن بهذا ونسلِّم ونصدق، ولا يخالطنا أدنى شك في هذا.

وهذا الذي يجب علينا في كل الأدلة وفي كل الأحاديث، لا يجوز لنا أن نتردد في ثبوت شيء أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا الحديث مثله مثل الأحاديث التي

جاءت في الطهارة والصلاة والصيام والحج وبقية أعمال الدين، يجب علينا الإيمان بها جميعًا، ولا يجوز لمسلم أن يتردد في ذلك.

وقد أخرج البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات»: أن الإمام إسحاق بن راهويه دخل على الأمير عبد الله بن طاهر -أمير خراسان، وهو من أمراء المسلمين المشهورين، متوفى في حدود ثلاثين ومائتين للهجرة- فقال له: هل تقول إن الله ينزل كل ليلة؟ كأنه لما سمع هذا الحديث وقع في نفسه شيء، فأحب أن يتثبت من هذا الإمام، هل تقول إن الله ينزل كل ليلة؟ فانظر إلى جواب هذا الإمام، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أرسله الله عز وجل إلينا فأخبرنا بأحاديث بها نحل الحلال وبها نحرم، وبها نحل الفروج وبها نحرم، فإذا قَبِلنا هذا قَبِلنا هذا، وإذا رددنا هذا رددنا هذا.

كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يفيد قاعدة مهمة وهي: **أنه لا فرق في قبول سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين العلميات والعمليات**، بين ما يتعلق بالاعتقاد وما يتعلق بالعبادات، ما يتعلق بأحكام الحلال والحرام، كل ذلك بابه باب واحد، من أخذ بالسنة في صلاته وطهارته وفي نكاحه وطلاقه فإنه ملزَم بأن يأخذ -أيضًا- بسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يتعلق بالاعتقاد وصفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن: الله عز وجل ينزل إلى سماء الدنيا تصديقًا لحديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو حديث صحيح لا شك فيه، لكن ماذا إذا قال لنا: إذا كان

ينزل فكيف ينزل؟ ماذا نقول؟ نقول: إننا قد تعلمنا قاعدة عظيمة في هذا المقام وهي: **أن إثباتنا للصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف**، نحن نثبت أن الله ينزل لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرنا أنه ينزل، لكنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أخبرنا كيف ينزل، وبالتالي الواجب علينا أن نقول بما علمنا، وأن نسكت عما جهلنا، فلا نقول على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بغير علم، فإن هذا من أعظم المحرمات، النزول غير مجهول في لغة العرب، قصد الشيء من علو إلى سفل، هذا هو النزول في لغة العرب.

والكيف غير معقول، لا ندري كيف ينزل الله عز وجل، ولو سألنا سائل: كيف ينزل؟ نقول: كيف هو في ذاته؟ فإذا قال: أنا لا أدري كيف هو في ذاته، نقول: ونحن لا نعلم كيف هي صفته وبقية صفاته، الأمر في ذلك محجوب عنا علمه، والله عز وجل أعلم بنفسه، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦].

والإيمان بذلك واجب، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرنا بذلك، ووالله إن المؤمن الصادق ليصدق ويوقن بما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم مما يوقن بما يراه بعينه إن كان موقنًا حقًا.

والسؤال عن الكيفية في النزول أو في غيره هذه بدعة، وُجِد المقتضي لهذا السؤال في عهد أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما سألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، فكان السؤال بدعة، والسنة الكف عن هذا السؤال.

ثـم إننـا نقـول لهـذا الـذي يتمحك ويتمحل مثل هـذه الأسـئلة: كيـف تـروم أن تعـرف نـزول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ونـزول المخلـوقين لـيس نـزولًا واحـدًا، ألـيس كـذلك؟ هـل نزولـك أنـت كنـزول المطـر مـن السـماء، أو نـزول الحجـر مـن الجبـل؟ تلاحظ نـزول المطـر، نـزول الإنسـان، نـزول الصـخرة والحجـر، هـذا نـزول ونـزول ونـزول، وكـل هـؤلاء يشـتركون في كـونهم مخلـوقين، هـل نـزولهم متـماثل أو الكيفيـة مختلفة؟ الكيفية مختلفة، بل نزول الإنسان نفسه مختلف من حال إلى حال، نزولك بالدرج ليس كنزولك بالحبل، ليس كنزولك بالمصعد، مع أنه كله يشترك في كونه نزولًا والكيفية مختلفة والنـازل واحـد، فكيف إذًا يتـوهم أن إثبـات النـزول لله عـز وجل يقتضي المماثلة أو التكييف؟ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا! نحن نثبت أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ينـزل، وشـأن الله أعظـم مـن أن نحـيط علـمًا بكيفيـة نزولـه، إذن نسلِّم بهذا ونكف، مع اعتقادنا أن الله عز وجل مع كونه ينزل إذا شاء فإنه لا يزال عَلِيًّا، لأن العلو صفة ذاتية لله عز وجل، وواجب -يا عبد الله- أن تصون هذا الاعتقاد من أن يتخلل إليه شك أن الله إذا نزل يكون شيء من خلقه فوقه، أو أن يكون محايثًا لخلقه، أو أن تكون السماء مظلة له، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا! بل الله عز وجل لا يزال عاليًا حتى لو نزل.

وإذا كنـت تسـتبعد هـذا في حـق مخلـوق فـإن الله عـز وجـل لـيس كمثلـه شيء، حـذارِ مـن أن تتـوهم صـفة المخلـوق عنـد النظـر والتأمـل في صـفة الخـالق

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

إذن: الواجب علينا أن نؤمن بنزول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على الكيفية التي يشاؤها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولا نعلمها نحن، إنما هو نزول يليق بالله عز وجل وبعظمته والله أعلم بكيفيته.

قد يقول قائل: ولماذا لا نقول كما يقول بعض الناس: إن الذي ينزل مَلَك من ملائكة الله، يعني: نميل إلى التأويل، نقول: إن الله ينزل يعني: ينزل مَلَك من ملائكته، أو تنزل رحمة الله عز وجل وليس ينزل هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الجواب عن هذا أن نقول: إن هذا مسلك لا يجوز أن نستعمله في نصوص الكتاب والسنة البتة، والسبب في ذلك: أن هذا تحريف للكلم عن مواضعه، النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أسالك يا هذا: هل كان يعلم أن الحق في هذا الحديث هو أن الذي ينزل مَلَك من ملائكة الله أو كان جاهلًا؟ فإن قلت: كان جاهلًا وعلمت أنت إذًا أنت تقول شيئًا عظيمًا، أي: أنك أعلم بالله من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومن قال هذا فقد كفر، فإن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**».

فإذا ثبت أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -على فرض البحث والجدل- أنه يعلم أن الحق فيما قلت من التأويل فإنا نسألك سؤالًا ثانيًا: هل كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

قادرًا على البيان؟ قادرًا على الإفصاح، يمكن أن يعبر التعبير الذي يدل على المعنى الصحيح دون حصول لبس أو لا يستطيع؟ إن قلت: لا يستطيع؛ فقد قلت قولًا عظيمًا، بل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أفصح من نطق بالضاد عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، أفصح الناس، وأنت بهذا تقدح في حكمة الله، حيث أنزل رسولًا لا يبلغ ولا يبين البيان المبين، وقدحت في رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فوصفته بالعِي، وأنك أنت أقدر من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على التعبير الصحيح، ومن قال هذا فأيَّ إيمان يؤمن به.

إذن: أنت مضطر إلى أن تقول: كان قادرًا على الفصاحة والبيان، وأن يعبِّر بالتعبير الذي يوضح الحقيقة دون شك ولا لبس.

إذا كان ذلك كذلك فإننا نسألك سؤالًا ثالثًا: هل كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ناصحًا لأمته، مشفقًا عليها، يريد لها الخير، أو كان بخلاف هذا؟ يريد أن تضل وليس بحريص عليها؟ ولا شك أن كل مسلم سيجيب بأنه كان حريصًا عليها، ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] لأن هذا ما أخبر الله عز وجل به، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، ومن قال بخلاف هذا فقد كذَّب الله وكفر.

إذن: مع كمال علم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وكمال فصاحته وكمال نصحه وشفقته، ما الذي منع النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أن يبين لنا أن الحق في هذا النص وأمثاله هو التأويل لا الأخذ بالظاهر؟ لا شك أن هذا لا يمكن أن يقال، فالحق

إذًا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لما قال: «إن الله ينزل» إذًا الله عز وجل هو الذي ينزل، وليس هناك أدنى غضاضة عند المؤمن أن يؤمن بكلام رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إن كان موقنًا بقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١].

ثم يا لله العجب من إنسان يقول: إن الذي ينزل مَلَك من ملائكة الله، هل الملك إذا نزل يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ هل المَلَك يقول: من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ سبحان الله العظيم! الله يقول: ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران:١٣٥] وهؤلاء يقولون: إن المَلَك يقول هذا الكلام؟ لأن الحديث متصل، الذي ينزل هو الذي يقول هذا الكلام، فمن الذي يجرؤ أن يقول من خلق الله هذا الكلام؟

إذن: الحق الذي لا شك فيه هو الإيمان والتسليم، هذا امتحان لك يا عبد الله، امتحان لإيمانك كيف تكون مؤمنًا مسلِّمًا محققًا، إذا جاءك الآية أو الحديث سلَّمت وأذعنت وآمنت وأيقنت، وبالتالي فإنك تصل إلى بر الأمان، تصل إلى الهداية، أما إذا كنت ممن ينتابهم الشكوك والريب، ويسيئون الظن بالله وبرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فيحرِّفون ويؤولون، ويطعنون من طرف ويغمزون من قناة في هذه النصوص فلا شك أن هذا من ضعف الإيمان واليقين، وصاحب ذلك بعيد عن الهداية، الواجب عليك الاستجابة والتسليم، وإن لم يكن الأمر كذلك فاعلم أن

الهــلاك حاصــل، ﴿فَـإِنْ لَّمْ يَسْـتَجِيبُوا لَـكَ فَـاعْلَمْ أَنَّـمَا يَتَّبِعُـونَ أَهْـوَاءَهُمْ﴾ [القصص:٥٠]، واتباع الهوى خير أو شر؟ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص:٥٠].

إذن: القاعدة إذا التبس عليك شيء أو وقع في نفسك إشكال، القاعدة حتى تسلم: أن تؤمن، آمن تهتدي، آمن يفتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المغاليق لقلبك، فيكون الإيمان ويكون التسليم ويكون اليقين، وتكون الطمأنينة بكلام الله وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يأتي يوم المعاد للفصل بين العباد، لقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:٢١-٢٣].

قال الشارح وفقه الله:

أيضًا يُؤمن أهل السنة والجماعة بأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ متصف بالإتيان والمجيء، وأنه يأتي ويجيء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يوم القيامة لفصل القضاء بين العباد.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ونؤمن بأنه** سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ **يأتي يوم المعاد للفصل بين العباد**) إتيانًا ومجيئًا يليق بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا كإتيان ومجيء المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر:٢١]، دُكّت الأرض يعني: وُطِّئت ومهدت وسُوِّيت، فما أصبح هناك جبال ولا أودية ولا شيء، تكون طَبَقًا واحدًا.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر:٢١]، اختلف أهل التفسير: هل (دَكًّا) الثانية تأكيد للأولى مما يُستفاد منه أن هذه الكلمة كُرِّرت للتأكيد، أو أن المراد دكًا بعد دك؟ قولان لأهل التفسير.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢١-٢٢]، يجيء الله عز وجل وتجيء الملائكة صفًا صفًا، قال أهل التفسير: يعني: يأتي أهل كل سماء صفًا، وبالتالي فتكون الملائكة سبعة صفوف.

إذن: الله عز وجل يجيء.

وهذه الآية فيها دليل على قاعدة مهمة مرت بنا سابقًا وهي قاعدة القدر المشترك والقدر المميِّز، لأن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قد وصف نفسه بالمجيء ووصف الملائكة -أيضًا- بالمجيء، أليس كذلك ؟ ، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾ [الفجر:٢٢] يعني إيش والمَلَك؟ يعني: جاءوا، و(المَلَك) اسم جنس، يعني: كل الملائكة جاءوا، ومع ذلك فليس كالمجيء كالمجيء، ولا الجائي كالجائي.

إذن: ثمة قَدْر مشترك وهو المجيء من حيث كونه مجيئًا قبل الإضافة، لكن إذا أُضيف فقيل: مجيء الله، أو قيل: مجيء الملائكة؛ فلكلٍ مجيء يليق به، الله له مجيء يليق به، وللملائكة مجيء يليق بهم .

كيف مجيء الله وإتيانه؟ الجواب: الله أعلم، وهذا السؤال ممنوع.

وقبل أن نجيبك عن مجيء الله نسألك: كيف مجيء الملائكة؟ هل تأتي بسرعة أو ببطء؟ هل تأتي تمشي.أو تجري أو تطير؟ كيف تجيء الملائكة؟ ستقول إن كنت عاقلًا: الله أعلم، لماذا؟ لأنك أولًا لا تعلم كيفية ذات الملائكة، فكيف تعلم صفتها؟ معرفة الصفة فرع عن معرفة الذات.

ثم إنه ما جاء في الأدلة كيف تجيء الملائكة، فكيف تتكلم بغير علم؟ فإذا كان مخلوق من مخلوقات الله جهلت كيفية صفته فجهلك بكيفية صفة الخالق من باب أولى؟

تنبه -يا رعاك الله- لهذا الأمر العظيم، أظن أني ذكرت لكم قصة الإمام عبد الرحمن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي أنه بلغه أن شخصًا كان يخوض في كيفية صفات الله عز وجل، فدعاه وقال: يا فلان، بلغني عنك كيت وكيت، فبدأ الرجل يتكلم، قال: على رسلك، سأسألك عن صفة المخلوق، فإذا جهلناه فنحن بصفة الخالق أجهل، يعني: بالكيفية.

قد أخبرنا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح سد بها الأفق، لكن أسألك عن سبعة وتسعين وخمسمائة جناح، سأسألك عن الجناح الثالث فقط، أنا أعلم كيف جناحين لكن ركب لي الجناح الثالث بس؟ كيف يكون الجناح الثالث؟ ولن أقول والرابع والخامس والسادس إلى ستمائة، سأسألك فقط عن رقم ثلاثة، كيف؟ فأدرك الشاب.. هذا الرجل -وكان شابًا- أدرك أنه قد أخطأ، فقال: إذا كنا نجهل كيفية صفات المخلوق فنحن بكيفية صفة الخالق أجهل.

إذن: أعلمنا الله عز وجل أنه يأتي ويجيء، الواجب علينا أن نقول: إنه يأتي ويجيء، وما زاد على ذلك نسكت عنه ونقول: الله أعلم كيف يجيء سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

قال: ﴿وَجِيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر:٢٣] ثبت في «صحيح مسلم» أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**يؤتى يوم القيامة بجهنم لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف مَلَك**»، سبحان الله العظيم! والله إنه لشيء عظيم، كيف سعة هذه

النار؟ وما هو حجمها؟ لها سبعون ألف زمام، كل زمام يجرُّها به سبعون ألف ملك، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يجرُّونها»، والله أعلم بكيفية هذا الزمام وكيفية هذا الجَر، لكننا نؤمن بذلك لأن الذي أخبر به الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ [الفجر:٢٣] كيف تنفعه الذكرى في ذلك الوقت؟ يعني: إذا تذكر الإنسان سعيه في الدنيا فإنه لا ينفعه من ذلك شيء، انتهى وقت العمل وجاء وقت الجزاء، ولذلك ذكر بعض السلف أنه في ذلك اليوم كل أحد فإنه يُغبن ويندم، العاصي يندم على أنه ما أطاع الله عز وجل ولا كف عن معاصيه، والطائع يندم في أنه ما ازداد من طاعة الله عز وجل، لما يرى من فضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونعمته وكرامته.

إذن: الذي يجب علينا -وهذه هي الخلاصة من هذا المقطع من هذه العقيدة- الذي يجب علينا أن نؤمن بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونعتقد أنه الحق الذي لا شك فيه، وأما الخوض فيما وراء ذلك من الكيفية فإنه يُفوَّض علمه إلى العليم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنه تعالىٰ فعَّال لما يريد، ونؤمن بأن إرادته تعالىٰ نوعان: كونية يقع بها مراده، ولا يلزم أن يكون محبوبًا له، وهي التي بمعنىٰ المشيئة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقوله: ﴿إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود:٣٤].

وشرعية لا يلزم بها وقوع المراد، ولا يكون المراد فيها إلا محبوبًا له، كقوله تعالىٰ: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٧].

ونؤمن بأن مراده الكوني والشرعي تابع لحكمته، فكل ما قضاه كونًا أو تعبد به خلقه شرعًا فإنه لحكمة وعلىٰ وفق الحكمة، سواء علمنا منها ما نعلم، أو تقاصرت عقولنا عن ذلك، قال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨]، وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

قال الشارح وفقه الله:

لا يزال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يوالي ذِكْر الأدلة التي تدل على معتقد أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بصفات الله تبارك وتعالى وهو بعض ما يرجع إلى الإيمان بالله سبحانه.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ونؤمن بأنه تعالى فعال لما يريد**)، قال جل وعلا في وصف نفسه الجليلة العظيمة: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦] **هذه الآية فيها إثبات صفتين لله تبارك وتعالى:**

- الأولى: الفعل.
- والثانية: الإرادة.

فالله جل وعلا يفعل بإرادته، فهاتان صفتان بينهما رباط وثيق، فِعْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ راجع لإرادته، فما أراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه يفعله، ولا يمكن أن يكون لله عز وجل مغالب يمنع فعله الذي أراده، بل متى ما أراد أن يفعل فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفعل، فلا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، ولا مغالب له في فعله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالله جل وعلا فعَّال، يعني: كثير الفعل، وهذا هو الحق الذي لا شك فيه، الله جل وعلا لم يزل ولا يزال، لم يزل في الماضي ولا يزال في المستقبل، يفعل تبارك وتعالى ما كان معطلًا عن الفعل ثم بدأ يفعل، بل لم يزل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فعالًا، فهو يفعل في الأزل وإلى الأبد، وكذلك يخلق، وكذلك يتكلم.. إلى غير ذلك مما يرجع إلى معاني ربوبيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما الإرادة فهي التي بسط فيها المؤلف القول بعض الشيء.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ونؤمن بأن إرادته تعالى نوعان**) وذلك بالاستقراء، فاستقراء أدلة الكتاب والسنة دل على أن الإرادة التي ترجع إلى صفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تنقسم إلى هذين القسمين:

- إلى كونية.
- وإلى شرعية.

وفي الكتاب والسنة كلمات على هذا النسق منقسمة إلى كونية وإلى شرعية، جمع منها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «شفاء العليل» اثني عشرة كلمة في المجلد الثاني من كتابه شفاء العليل ومن ذلك: الإرادة، ومن ذلك: الحكم، ومن ذلك: الأمر، ومن ذلك: الإيتاء، ومن ذلك: البعث، ومن ذلك: الإذن.. إلى آخر ما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

والذي يهمنا من ذلك: أن الإرادة دل الاستقراء أنها منقسمة إلى قسمين: إلى كونية وإلى شرعية.

الإرادة الكونية عرَّفها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أو بيَّن حقيقتها في قوله: (**يقع بها مراده**)، هذه الإرادة الكونية هي المشيئة، وهي الموجبة للأشياء على الحقيقة، ليس ثمة شيء يوجب الأشياء على الحقيقة إلا مشيئة الله عز وجل أو إرادته الكونية، بمعنى: الشيء الذي يشاؤه الله ويريده كونًا فإنه يقع عقيب مشيئته وإرادته الكونية بدون تخلف، لا يمكن أن يشاء الله عز وجل شيئًا ثم لا يكون، الشيء

الذي يريده الله كونًا -يعني: يشاؤه- فإنه واقع لا محالة، ولا يمكن أن تُرد هذه الإرادة وأن لا يقع المراد إذا أراده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن: ينبغي علينا أن نفهم أن كل شيء لم يقع فإن عدم وقوعه راجع إلى عدم إرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكونية، وليس إلى عدم قدرة الله عز وجل، بل الله على كل شيء قدير، لكن ما أراده فإنه يقع ويكون، وما لم يُرده فإنه لا يقع ولا يكون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن: القاعدة في باب الإرادة الكونية هي: أن كل ما وقع فإن وقوعه راجع إلى إرادة الله الكونية، وبالتالي فإننا نستدل على أن الله أراده بكونه واقعًا، كل ما وقع فهو مراد لله كونًا، وما الدليل على ذلك؟ أنه وقع، لأن الله لو لم يُرِده لم يقع، ولا يمكن أن يقع شيء إذا كان الله عز وجل غير مريد له، كل ما في السماوات وكل ما في الأرض وكل ما في هذا الملكوت فإنه لا يكون إلا إذا شاءه الله عز وجل.

إذن: المشيئة مرادفة للإرادة الكونية، الإرادة تنقسم إلى قسمين: إلى إرادة كونية وإلى إرادة شرعية، والمشيئة تنقسم أو هي واحدة؟ **المشيئة لا تنقسم، دل استقراء الكتاب والسنة على أن المشيئة لا تنقسم، المشيئة شيء واحد، هي الإرادة الكونية، إنما الإرادة هي التي أوسع**، بمعنى: أنها تكون بمعنى المشيئة، ولا تكون بمعنى المشيئة وإنما تكون في معنى أو مرادفة للمحبة، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كونية يقع بها مراده، ولا يلزم أن يكون محبوبًا له، وهي التي بمعنى المشيئة**) يعني: هي مرادفة لكلمة (المشية).

(**كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾** [البقرة:٢٥٣])، ولاحظ كيف أنه ذكر أولًا المشيئة وذكر ثانيًا الإرادة، فدل على أنهما شيئان مترادفان، والمراد بالإرادة هاهنا هي الإرادة الكونية.

كذلك استدل بقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود:٣٤]، فإنك تستطيع في غير كتاب الله عز وجل أن تبدل كلمة (يريد) هاهنا بكلمة (يشاء) والكلام مستقيم، تستطيع في غير كتاب الله عز وجل أن تقول: إن كان الله يشاء أن يغويكم، والشيء الذي يشاؤه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كائن لا محالة، ما شاء الله كان، (كان) هنا بمعنى: حصل، وقع. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

ما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

هذا من محاسن شعر الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

كل ما وقع فقد شاءه الله، يعني: أراده الله عز وجل كونًا، والسؤال: هل يدخل في هذا الكفر والمعاصي وكل ما لا يحبه الله عز وجل أم لا؟ هل المعاصي تقع ووقعت أم لا؟ وقعت وتقع كثيرًا، والسؤال: هل ذلك كان عن مشيئة لله عز وجل؟ يعني: شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقوع معصيته؟ الجواب: نعم، لم؟ ما

دليلكم؟ كونه وقع، وكل ما وقع فإنه لا يمكن أن يقع إلا إذا شاء الله، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

إذن: الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد يشاء ما لا يحب، انتبه لهذه القاعدة: الله عز وجل قد يشاء ما لا يحب، شاء الله عز وجل وجود إبليس، وإبليس مبغوض لله عز وجل، شاء الله وقوع الكفر والمعاصي والظلم وما إلى هذه المبغوضات لله عز وجل، لم تقع إلا لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شاءها، لكن انتبه! شاء الله وقوع ما لا يحب؛ لأنه يفضي إلى ما يحب، انتبه لهذه القاعدة: شاء الله وقوع ما لا يحب؛ لأن ذلك مفضٍ إلى ما يحب.

إذن: صار ما لا يحبه الله مما شاء وقوعه مرادًا لغيره لا لذاته، صار مرادًا لغيره لا لذاته، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦].

تأمل -مثلًا- في تقدير الله عز وجل السيئات، وأنها تقع من ابن آدم، مع كونها مبغوضة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فالله عز وجل شاء وقوعها ممن وقعت منه، ولكن إنما كان هذا لأنه يترتب على وقوعها الشيء الذي يحبه الله عز وجل، والذي وجوده أحب إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من فواته وعدم وقوعه، وهذا باب عظيم يرشدك إلى أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حكيم، وأن حكمة الله تبارك وتعالى مما تبهر العقول.

ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «مفتاح دار السعادة» أحصى نحوًا من ثلاثين فائدة يمكن أن تُلتمس من وقوع المعاصي، لمَّا تقع المعصية تكون التوبة ممن يتوب،

والله يحب التوابين. إذا وقعت المعصية يغفر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما شاء من هذه المعاصي، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يحب العفو والمغفرة، اللّهم إنك عفو تحب العفو.

إذن: لما وقعت المعاصي كان وقوعها لأنه يترتب على وقوعها شيء يحبه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قد ندركه وقد لا ندركه.

إذن: لله عز وجل الحكمة البالغة فيما يقدِّر، كل ما قدَّره، كل ما خلقه، كل ما شاءه فله فيه حكمة بالغة، لكن العقول تقصر عن إدراك حِكَم الله عز وجل في كل ما يقدِّر.

وهنا يكون من بعض الناس طغيان حينما يرومون أن يصلوا إلى حكمة الله عز وجل في كل شيء، وإلا فإنهم يكونون على نوع من الريب والشك، وربما أفضاهم أو أفضى بهم هذا إلى أن يقعوا في مهالك أبعد، نعوذ بالله من الخذلان! وهذا من طغيان ابن آدم ومن ظلمه ومن جهله، فإنه كان ظلومًا جهولًا، سبحان الله العظيم!

أنت يا ابن آدم لا يمكنك أن تدرك الحكمة في كل فعل يكون من ابن آدم مثلك، ربما يخفى عليك وجه الحكمة في فعل بعض الناس، فكيف تروم أن تحيط علمًا بحكمة العظيم الواسع الكبير الحكيم العليم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟

إذن: المقصود أن نفهم هذه القاعدة وهي: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد يشاء ما لا يحب، لم؟ لأنه يفضي إلى ما يحب، وقد ندرك ذلك وقد لا ندركه، وعدم إدراكنا لا

لعدم وجود الحكمة لكن لنقصنا وجهلنا وقصورنا، وهذا من المهمات التي ينبغي أن تُدرك، فإن من الناس من يستشكل هذا الأمر كثيرًا، حتى أفضى هذا ببعض الناس إلى أن قالوا: إن المعاصي خارجة عن مشيئة الله وإرادته الكونية، العبد هو الذي يشاء بمشيئته المستقلة أن يعصي، والعبد هو الذي يخلق هذه المعصية ويحدثها، وليس ذلك راجعًا إلى مشيئة الله ولا إلى خلقه، وهذا يقدح في إيمان العبد، لأنه انتقاص من عظمة الله العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك لما دخل عبد الجبار الهمذاني المعتزلي على الصاحب بن عباد فوجد عنده أبا إسحاق الإسفرائيني، فما كان من عبد الجبار إلا أن رفع صوته بقوله: سبحان من تنزه عن الفحشاء، يريد أن يلمز أبا إسحاق بكونه يثبت أن كل شيء بمشيئة الله حتى المعاصي فقال: سبحان من تنزه عن الفحشاء. فردَّ أبو إسحاق: سبحان من لا يكون في ملكه إلا ما يشاء. فقال عبد الجبار: أفيريد ربنا أن يُعصى؟ فرد أبو إسحاق: أفيُعصى ربنا قسرًا؟ يعني: يغالَب الله؟ تغلب إرادة العبد إرادة الله؟ الله لا يريد أن يُعصى والمخلوق يريد أن يعصي، فتغلب إرادةُ المخلوق إرادةَ الخالق؟ أعوذ بالله! أفيعصى ربنا قسرًا؟ فقال عبد الجبار: أرأيت إن منعني الهدى وأوردني الردى، أحسن إلي أم أساء؟ فرد أبو إسحاق: إن كان منعك ما هو لك فقد أساء، وإن كان منعك ما هو له فالأمر إليه يفعل ما يشاء. فانقطع عبد الجبار وأُلجم حجرًا، لأن الهداية إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، محض فضل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

المقصود: أنه ينبغي علينا أن نفهم هذه المسألة، فإن من الناس من استشكل هذا الأمر، بل كان عدم فهم هذا الموضوع على الوجه الصحيح سببًا في ضلال طائفتين: طائفة مالت إلى القول بالقدر أو إلى مذهب القَدَرية، وطائفة ذهبت إلى مذهب الجبرية.

طائفة جعلت الإرادة شرعية دينية فقط، وطائفة جعلت الإرادة كونية قدرية فقط، والحق هو التفصيل، كل موضع جاءت فيه الإرادة من النصوص فإنه ينبغي التأمل في هذا النص وفي سياقه ليُعلم ما الإرادة هنا: هل الإرادة هي الكونية أو الإرادة هي الشرعية؟

ففي نحو قوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣] كذلك: ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود:٣٤]، كذلك مثلًا في قوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ [الإسراء:١٦]، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يكره الفسق ولا يحبه، لكن قد يشاؤه ويريده كونًا لحكمة بالغة يحب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وقوع مقتضاها.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (وشرعية) يعني: هذا هو النوع الثاني من الإرادتين: الإرادة الشرعية، تسمى الإرادة الدينية أيضًا.

قال: (لا يلزم بها وقوع المراد، ولا يكون المراد فيها إلا محبوبًا له) وما المثال على ذلك من النصوص؟ قال: (كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾

[النساء:٢٧])، وكذلك يدل عليها قول الله عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

هذه الإرادة المراد فيها قد يقع وقد لا يقع، لكنه لا يكون إلا محبوبًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والسؤال: لماذا قلنا: إن الإرادة في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] لماذا قلنا: إن هذه الإرادة إرادة شرعية؟

مداخلة: ......

الشيخ: نعم، هي محبوبة لله، لكن لماذا لا تكون إرادة كونية؟ لأنها لو كانت إرادة كونية لوقع اليسر على كل أحد، وما وقع عسر قط، والأمر ليس كذلك، فقد يشاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ابتلاء أحد وامتحانه فيقع عليه تعسير وإن كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يريد هذا شرعًا.

كذلك في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٧] قلنا: هذه إرادة شرعية، لم؟ لأنها لو كانت كونية فإن هذا يقتضي أن يكون الله عز وجل قد تاب على جميع الناس، ولازم هذا أن لا يُعذَّب عاصٍ قط، والمقطوع به أن من العصاة مَن يُعذَّب في الآخرة، ولذلك ثبتت أحاديث الشفاعة وإخراج أناس من النار، هذا أمر قطعي، إذن: لابد من طائفة من العصاة أن يُعذبوا يوم القيامة، نعوذ بالله من عذاب الله!

إذن: هذه هي الإرادة الشرعية.

إذن تتمة القاعدة السابقة، قلنا: القاعدة تقول: قد يشاء الله ما لا يحب، وقد يحب ما لا يشاء.

قد يشاء الله ما لا يحب، كما شاء وجود المعاصي والظلم وتسلط الكفار على المسلمين، ووقوع أذية على حيوانات لا ذنب لها، إلى غير ذلك، هذا كله مكروه لله، لكنه وقع بمشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والذي يفهم أن لله حكمة، هذا أولًا، ويوقن بأن هناك دارًا آخرة، وأن هناك جزاءً، وأن هناك حسابًا؛ فإنه يسهل عليه فهم مثل هذا الأمر، إنما يعسر.فهم ذلك عند من كانت نظرته قاصرة ومحصورة في هذه الحياة الدنيا، ما عنده إيمان باليوم الآخر، فيقول: لماذا يقع الشر؟ ولماذا يقع الظلم؟ ولماذا يقع كذا وكذا؟ مسكين، يظن أن كل شيء إنما هو محصور في هذه الحياة، مع أن الحيوان -يعني: الحياة الحقيقية- هناك في الدار الآخرة وليست هنا في هذه الدار المؤقتة التي هي الحياة المؤقتة، أما الحياة الأبدية فإنها هناك في الدار الآخرة، فثمة حساب وثمة جزاء، وثمة إنصاف للمظلوم وأخذ الحق من الظالم.. إلى غير ذلك مما يكون يوم الدين.

إذن: قد يشاء الله ما لا يحب، وقد يحب ما لا يشاء، الله يحب الإيمان والطاعة والعبادة من جميع الناس، ولذلك أمر بهذا شرعًا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾[البقرة:٢١] هذا خطاب يتوجه إلى جميع الناس، ومع ذلك هذا الشيء

الذي أحبه الله عز وجل قد لا يقع، ولو شاء الله وقوعه فلا أحد يدفع هذه المشيئة، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعًا، لكن لله الحكمة أن جعل الناس منقسمين، فمنهم كافر ومنهم مؤمن.

إذن: قد يشاء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما لا يحب، وقد يحب ما لا يشاء، وعدم مشيئته لما يحب راجع إلى حكمة الله، كما أن مشيئته لما يكره راجع إلى حكمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ينبغي أن نفهم هاهنا مسألتين حتى يتم فهمنا لهذا الموضوع.

۞ أولًا: علينا أن نفهم أن هاتين الإرادتين مختلفتان لا متضادتان، والمختلفان قد يجتمعان، لكن المتضادين لا يجتمعان، الضدان لا يجتمعان، لكن المختلفين يمكن أن يجتمعا.

الإرادتان من هذا القبيل، والقسمة في هذا الباب رباعية، فالإرادة الكونية والإرادة الشرعية هاتان الإرادتان قد تجتمعان وقد ترتفعان، وقد تنفرد الإرادة الكونية فقط، وقد تنفرد الإرادة الشرعية فقط. الأحوال أربعة.

الحال الأولى: أن تجتمع الإرادتان، يعني: شيء أراده الله كونًا وأراده -أيضًا- شرعًا، وذلك يكون فيما وقع من الطاعات، ما وقع من الطاعات التي يحبها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هل أراده الله عز وجل كونًا؟ صلاة الفجر التي صليناها قبل قليل بتوفيق الله وفضله، هل كانت عن إرادة الله الكونية؟ يعني: هل شاءها الله منا؟

شاءها الله منا، ما دليلكم؟ كونها وقعت، وقد علمنا أن كل ما وقع فقد شاءه الله، نستدل على مشيئة الله له بوقوعه، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

هذه الصلاة نفسها هل أرادها الله شرعًا؟ ما دليلكم؟ كونها محبوبة لله عز وجل، إذا أردت أن تعرف الشيء هل هو مراد لله شرعًا أم لا فانظر في مسألة المحبة، هل هذا الشيء يحبه الله أو لا يحبه، إن كان يحبه سبحانه فهو مراد لله شرعًا.

إذن: الصلاة -صلاة الفجر مثلًا- مرادة لله شرعًا.

إذن: اجتمع عندنا هاهنا الإرادتان، تجتمعان في ما وقع من الطاعات.

قلنا: الحال الثانية: أن تنفرد الإرادة الكونية فقط، وذلك يكون فيما وقع من المعاصي، ما وقع من المعاصي مُراد لله عز وجل كونًا، يعني: شاءه الله أم لا؟ شاءه الله، ما الدليل؟ وَقَع، ولو لم يشأ الله وقوعه ما وقع.

إذن: الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شاء ذلك، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

إذن: ما وقع من المعاصي مُراد لله كونًا، وُجِد فيه الإرادة الكونية فقط.

والشرعية موجودة؟ هل المعاصي مُرادة لله شرعًا؟ هل هي محبوبة لله؟ ليست محبوبة لله، إذًا لا تكون مرادة له شرعًا، الله يبغض المعاصي ولا يحبها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الحال الثالثة: أن تنفرد الإرادة الشرعية فقط، وذلك فيما لم يقع من الطاعات، صلاة الفجر التي صليناها من فلان الكافر اليهودي أو النصراني أو المجوسي، هو كافر ودخل الوقت وخرج وهو ما صلى، هل صلاة الفجر مرادة لله عز وجل منه شرعًا؟ نعم، لم؟ لأن الله يحب الطاعات من جميع الناس، ولذلك أمر بذلك، وصلاة الفجر توجه الأمر بها إلى جميع الناس، مثلها مثل بقية الواجبات، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة:٢١].

إذن: الطاعة التي لم تقع مرادة لله شرعًا.

هذه الصلاة التي لم تقع من فلان الكافر أرادها الله كونًا؟ نعم أو لا؟ البعض يقول نعم والبعض يقول لا.

سؤال: وقعت؟ ما وقعت، إذن: ما أرادها الله كونًا، لو أرادها الله كونًا لوقعت.

إذن: هذا المثال وُجِد فيه الإرادة الشرعية فقط.

ترتفع الإرادتان، بمعنى: لا توجد الإرادتان، لا تكون الإرادتان فيما لم يقع من المعاصي، ما لم يقع من المعاصي يعني: في وقت يعني خلال الدقائق القليلة الماضية، هل وقعت منا نحن الجالسين سرقة مثلًا -والعياذ بالله-؟ هذه معصية ما وقعت، والسؤال: هل أراد الله هذه السرقة شرعًا؟ قلنا: مباشرة فكِّر في مسألة المحبة، هل يحب الله السرقة؟ حاشا وكلا! إذن: الإرادة الشرعية لم توجد هاهنا.

هل أراد الله وقوع هذه السرقة كونًا؟ لا، وما الدليل؟ ما وقعت.

إذن: ارتفعت الإرادتان في هذا المثال وهو: ما لم يقع من المعاصي.

يمثل العلماء لهذا بمثال يسهل فهم الموضوع، اجتمعت الإرادتان في إيمان أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، انفردت الإرادة الكونية فقط في كفر أبي جهل، انفردت الإرادة الشرعية فقط في إيمان أبي جهل، الله يحبه ولكن ما شاءه، والدليل أنه ما وقع. ارتفعت الإرادتان في كفر أبي بكر. هذا شيء لم يقع، وهذا شيء لا يحبه الله، إذًا لم توجد لا الإرادة الكونية ولا الإرادة الشرعية.

❁ المسألة الثانية وهي تأكيد لما مضى.وضبط لمسائل هذا الموضوع: وهي في الفرق بين الإرادتين.

الفرق بين الإرادتين يرجع إلى أربعة فروق:

◉ **أولًا**: أن الإرادة الشرعية يحب الله عز وجل متعلَّقها، والإرادة الكونية قد يحب متعلَّقها وقد لا يحب، الإرادة الشرعية ولابد متعلقها محبوب لله، وأما الإرادة الكونية فقد وقد، قد يحب الله متعلقها وقد لا يحب الله متعلقها.

إذن: هذا هو الفرق الأول.

◉ **الفرق الثاني**: أن الإرادة الكونية لابد من وقوع متعلقها، أما الإرادة الشرعية فقد يقع متعلقها وقد لا يقع.

◉ **الفـرق الثالـث**: أن الإرادة الشرعية المراد فيها مراد لذاته، وأما الإرادة الكونية فالمراد فيها قد يكون مرادًا لذاته وقد يكون مرادًا لغيره، كما مضى بيانه.

◉ **الأمر الرابع**: أن الإرادة الشرعية تلازم الأمر الشرعي، والإرادة الكونية لا تلازم الأمر الشرعي، بمعنى خذها قاعدة: كل ما أمر الله به شرعًا فقد أراده شرعًا، ما القاعدة؟ كل ما أراده الله شرعًا فقد أمر به شرعًا، ونعكس: كل ما أمر به شرعًا فقد أراده شرعًا.

إذن: هذه أربعة فروق نفرِّق بها بين الإرادتين الكونية والشرعية.

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ونؤمن بأن مراده الكوني والشرعي تابع لحكمته، فكل ما قضاه كونًا أو تعبد به خلقه شرعًا فإنه لحكمة وعلى وفق الحكمة، سواء علمنا منها ما نعلم أو تقاصرت عقولنا عن ذلك**) والله جل وعلا يقول: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨]، وقلنا: إن الله عز وجل من أسمائه الحكيم، ومن معاني الحكيم أنه ذو الحكمة.

كذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، أحكام الله عز وجل الكونية والشرعية أحسن الأحكام، وذلك لموافقة أحكامه سبحانه للحكمة، والحكمة -كما قد علمنا- وضع الشيء في موضعه اللائق به، والله عز وجل لا شك أنه منزَّه عن العبث ومنزه عن اللعب، ﴿وَمَا خَلَقْنَا

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩].

إذن: لله الحكمة البالغة.

والحكمة -كما قد علمنا- لا يلزم أن تكون معلومة على وجه التفصيل.

وأصل ضلال الخلق من كل فرقة   هو الخوض في فعل الإله بعلة

فإنهمو لم يفهموا حكمة له   فصاروا على نوع من الجاهلية

هذه من أكبر أودية الضلال، من دخل في هذا الباب فإنه سالك طريق ضلالة إلا أن يشاء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هدايته.

والقاعدة التي مرت بنا في دروس ماضية هي: أننا في باب الحكمة نستدل بما علمنا على ما جهلنا، انتبه لهذه القاعدة، في باب الحكمة نستدل بما علمنا على ما جهلنا.

أبسط لك الأمر وأسهله بضرب مثال: لو كان يقينك تامًا بمحبة والدك لك، وهذا هو الأصل أن يكون الأب محبًا شديد المحبة لابنه، وبالتالي فإنك ربما وقفت أمام بعض تصرفات هذا الوالد تجاهك، ربما وجدت فيها شيئًا من القسوة أو الغلظة، أو خلاف المعهود من اللطف والشفقة، إن كنت عاقلًا منصفًا هل بسبب موقف أو موقفين أو ثلاثة تشك في الأصل المتقرر عندك يقينًا في كونه يحبك؟ لا،

إنما ترى في نفسك أنك تستدل بما علمت على ما جهلت، تقول: أنا والله ما أدري ليش الوالد يفعل هذا، لكن الذي أنا متأكد منه أنه يحبني ويريد لي الخير لكن لا أدري، لكن لا أشك في أنه يريد الخير لي، أو أنه يحبني، أو أنه مشفق علي، أنت هنا تستدل بما علمت على ما جهلت، الذي يجب أن يكون يقيننا بحكمة الله عز وجل أعظم من ذلك وأعظم، سواء علمنا أو لم نعلم.

تأمل في قصة موسى مع الخضر. عليهما الصلاة والسلام وهما بشران مخلوقان ومع ذلك ما علم أحدهما الحكمة فيما فعل الآخر، مع كون الذي جهل الحكمة أرفع شأنًا وأعلم وأعلى قدرًا وهو موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، تخرق سفينة لماذا؟ وهذه السفينة أصحابها ساعدونا ونقلونا وأنت تخرقها، بادي الرأي ظهر الفعل عاريًا عن الحكمة، لكن لما أفصح الخضر عن الحكمة تبين أنها حكمة وجيهة، مع أن موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أعلم من الخضر وأفضل من الخضر، ومع ذلك ما تبين له وجه ذلك، فإذا كان هذا في حق مخلوق مع مخلوق فكيف في مخلوق مع خالق سبحانه وتعالى؟! خالق عظيم وعليم وحكيم وكبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يعلم، نحن لا نعلم.

إذن: يجب علينا أن نتيقن من هذا الموضوع الذي هو مزلة أقدام عند من لم يكن راسخًا فيه، وهو اليقين بحكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كل ما يقدِّره وما يخلقه وما يشرعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والدليل على ذلك -كما مر بنا سابقًا-: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

إذن: مشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مقرونة بحكمته البالغة، إرادته الكونية مقرونة بحكمته البالغة، وقل مثل ذلك -أيضًا- في الإرادة الشرعية، ما أراده الله شرعًا فإن ذلك مقرون بحكمته البالغة، لماذا كان الصيام في شهر رمضان ولم يكن في رجب أو شعبان أو في محرم، أو في الشتاء -مثلًا- في كل عام يتنقل؟ ولماذا الفجر ركعتان؟ ولماذا المغرب ثلاث ركعات؟ لماذا ما عُكِس الأمر؟ نحن على يقين أن ثمة حكمة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيما شرع من هذه الشرائع ولكن عقولنا تقصر عن ذلك، ويجب على كل إنسان أن يسلم بجهله ونقصه وتقصيره، الله خلق الإنسان جهولًا لكنه علمه مما يشاء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل:٧٨] ثم بعد ذلك علَّم الله عز وجل بالقدر الذي شاء، ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة:٣٢] والله عز وجل له الحكمة في أن كان عِلْمنا بهذا القَدْر، لأنه الذي يتناسب مع ضعفنا وقِصَر عقولنا وضعف خِلْقتنا.

إذن: المستيقن به ما ذكرنا من أن إرادة الله عز وجل مقرونة بالحكمة، سواء كانت كونية أو شرعية لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن الله تعالىٰ يحب أولياءه وهم يحبونه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦]، وقال: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]، وقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف بعد ذلك إلى الكلام عن صفة المحبة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن الكلام في ذلك طويل، ولأجل ذلك نرجئ الكلام فيه - بعون الله عز وجل وتوفيقه -.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن الله تعالىٰ يحب أولياءه وهم يحبونه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

قال الشارح وفقه الله:

إن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد تكلم عن معتقد أهل السنة والجماعة في صفة المحبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حيث يؤمن أهل السنة بأن الله جل وعلا يحب، كما أنه يُحب، فالمحبة ثابتة من طرفيها، فالله يُحِب كما أنه يُحَب، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤].

ومحبة الله تبارك وتعالى محبة تليق به جل في علاه، ليست مماثلة لمحبة المخلوقين على حد قول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، والعبد يحب والله يحب، وليس الحب كالحب، وليس المحب كالمحب، محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيء عظيم لا علم لنا بكيفيتها، ولكننا نؤمن بثبوتها لله تبارك وتعالى.

ومحبة الله جل وعلا هي العلة الغائية لوجود كل شيء، فكل شيء إنما قدَّره الله وخلقه لأن هناك حكمة يحبها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ووجودها أحب إليه من عدمها، ولذلك أوجد ما أوجد، وهذه الموجودات إما أن تكون محبوبة في ذاتها، أو أن تكون محبوبة لغيرها.

فالمقصود أن محبة الله جل وعلا هي العلة الغائية لوجود كل شيء، فشأن المحبة إذًا شأن عظيم.

والله تبارك وتعالى قد أخبر -أيضًا- عن نفسه بأنه متصف بصفتين قريبتين في المعنى من المحبة وهما: الودُّ والخُلَّة.

أما الودُّ فإنه صفو المحبة وخالصها، ومن أسمائه تبارك وتعالى: الودود، وهذا ما جاء في كتاب الله عز وجل في موضعين: في سورة هود، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود:٩٠]، وجاء في سورة البروج: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج:١٤].

والتحقيق -والعلم عند الله عز وجل- أن ودود فعول بمعنى فاعل وبمعنى مفعول أيضًا، ودود يعني: يَود ويُود، فهو اسم فاعل واسم مفعول معًا، هذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم- في تفسير اسم الودود.

كذلك ثبت اتصاف الله عز وجل بهذه الصفة في قوله جل وعلا: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦] أي: سيحبهم ويحببهم إلى عباده، هؤلاء الذين آمنوا

وعملوا الصالحات سيجازيهم الله عز وجل بهذا الجزاء، ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم:٩٦].

كما اتصف سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بصفة الخُلَّة، واتخذ الله إبراهيم خليلًا كما اتخذ نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خليلًا، ولا يُعلم في النصوص أن الله جل وعلا اتخذ خليلًا إلا الخليلين إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كما في صحيح مسلم: «فإن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا».

ولذا يخطئ أولئك الذين إذا تكلموا قالوا: إبراهيم خليل الله ومحمد حبيب الله، هؤلاء ما أعطوا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ما يستحقه؛ لأن الخُلَّة كمال المحبة وأرفع درجاتها، نعم، الله جل وعلا يحب نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، لكنه اتخذه خليلًا، وهذا أرفع من مجرد المحبة، فالمحبة ثابتة للمتقين والمحسنين والصابرين.. إلى آخره، فشأن محبة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أرفع من ذلك، اتخذه الله خليلًا.

إذن: محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خليل الله، كما أن إبراهيم عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ خليل الله.

ولا يجوز لنا معاشر المسلمين أن نصف الله تبارك وتعالى بشيء مما هو من درجات المحبة سوى ما ثبت، والذي ثبت عندنا ثلاث صفات: المحبة، والود، والخُلَّة. ولا يجوز أن يضيف الإنسان لله جل وعلا ما لم يثبت، كأن يُضاف لله عز

وجل الصبابة أو العشق أو الهيام، أو ما دار في فلك هذه الدرجات التي هي معدودة عند أهل العلم واللغة من درجات المحبة، هذا لا يجوز.

كما أنه لا يجوز للعبد أن يزعم أنه يتوجه إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بشيء من ذلك، إنما يقول: إنه يحب الله ويودُّه، لكن لا يجوز أن يقول: إنه يعشقه، كما يفعل بعض الناس يسمي: عاشق الله، أو عاشق إلهي، أو إنني أعشقك يا الله، هذه كلمة منكرة ولا تجوز، لا سيما وأن من أهل اللغة من نص على أن العشق محبة مع شهوة، ولذلك يقع العشق بين رجل وامرأة، وهذا لا شك أنه لا يجوز أن يتوجه به العبد إلى ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن: الذي ينبغي أن يُراعى مقام الأدب مع الباري سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في هذا المقام.

ولنعلم -يا رعاكم الله- أن متعلَّقات محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ متعددة، فالله جل وعلا يحب أعمالًا، ويحب أشخاصًا، ويحب بقاعًا.

فالله جل وعلا يحب أعمالًا، فهو يحب الحسنات، الأعمال الصالحة، وما تقرب إلى الله عز وجل أحد بشيء أحب إليه مما افترض سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن: الله جل وعلا يحب أعمالًا، وكل الحسنات التي حث عليها وأمر بها فإنه يحبها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولأجل ذلك أمر بها، ولذلك قلنا فيما مضى: إن الإرادة

الشرعية ملازمة للأمر، والأمر ملازم للإرادة الشرعية، كل ما أمر الله عز وجل به شرعًا فإنه مراد له شرعًا، والإرادة الشرعية قلنا: إنها مرادفة للمحبة.

كذلك يحب الله جل وعلا أشخاصًا، فهو يحب أنبياءه، ويحب المتقين، ويحب المحسنين، ويحب الصابرين.

كذلك يحب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بقاعًا، كما أخبر نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما عند مسلم في الصحيح: أن أحب البقاع إلى الله عز وجل مساجدها. فالمساجد أحب البقاع إلى الله عز وجل.

كما ثبت عند «الترمذي» أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال عن مكة: «**والله إنكِ لخير أرض الله وأحب أرض إلى الله إلى الله، ولولا أن قومي أخرجوك منكِ ما خرجت**»، فمكة محبوبة إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. إلى غير ذلك مما ورد.

وإذا علمنا هذا فينبغي أن نعلم -أيضًا- أن محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تتفاوت ببعض الاعتبارات.

من ذلك: أن حكم العمل مما تتفاوت محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له بحسبه، ولذا الواجبات أحب إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من المندوبات، قال جل وعلا في الحديث القدسي: «**وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه**».

إذن: بحسب جنس العمل أو حكمه تتفاوت المحبة.

كذلك تتفاوت محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بحسب الصفة التي يتصف بها العامل، ولذا قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله عز وجل من المؤمن الضعيف، وفي كُلٍّ خير**».

إذن: تفاوتت محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لعباده بحسب هذه الصفة وهي صفة القوة، «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله عز وجل**».

أيضًا تتفاوت محبة الله عز وجل بحسب الصفات التي يتصف بها العمل، قلنا: حكم العمل، والصفة التي يتصف بها العامل، والصفة التي يتصف بها العمل، ومن ذلك: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لما سئل عن أحب الأعمال إلى الله قال: «**أدومها وإن قل**» كما ثبت في «الصحيحين».

إذن: اتصاف العمل بالمداومة يجعله أحب إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا باب حريٌّ أن يتأمله المسلم، فكم جاء في حديث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أحبُّ العمل إلى الله، أحبُّ الأعمال إلى الله. فالأذكياء الحريصون على ارتقاء أعلى الدرجات ونيل أعظم الأجور عليهم أن يتتبعوا مثل ذلك، وأن يحرصوا على ملازمته والقيام به.

أيضًا تتفاوت محبة الله عز وجل بحسب الزمان الذي يقترن به العمل، كما ثبت في البخاري وغيره من قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه العشر» يعني: عشر ذي الحجة.

إذن: هـذه بعـض الاعتبـارات التـي تتفـاوت محبـة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لمحبوباتـه بحسبها.

وينبغـي علينـا أن نراعيهـا، وأن نتأملهـا في النصـوص، وأن نحـرص عـلى أن نقتنصها في أفعالنا ما استطعنا.

والـذي ينبغي عليك -يا رعاك الله- أن تحرص على التأمل في هذا الموضوع العظيم وهو محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكيف تنال محبته تبارك وتعالى.

قال أهل العلم: ليس الشأن أن تحِب، إنما الشأن أن تُحَب.

الشـأن أن يحبك الله، فـإذا وصـلت إلى ذلـك وصـلت إلى السعادة بحذافيرها، واعلـم أن من الناس من قد يحب الله لكن الله لا يحبه، بعض الناس قد يحب الله ولكن الله لا يحبه، بل يبغضه، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] هؤلاء المشركون هل هم يحبون الله؟ إي والله، إنهـم يحبـون الله لأن الله قـد قـال ذلـك: ﴿كَحُـبِّ اللَّهِ﴾ [البقـرة:١٦٥] يحبون معبوداتهم وآلهتهم كما يحبون الله.

إذن: هـم محبـون لله، لكـن هـل يحبهم الله؟ والله لا يحبهم الله، لأن الله أخبرنـا أنه لا يحب الكافرين.

إذن: لـيس الشـأن أن تحِـب، الشـأن أن تُحَـب، أن يحبـك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هـذا الذي ينبغي عليك -يا عبد الله- أن تجتهد في حياتك كلها في الوصول إليه، الحياة

ما هي إلا ساحة عمل وابتلاء وامتحان لكي تصل إلى هذه الرتبة المنيفة أن يحبك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

عبدَ الله! الله ما خلق قلبك إلا لكي تعرف ربك وتحبه، ما خلق الله قلبك لكي تنشغل بغير ذلك ولكي يمتلئ بمحبوبات سواه، لا والله، كما أن كُلَّك ما خُلِقت إلا لهذا، هذه قضية لابد أن يستوعبها الإنسان جيدًا.

قلبُك خُلِق لأجل أن يحب الله، ليمتلئ بحب الله، ولسانك ما خُلِق إلا لكي تذكر الله، عينُك ما خُلِقت إلا لكي تتأمل في آيات الله المتلوة والمخلوقة في هذا الكون الفسيح.

يدُك ما خلقها الله إلا لأجل أن تستعملها في طاعة الله، تقبض عليها في صلاتك في هيئة ذل لله، وتعطي فيها أو بها صدقاتك وزكواتك، وتعين بها في سبيل الله عز وجل، وتأمر بها وتنهى بها، هذا الذي لأجله خلق الله عز وجل يدك.

قدماك ما خُلِقت لِلَّعب، قدماك إنما خُلِقت لكي تنتقل بها إلى بيوت الله، وإلى المواضع التي يحبها الله لكي تطوف وتسعى وتقيم شعائر الله عز وجل من خلالها.

ركبتاك، مفاصلك خُلِقت لكي تسجد لله وتركع لله.

إذن: أنت كُلَّك أنت في جميعك إنما خُلِقت لله عز وجل، لأجل أن تؤدي عبادة الله، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ﴾ [الذاريات:٥٦] وأنت من الإنس إلا ليعبدون.

قف ولا تعجل عند قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ﴾ [الأنعام:١٦٢] قف كثيرًا عند قوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٣].

إذن: هذا الأمر -وهو أن يحبك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- حَرِيٌّ أن تفرغ له كُلَّك، عقلك وقلبك وتفكيرك واهتمامك ووقتك، حتى تنال هذا الأمر العظيم الذي إن فاتك فاتك كل شيء.

بالله عليك! ما قيمة حياتك إن لم يحبك الله؟ إنه الفشل الذريع، حياتك لا قيمة لها، تدري ماذا يعني أن لا يحبك الله؟ إنه الظلام، وإنه التعاسة، وإنه الحسرة، وإنه الخسارة، يعني: أنك فشلت في هذه الحياة، لا قيمة لحياتك، كل شيء لا قيمة له بالنسبة لك لو فقدت محبة الله.

أما لو مَنَّ الله عز وجل عليك بمحبته فهنيئًا لك يا عبد الله، والله لقد حيزت لك السعادة بحذافيرها، يحبك الله، أنت العبد الضعيف المقصر الذي لو لم يتداركك الله عز وجل برحمته فإنك خاسر ضال، ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢]، «**يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته**».

إذن: أنت على عِلَّاتك وعُجرك وبُجرك يحبك الله؟ هنيئًا لك، إذن: تتبع في كتاب الله وفي سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك المواضع التي أخبر فيها بمن يحب، والله إنها في كتاب الله ليست عبثًا، إن مررت بها قف وتأمل وعُد بالنظر إلى نفسك، وقس نفسك بما تقرأ، الله يحب المتقين، والله يحب المحسنين، والله يحب المقسطين، والله يحب الصابرين، والله يحب التوابين، والله يحب المتطهرين، والله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص، والله يحب الأذلة على المؤمنين الأعزة على الكافرين، الذين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، الله يحب الذين يتبعون النبي محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه هي الجامعة لكل ما سبق، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، هذه الجائزة العظيمة التي هي خير من الدنيا وما فيها، أن يحبك الله، أن تسير خلف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تقتفي آثاره، تنهج سنته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، تقول في الموضع الذي قال، وتفعل في الموضع الذي فعل، وتترك في الموضع الذي ترك، تتابعه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الدقيق والجليل، أبشر حينها بمحبة الله.

والله إن الله لا يخلف الميعاد، هذا وعد الله والله لا يخلف الميعاد، إن اتبعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأنك كله فسيحبك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذن: هذا مقام عظيم، ينبغي علينا أن نعقد عليه بالخناصر، وأن نشد عليه بالنواجذ، وأن نجعله آخِيَّتنا، وأن نهتم به غاية الاهتمام.

إلى متى وقلوبنا في غفلة، وحياتنا في ضياع، ولا نعطي هذا الموضوع القدر الذي يستحقه من الاهتمام، هل يحبني الله أو لا يحبني الله؟ هذا سؤال ينبغي أن نتوجه به إلى أنفسنا في كل يوم، في كل حال، نتأمل في أحوالنا، ونحرص على أن نتتبع الأسباب التي يحبنا الله لأجلها، فعسى ولعل، فإن الله كريم ودود رحيم لطيف، رحمته وسعت كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وحذارِ من الأسباب التي أخبر الله أنه لا يحب أصحابها، هذه -أيضًا- ما ذُكِرت عبثًا، إن أخبر الله أنه لا يحب الكافرين فحذارِ من الكفر، حذارِ من الشرك بالله، إن أخبر الله أنه لا يحب المعتدين إياك ثم إياك أن تعتدي على عباد الله، إن أخبر الله أنه لا يحب الظالمين حذارِ ثم حذارِ من الظلم.

إذن: هذا الموضوع موضوع عظيم ومهم، والكلام فيه -على كل حال- طويل، والمقصود من ذلك: أن أهل السنة والجماعة يثبتون لله عز وجل صفة المحبة على ما يليق به تبارك وتعالى، والمؤلف -رحمة الله تعالى عليه- أخبر بخلاصة مذهب أهل السنة في هذا المقام بأن الله عز وجل يحب أولياءه وهم يحبونه، ومحبته ليست مقتصرة على أوليائه لكن ذكر هذا على سبيل التمثيل، وإلا قلنا: إنه يحب أولياءه يعني: يحب أشخاصًا أخبر بمحبتهم، كما أنه يحب أعمالًا، كما أنه يحب بقاعًا، إلى غير ذلك مما جاء في النصوص، والعلم عند الله عز وجل.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن الله تعالىٰ يرضىٰ ما شرعه من الأعمال والأقوال، ويكره ما نهىٰ عنه منها، قال تعالىٰ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦].

قال الشارح وفقه الله:

أردف المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامه عن صفة المحبة بالكلام عن صفة الرضا والكُرْه منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والقاعدة في هذا الباب واحدة: كل صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة يجب علينا معشر المسلمين المؤمنين الذين شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يجب علينا أن نؤمن بذلك إيمانًا لا يخالطه أدنى شك، نعم، الله يحب قطعًا، والله يرضى قطعًا، والله يكره قطعًا، وهذه الصفات وأمثالها تُضاف إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ما يليق به، بحيث يعتقد الإنسان أن الله عز وجل منزَّه عن أن يكون فيها مماثلًا للمخلوقين.

إذن: الله عز وجل يرضى، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، والآيات في هذا -على كل حال- عديدة، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢]، ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨].

كذلك الكُرْه، فالكُرْه يقابل الرضا، ويدل على ذلك ما جاء في صحيح مسلم من قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا**»، إذن: الكُرْه كان مقابلًا للرضا.

كذلك ثبت في صفات الله عز وجل صفة السَّخَط أو السُّخْط، وهذه -أيضًا- مقابلة للرضا، لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد أخبر بذلك، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد:٢٨]، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما في «صحيح مسلم»: «**وأعوذ برضاك من سخطك**»، فقابل بين الرضا والسخط، فالله عز وجل يرضى إذا شاء، ويسخط إذا شاء، ويكره إذا شاء، نعوذ به من سخطه، ونعوذ به من كراهته.

والكلام في هذه المسألة يتوجه إليه ما سبق من أنه ينبغي على العاقل الحصيف أن يتتبع المواضع التي أخبر الله عز وجل فيها أنه يرضى عن أهلها، أو أنه يسخط ويكره أهلها، حتى يكون عاملًا بما يرضى وتاركًا لما يكره ويسخط سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن الله تعالىٰ يرضىٰ عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قال تعالىٰ:

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة:٨].

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

كأنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشار أولًا برضاه عن الأعمال، والآن أشار إلى رضاه عن العاملين، في السابق أخبر أنه يرضى ما شرعه من الأعمال والأقوال، ويكره ما نهى عنه، ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، والآن يتكلم عن العاملين، فالله يرضى عن العمل ويرضى عن العامل، ومن ذلك قوله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة:٨]، وكذلك ما ذكرناه: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢]، و﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨] إلى آخر ما جاء في هذا المقام.

المقصود: أن أهل السنة والجماعة يثبتون رضا الله عز وجل، ورضاه لا يشبه رضا المخلوقين، رضًا يليق به سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، كما قال الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عقيدته: والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى. وهذا هو لسان مقال وحال كل أهل السنة والجماعة جميعًا.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن الله تعالىٰ يغضب علىٰ من يستحق الغضب من الكافرين وغيرهم، قال تعالىٰ: ﴿ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح:٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل:١٠٦].

قال الشارح وفقه الله:

كذلك يعتقد أهل السنة والجماعة بأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يغضب إذا شاء، وغضبه لا كغضب المخلوقين، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وغضب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليس مقرونًا بطيش أو ظلم أو سَفَه، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا! إنما هو غضب مقرون بعدل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحكمته، فهذه الصفة في حق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كمال، بل ذلك أعظم ما يكون من الكمال، غضب لا يناله أدنى سوء أو نقص أو شر، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا!

ومما علينا أن نعتقده -أيضًا- ما أخبر به النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما ثبت في الصحيحين: أن رحمة الله عز وجل غلبت غضبه، نؤمن بثبوت الغضب لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ متى شاء، هذه صفة اختيارية لله تبارك وتعالى متعلقة بالمشيئة، ومع ذلك نؤمن أن رحمته غلبت غضبه.

وعلينا -أيضًا- أن نؤمن بأن غضب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يتفاوت، فقد يغضب في وقت غضبًا أشد من الغضب الذي يكون في وقت آخر، كما ثبت في الصحيحين في حديث الشفاعة حينما يقول الأنبياء والرسل الكرام الذين يسألهم الناس الشفاعة، ماذا يقولون؟ كل واحد يقول: «**إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله**»، نعوذ بالله من أن ينالنا غضب الله! غضب عظيم، لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، الله المستعان!

إذن: غضب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يتفاوت.

ومما يدلك على أن هذه الصفة اختيارية: هذا الحديث: «إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله»، إذن: يخطئ خطأ عظيم من يعتقد أن الغضب صفة ذاتية قديمة ملازمة لذات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، الحديث يبين خطأ هذا المتكلم بهذا الكلام، بل الله عز وجل يغضب إذا شاء، إذا وُجِد ما يقتضي غضب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ومن ذلك يوم القيامة.

المقصود أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ متصف بصفة الغضب، كما أخبر عن نفسه باتصافه بصفة قريبة في المعنى منها من هذه الصفة وهي صفة الأَسَف، المقت أشد البغض، هذه نقولها إذا كان الكلام في البغض، أما في الغضب فالقريب في المعنى من الغضب: الأسف، ﴿فَلَمَّآ آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥].

واعلم -يا رعاك الله- أن الأسف يأتي في اللغة على معنيين: يأتي على معنى الغضب، وهذا الذي أخبر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ باتصافه به على ما يليق به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أَسَف يليق بالله لا كأسف المخلوقين.

ويأتي الأسف على معنى الحُزْن، ﴿ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ [يوسف:٨٤] وهذا لا يُضاف إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أولًا: لعدم الورود.

وثانيًا: لأن المعروف عن هذه الصفة أنها ملازمة للنقص والضعف، والله عز وجل هو القوي.

إذن: الأسف هاهنا بمعنى الغضب أو قريب من معنى الغضب، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعلم.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**يغضب على من يستحق الغضب من الكافرين وغيرهم، الظانين بالله ظن السوء**)، قبل هذا الموضع قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ [الفتح:٦] ما صفتهم؟ ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ [الفتح:٦].

وظن السوء ضابطه: هو ظن ما لا يليق بالله، وتحت هذا صور كثيرة، وما أكثر الواقعين فيها مع الأسف الشديد، ظنُّ ما لا يليق بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو ظن السوء الذي غضب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على أهله، فحذاري من أن تظن بالله عز وجل ما لا يليق به، الذي ينبغي عليك أن تكون حسن الظن بالله عز وجل، ولا سيما عند

قُرْب حلول الأجل، فإن هذا موضع ينبغي على الإنسان فيه أن يحقق حسن ظنه بالله، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن في ربه» أخرجه مسلم. هذا موضع عظيم ينبغي أن يُربي الإنسان نفسه عليه، حتى إذا كانت تلك اللحظات الحرجة كان العبد حسن الظن بالله عز وجل.

وفي كل حال عليك أن تكون حسن الظن بالله، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه جل وعلا كما في الصحيحين، قال: «أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء»، وفي رواية: «أنا عند ظن عبدي بي، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر».

حُسْن الظن بالله هو أن تتوقع الجميل من الله، أن تتشوف إلى الكَرَم، أن تتشوف إلى التيسير، أن تفتح أمامك أبواب الخير والرزق منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا هو حسن الظن بالله عز وجل، لا كذاك الذي أظلم قلبه فلا يظن في ربه هذا الظن الحسن، بل لسان حاله أو لسان مقاله -والعياذ بالله- ظن السوء والشر وتوقع السوء من قِبَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا يناله مثل هذا الذي ظنه، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه: «إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر».

إذن: أحسن الظن بالله وأبشر بالخير، سينالك من جوده وكرمه ورحمته ولطفه ما هو جدير به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والكلام -على كل حال- سهل، لكن تحقيق هذا المعنى في القلب لا شك أنه يحتاج إلى مجاهدة عظيمة، في كل حال وفي كل وقت تكون محسن الظن بالله عز

وجل، مهما اضطربت الأمور وساءت الأحوال، في حال المرض، في حال الفقر، في حال نزول المصائب، حال موت الحبيب أو فقدان المال، أو ما شاكل ذلك من هذه المصائب يأتي الإيمان الصادق الذي يبث في نفس صاحبه حسن الظن بالله عز وجل، لأنه يعتقد أن ربه ومولاه أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، الذي هو أحسن تقديرًا للعبد من تقديره لنفسه، ولذلك هو واثق ومطمئن وساكن النفس، ولا ينتظر من ربه إلا ما هو الخير، وإلا ما هو الجميل، هكذا شأن أهل الإيمان، ينبغي علينا أن نجاهد أنفسنا للوصول إلى هذا المقام العظيم.

أما هؤلاء فليبشروا بغضب الله، الذين هم من الظانين بالله ظن السوء، نعوذ بالله من هذه الحال! أيُّ مصيبة أعظم من أن يحلل غضب الله عز وجل على العبد، ﴿ وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ [طه:٨١]، الله أكبر! نعوذ بالله من هذه الحال!

إذا حَلَّ غضب الله عز وجل في إنسان فإنا لله وإنا إليه راجعون، ماذا يُنتظر؟ وماذا يُتوقع؟ المقام ولا شك مقام عظيم، نعوذ برضاه من سخطه جل ربنا وعز!



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن لله تعالىٰ وجهًا موصوفًا بالجلال والإكرام، قال تعالىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧].

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ إلى بيان معتقد أهل السنة والجماعة في إثبات صفة الوجه للباري جل وعز، فقال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**ونؤمن بأن لله تعالى وجهًا موصوفًا بالجلال والإكرام**) واستدل على هذا بقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

والأدلة على ثبوت الوجه لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أدلة كثيرة، ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد:٢٢]، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٩] في نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تدل على ثبوت صفة الوجه الموصوف بالجلال والإكرام لذي الجلال والإكرام.

والذي علمناه من الأدلة: أن وجه الباري سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ موصوف بصفات، منها: أنه ذو الجلال والإكرام، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، فقوله: ﴿ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] صفة للوجه أو لقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧] صفة للوجه؛ لأن (ذو الجلال والإكرام) مرفوع، وبالتالي يكون صفة لقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ﴾، بخلاف ما جاء في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨]

فقوله: ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾ صفة للرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. فوجه الله عز وجل هو الموصوف بكونه ذا الجلال والإكرام.

أيضًا: وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ موصوف بأن له سُبُحات، والدليل على هذا ما ثبت في صحيح مسلم من قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، (سُبُحات وجهه) يعني: بهاؤه وجلاله ونوره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فهذا يدلك على أن هذه الصفة صفة عظيمة تليق بالله تبارك وتعالى، حتى إن وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لو لم يكن دونه حجاب النور لاحترق كل شيء من مخلوقات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهذه السُّبحات العظيمة لوجه الباري جل وعلا.

أيضًا وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ موصوف بأن له حجابًا من نور، كما مر معنا في هذا الحديث: «حجابه النور».

أيضًا وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليه رداء الكبرياء، ويدل على هذا ما ثبت في صحيح مسلم من قول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وليس بين القوم وأن يروا ربهم إلى رداء الكبر على وجهه في جنة عدن»، والحديث في مسلم وأيضًا في البخاري، فهو مخرج في الصحيحين.

إذن: هذا ما علمنا من صفة وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وأهل السنة والجماعة يثبتون هذا، الله عز وجل موصوف بالوجه حقيقة، وهو وجه يليق به تبارك وتعالى لا كأوجه المخلوقين، يتنزه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن أن

يكون وجهه كأوجه المخلوقين، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإن من الإلحاد في آيات الله عز وجل ومن الخطأ الجسيم: أن يُفسَّر وجه الله جل وعلا بذاته، حينما يقال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧] فيُفسَّر الوجه بالذات، هذا من الإلحاد في آيات الله جل وعلا ومن تحريف الكَلِم عن مواضعه.

الوجه ليس هو الذات، ولا يجوز أن يُفسر بذلك، والذين قالوا هذا إنما قالوه عن مرض وقع في نفوسهم وهو مرض التشبيه، ظنوا -ويا بؤس ما ظنوا- أن إثبات الوجه لله تبارك وتعالى يقتضي حصول المشابهة والتمثيل بينه وبين خلقه، فيقول هؤلاء: لا نعقل من له وجهًا إلا وهو مخلوق، فإذا كان لله وجه حقيقة فهذا يقتضي مماثلته للمخلوق.

وهذا لا شك أنه راجع إلى خلل في منهج التلقي والتعظيم للنصوص عند هؤلاء، لو أن هؤلاء قدروا كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق قدرهما ما قالوا هذا الذي قالوا.

والعجيب أنهم ما صنعوا شيئًا، لأنه إذا كان إثبات الوجه -في زعمهم- يقتضي التشبيه فإثبات الذات يقتضي التشبيه، إذا قالوا: لا نعقل من له وجهًا إلا وهو مخلوق، فإننا نقول على سبيل التنزل: ولا نعقل من له ذات إلا وهو مخلوق. فالشيء الذي فروا منه وقعوا فيه.

ثم هؤلاء المخلوقون لهم أوجه مختلفة، لم تتماثل ولم تتشابه، ألم تر أننا نقول: وجه الفيل، ونقول: وجه النملة، ونقول: وجه النهار، ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى

الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ ﴾ [آل عمران:٧٢] ونقول: وجه القوم، جاء وجه القوم وجاء وجوه القوم، ونقول: وجه القول، أو وجه الرأي، أليست هذه أوجهًا؟ هل هي متماثلة؟ لا والله ليست متماثلة، إنما الوجه في كل موضع بحسبه، فوجه النملة يليق بالنملة، ووجه الفيل يليق بالفيل، ووجه النهار يليق بالنهار، ووجه القوم يليق بالقوم، وهلم جرا.

إذن: زَعْم القوم أن ثبوت الوجه لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقتضي حصول المشابهة، أو على الأقل يوهم ذلك؛ لا شك أنه من الخطأ البيِّن الذي لا يجوز أن يُقال في كتاب الله ولا في سنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ويا لله العجب! أين وجدوا في وجوه المخلوقين وجهًا موصوفًا بالجلال والإكرام، وجهًا له سُبُحات عظيمة، وجهًا له حجاب من نور أو عليه رداء من كبر؟ أين وجدوا هذا حتى يقولوا: إن إثبات الوجه يقتضي التمثيل؟ لا شك أن هذا من التحريف المقيت الذي لا يجوز لمؤمن أن يقول به البتة، إنما نثبت لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما أثبت لنفسه وما أثبته له رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، نسلم ونوقن ونصدق دون أن نخوض في تكييف أو نخوض في تحريف.

لو قيل لنا: الله موصوف بالوجه، فكيف وجهه؟ ماذا نقول؟ نقول: هذا السؤال ممنوع، وهذا السائل ما قدر الله حق قدره حتى يسأل كيف وجه الله عز وجل، فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ذاته غيب بالنسبة لنا، فلا نعرف كيف ذاته فكيف نعرف كيف صفته؟ فالكيف غير معقول، لوجه الله كيفية لكننا لا نعقلها، لا ندري عنها.

المقصود أن ثبوت الوجه شيء قطعي لا شك فيه، والأدلة في ذلك كثيرة في الكتاب والسنة.

استدل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ثبوت الوجه لله جل وعلا بهذه الآية: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، وسبقها قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦].

والشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إذا قرأت هذه الآية فَصِل ولا تقف، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧] يعني: إذا قرأت هاتين الآيتين فَصِل بينهما، ووجه ذلك: أن تمام الكمال والمدح إنما يكون بالوصل، فتمام كمال الله عز وجل إنما يكون ببقائه بعد فناء المخلوقات، وقد علَّق هذا ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه من الفقه في كتاب الله.

ولكن الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن اتباع السنة أولى، فإنه قد ثبت في حديث أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا في وصف قراءة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قالت: «كان يقطع قراءته فيقرأ آية آية».

إذن: الأولى للإنسان أن يقف عند نهاية الآية: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، وإن وصل فلا حرج.

ويبقى البحث في معنى هذه الآية، فإن من الناس مَن تكلم في هذا المقام واستعمل من الكلمات ما لا ينبغي أن يُستعمل في هذا المقام، كأن يقول: إن هذا من ذكر الجزء وإرادة الكل. ولكن هذا ليس من الأدب مع مقام الربوبية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كلمة الكل والجزء مثل هذا لا ينبغي للإنسان أن يتفوَّه به في حق

الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إنما الحق في هذا المقام أن يُقال: هذه الآية لها دلالتان: دلالة بالمطابقة، ودلالة باللزوم.

أما دلالة المطابقة فإنها بيَّنت لنا أن وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ باقٍ، ودلالة اللزوم أنه هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ باقٍ، فيلزم من بقاء وجهه بقاؤه هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لأن وجه الله عز وجل صفة له، والصفة قائمة بالموصوف، فإذا بقيت الصفة فالموصوف باقٍ.

إذن: ينبغي أن نلاحظ هذا الأمر وهو إقرار وإمرار وإثبات الدلالتين: دلالة المطابقة ودلالة اللزوم.

وقل مثل هذا -مثلًا- في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد:٢٢]، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٩]، فما معنى ﴿نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾؟

الجواب أن يقال في هذه الآية كما قلنا قبل قليل: هذه لها دلالتان: دلالة المطابقة أننا نطعم لوجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ودلالة اللزوم أننا نطعم له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وبيان ذلك: أن من سَنَن كلام العرب أنهم يذكرون الوجه والمراد الذات تشريفًا وتعظيمًا، يقول: فعلت هذا لوجهك والمراد: لأجلك، فهم يذكرون الوجه تشريفًا وتعظيمًا، لأن الوجه أشرف ما في الذات، هذا الذي يعرفه الناس فيما بينهم، والقرآن جاء بلسان العرب.

وذكر بعض أهل العلم هاهنا نكتة لطيفة وهي: أن المؤمنين حينما قالوا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ كأنهم يقولون: إنما نطعمكم ونحن نرجوا لقاء الله

عز وجل ورؤية وجه الله التي هي أعظم نعيم أهل الجنة، إنما نطعمكم ونحن نرجوا لقاء الله ونيل هذا الثواب وهو رؤية وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾، وهذه نكتة لطيفة في هذه الآية وما شابهها في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والمقصود: أن الله عز وجل موصوف بالوجه، ورؤية وجه الله عز وجل أعظم نعيم أهل الجنة، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يسأل ربه نيل هذه الرؤية، وهذه الرؤية لها لذة عظيمة تفوق كل اللذات، نعيم أعظم من كل النعيم، وهذا ما ثبت في سنن النسائي من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيه: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك»، فأعظم نعيم أهل الجنة هو رؤية وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع حلول رضوانه، ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢].

والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن لله تعالىٰ يدين كريمتين عظيمتين، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

قال الشارح وفقه الله:

ثم بيَّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ معتقد أهل السنة والجماعة في صفة اليد لله جل وعلا، فقال: (ونؤمن بأن لله تعالى يدين كريمتين عظيمتين).

الوجه واليد وما سيأتي من صفة العين كل تلك من الصفات الذاتية لله تبارك وتعالى، ومن كان يؤمن بكلام الله وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويصدق بذلك فإنه يثبت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك حقيقة، ويستيقن بهذا يقينًا لا ينتابه شك، وإذا كان يؤمن بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤] وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥] فإنه سيعتقد أن وجه الله لا يشبه أوجه المخلوقين، وأن يد الله عز وجل لا تشبه أيدي المخلوقين، وأن عينه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تشبه أعين المخلوقين، هذا ما عليه أهل التسليم وما عليه أهل القلوب السليمة.

الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وصف نفسه بأن له يدين، فنحن نعتقد ذلك، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة:٦٤] والذي أخبر بهذا هو الأعلم بنفسه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

كذلك أثبته له أعلم الخلق به نبينا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

والدليل على ثبوت اليدين ما أورده المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى من قوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة:٦٤]، ويدل على ذلك -أيضًا- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص:٧٥]، فثبوت اليدين لله تبارك وتعالى شيء قطعي لا شك فيه، والأدلة على هذا كثيرة، ذكر ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ أن ثبوت اليد لله تبارك وتعالى وما لها من صفات جاء في الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين في نحو مائة موضع، كلها دالة على ثبوت هذه الصفة على ما يليق بالله تبارك وتعالى.

ويداه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ موصوفتان باليُمْن والبركة، يدان عظيمتان كريمتان كما قال المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ، ولذلك عند الترمذي بإسناد صحيح: أن آدم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «اخترت يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين مباركة» يعني: موصوفتان باليُمْن والبركة.

ويدل على أنهما يدان كريمتان قوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة:٦٤]، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كريم سبحانه جل وعلا، ويداه مبسوطتان بالنفقة على المخلوقين.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّن أن المعتقد الحق في هذا المقام أنهما يدان لله تبارك وتعالى، نعتقد أن لله يدين.

وقد يقول قائل: وماذا نصنع بقول الله جل وعلا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:١] فهاهنا ذكر يدًا مفردة، فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إنهما يدان واستدل على هذا، وفي القرآن ما يدل على أن اليد مفردة، هكذا يتوهم بعض الناس من حصول الإشكال.

والجواب عن هذا أن يُقال: إن قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:١] هذه الكلمة (بيده) مفرد مضاف، وقد علمنا في دروس أصول الفقه: أن المفرد المضاف يعم، من ألفاظ العموم، وبالتالي فإن قوله: (بِيَدِهِ) لا يدل على أن اليد مفردة واحدة، إنما يدل على ثبوت جنس اليد، يعني: كل ما ثبت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من هذه الصفة سواء كانت يدًا أو يدان أو أكثر، إنما المفرد المضاف يدل على ثبوت جنس الصفة، وبالتالي فإنه لا تعارض الإفراد والتثنية.

فإذا قال لنا: وماذا نصنع بقوله تعالى: ﴿أَيْدِينَا﴾ [يس:٧١] فهاهنا ذُكِرت اليد مجموعة، فهل ثمة تعارض بين الجمع والتثنية في قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾؟

الجواب: ليس ثمة تعارض بحمد الله.

أما توجيه هذا الجمع فإنه يرجع إلى أوجه:

◉ منها: أن أقل الجمع اثنان.

◉ ومنها: أن الجمع في هذه الآية إنما كان لمناسبة اللفظ، وفي هذا نكتة بلاغية، وجه ذلك: أنه لما كان المضاف إليه ضمير جمع ناسب أن يكون المضاف

جمعًا، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أخبر عن نفسه بضمير الجمع: ﴿ عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ [يس:٧١]، الله عز وجل يخبر عن نفسه بلفظ التعظيم أو ضمير التعظيم، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، انظر إلى هذا التعظيم في خمسة مواضع في هذه الآية، وهذا كثير في النصوص.

إذن: لما كان المضاف إليه ضمير جميع ناسب أن يكون المضاف جمعًا. وهذا له -على كل حال- نظائر، سواء كان في القرآن أو في السنة أو في كلام العرب.

◉ وهناك توجيه ثالث للجمع في قوله تعالى: ﴿ عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ وهو أن المثنى إذا أضيف إلى ضمير تثنية أو جمع فإنه يُجمع على الأفصح، وهذا له أمثلة: ﴿حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ [الأنعام:١٤٦] و﴿ سَوْآتُهُمَا ﴾ [طه:١٢١] وما شاكل ذلك من ألفاظ جاءت في الكتاب والسنة.

إذن: لا تعارض بين الإفراد والتثنية والجمع، الإفراد يُراد به ثبوت جنس الصفة، كما تقول هذا التوجيه في قوله تعالى مثلًا: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ ﴾ [البقرة:١٨٧] هل المقصود ليلة واحدة؟ لا.

كذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ [النحل:١٨] ليست نعمة واحدة، إنما هذا يدل على ثبوت جنس النعم، كل النعم لا يمكن إحصاؤها لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والجمع على ما ذكرت لك من هذه الأوجه الثلاثة، وأما التثنية فإنها نص في إفادة أنهما يدان، والتثنية لا يمكن أن يدخلها أدنى اشتباه.

إذن: الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ثبت أن له يدين، وأن يديه كريمتين عظيمتين موصوفتين باليُمْن والبركة.

وما قلناه في الوجه يُقال هاهنا -أيضًا- في اليد، فإن من الناس من يكون في نفسه شيء من الحَرَج -نسأل الله العافية- من إثبات اليد لله تبارك وتعالى، وذلك أنه قد سبق إلى ذهنه من معنى اليد ما يتصف به المخلوق، فيستعظم أن يصف الله تبارك وتعالى بذلك، وهذا -كما ذكرت- خلل عظيم وإشكال كبير.

والحق الذي لا شك فيه أن يد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لائقة به، ليست كأيدي المخلوقين، ولا يمكن أن يُظن هذا الظن؛ لأن ليس هناك شيء يوهم هذا التشبيه البتة، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد وصف هاتين اليدين بصفات تمنع توهم التشبيه إطلاقًا.

تأمل -مثلًا- في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧] أين وُجِد في المخلوقات ما هو متصف بِيَدٍ هذا شأنها، تقبض الأرض وتطوي السماوات، كما ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الله تعالى يقبض الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ويقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض**»، أين وجدنا يدًا في المخلوقين يكون منها هذا الأمر أنها تقبض الأرض وتطوي السماء، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، سبحان الله العظيم! إذن: لا يمكن أن يقع أدنى توهم لأن تكون يد

الله عـز وجـل مشـابهة لأيـدي المخلـوقين فنحتـاج أن نقفـز عـلى هـذا بالتأويـل والتحريف.

والأمر كما ذكرته آنفًا إذا كانت أيدي المخلوقين متفاوتة لا تماثل بينها، فكيف بين يد الله عز وجل ويد المخلوق؟ كيف يتوهم التمثيل؟ إذا كنا نقول: يدُ الفيل ويد النملة ويدُ الإنسان ويدُ الباب، هذه أيدي، ومع ذلك ما تشابهت، فاليد في كل موضع بحسبها، ويد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لائقة به، ليس لها أدنى مماثلة بأيدي المخلوقين، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١].

والعصمة في هذا الباب أن يستحضر ثلاثة أُسس يبني عليها معتقده في باب الأسماء والصفات، انتبه لها!

۞ أولًا: الإيمان بكل ما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله تعالى وصفاته، بما أن الله أخبر أنه موصوف بهذه الصفة وتلك وثالثة وإلى آخره، وكذلك كان منه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن وصف ربه بتلك الصفات؛ إذًا والله لا يمكن أن يثبت لك إيمان حتى تصدق وتوقن بما أخبر به الله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

۞ الأساس الثاني: تنزيه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن مشابهة المخلوقين، كل تلك الصفات التي آمنت بها يجب أن تعتقد أنها لا تماثل صفات المخلوقين، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم:٦٥]، ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:٤]، ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ ﴾ [النحل:٧٤]، ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ [البقرة:٢٢].

❁ الأساس الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، اقطع جذور الطمع من قلبك أن تدرك كيفية صفة الله تبارك وتعالى، أنَّى يكون ذلك -يا عبد الله- والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما رأيناه ولا رأينا مثيلًا له، وأنت خبير بأن الشيء الذي لا تدركه فإنه لا يمكن لك أن تدركه إلا بطريق من ثلاث طرق، كل ما غاب عنك إدراكه فلا يمكنك أن تصل إلى إدراكه والعلم به إلا بطريق من ثلاث طرق:

◉ أولًا: أن تراه، وبالتالي يخرج من حيِّز الغيب إلى كونه شهادة.

◉ الطريق الثانية: أن ترى نظيرًا له مشابهًا له، فتقيس النظير على نظيره، الشيء على شبيهه، فتستفيد علمًا به.

◉ والأمر الثالث: أن يأتيك عنه خبر صادق.

دعنا نطبق هذا فيما يتعلق باليد، أرأيت لو كان هناك إنسان لا يعرف كيفية يدي، فأنا أخرج يدي هكذا وأقول: هذه يدي، هل عرفتها -يا عبد العزيز- الآن؟ عرفت يدي؟ بماذا؟ لأنك رأيتها.

إذن: أصبحت اليد الآن معروفة مدرَكة.

نأتي إلى الطريق الثانية: الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ هل لهم أيدي؟ الجواب: نعم، ألم يقل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح:١٠]، إذن: الصحابة لهم أيدي.

كيف هي أيدي الصحابة؟ يمكن لنا أن ندرك شيئًا عنها أو لا؟ كيف ونحن ما رأينا الصحابة ولا رأينا أيديهم؟ فإذا كانوا بشرًا وأناسًا ورجالًا ونساءً فهم مثلنا، نقيس النظير على نظيره، فنقول: أيديهم تشبه هذه الأيدي التي هي معنا.

إذن: حصل لنا إدراك بالشيء الذي غاب عنا وإن كان دون الذي قبله، فليس راءٍ كمن سمع.

نأتي الآن إلى مثالٍ ثالث: الملائكة عليهم السلام لهم أيدي، ما رأيكم؟ الله أعلم، ولكن هل أعلمنا الله؟ يا رجل! ألم يقل الله عز وجل: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام:٩٣]؟ والسؤال: كيف أيدي الملائكة؟ من يعرف الجواب؟ والذي يعرف الجواب له جائزة، ما رأيكم؟ لا يمكن لأحد أن يقول كيف هي يد الملائكة، أن يجيب بحق، يمكن أن يتخرص ويجيب بباطل، أما أن يجيب بحق فلا يمكن، لم؟ ما رأيناهم، وليس لهم مشابه رأيناه فنقيس هذا على هذا.

إذن: يد الملائكة بالنسبة لنا غيب، وهذا الغيب نحن قاطعوا الطمع عن إدراكه، ما أحد جلس وبحث ونقَّر وأفنى الساعات في البحث في كيفية صفة يد الملائكة؛ لأن هذا شيء لا يمكن أن تصل إليه، غيب، ما رأيناهم ولا رأينا مثيلًا لهم، ولا جاءنا في الأدلة كيفية صفة يد الملائكة، وبالتالي علينا أن نسكت، ولذلك هذا الذي يتكلم بالباطل لا شك أنه قد وقع في أمر مذموم، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيَّن ضلال المشركين حينما خاضوا بالباطل، قال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا

الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ [الزخرف:١٩] ماذا قال الله؟ ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ [الزخرف:١٩].

إذن: هم يتكلمون بتخرص وبباطل، وليس لهذا مستند صحيح.

إذن: إذا كان هذا في حق مخلوقين، الملائكة مخلوقون عباد لله عز وجل كما نحن مخلوقون وعباد لله عز وجل، ومع ذلك ما أدركنا كيفية أيديهم، فكيف يطمع الإنسان أن يدرك كيفية صفة يد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

ثم ثبوت اليد في الملائكة ما جعلنا نتوهم أن أيديهم مثل أيدينا، ما تجد أحدًا يقول: ثبوت اليد للملائكة يدل على أن أيديهم مثل أيدينا؛ لأننا لا نعقل من الأيدي إلا ما هو كهذه، أحد سمعتموه قال هذا؟ ما أحد قال هذا، مع أنه لو قاله فيكون مخطئًا، لكنه خطأ لا يُقارن بالخطأ في الكلام في صفة الله عز وجل، لأنه يتكلم في مخلوق، هو خطأ ولا شك وعظيم ولا شك، ولكن لا أحد حينما وصل إلى هذه الآية قالوا: لابد أن نؤول لأن الملائكة من جنس آخر خُلقت من نور ونحن خلقنا من طين، إذًا لابد أن نؤول أيديهم. تجد كل من يمر على هذه الآية: ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام:٩٣] يقر في نفسه أن الملائكة موصوفون باليد حقيقة، ومع ذلك لا يخوض البتة ولا يستشكل أبدًا أن لهم أيدٍ، إنما يقول: أيدي تليق بهم، كيف هي؟ ما أدري، الله أعلم. فلماذا لا يصنع الإنسان هذا الشيء وهو أولى به في حق صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ لا يشغل نفسه ولا يستشكل ثبوت الصفات لله تبارك وتعالى لكونها ثابتة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ما يليق به،

وللمخلوق من ذلك قَدْر مشترك يليق به، مع ثبوت قَدْر فارق وبون شاسع بين الصفتين.

إذن: إذا أخبر الله عن نفسه أن له عينًا، أن له يدًا، أن له وجهًا، أو أنه يضحك، أو أنه يأتي، أو أنه ينزل، أو أن له قدمًا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فالواجب أن نعتقد ثبوت ذلك يقينًا، ولا نشغل أنفسنا بتكييف هذه الصفات، ولا يجوز لنا أن نصرف هذه الأدلة عن ظاهرها الذي يليق بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأجل هذه الشبهة التي هي شبهة التشبيه.

الحق هو في المسلك الوسط بين أناس شبهوا الله عز وجل بالمخلوقين وبين أناس عطلوا صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والممثل يعبد صنمًا، والمعطل يعبد عدمًا، والمثبت السني يعبد الله العظيم، يعبد ذا الجلال والإكرام الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن لله تعالىٰ عينين اثنتين حقيقتين، لقوله تعـالىٰ: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود:٣٧]، وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حجابه النور، لـو كشـفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه».

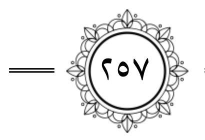
وأجمع أهل السنة علىٰ أن العينين اثنتـان، ويؤيـده قـول النبـي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدجال: «إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور».

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ اللهُ إلى الكلام عن إثبات أهل السنة والجماعة صفة العينين لله جل وعلا، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود:٣٧]، وجـاء عـلى هـذا النسـق وفي هـذا البـاب أدلـة أخـرى، كقولـه تعـالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:٣٩]، كذلك قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]، إلى غير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة في إثبات صفة العين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فنؤجل -إن شاء الله تعالى- الكلام عنها بعون الله جل وعلا وتوفيقه.





قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن لله تعالىٰ عينين اثنتين حقيقتين، لقوله تعـالىٰ: ﴿وَاصْـنَعِ الْفُلْـكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود:٣٧]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حجابه النور، لـو كشـفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه».

وأجمع أهل السنة علىٰ أن العينين اثنتـان، ويؤيـده قـول النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدجال: «إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور».

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

لا يـزال المؤلـف -رحمة الله تعـالى عليـه وجـزاه ربي عنـا خـيرًا- يـوالي في ذِكْـر صفات الله جل وعلا التي يثبتها ويعتقد بما جاء في أدلتها أهلُ السنة والجماعة.

وهذا الموضوع موضوع عظيم، أعني: معرفة أسماء الله جل وعلا وصفاته، هذا هو العلم، وهو أشرف العلم، وهو الذي خلقنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من أجله، الله تبارك وتعالى خلقنا لأجل أن نعرفه ثم أن نقوم بما يلزم من معرفته من عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا أمر عظيم ومطلب سامٍ جليل، ينبغي علينا أن نعطيه حقه، وأن نهتم به غاية الاهتمام.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق هذا الكون لأجل هذا الأمر العظيم، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢]، هذا الكون كله خلقه الله

جل وعلا لأجل أن نعلم صفاته تبارك وتعالى، مثل كونه يعلم ما في السماوات وما في الأرض، ومن كونه بكل شيء عليم، هذا مقام في غاية الأهمية لا من جهة شرف الموضوع، ولا من جهة حاجتك إليه يا عبد الله!

إن كثيرًا من الناس يظن أن حاجته إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هي من حيث كونه ربًا له لا غير، فهو فقير إلى عطائه ومنِّه، منه جل وعلا الرزق، ومنه النعم، ومنه الإعداد والإمداد، ومنه النصرة والعون، فهو يحتاج إليه لكونه ربه، لكن هذا ليس كل شيء، ثمة شيء آخر شيء عظيم وهو حاجتك إليه من حيث كونه إلٰهك، من حيث كونه معبودك، من حيث كونه المحبوب المخوف المرجو وحده لا شريك له.

فالله ربنا، والله إلٰهنا، حاجتك إليه من حيث كونه ربًا، وحاجتك إليه من حيث كونه إلٰهًا، فإن في القلب وحشة عظيمة لا يزيلها ولا يؤنس هذا القلب إلا معرفة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، في القلب قحط ويُبْس وجفاف إلا إذا ذُكِر هذا الإلٰه العظيم.

في القلب مرض لا يداويه إلا محبته ورجاؤه وخشيته والتوكل عليه.

والله لو أن القلوب صحيحة سليمة لكان هاجسها وهجِّيراها ودأبها ليل نهار أن تتعلم أسماء الله وصفاته، أن تتعرف على ربها وخالقها، وإلٰهها ومحبوبها

والمتوكَّل عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن القلوب بين ميت ومريض إلا من رحم الله عز وجل، ميت لا يحس بحاجته إلى هذا الأمر العظيم.

.... ما لجرح بميت إيلام

ومريض، والعجيب أنه يجهل أنه مريض، ويغفل عن كونه مريضًا، قلبه في غاية البؤس وهو غافل، والسبب أنه يلهِّيه، تخيل إنسانًا مريضًا، المرض يفري في جسده وهو يستعمل مسكنات، المسكنات لا تعالج، هكذا شأن القلب المريض الذي حاجته إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من حيث كونه إلهه حاجة عظيمة ومع ذلك هو غافل، لا يستشعر مدى الحاجة والقحط والعطش الذي في قلبه إلى معرفة ربه سبحانه وإلهه.

فمصيبة وأيُّ مصيبة أن يغفل الإنسان عن هذا الأمر العظيم، قف عنده ولا تتجاوزه، فرِّغ له قلبك، وفرِّغ له وقتك، وأعطه ما يستحق من اهتمام، كتاب الله عز وجل وكذا سنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مليئة بذكر أسماء الله وصفاته، وهذا والله ما كان عبثًا، إنما كان لأن العباد أحوج ما يكونون إليه، فإذا مررت بشيء منه فقف وتأمل وأعط قلبك وعقلك حظه من هذا النعيم المعجل، والله إنه لنعيم معجَّل، الحياة بدونه بائسة لا قيمة لها وهو معرفة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لو أن القلوب صحيحة فإنها ستدرك ذلك تمام الإدراك.

مثل هذا الموضوع لا ينبغي أن يُعامل كغيره من الموضوعات، هذا العلم ليس كغيره من العلوم، اعقد عليه بخناصرك، وعض عليه بنواجذك، واهتم به غاية الاهتمام، والله عز وجل يحب ذلك منك، الله يحب أن تعرفه، ويحب أن تعلم أسماءه وصفاته، ولذلك كم في كتاب الله: واعلموا أن الله كذا، واعلموا أن الله كذا، واعلموا أن الله كذا، ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨] (اعلموا) فعل أمر يقتضي الوجوب.

إذن: يجب علينا أن نعلم هذا الأمر العظيم، ووالله لو لم نؤمر به لكان ينبغي أن يكون من قلوبنا باعث يحثنا على الاهتمام به، والله المستعان!

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من جملة ما ذكر: أن الله تبارك وتعالى متصف بعينين كريمتين، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ونؤمن بأن لله تعالى عينين اثنتين حقيقيتين، لقوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾** [هود:٣٧]).

والكلام في ثبوت العين كالكلام الذي مضى في صفة اليدين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فنحن نؤمن ونعتقد ونوقن ونسلِّم بأن الله تبارك وتعالى متصف بهذه الصفة العظيمة، ولكننا لا نعلم -والله- كيف هي، وليس هذا من شأننا، والله جل وعلا أخبرنا أن له عينين ولم يخبرنا كيف هما، فعلينا أن نقف حيث وقف الكتاب والسنة.

والكلام -كما ذكرت- في صفة العينين كالكلام في صفة اليدين، فإن العين جاءت في كتاب الله عز وجل مضافة إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بصيغة الجمع وبصيغة الإفراد، ودلت السنة على التثنية.

أما الجمع فإنه قد جاء في نحو ما جاء في كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود:٣٧]، وقد ذكرنا الوجه الذي يُحمل عليه الجمع في صفة اليد، ذكرنا ثلاثة أوجه، هذه الأوجه الثلاثة تنطبق -أيضًا- على ما جاء في صفة العين، فالجمع هاهنا إما على أن أقل الجمع اثنان، أو أن المناسبة هنا مناسبة لفظية، وهذه فيها نكتة بلاغية، وهي أنه لما كان المضاف إليه مجموعًا ناسب أن يكون المضاف مجموعًا.

وذكرنا -أيضًا- وجهًا ثالثًا وهو القاعدة العربية المشهورة: وهي أن المثنى إذا أضيف إلى ضمير تثنية جُمِع على الأفصح، فكيف إذا أُضيف إلى ضمير جمع، فمن باب أولى أن يُجمع.

إذًا قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود:٣٧] لا يدل على ثبوت أعين كثيرة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إنما ذلك على ما ذكرت لك، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له عينان كما سيأتي -إن شاء الله- في تقرير ذلك في دليل السنة.

وهنا مسألة وهي: ما معنى قوله: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؟ الكلام في ذلك كالكلام فيما ذكرناه في صفة اليد، ومر -أيضًا- في صفة الوجه، **وذلكم أن هذه الآية لها عند أهل العلم دلالتان:**

◉ الدلالة الأولى: دلالة مطابقية.

◉ والدلالة الثانية: دلالة لزومية.

فهي تدل بدلالة المطابقة على ثبوت العين لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وتدل بدلالة اللزوم على أن نوحًا عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ كان يصنع الفلك على مرأىً من الله عز وجل وكلاءة ورعاية منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وهذه الدلالة اللزومية منها يُستفاد تفسير الآية، فأهل السنة والجماعة يجمعون بين إثبات الدلالتين، كلاهما حق، وكلاهما مما يجب إثباته في هذه الآية.

قال: (**وقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**)، هذا الدليل استدل به المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ على إثبات صفة العين لله تبارك وتعالى.

ووجه ذلك: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبر عن ربه جل وعلا في هذا الحديث أنه متصف بصفة البصر، فقد قال عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، والبصر إنما يبصر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ويرى بعينيه، فالعينان هما اللتان يُبصر بهما، كما قال القحطاني رَحِمَهُٱللَّهُ في نونيته:

لله وجــه لا يُحَــد بصــورة ولربنــا عينــان ناظرتــان

فالله جل وعلا يبصر بعينيه، فيدل هذا الحديث بدلالة اللزوم على ثبوت العينين لله تبارك وتعالى، ويدل بدلالة المطابقة على إثبات صفة البصر بدلالة المطابقة، وبدلالة اللزوم على إثبات العين لله جل وعلا.

ومسألة الحجاب مرت بنا حينما تكلمنا عن صفة الوجه لله تبارك وتعالى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأجمع أهل السنة على أن العينين اثنتان، ويؤيده قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدجال: «إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور»)، هذا حديث صحيح ثابت عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث ابن عمر وكذلك من حديث أنس رضي الله تعالى عنهم.

وهذا الحديث يدل دلالة واضحة على ثبوت العينين لله جل وعلا.

تقرير ذلك: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أن الدجال أعور، وأن الله ليس بأعور، والعَوَر كما هو معلوم عند أهل اللغة وكما تجده في القاموس وفي اللسان وفي غيرهما: هو ذهاب حِسِّ إحدى العينين، والله عز وجل ليس بأعور.

إذن: له عينان منزَّهتان عن هذا النقص وهو العور، لأن القاعدة عند أهل السنة والجماعة: أن النفي إنما يُراد به إثبات كمال الضد.

إذن: لما كان العَوَر ذهاب حِسِّ إحدى العينين ونُفي هذا عن الله جل وعلا فهذا دليل على أن عينيه ليستا مصابتين.. أو ليس هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في عينيه فيه هذا

النقص، يُنزه الله تبارك وتعالى عن ذلك، فالله عز وجل إذًا له عينان كاملتان منزهتان عن النقص.

فهذا دليل على ثبوت العينين لله تبارك وتعالى.

وهذه المسألة محل إجماع عند أهل السنة، وقد نقل الإجماع وقرر هذه المسألة في عقيدة أهل السنة والجماعة كثير من الأئمة المحققين الذين هم أهل عناية بتقرير عقيدة أهل السنة والجماعة، ومنهم إمام الأئمة ابن خزيمة، ومنهم عثمان بن سعيد الدارمي، ومنهم ابن قتيبة، ومنهم محمد بن نصر المروزي، ومنهم اللالكائي، وغيرهم من أهل العلم الذين قرروا هذه المسألة، والقحطاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما أسلفت حينما قرر عقيدة أهل السنة والجماعة في نونيته قال:

لله وجــه لا يُحــد بصــورة ولربنــا عينــان ناظرتــان

والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن الله تعالىٰ ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

ونؤمن بأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، قال عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

قال الشارح وفقه الله:

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ختم كلامه عن الصفات الثبوتية التي أوردها في هذه الرسالة بتقرير مسألة الرؤية، أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُرى في الآخرة، بعد أن أثبت أن الله يَرى أورد أن الله يُرى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ودرج جمع من أهل السنة على ختم مبحث الصفات بتقرير مسألة الرؤية، وأن الله عز وجل يُرى في الآخرة، كما مر معنا في مبحث الواسطية وكذلك إن كنتم تذكرون في لمعة الاعتقاد وفي غيرهما من كتب عقائد أهل السنة والجماعة.

ويذكر أهل العلم هاهنا لطيفة، وهي بشارة لأهل السنة والتوحيد وهي: أن من أيقن ببصيرته وسلَّم بما علم من صفات الله عز وجل فليبشر بأن ثمرة ذلك أن ينظر ببصره إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فثمرة البصيرة أن يُرزق البصر، حينما تكون بصيرته بصيرة صحيحة، ويكون علمه بالله عز وجل علمًا صحيحًا فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجازيه على ذلك بأن يرزقه لذة النظر إليه ببصره، فإن الله عز وجل

يُـرى عيانًـا كـما جـاء في بعـض روايـات أحاديـث الرؤيـة، الله يُـرى عيانًـا، يعنـي: بالعين، سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ومسألة الرؤية وأن الله عز وجل يُرى في الآخرة مسألة عظيمة، والأمر فيها كبير، والقلوب المؤمنة متشوقة إلى هذه النعمة الكبرى، حتى إن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: لولا أن القلوب توقن برؤية الله عز وجل في الآخرة لذابت حسرة في الدنيا. لكن من يشعر بهذا سوى القلوب الحية السليمة الصحيحة، ونشكو إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مرض قلوبنا!

الرؤية لله تبارك وتعالى مسألة -كما ذكرت- عظيمة ومهمة، واهتم بتقريرها أهل السنة، واهتموا -أيضًا- بالرد على المخالفين فيها.

وينبغي أن يُعلم ابتداءً أن الرؤية لها طرفان: طرف في الدنيا وطرف في الآخرة، والناس في هذين الطرفين منقسمون إلى ثلاثة أقسام:

◉ منهم من أثبت الرؤية في طرفيها، فقال: إن الله تعالى يُرى في الدنيا وفي الآخرة.

أما أن الله جل وعلا يُرى في الدنيا بعيني الإنسان فلا شك أن هذا غير صحيح، ومن قال ذلك فهو أحد اثنين: إما كاذب، أو متوهم. من قال هذا وأنه رأى الله عز وجل ببصر عينه فهو بين كاذب وواهم، يتوهم ويتخيل أشياء فيظن

أنه رأى الله عز وجل، وكثير من الناس مصاب بمرض الوهم، نسأل الله العافية والسلامة!

◉ أما الفئة الثانية فهي التي نَفَت الرؤية من طرفيها، قالوا: الله لا يُرى لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهؤلاء شرذمة شاذة من أهل البدع والضلال، ولا شك في خطئهم وضلالهم وانحرافهم.

◉ وأما الفئة الثالثة فهم الوسط، وهم أهل السنة والجماعة الذين نفوا رؤية الله في الدنيا وأثبتوها في الآخرة، في الدنيا الله عز وجل لا يُرى بالعين البتة، وهذا مما أمرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نتعلمه، ففي صحيح مسلم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا».

إذن: في الدنيا يجب علينا أن نتعلم أننا لن نرى الله عز وجل، وسبب ذلك: أن بِنْية وخِلْقة ابن آدم ضعيفة لا تقوى على رؤية العظيم الكبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذا لما موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ طلب أن يرى ربه: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف:١٤٣]، ماذا قال الله عز وجل؟ ﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ [الأعراف:١٤٣]، إذا كان الجبل الصلب الصلد العظيم ما تمالك أمام عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حينما تجلى له فاندك، فكيف بابن آدم؟ ولذلك موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو هو خر صعقًا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذًا في الدنيا لا يُرى.

وما أحسن ما قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما نقل عنه هذا القاضي عياض كما في ترتيب المدارك: أنه لما كانت العين تفنى لم ير ما يبقى بما يفنى، لكنه لما يصير في الآخرة باقيًا فإنه يرى بما يبقى ما يبقى. في الآخرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينشئ أهل الإيمان نشأة أخرى تحتمل رؤية العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلذلك يرونه.

إذن: الله سبحانه جل في علاه في الدنيا لا يُرى.

أما في الآخرة فالله جل وعلا يُرى، هذا حق لا شك فيه، ولا يجوز لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتردد في قبول ذلك، والله جل وعلا يُرى في الآخرة في موضعين: في عرصات القيامة وفي جنات النعيم. أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا من أهل هذه الرؤية. ولا شك أنها أعظم نعيم أهل الإيمان، ويحصل لهم بذلك لذة عظيمة، كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل ربه إياها كما في سنن النسائي من حديث عمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك».

وقد ثبت في الصحيح في صحيح مسلم من حديث صهيب بن سنان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله جل وعلا يقول لأهل الجنة بعد أن يدخلوها: «هل أزيدكم؟» سبحان الله العظيم! ما أكرم الكريم سبحانه وتعالى! يقول: «هل أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ فيكشف الحجاب فيرونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يكون شيء أحب إليهم من رؤيته تبارك وتعالى، ثم تلا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ

﴾ [يونس:٢٦]، الحسنى كونهم دخلوا الجنة، «ألم تبيض وجوهنا وتدخلنا الجنة وتنجينا من النار»، هذه الحسنى، والزيادة هي ما أخبر به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أولًا قال: «هل أزيدكم؟» فكانت أن كشف الحجاب فرأوا ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكان ذلك أعظم نعيم أهل الجنة، ينسون ما هم فيه من النعيم أمام هذه النعمة التي لا مثيل لها ولا نظير لها: رؤية الله تبارك وتعالى. نسأل الله من فضله.

والأدلة على ثبوت هذه الرؤية كثيرة، فهي ثابتة في الكتاب وفي السنة ومجمَع عليها بين أهل العلم قاطبة، إلا شذاذ لا عبرة باتفاقهم أو بموافقتهم فكيف بمخالفتهم.

أما كتاب الله عز وجل فقد دل على ثبوت الرؤية أنواع من الأدلة:

من ذلك هذه الآية العظيمة التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، هذه من أصرح الأدلة وأجلاها على ثبوت رؤية الله تبارك وتعالى.

والدليل فيها بيِّن واضح، الله جل وعلا يقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، والقاعدة في لغة العرب: أن النظر إذا عُدِّي بـ(إلى) فإنه لا يُراد به إلا رؤية العين، ﴿ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ [البقرة:٢٥٩].

إذن: كل ذلك كان يتعلق بنظر العين، ماذا تفهم من قوله تعالى: ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ [الأنعام:٩٩] المراد به: رؤية العين.

إذن: النظر إذا عُدِّي بـ(إلى) فلا يُراد به إلا رؤية العين. وإياك وحذاري من تشغيب أهل البدع الذين قالوا: إن قوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣] يعني: منتظرة. سبحان الله العظيم! الله عز وجل يخبر في هذه الآية العظيمة عن النعيم الجليل العظيم لأهل الجنة وإذا به الانتظار، وأيُّ نعيم في الانتظار؟ الانتظار إلى ضد النعيم أقرب منه إلى أن يكون نعيمًا.

ثم إن النظر يُراد به الانتظار إذا عُدِّي بنفسه، هذا الذي يُعرف في لغة العرب، ﴿ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ [الحديد:١٣] يعني: انتظرونا، أما النظر معدىً بـ(إلى) فلا يُراد به الانتظار.

إذا كانت اللغة هي التي تكلم بها أهل اللسان العربي المبين وهي التي نزل بها القرآن فهذه هي، أما إذا كان المقصود لغة جديدة يحرِّفها أهل البدع كما يشاءون فهذا شأن آخر.

إذن: النظر هنا عُدِّي بـ(إلى) فلا يُراد إلا الرؤية البصرية لله تبارك وتعالى، فكيف وفي الآية ما يدل على ذلك وهو أنه قال أولًا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢]، فجعل النضرة هاهنا راجعة إلى الوجه؛ لأن العينين في الوجه، فكانت ثمة مناسبة واضحة بين الرؤية ونضارة الوجه.

والأمر الآخر: أن النظر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورؤيته لا شك أنه يثمر هذه الثمرة العظيمة وهي النضارة والحُسْن والبهاء والنور، إذا رأوا ربهم العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلا شك أن من ثمرة ذلك أن وجوههم تكون ناضرة.

فدل هذا على أن هذه الآية تدل على ثبوت رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة.

ومن تلك الأدلة -أيضًا- ما مر بنا آنفًا وهو قول الله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وفسَّر هذه الآية -أعني: كلمة الزيادة- فسرها أعلم الخلق بكتاب الله وهو رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما مر بنا في الحديث السابق في صحيح مسلم.

فالزيادة هي رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة.

ويدل على هذا دليل ثالث -أيضًا- وهو قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] وقد ثبت عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بإسناد صحيح كما قال أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن المزيد رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة. وهذا -أيضًا- جاء من تفسير روي عن أبي بكر الصديق، وروي عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

إذن: كم نوع عندنا الآن؟ عندنا: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣] وعندنا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وعندنا: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

وعندنا -أيضًا- قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٢-٢٣].

والنظر هاهنا كما جزم غير واحد من أهل العلم أنه النظر إلى الله تبارك وتعالى، ويشهد لهذا أن الله عز وجل قد بيَّن قبل هذه الآية ببضع آيات، قال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، ثم بعدها قال: ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣]، فقابل بين حال الكفار وحال أهل الإيمان أنهم ينظرون إلى الله عز وجل.

ويمكن أن يقال وجه ثانٍ يدل على أن هذه الآية تدل على رؤية الله تبارك وتعالى، وذلك أن الإطلاق يدل على التعميم، ما القاعدة؟ الإطلاق يدل على التعميم، ولذا انظر هنا حينما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣] ولم ينص على شيء معين، فدل هذا على أنهم ينظرون إلى أنواع النعيم، وإن من القصور بل من التقصير أن يُقال: إن النظر إنما يكون إلى الحور وإلى القصور ويُغفل عن النظر إلى العظيم الجميل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهذا أولى بالنظر.

إذن: هذه الآية بين أن تدل على ثبوت رؤية الله تبارك وتعالى على سبيل التنصيص، أو أنها تدل على رؤية الله تبارك وتعالى في عمومها، يعني: تدل على سبيل العموم على رؤية الله تبارك وتعالى.

أيضًا يدل على ثبوت رؤية الله جل وعلا كل دليل جاء في القرآن يدل على لقاء الله تبارك وتعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ [الكهف:١١٠]، وقد نقل الإجماع الإمام اللغوي المشهور ثعلب على أن لغة العرب إنما جاء فيها اللقاء مع الرؤية، مقرونًا بالرؤية، لا يكون لقاء إلا برؤية، لا تعرف اللغة وأهلها إلا هذا أن اللقاء مع رؤية.

إذن: كل دليل دل على لقاء الله عز وجل فإنه دال على رؤيته تبارك وتعالى.

ويدل على ثبوت الرؤية -أيضًا- قول الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] فإن الله عز وجل قد بين هاهنا أنه حجب الكفار عن رؤيته تبارك وتعالى، فلو كان كل الناس، لو كان المؤمنون والكافرون كلهم محجوبون عن رؤية الله تبارك وتعالى لكان التنصيص على حجب الكفار لغوًا لا فائدة فيه، وكتاب الله عز وجل يُنزَّه عن ذلك، ولذا ما أحسن ما قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه أحكام القرآن حينما قال: ما حجب هؤلاء إلا لأن أهل الإيمان يرونه. هذا ما ذكره أو معناه.

إذًا دل قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] دل بمفهوم المخالفة على ثبوت الرؤية لأهل الإيمان.

والدليل القرآني الأخير هو ما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾ [الأنعام:١٠٣].

هذه الآية من فقه وحذق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه أوردها دليلًا على ثبوت رؤية الله تبارك وتعالى، وذلك أن نفي الإدراك يدل على ثبوت أصل الرؤية، وذلك أن نفي الإدراك لو كان المقصود به نفي رؤية الله تبارك وتعالى مطلقًا لم يكن في هذا أيُّ مدح، لأن المعدوم لا يُرى ولا يمكن أن يُرى، لكن الآية إنما سيقت على سبيل المدح والثناء، فالله عز وجل لعظمته، ولأنه الكبير، بل هو الأكبر من كل شيء، ولأنه الواسع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه جل وعلا يُرى ولكنه لا يُدرك، فلا يُدرك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالبصر والنظر، وذلك لعظمه وكِبَره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبالتالي نفي الإدراك شيء ونفي الرؤية شيء آخر.

أرأيت لو كنت واقفًا هل أمام البحر هل تراه أو لا تراه؟ لو كان عندك عينان سليمتان، أنت الآن أمام البحر تراه؟ هل تراه، هل تدركه؟ هل تحيط به من كل جانب بنظرك؟ الجواب: لا، والسبب: أنه كبير وواسع. الله أكبر وأعظم.

إذن: الله عز وجل يُرى ولكنه لا يُدرك، ولهذه الآية وقفة وإكمال في معناها - إن شاء الله تبارك وتعالى- بعون الله عز وجل وتوفيقه.

أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا من أهل هذه الرؤية، نسأله لذة النظر إلى وجهه الكريم، والشوق إلى لقائه في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن الله تعالىٰ ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

ونؤمن بأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، قال عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

قال الشارح وفقه الله:

فتتمم -بعون الله عز وجل- ما سبق الكلام عنه في درس البارحة وهو إثبات رؤية المؤمنين لربهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الآخرة، وكان الكلام عند الاستدلال بقول الله جل وعلا: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام:١٠٣].

هذه الآية دليل على ثبوت الرؤية لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كما تبين لنا في درس أمس، وذلك أن نفي الإدراك يدل على ثبوت أصل الرؤية، وإلا فلو كان الله عز وجل لا يُرى البتة كان نفي الإدراك له لغوًا لا فائدة منه، إذا كان لا يُرى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أصلًا فما الحاجة إلى نفي الإدراك في حقه؟

فدل هذا على أنه لما كان لا يُدرك فإنه يُرى ولكن بلا إدراك.

ومن عجيب الأمر: أن من المنحرفين عن الصراط المستقيم مَن عَمي عن هذا الحق المبين والدلالة الواضحة لهذه الآية، فجعلها دليلًا على نفي رؤية الله

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فقال: إن الله لا يُرى في الآخرة، والدليل قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، مع أن الدليل يدل على نقيض مقالة هذا القائل.

ومشكلة كل المخالفين لجادة الحق وما عليه أهل السنة والجماعة أتباع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حقًا، والسائرين على نهجه ونهج أصحابه من بعده، مشكلة هؤلاء المخالفين أنهم يعتقدون ثم يستدلون، يعني: يعتقدون العقائد التي تمليها أهواؤهم وقواعدهم وقوانينهم ثم بعد ذلك يستدلون، يذهبون فيفتشون يمنة ويسرة في الأدلة عما عساه أن يسند قولهم ويعضده.

من ذلك: أنهم قد استقر في نفوسهم أن الله عز وجل لا يُرى، ثم فتشوا في كتاب الله فوجدوا هذه الآية، فقالوا: إذًا هذا دليل على أن الله عز وجل لا يُرى.

ولتعلم -يا رعاك الله- أنه ما من دليل يستدل به مبطل لا سيما من كتاب الله ومن سنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لا يمكن أن يستدل بدليل لا سيما إذا كان نقليًا على باطله وعلى ما يناقض الحق الذي جاء في النصوص إلا وفي دليله الذي استدل به ما ينقض قوله، وما يدل على نقيضه، الدليل نفسه الذي يستدل به دليل على فساد قوله، وهذا ما تحدى به علماء أهل السنة أهلَ البدع قاطبة.

هاتوا كل ما عندكم من أدلة تزعمون أنها تنقض المذهب الحق الذي مضى عليه السلف الصالح فإننا ملتزمون.. هكذا يقرر العلماء: إننا ملتزمون بأن نبين

لكم أن هذا الدليل لا يدل على ما تستدلون به، بل يدل على نقيضه، ومن ذلك هذا المثال.

فهذه الآية تدل على نقيض قولهم بنفي رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والقوم وقعوا في إشكالية غير صحيحة ينبغي عليك -يا أيها المسلم ويا طالب العلم- أن تتنبه لها، وهي أنهم يقولون: إن الإدراك هو الرؤية، وبالتالي نفي الإدراك يعني نفي الرؤية.

وهذا لا شك أنه غير صحيح، الإدراك هو الإحاطة، ولذلك ارجع إلى معاجم اللغة عند كلمة الإدراك تجد أنهم يفسرونها بالإحاطة، وإذا رجعت إلى الإحاطة تجد أنهم يفسرونها بالإدراك، فالإحاطة والإدراك كلمتان بمعناه.

ثم إن هذه الإحاطة في كل موضع وسياق بحسبه، قد تكون الإحاطة بصرية، وقد تكون بخلاف ذلك، وهاهنا الله جل وعلا لا تدركه الأبصار، يعني: لا تحيط به أبصار العباد، لأنه العظيم الواسع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ويدل على الفرق بين الإدراك والرؤية: آية في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي ما بيَّن لنا وقص سبحانه في قصة موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حينما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]، ماذا قال موسى هنا؟ قال: ﴿ كَلَّا ﴾ [الشعراء:٦٢]، الآن حصلت الرؤية وإلا ما حصلت؟ تراءى الجمعان، الله عز وجل أصدق القائلين بيَّن لنا أن الرؤية قد حصلت، وهنا

ظن أصحاب موسى أنهم قد أُحيط بهم، هذا شيء آخر سوى الرؤية، فما كان من موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلا أن نفى الإدراك، قال: (كلا)، وهذا يصدقه قول الله عز وجل له: ﴿ لَا تَخَافُ دَرَكًا ﴾ [طه:٧٧] يعني: إدراكًا. فدل هذا على أن الإدراك ليس هو الرؤية.

وقلنا سابقًا: إنك قد ترى الشيء الكبير كالشمس أو البحر، ولكنك لا تحيط بهذا الشيء بصرًا ورؤية ونظرًا لسعته وكبره، والله عز وجل أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، لذا فهو يُرى ولكنه لا يُحاط به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن الله تعالىٰ لا مثل له؛ لكمال صفاته، قال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الجملة وما بعدها إلى الكلام عن الصفات المنفية عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس يخفاك -يا أيها المسلم- أن أدلة الكتاب والسنة قد دلت على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوصف بالإثبات ويوصف بالنفي، يعني: تُضاف إليه صفات مثبتة، كما أنه يوصف بنفي صفات عنه، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يتصف بكذا ويُنزَّه عن كذا، كما سيأتي أمثلة لذلك.

والواجب أن نثبت لله ما أثبت لنفسه، وما أثبته له رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن ننفي -أيضًا- عنه ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وينبغي أن نعلم في هذا الباب العظيم: أن الإثبات هو الأصل، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا أحد أحب إليه المدح منه سبحانه جل وعلا، ولذلك أثنى على نفسه كما بيَّن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والمدح إنما يكون بالأمور الثبوتية، وأما النفي فإنما يُراد لما تضمنه أو استلزمه من أمور وجودية، فالنفي في باب الصفات الإلهية يؤول إلى أمور ثبوتية، وليس عدمًا محضًا كما سيأتي إن شاء الله.

ولذلك فإن طريقة القرآن، وهذا ما درج عليه أنبياء الله ورسله وأتباعهم من أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إنما يوصف بالإثبات، يعني: بصفات الكمال التي هي قائمة به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والنفي إنما يُراد به الإثبات، وهو إثبات كمال ضد هذه الصفات المنفية، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

والصفات المنفية أقل من الصفات الثبوتية، لو فتشت في النصوص وجدت أن الصفات المنفية تفصيلًا هذه أقل من الصفات الثبوتية تفصيلًا، فهذا يدلك على أن الأصل في باب الصفات: الإثبات.

والنفي جاء في النصوص -أعني: في باب الصفات- على ضربين:

◉ جاء النفي المجمل.

◉ وجاء النفي المفصل.

النفي المجمل قلنا -إن كنتم تذكرون- دل عليه ثلاثة أنواع من الأدلة، ما هي؟

۞ أولًا: أسماء الله تعالى التي تدل معانيها على النفي المجمل، مثل: الواحد والأحد، السبوح، القدوس، والسلام، والمتكبر، وكذلك العزيز على أحد المعاني التي ذكرها أهل العلم في تفسيرها وهي الامتناع، يعني: أنه لا يناله سوء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا -أيضًا- من أدلة النفي المجمل.

۞ أيضًا عندنا جميع أدلة التسبيح، لأن التسبيح هو تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن كل ما لا يليق به، حينما تقول: سبحان الله! فإن معنى هذه الكلمة: أسبح الله سبحانًا يعني: أنزهه تنزيهًا، وهذا الإطلاق يفيد التعميم، تنزهه عن كل ما لا يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأدلة التسبيح في الكتاب والسنة كثيرة جدًا.

۞النوع الثالث: أدلة النفي العامة، ومنها هذه الآية: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]،

وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة:٢٢]وكذلك قوله تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، هذه أدلة عامة في النفي تفيد هذا النفي المجمل.

إذن: النفي المجمل -أيضًا- أكثر من النفي المفصل.

إذن: الإثبات المفصل أكثر من النفي المفصل، والنفي المجمل أكثر من النفي المفصل .

وعلمنا فيما مضى قاعدة في هذا الباب: وهي أن النفي المجمل يفيد الكمال المطلق، وهذا الذي قرره المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ هاهنا حينما قال: (ونؤمن بأن الله تعالى لا مثل له لكمال صفاته) ثم استدل بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فهذه الآية في شطرها الأول ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] تدل على ثبوت الكمال المطلق لله عز وجل، وذلك أن نفي المثل عن

الله عز وجل إنما كان لتوحده في الكمال، بحيث لا يشارك الله عز وجل في كماله أحد البتة، ولذا لم يكن له مثل، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١].

وليس الأمر كما يقوله أهل الانحراف عن الجادة المستقيمة، وهي أن هؤلاء المبتدعة يقولون: الله لا مثل له لأنه لا صفات له، ولذلك صار لا مثل له. ليس الأمر كذلك قطعًا، بل الله عز وجل ليس له مِثْل؛ لأنه المتفرد المتوحد في الكمال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذه الآية -كما مر بنا سابقًا- من الآيات العظيمة المهمة، وأكثر كلام أهل السنة في باب الأسماء والصفات يدور على هذه الآية العظيمة، أكثر كلام أهل السنة في باب الصفات يدور على هذه الآية، وكم تلك القواعد والضوابط المهمة التي استنبطها أهل السنة من هذه الآية العظيمة: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١].



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم لكمال حياته وقيوميته.



قال الشارح وفقه الله:

بدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سَوْق جملة من الصفات المنفية على جهة التفصيل، من ذلك: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُنزَّه عن السِّنة والنوم.

السِّنة هي النعاس، والنوم معروف، والله جل وعلا أجلُّ من أن يغلبه نعاس أو نوم، جل وعز ربنا.

والدليل على ذلك ما سمعت من هذه الجملة من آية الكرسي التي هي أعظم آية في كتاب الله، قال جل وعلا واصفًا نفسه: ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام»، الله لا ينام ولا يليق أن ينام، اللائق بكماله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تنزيهه وتنزهه عن النوم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لأن كل شيء إنما هو قائم بالله عز وجل، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم:٢٥]، ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد:٣٣]، الله هو الحي القيوم، فلكمال حياته فإنه لا يناله شيء أو حظ من النعاس أو النوم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لأن حياته أولًا كاملة، ومعلوم أن كون الناس ينامون راجع إلى أن حياتهم في هذه الدنيا ناقصة، ولذا هم أنفسهم إن مَنَّ

الله على مَن مَنَّ عليه بدخول الجنة فإنهم في الجنة لا ينامون، والسبب: كمال حياتهم فيها، أهل الجنة في الجنة لا ينامون، لأن حياتهم حياة كاملة، فكيف بمن له الحياة الكاملة من كل الوجوه وهو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلما كان الحي الحياة الكاملة فإنه لا تأخذه سنة ولا نوم.

أضف إلى هذا الأمر الثاني وهو كونه القيوم، الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل شيء ومقيم لكل شيء، فإذا كان هذا شأنه فهو أعز وأجل من أن يناله أو يغلبه نوم أو سِنة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن: تلحظ أن نفي السِّنة والنوم عن الله عز وجل يدل على ثبوت كمال ضد هذه الصفة، وهذا الشأن في كل الصفات المنفية، وهذا ما ينبغي عليك أن تلاحظه فيما تقرأ في كتاب الله وفيما تقرأ من سنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لا يمكن أن تجد نفيًا تعلَّق بصفات الله عز وجل والمراد هو النفي فقط، الأمر ليس كذلك، إذا قرأت النفي في الصفات فدقق فإنك واجد أن هذا النفي إنما جاء لأجل إثبات كمال ضد الصفة المنفية وهي صفة كمال الثبوتية. فمن ذلك هذا الموضع: الله لا تأخذه سنة ولا نوم، ما السبب؟ أن له الحياة الكاملة والقيومية التامة.

إذن: النفي عاد إلى الإثبات.

أما نفي محض هذا لا يمكن أن يَرِد في باب الصفات؛ لأن النفي المحض عدم، والعدم ليس بشيء فضلًا عن أن يكون مدحًا، والله عز وجل إنما يُضاف إليه ما

يقتضي المدح والثناء، هذا الذي يستحقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإنه الكامل من كل وجه الذي له أقصى غايات الكمال تبارك ربنا وعز.

إذن: كيف يُضاف إليه عدم محض؟ إذن: يخطئ خطًا فادحًا أولئك الذين يضيفون إلى الله عز وجل منفيات وسُلُوب، أشياء إنما هي منفية للنفي ولا تتضمن مدحًا ولا ثناءً، هؤلاء ما قدروا الله حق قدره، وما قاموا بالواجب عليهم من جهة الأدب مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنه لا يظلم أحدًا لكمال عدله، وبأنه ليس بغافل عن أعمال عباده لكمال رقابته وإحاطته.

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

أيضًا مما يُنفى عن الله عز وجل: الظلم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس:٤٤]، قال الله عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا»، فالظلم منفي عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ونفي الظلم عن الله يدل على كمال عدله، وليس هذا عدمًا محضًا، ما الذي نريد بقولنا: عدماَ محضًا؟ أضرب لك مثالًا: الآن لو لقلت لكم: إن هذا الكرسي الذي أجلس عليه لا يظلم، هل أنا صادق أم كاذب؟

هل رأى أحد منكم منه ظلمًا؟ ظلم أحد منكم؟ الجواب: لا، هو فعلًا لا يظلم، لكن هل هذا في حقه يُعتبر مدحًا؟ هل نمدح الكرسي فنقول: ما شاء الله، انظروا إلى هذا الكرسي الجميل الذي لا يظلم؟ لا يقول هذا عاقل، لم؟ لأنه لا يتأتى منه أصلًا ظلم.

إذن: النفي في هذا المقام لعدم التمكن لا يثبت به مدح، إذا كان أصلًا لا يتأتى منه ظلم فنُفي عنه هذا لا يتضمن مدحًا، وبالتالي لا يجوز أن يُضاف إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيُّ شيء فيه نفي محض، وذلك لأن النفي المحض إذا كان على هذه

الشاكلة من حيث إنه لا يتأتى منه أصلًا ولا يمكن أن يتصف به أصلًا من جهة عدم القدرة أصلًا فإن هذا لا مدح فيه، كما هو الشأن -مثلًا- في شخص ضعيف جدًا يقول لشخص قوي جدًا: أنا لن أظلمك، اذهب. هل هذا مدح في حقه؟ هذا لا يُعتبر مدحًا في حقه؛ لأن هذا النفي إنما كان لضعفه، أما الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فنفي الظلم عنه ليس لعدم قدرته، فالله على كل شيء قدير، ولكن لأنه لا يليق به، وفرق بين الأمرين، الله قادر على الظلم لكنه لا يليق به، ولأجل ذلك حرمه على نفسه، وإلا فلو شاء أن يظلم فلا يُغالَب، ومن الظلم أن يوضع على الإنسان سيئات غيره، هذا ظلم والله يُنزه الله عن ذلك.

ومن الظلم: أن يُعاقَب الإنسان على شيء ما فعله، هذا ظلم، والله يُنزَّه عنه. وبهذا نفهم أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عدل لا يظلم، فنفي الظلم إنما كان لكمال عدل الله عز وجل.

هل نصف الله عز وجل بالعدل؟ ما الدليل؟ نفي الظلم.

أولًا: لا شك أن الله عز وجل موصوف بالعدل، وهذا قد جاء التنصيص عليه في الأدلة، من ذلك ما ثبت في الصحيحين من قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «ومن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ»، لما قال له أحدهم: اعدل يا محمد، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «ومن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ».

إذن: العدل صفة ثابتة لله عز وجل بدليل السنة، وكذلك يشهد لهذا كتاب الله، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

ويدل على هذا -أيضًا- أثر معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي خرجه أبو داود في السنن بإسناد صحيح: أنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لم يكن يجلس مجلسًا إلا قال فيه: الله حكم قِسْط، هلك المرتابون. حكم قسط يعني: حاكم عادل، القِسْط يرجع إلى معنى العدل، فالله حاكم عادل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن: الله عز وجل موصوف بالعدل.

فيؤيد هذا ما جاء في نفي الظلم، فنفي الظلم يدل على كمال عدل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن: كلما قرأت هذه الآية وأمثالها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس:٤٤]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦] فاستحضر أن هذا يدل على كمال عدل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهذا الموضع ينبغي عليك أن تتنبه له، وأن تستيقن به، لا سيما فيما يتعلق بباب القَدَر، فإن الشيطان له وساوس تَرِد على بعض النفوس، حينما ينظر إنسان ضعيف قليل العلم إلى ما يشاهد من تقدير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من جهة العطاء ومن جهة المنع، من جهة الرزق، من جهة الصحة والمرض، من جهة الهداية والإضلال، قد يوسوس الشيطان في نفسه ويرتاب، أو يصل إلى قريب من ذلك

حينما يتهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في حكمه القَدَري. انتبه! كونك تفهم وجه الحكمة أو لا تفهم وجه الحكمة فيما يقدره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هذا لا ينبغي أن يتسلل منه الشيطان فيشكك في الأصل العظيم وهو أن الله عز وجل عدل لا يظلم.

فهمت وجه الحكمة فيما قدَّر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في حالة معينة أو في حالات أو لم تفهم، ونحن قد مر بنا سابقًا قاعدة مهمة وهي: أننا نستدل بما علمنا على ما جهلنا، ثبت عندنا بيقين أن الله حكيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في تقديره، وأن الله عدل لا يظلم، هذا أمر قطعي لا شك فيه، ثبت عندنا أصلًا وفروعًا في تفاصيل كثيرة، فإذا وقفنا أمام موضع معين أو حالة معينة أو موقف معين وما اتضح لنا وجه الحكمة في هذا الأمر فينبغي أن نرجع إلى الأصل، وأن نستصحب الأصل وهو أن الله حكيم، وأن الله عدل لا يظلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بأنه ليس بغافل عن أعمال عباده لكمال رقابته وإحاطته) كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة:٧٤]، فنفى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن نفسه الغفلة عما يكون من عباده من أعمال وأفعال. وهذا النفي نستدل به على ثبوت كمال علم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وإحاطته ورقابته، فالله هو الرقيب الذي له الرقابة على كل شيء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بحيث لا يغيب عنه شيء، مطلع على كل شيء مهما دقَّ وخفي، فبالتالي الله لا يغفل عن شيء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنه لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، لكمال علمه وقدرته، قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

قال الشارح وفقه الله:

كذلك مما يُنفى عن الله عز وجل: العجز، فالله لا يعجزه شيء، بهذا الإطلاق: لا يعجزه شيء، (شيء) هنا نكرة في سياق النفي، وبالتالي فإنها تعمُّ كل شيء، كل شيء فالله عز وجل عليه قدير، لكن قد يكون وقد لا يكون، وهذا راجع إلى مشيئة الله المقرونة بحكمته، أما قدرته فلا شك أنها عامة شاملة لكل شيء، لا يدخلها تخصيص البتة، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر:٦].

إذن: الله عز وجل لا يعجزه شيء، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٤]، انظر التعليل هاهنا: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، فهذا يدلك على أن النفي أفاد ثبوت كمال ضد هذا النفي، وضد العجز: العلم والقدرة، فإن العاجز عن الشيء عجزه إما أن يرجع إلى جهله، عنده قدرة وعنده عضلات ويمكن أن يفعل، لكن السبيل إلى الفعل وكيفية ذلك والحيلة عليه ما يعرف، لأنه جاهل، ليس بعالم.

إذن: قد يكون العجز عن جهل، أو راجع إلى جهل، وقد يكون راجعًا إلى ضعف، وبالتالي قد يكون الإنسان حصيفًا وذكيًا، ويعرف التخطيط ويمكن أن يفعل، من جهة يعرف كيف يُفعل ولكنه لا يستطيع لأنه ضعيف مريض، ما عنده قدرة على أن يباشر الفعل، وبالتالي فإنه عاجز، وعجزه عن ضعف، أما الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فلما كان له كمال العلم وله كمال القدرة فإن نتيجة ذلك أنه لا يعجزه شيء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكيف يعجزه شيء والله عز وجل يخلق بكلامه ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] انتهى الأمر، الشيء يخرج من حيِّز العدم إلى الوجود إذا قال الله له كن، ينتقل من كونه عدمًا إلى كونه موجودًا، إذًا كيف بعد هذا يقال إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يعجزه شيء؟ تعالى ربنا وعز عن ذلك!



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنه لا يلحقه تعب ولا إعياء، لكمال قوته، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] أي: من تعب ولا إعياء.

قال الشارح وفقه الله:

أيضًا مما يجب أن ينفى عن الله عز وجل تصديقًا لكلامه وما أخبر به عن نفسه: التعب واللغوب، والدليل على ذلك ما سمعت، قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، واللغوب: التعب والإعياء، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ينزَّه عن التعب، ويُنزَّه عن الإعياء، وذلك راجع إلى كمال قوته وقدرته، فهو القوي وهو القدير وهو المتين سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وهذه الآية ذكر أهل التفسير: أن فيها ردًا على اليهود، عاملهم الله عز وجل بما يستحقون! فإنهم قد وصفوا الله عز وجل بالتعب والإعياء، كما ذكر هذا قتادة الإمام الجليل المفسر. حينما قال: إن اليهود قالوا: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم تعب فاستراح في اليوم السابع، انتهى خلقه في يوم الجمعة فاستراح يوم السبت. عليهم من الله ما يستحقون! ولذلك يسمونه يوم الراحة، ولذلك لا يعملون في هذا اليوم شيئًا.

فبيَّن الله سبحانه ضلالهم وكذبهم عليه، حينما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾[ق:٣٨].

إذن: هذا مما يجب أن يُنزه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنه.

وهذا يدلُّك على فقه في هذا الباب: وهو أن النفي في الصفات قد يكون لأجل دفع شبهة، أو تكذيب قوم ضالين يضيفون إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ضلالًا، فيتولى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الرد عليهم، كما كان هنا من كلام هؤلاء اليهود المنتقصين لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالله عز وجل يبين ضلال ذلك.

وقد يكون النفي راجعًا إلى أسباب أخرى، من ذلك: دفع ما قد يتوهم من كمال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن الله عز وجل ربما يناله شيء من النقص، فيدفع الله عز وجل توهم ذلك.

ومن ذلك -مثلًا- ما جاء فيما سبق: ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقد يكون النفي راجعًا إلى تبيين معنى الصفة الثبوتية، ومن ذلك تجد أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما في صحيح مسلم يقول: «اللَّهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخِر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»، تلحظ أن النفي في هذا الحديث في هذه المواضع الأربعة رجع إلى بيان معنى الصفة الثبوتية.

وقد يكون سبب ورود الصفة المنفية راجعًا إلى التهديد، ينفي الله عز وجل لأن هذا النفي يفيد معنى التهديد، كما تجده في قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤] كيف تجد أن هذه الآية أفادت معنى التهديد والوعيد.

إذن: هذه بعض الأسباب التي تلمسها العلماء لورود الصفات المنفية في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا -على كل حال- موضوع عظيم ومهم، وفيه فقه يحتاجه طالب العلم حينما يتأمل ويتدبر في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بثبوت كل ما أثبت الله لنفسه أو أثبته لـه رسـوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مـن الأسماء والصفات، لكننا نتبرأ من محذورين عظيمين همـا: التمثيـل، أن يقـول بقلبه أو لسانه: صفات الله تعالىٰ كصفات المخلوقين، والتكييف أن يقول بقلبـه ولسانه: كيفية صفات الله تعالىٰ كذا وكذا.

قال الشارح وفقه الله:

فهذه الجملة من كلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فيها ذِكْر خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات، وذلكم أن أهل السنة والجماعة هم أهل الإيمان والتسليم والإذعان والانقياد والقبول، وبناءً على هذا فإن ما أخبر الله عز وجل به عن نفسه، أو أخبر به نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أسمائه وصفاته فإنهم لا يترددون لحظة في قبوله واعتقاد ذلك في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وذلـك أن هـذا حقيقـة شـهادة أن لا إله إلا الله وأن محمـدًا رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيُصدَّق الله عز وجل بما أخبر، ويُصدَّقُ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أخبر، باب الأسماء والصفات من باب الأخبار التي الواجب فيها التسليم والتصديق، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم بنفسه، ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلم الخلق به.

إذن: لا عذر لأحد في أن يعتقد كل ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أسماء الله تعالى وصفاته.

قال: (ونؤمن بثبوت كل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء والصفات)، لا نحتاج إلى أكثر من الثبوت، وهذا فارق مهم بين أهل السنة والجماعة ومخالفيهم.

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وهو يحكي ما عليه أهل السنة والجماعة قاطبة- يقول: إننا نؤمن بثبوت كل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء والصفات. بما أنه قد جاء في كتاب الله، وبما أنه ثبت عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه مقبول ويجب تصديقه، ولا يُحتاج في تصديقه إلى شيء زائدٍ على ذلك.

وأما غيرُ أهل السنة فإنهم قد تفرقوا إلى شُعَب وفِرَق، قالوا ما لم ينزِل الله عز وجل به من سلطان.

وبالتالي فإن من المنحرفين عن الجادة المستقيمة جادة أهل السنة والجماعة من يقول: إننا نؤمن بما جاء في القرآن فقط، أما ما جاء في السنة فإننا نؤمن بما له شاهد في الكتاب، أما أن تنفرد السنة بشيء لم يَرِد في كتاب الله عز وجل فإن هذا غير مقبول، وهذا من أعظم الضلال، ومن أعظم الإفك، ولا شك أن قائل هذه المقالة على شفا هلكة، لأنه قد ردَّ سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما أنه قد ردَّ كتاب الله، فهو لم يأخذ لا بكتاب الله ولا بسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك أن الله في كتابه يقول: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

[الحشر:٧]، والذي جاء في السنة شقيق الذي جاء في القرآن، كلاهما وحي من الله عز وجل، كيف والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخبر ربُّه عنه بأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣-٤].

كذلك من الانحراف في هذا الباب: أن مِن الناس مَن يشترط في المسائل العلمية العقدية ولا سيما ما تعلق منها بباب الصفات وباب الأسماء، يقول: لابد أن يكون الخبر متواترًا، حتى نثبت هذه الصفات لله عز وجل لابد أن يكون ذلك قد جاء في خبر متواتر، وبالتالي فيخرج من حدِّ القبول عندهم ما ثبت في السنة الآحاد التي صحت عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا ولا شك خطأ عظيم أيضًا، والقاعدة عند أهل السنة والجماعة هي: أن شرط القبول الثبوت لا التواتر، وبالتالي العبرة بالثبوت، أن يكون النص ثابتًا، فسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابد أن يصح فيها ويثبت فيها الإسناد إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومتى ما كان ذلك كذلك فإنه يجب قبول هذه السنة، ولا فرق بين أن يكون الحديث متعلقًا بالعمليات أو يكون متعلقًا بالعلميات، يعني: سواء تعلق بالفقه أو بالعقيدة أو بغيرهما فإنه يكفي أن يثبت النص، أما التواتر فهذا اشتراط شيء ما أنزل الله عز وجل به من سلطان، وجميع النصوص تدل على ذلك، متى ما حصل البلاغ قامت الحجة، ﴿ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩]،

متى ما بلغ النص وثبت عن قائله وهو نبينا صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فلا عذر لأحد أن يقبل ذلك.

أما أن يشترط أن يبلغ هذا النص مبلغ التواتر في ثبوته فلا شك أن هذا شيء لا دليل عليه، بل هذا من مسالك أهل البدع.

إذن: أهل السنة والجماعة لا فرق عندهم بين الكتاب والسنة من حيث القبول، ما ثبت في القرآن والسنة فهو مقبول، وما ثبت في القرآن فقط فهو مقبول، وما ثبت في السنة فقط فهو مقبول.

ثم لا فرق عندهم -أيضًا- من حيث القبول بين ما ثبت من طريقٍ متواترة أو طريق آحاد، هذا مقبول وهذا مقبول، فالعبرة بالثبوت لا بالتواتر. وهذا باب البحث فيه يحتاج إلى وقت أوسع، لكن هذه هي الجادة وهي الخلاصة عند أهل السنة والجماعة: العبرة الثبوت لا التواتر.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (لكننا نتبرأ من محذورين عظيمين)، إذا كنا نثبت لله ما جاء في كتابه وسنة رسوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الأسماء والصفات فإننا ينبغي أن نطهِّر قلوبنا وألسنتنا من داءين عظيمين، هذان الداءان يوردان صاحبهما الموارد. هذان هما: التمثيل والتكييف، وذلك أن اعتقاد هذا المثبت للصفات أن صفة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كصفة المخلوق هذا هو التمثيل، وكذلك الذي يجعل صفة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على هيئة معينة وكيفية معينة، يحكيها بلسانه أو يتصورها في قلبه

فهذا هو التكييف، وكلاهما ضلال مبين، وقد قال نعيم بن حماد الخزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ -الذي هو أحد أئمة أهل السنة، وهو شيخ الإمام البخاري-: من شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصفه به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه.

إذن: هذا هو الواجب على كل مسلم ومسلمة.

الأمر الأول: أن ينتفي وأن يحذر وأن يجتنب التمثيل، وهذا ما جاء نفيه في كتاب الله عز وجل في موضعين، قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقال سبحانه: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤].

فالتمثيل والتشبيه أن يعتقد أن صفة الله كصفة المخلوق، أن يقول: يد الله كَيَدِ المخلوق، أو سمْع الله كسمْع المخلوق، أو نزول الله إلى سماء الدنيا كنزول المخلوق، هذا ضلال مبين، بل هذا كفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله جل وعلا يقول: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، كيف يقول مؤمن بالله واليوم الآخر: إن صفة العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مثل صفة العبد الضعيف؟ هل يستويان؟ هل يتماثلان؟ القوي العظيم الكامل من كل وجه مع الضعيف الناقص الذي خُلِق ظلومًا جهولًا؟ سبحان الله العظيم! كيف يُشبَّه خالق بمخلوق؟ كيف يُشبَّه صانع بمصنوعه؟ هل هذا مقبول في العقل؟ لا شك أن هذا في غاية ما يكون من الضلال، ولذلك التمثيل ضلال مبين، بدلالة النص والإجماع والعقل.

فيجب علينا أن نحذر من هذا الأمر وهو تمثيل صفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بصفة المخلوق، وكل ما خطر بالبال ووسوس به الشيطان من أن صفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كصفة المخلوق ينبغي أن يدفعه الإنسان عن نفسه، وأن يعلم أن الشيء الذي ورد في قلبه إن كان كمالًا فالله أكمل من ذلك وأكمل، وإن كان نقصًا فالله منزَّه عن ذلك، هذا الذي يجب على كل مؤمن أن يعتقده في صفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا -أيضًا- مقتضى العقل، لأن الله جل وعلا بالنسبة لنا غيب، فكيف يتصور الإنسان شيئًا عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيقول: إنه فيه مماثل للمخلوق وهو ما رأى الله عز وجل ولا رأى مثيلًا لله، ولا جاء في النصوص شيء من هذا البتة، فكيف له أن يتحكم في صفات الله عز وجل فيقول: إنها كذا أو كذا.

كذلك ما يرجع إلى التكييف، أن يعتقد أن كيفية الصفة كذا وكذا وكذا، يتكلم عن الكيفية، والفرق بين التمثيل والتكييف: أن التمثيل فيه تقييد بمماثل، يقول: هذه الصفة مثل هذه الصفة، أما التكييف فإنه ليس فيها تقييد بمماثل، لكن فيها حكاية أو اعتقاد كيفية وكُنْه وحقيقة معينة، وكلا الأمرين -كما قلت لكم- ضلال. والحقيقة أن من مثَّل فقد كيَّف، لأنه بتمثيله قد حكى أو اعتقد كيفية، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لصفاته كيفية ولا شك، ولها كُنْه وحقيقة، لكن المنفي هاهنا التكييف، يعني: علمنا بهذه الكيفية واعتقادنا لهذه الكيفية من حيث تصورها

ومن حيث تحديدها ومن حيث حكايتها هذا الذي ننفيه، نحن لا ندري كيفية صفة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إنما نعتقد أن لها كيفية يعلمها هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهذا -أيضًا- مما يُسلِّم به كل عقل سليم من أدران هذا الداء وهذا البلاء، فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ -كما أسلفت لك- غيب بالنسبة لنا، والعقل مكبَّل بالمحسوسات، وبالتالي فإنه لا يمكنه أن يتصور شيئًا إلا وهو راجع إلى محسوس له، شيء رآه أو شيء سمعه أو شيء شمَّه أو شيء ذاقه أو شيء لمسه، وما عدا ذلك فإنه لا يمكن له أن يتصور شيئًا.

ولذا لو سألتكم الآن فقلت لكم: تصوروا هيئة جديدة غير موجودة، حاولوا، حلِّقوا بأذهانكم وفكروا في شيء جديد، هيئة مختَرَعة جديدة، مهما فكرتم هل يمكن أن تصلوا إلى شيء خارج عن حدود محسوساتكم؟ لا يمكنكم ذلك، مستحيل، وبالتالي فيجب على كل مسلم أن يقطع الطمع الذي قد يَرِد وقد يوسوس به الشيطان في إدراك كيفية صفة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، القول بذلك قول على الله بغير علم، وهذا من أشنع المحرمات، ومن فعل ذلك فإنه قد قال على الله عز وجل بغير علم وقال عليه بغير الحق، والواجب على كل مسلم أن لا يقول على الله إلا الحق، ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ [الأعراف:١٦٩].

واجب عليك -يا عبد الله- أن تحذر وأن تتنبه، ربما تتحرج من أن تتكلم في شأن يخص مخلوقًا بغير علم، لا سيما إذا كان له شأن وسلطة وسطوة، فكيف تُطلق لسانك أو تطلق العنان لعقلك وقلبك أن يخوض في هذه الأمور العظيمة وهي ما يتعلق بصفات الباري سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟

إذا كنت عاجزًا عن إدراك كيفية ملائكة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كما قلنا لكم في قصة الإمام عبد الرحمن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما بلغه عن شاب يخوض في الكيفية، كيفية صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فبعث إليه، فلما قدم عليه قال: بلغني عنك كذا وكذا، فقال: نعم والأمر كذا وكذا. قال: على رسلك، دعنا نتكلم في المخلوق، فإن عجزنا عنه فنحن عن الخالق أعجز، قد أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رأى جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له ستمائة جناح سد بها الأفق، قال: قد علمت جناحين فركِّب لي ثالثًا، ولن أسألك عن سبعة وتسعين وخمسمائة جناح، فقط الجناح الثالث كيف هو؟ فأدرك هذا الشاب أنه قد قال على الله عز وجل بغير علم، فقال: نحن عن إدراك المخلوق عاجزون فنحن عن إدراك الخالق أعجز.

ولذلك قلنا: الملائكة لها قلوب، ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ [سبأ:٢٣]، والملائكة لها أيدي، ﴿ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام:٩٣]، كيف هي قلوبهم؟ وكيف هي أيديهم؟

ولهم أجنحة، الله عز وجل جعلها مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء، وجبريل له ستمائة جناح، ما مادتها؟ ما ألوانها؟ ما طولها؟ ما عرضها؟ هل يمكن لعاقل أن يتكلم في هذا فيحدد ويرسم كيفية القلب واليد بالنسبة للمَلَك؟ هل يمكن هذا؟ والله ما يمكن، ولو فعل فإنه أول واحد يعلم أنه كاذب، يتكلم بغير علم، ناهيك عن غيره.

إذن: كيف بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نتكلم في كيفية صفاته تبارك وتعالى؟! هذا ضلال وأيُّ ضلال!

إذن: علينا أن نحذر من هذين، هذين الداءين: التمثيل والتكييف. ومذهب أهل السنة والجماعة بريء منهما.

وإذا كنا في إثبات صفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نحذر من هذين فعلينا -أيضًا- أن نحذر من داء ثالث وهو داء التحريف، وحقيقة الأمر: أن التحريف ليس من باب الإثبات، لكن يتوهم المحرف أنه مثبت، يقول: أنا أثبت هذه الصفة، لكنه يحرِّف الكلم عن مواضعه، ويحمل هذه النصوص على غير وجهها، وحقيقة الأمر أنه أثبت شيئًا آخر ليس الذي أثبته الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما سيأتي الكلام عن هذا إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التمثيل، أن يقول بقلبه أو لسانه: صفات الله تعالى كصفات المخلوقين، والتكييف أن يقول بقلبه ولسانه: كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا)،

وفي الجملة المكيِّفة معدودون عند العلماء لا سيما عند علماء الفِرَق من جملة الممثلة أو المشبهة، يعني: إذا تكلموا عن الممثلة أو المشبهة فإن المكيِّفة داخلون فيهم وحكمهم -على كل حال- عند أهل العلم واحد، ولذلك لو نظرت في كتب المقالات تجد أن الذين حُكِيت عنهم مقالة التكييف هم أنفسهم حُكِيت عنهم مقالة التمثيل. فالباب -على كل حال- يعني الذي يخوض في هذا غالبًا ما يخوض في هذا، والعكس.

هل يمكن أن نستعمل كلمة (التشبيه) بدل كلمة (التمثيل)؟ الجواب: نعم لا حرج، وإن كان كلمة التشبيه لم يَرِد نفيها في النصوص كما هو الشأن في التمثيل، إلا أن نفي التشبيه قد جاء في كلام السلف رحمهم الله الذين هم أعلم منا بالكتاب والسنة وبعقيدة أهل السنة.

ولذلك ثبت نفي التشبيه أو الشبيه أو الشِّبْه عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وعن جماعة من أئمة المسلمين، كما مر معنا في الأثر الذي ذكرته سابقًا عن نُعيم بن حماد: من شبَّه الله بخلقه فقد كفر.

كذلك جاء نفي التشبيه في كلام الإمام أحمد إمام أهل السنة، وكذلك في كلام الشافعي وفي كلام إسحاق بن راهويه، وغيرهم من علماء المسلمين.

والتحقيق في هذا المقام: أن التمثيل والتشبيه من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت، يعني: إذا أطلق علماء أهل السنة نفي التشبيه فمرادهم: والتمثيل، وإذا نفوا التمثيل فمرادهم: والتشبيه.

أما إذا اجتمعا في سياق واحد فبينهما فارق دقيق، وهو أن التشبيه: المساواة في بعض الخصائص، وأما التمثيل فالمساواة في جميع الخصائص، وهذه مسألة تكلمنا عنها واستدللنا عليها في دروس ماضية، والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بانتفاء كل ما نفاه الله عز وجل عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن ذلك النفي يتضمن إثباتًا لكمال ضده، ونسكت عما سكت الله عز وجل عنه ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❊ ❊ ❊

قال الشارح وفقه الله:

باب الصفات -كما ذكرنا- فيه جانبان: جانب إثبات وجانب نفي، الله عز وجل أثبت لنفسه صفاتًا، وكذلك نفى عن نفسه صفات، الواجب علينا أن نثبت ما أثبت وننفي ما نفى، كذلك الشأن في كلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان هناك صفات مثبتة، أثبت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لربه صفات كالعلو، كالاستواء، كالمجيء والإتيان والسمع والبصر والحكمة.. إلى غير ذلك، وكذلك نفى عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفات.

إذن: الواجب علينا أن نثبت ما ثبت، وأن ننفي ما نُفي، ومر بنا في الدرس الماضي بعض الصفات المنفية التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كالسِّنة والنوم والعجز والتعب والإعياء وغير ذلك، اللغوب واللعب والظلم، إلى غير ذلك مما جاء في النصوص.

وفي الجملة: المنفي عن الله عز وجل قد يكون منفيًا متصلًا، وقد يكون منفيًا منفصلًا.

المنفي المنفصل كالصاحبة والولد والشريك والمثيل، وغير ذلك مما جاء في النصوص. والمتصل كهذه الصفات المنفية من التعب واللعب والظلم والسِّنة والنوم.. إلى آخره.

وفي الجملة: كل ما نُفي عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فمرجعه إلى أحد أمرين: إما نفي نقص عن الله عز وجل أو نفي مشاركة لله عز وجل في كماله، كل ما جاء في النصوص المتعلقة بالصفات من النفي مرجعه إلى اثنين: إما نفي النقص عن الله عز وجل، فالله عز وجل قد ثبت له أقصى غايات الكمال في ذاته وصفاته وأفعاله.

إذن: كل نقص فإنه منفي عن الله تبارك وتعالى جملة وتفصيلًا.

الأمر الثاني: أنه في كماله يُنفى عنه أن يكون له مشارك فيه، ولذلك يُنفى عنه الصاحبة والولد والشريك والمثيل، لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليس كمثله شيء، متفرد متوحد في كماله تبارك وتعالى.

إذن: مهما تأملت في هذه النصوص المتعلقة بالنفي في باب الصفات فإنك تجد أن مرجع ذلك راجع إلى هذين الأمرين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأن ذلك النفي يتضمن إثباتًا لكمال ضده)، باب النفي كباب الإثبات، كما أن الإثبات باب توقيفي فالنفي باب توقيفي، كما أننا لا نثبت صفة إلا بدليل كذلك لا ننفي عن الله عز وجل إلا بدليل، هذا أمر.

الأمر الآخر: أن النفي في الصفات ليس نفيًا محضًا، لأن النفي المحض عدم، والعدم ليس بشيء فضلًا عن أن يكون مدحًا، ولذا الله لا يُضاف إليه العدم، الله أجلُّ وأعظم من ذلك، إنما يُضاف إلى الله عز وجل الكمال، والكمال شيء ثبوتي لا شيء عدمي.

إذن: كل نفي جاء في النصوص فإنه يتضمن إثبات كمال الضد، إذا نفى الله عن نفسه الظلم فماذا يفيد هذا؟ كمال عدله، إذا نفى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن نفسه اللعب فإن هذا يتضمن كمال حكمته، إذا نفى الله عز وجل عن نفسه التعب واللغوب فإن هذا لكمال قوته وقيوميته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.. إلى آخره.

إذن: هذه هي القاعدة في باب المنفيات كما مر بنا هذا سابقًا.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (ونسكت عما سكت الله عز وجل عنه ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ)، عندنا شيء ورد ذِكْره في مقام الإثبات، عندنا شيء ورد نفيه في مقام النفي، وعندنا شيء مسكوت عنه، لا ورد ذكره إثباتًا ولا ورد ذكره نفيًا، ما الذي يجب؟ الواجب السكوت، لأن أيَّ موقف غير السكوت فيه قول على الله بغير علم.

إذن: لو قيل لنا: هل نثبت لله عز وجل الجسمية فنقول: إن الله جسم؟ هل نقول هذه الجملة؟ لا نقولها.

هل ننفي عن الله الجسمية فنقول: إن الله عز وجل ليس بجسم؟ نقول هذا؟ لا نقول هذا، إذن: واجب علينا أن نسكت عن الإثبات وعن النفي، والسبب: عدم الورود، هذا مقام توقيفي، العقل لا يمكنه أن يدرك تفاصيل ما يُضاف إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من الأسماء والصفات، العقل عاجز عن ذلك.

إذن: المورد الوحيد الذي يمكن أن نستقي منه العلم بالأسماء والصفات هو النص، والنص ما جاء فيه كلام عن الجسم لا إثباتًا ولا نفيًا، إذن: الذي يجب أن نسكت ولا نتكلم في هذا، وهذا هو الذي نسلم به عند الله عز وجل، ولو وقفنا بين يديه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإن وقوفنا بين يديه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بناءً على هذا الموقف -وهو السكوت- سوف تنجو عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لأنك لم تقل على الله بغير علم، لا بإثبات ولا بنفي، لكنك لو تكلمت على الله بغير علم فإن هذا موضع مخوف، إذا كان الكلام في مخلوق بغير علم مذمومًا كما قلنا لكم في مثال مضى. وهو أن الله عز وجل قد بيَّن ضلال المشركين حينما قالوا: إن الملائكة إناث، قال جل وعلا: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف:١٩]، ماذا قال الله؟ ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف:١٩]، إذن: هم يتكلمون بعلم أم بغير علم ؟ يتكلمون بغير علم، إذن: هذا كلام باطل، هذا في حق مخلوق، فكيف بالذي يتكلم في حق الله عز وجل؟

ولتعلم أن كثيرًا من الانحراف في هذا الباب والذي أدى إلى وقوع مزيد من التفرق في هذه الأمة هو الكلام والخوض في أشياء لم يَرِد ذكرها إثباتًا أو نفيًا، فصار قوم يثبتونها وصار آخرون ينفونها، وبالتالي التبس قَدْر كبير من الحق بالباطل أو الباطل بالحق، وزاد التفرق في هذه الأمة، وكان الذي يجب أن يتكلم الإنسان في حدود ما بلغه علمه، وكان الواجب أن يسكت عما سوى ذلك، فلا يتكلم بأكثر من هذا، ولذلك القاعدة عند أهل السنة والجماعة: أنهم لا يوردون شيئًا من هذه الأمور المسكوت عنها في عقائدهم البتة، كل كلمة تجدها في كتب عقيدة أهل السنة والجماعة فإنها مستمدة من نص: من كتاب أو سنة، ولا تجد عندهم تقريرًا لمسألة بلا دليل، بل إنهم ينسبون إلى البدعة من يخوض في هذا الباب بمثل هذه الألفاظ المبتدعة التي لا دليل عليها.

وأما في مقام المناظرة فإن لهم مسلكًا -علمناه سابقًا- وهو مسلك الاستفسار والاستفصال، ماذا تريد بقولك كذا: إن الله جسم، إن الله في جهة، إن الله جوهر، إن الله لا يقوم به عَرَض، إلى آخر ما يذكره هؤلاء المخالفون للمحجة.

فمثل هذا يُسلك معه فيه مسلك الاستفصال ثم يُبنى القبول أو الرد على المعنى الذي يُذكر مع عدم التعرض بقبول أو رد للفظ، وهذا ما علمناه سابقًا.



قال المصنف رحمه الله:

ونرىٰ أن السير علىٰ هذا الطريق فرض لابد منه، وذلك لأن ما أثبته الله لنفسه أو نفاه عنها سبحانه فهو خبر أخبر الله به عن نفسه، وهو سبحانه أعلم بنفسه وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا، والعباد لا يحيطون به علمًا.



قال الشارح وفقه الله:

إذن الواجب أن نقول بما جاء في النصوص، وأن نسكت عما سوى ذلك، لا نتجاوز القرآن والحديث، ما أحسن هذه الكلمة عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي منارة ينبغي أن تُؤَم وأن يُنسج على هذا المنوال، لا نتجاوز القرآن والحديث، مهما تكلمنا في هذا الباب فإننا نسير خلف الكتاب والسنة، نتكلم في حدود ما جاء به النص: الآية أو الحديث، وما سوى ذلك فإننا نسكت عنه، والله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أعلم بنفسه وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه، وبالتالي فيكفينا ما جاء في كتابه وكلامه من الخبر عنه، كذلك ما جاء عن نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كما سيذكر المؤلف.



قال المصنف رحمه الله:

وما أثبته له رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو نفاه عنه فهو خبر أخبر به عنه، وهو أعلم الناس بربه وأنصح الخلق وأصدقهم وأفصحهم، ففي كلام الله تعالىٰ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كمال العلم والصدق والبيان، فلا عذر في رده أو التردد في قبوله.

قال الشارح وفقه الله:

إي والله، لا عذر، الله عز وجل أخبر عن نفسه أو رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر عنه ثم يتردد إنسان؟! يا لله العجب! ما حقيقة إيمانك يا هذا؟ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبر عن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه يضحك، في الصحيح يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يضحك ربنا» في أحاديث، أو يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله تعالى يضع قدمه أو رجله على النار حتى تقول: قط قط، حينما تقول: هل من مزيد»، أو يخبر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه بأنه يعجب، إلى غير ذلك مما جاء في النصوص. ما عذرك في عدم قبول ذلك؟ نبيك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبر وأنت تقف أو تتردد؟ ألست تعلم أن من صميم إيمانك أن تصدقه فيما أخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟ ما هو مقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أليس تصديقه فيما أخبر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ إذن: كيف يجوز لك أن تتردد؟ والله إن هذا لباب خطير، بل هُوَّة إلى ضلال عظيم، وربما يوصل الإنسان إلى الكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الله

أو رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبر سبحانه أو نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيء وأنت تتردد في قبوله؟ سبحان الله العظيم!

هذا الذي يقول: والله هذا الحديث كيف نقبله وهو يوهم التشبيه كما يقول بعض الناس، فنقول: من الذي أخبر بهذا؟ أليس هو النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ هل كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عالمًا بربه أم لا؟ أليس هو الذي قد قال عن نفسه: «أنا أعلمكم بالله»؟

هل كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناصحًا مشفقًا أم لا؟ أليس هو الذي أخبر عنه ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

هل كان قادرًا على الفصاحة والبيان والإيضاح أم لا؟ أليس هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بلغ البلاغ المبين وشهد له بذلك كل أمته من لدن أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنه بلغ البلاغ المبين؟ فهذا يتضمن كمال فصاحته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إذن: كيف يخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيء يوهم -كما تزعم- شيئًا من الضلال ولا يبين عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ لو كان هذا فيه أدنى شيء يوهم ضلالًا لبينه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال: أنا حدثتكم بكذا وأخبرتكم عن الله بكذا وعليكم أن تتنبهوا، لا تحملوا هذا على ظاهره، إذا تلوتم قول الله عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى

الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] إياكم أن تعتقدوا أنه استوى، إنما هو استولى كما يقول بعضهم. هل فعل هذا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ الجواب: والله ما فعل ولا قال.

إذن: من قال بخلاف ما قال به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه متهم للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شاء أم أبى، شعر أو لم يشعر، متهم له إما في علمه، أو متهم له في نصحه، أو متهم له في فصاحته وبيانه وبلاغته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

إذن: المسألة ترجع إلى حقيقة الإيمان، حقيقة الإيمان بالله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



قال المصنف رحمه الله:

فصل

وكل ما ذكرناه من صفات الله تعالىٰ تفصيلًا أو إجمالًا، إثباتًا أو نفيًا؛ فإننا ذلك علىٰ كتاب ربنا وسنة نبينا معتمدون، وعلىٰ ما سار عليه سلف الأمة وأئمة الهدىٰ من بعدهم سائرون.

ونرىٰ وجوب إجراء نصوص الكتاب والسنة في ذلك علىٰ ظاهرها، وحملها علىٰ حقيقتها اللائقة بالله عز وجل.

قال الشارح وفقه الله:

فهذه خلاصة منهجية مهمة بيَّنها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذه الجملة النفيسة من كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه يقول: (وكل ما ذكرناه من صفات الله تعالى تفصيلًا أو إجمالًا، إثباتًا أو نفيًا؛ فإننا في ذلك على كتاب ربنا وسنة نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ معتمدون)، نعم، هذا هو الأصل الأصيل، وهذه القاعدة أمُّ القواعد في هذا الباب العظيم باب أسماء الله عز وجل وصفاته، وهي: أن المعوَّل والمعتمَد إنما هو على الكتاب والسنة لا غير، فما أثبته الله عز وجل لنفسه أو أثبته له رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أو نفاه سبحانه عن نفسه أو نفاه عنه نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فالواجب في كل ذلك الإذعان والتسليم والاعتقاد والتصديق. هذا هو الحق الذي لا شك فيه ولا ريب.

ومقدمة هذه الجملة فيها تقسيم لهذه الصفات الواردة في الكتاب والسنة، وهي أن من الأدلة ما جاء فيه إثبات مجمل للصفات، ومن الأدلة ما فيه إثبات مفصل، ومنها ما فيه نفي مجمل، ومنها ما فيه نفي مفصل.

من أدلة الإثبات المجمل: كل دليل جاء في حَمْد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فأدلة الحمد كلها من أدلة الإثبات المجمل، فإنها تدل على ثبوت الصفات لله تبارك وتعالى إجمالًا، وأما الأدلة التفصيلية فمعلومة، ومرت جملة منها، صفات تفصيلية تُثبت لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

كما أن هناك طائفة من الأدلة جاء فيها النفي مجملًا، ومرت بنا غير مرة. كما أنه جاء النفي في طائفة أخرى مفصلًا.

إذن: في كل هذه الأقسام الأربعة الاعتماد والتعويل على كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، هذه جادة أهل السنة، وهذه هي العلامة الفارقة بينهم وبين غيرهم، في هذا الباب على وجه الخصوص وفي كل أبواب الدين على وجه العموم، سواء ما كان منها متعلقًا بالاعتقاد، أو متعلقًا بالأحكام، أو كان متعلقًا بالمعاملات.

المقصود أن كل أبواب الدين إنما يكون التعويل فيها على كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الأعراف:٣].

وهذا المقام مقام عظيم، فإن داء الأمة الأكثر تأثيرًا فيها في هذا الزمان -مع الأسف الشديد- إنما هو ضعف تعظيم الكتاب والسنة والرجوع إليهما، وتحكيمهما في الدقيق والجليل، ولو كانت هذه الأمة قد حكمت كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أنفسها، في أفرادها ومجتمعاتها لكان الحال غير الحال.

مع الأسف الشديد طائفة تجعل التعويل على العقل، ومرتبة الكتاب والسنة متأخرة. وطائفة تجعل التعويل على أقوال أئمة المذاهب والشيوخ المقلَّدين، ومرتبة الكتاب والسنة متأخرة. وطائفة تجعل المعوَّل عليه والمقدَّم رؤى ومنامات وما يزعمونه كشوفًا، ومرتبة الكتاب والسنة متأخرة. وطائفة تجعل الاعتماد والتعويل على عادات الناس وأعرافهم، ومرتبة الكتاب والسنة متأخرة.

أما أهل السنة المحضة فإنهم على خلاف كل ذلك، لا شيء يُقدَّم -عندهم- على الآية أو الحديث، متى ما جاءت الآية أو الحديث سلَّموا وأذعنوا، وأقبلوا بكليِّتهم على هذا الدليل، ولو أن كل من في الأرض كانوا في جانب والدليل من الكتاب أو السنة في جانب ما بالوا بالناس جميعًا، ووقفوا حيث الكتاب والسنة، ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف:٣].

لا يمكن لمن كان صادق الإيمان، صادق الاتباع أن يقدِّم شيئًا على الدليل من الكتاب والسنة، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور:٥١]، لا تردد ولا تلون ولا تأخر، جاء الدليل

مباشرة يقول المسلم الصادق: حيا هلا وعلى الرأس وعلى العين، ولو خالف الهوى، ولو خالف ما يراه مصلحة، ولو خالف عادات الناس وأعرافهم، ولو خالف أيَّ شيء، لا شيء يُقدَّم على الكتاب والسنة.

هذه زبدة الإيمان وحقيقة الإيمان، هذا هو الواجب الحتمي الذي لا خيار فيه على كل مسلم ومسلمة، ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، تسليم وقبول وإذعان تام بدون تردد، من كان يروم أن يكون من أهل هذا الإيمان الصادق فدونه هذا المقام العظيم، هذا الامتحان الذي يُمتحن فيه كل إنسان: هل يقدِّم الكتاب والسنة أو يقدم عليهما غيرهما؟ هذا أمر عظيم ينبغي علينا أن نتأمله كثيرًا، وقلت آنفًا وأقول مكررًا: إن أكبر داءٍ وأعظم داءٍ، بل هو الداء الدوي -مع الأسف الشديد- في هذا الزمان المتأخر عند كثير من الناس: ضعف العناية وضعف التعظيم وضعف الإقبال على الكتاب والسنة.

يأتي هذا الإنسانَ دليلٌ من القرآن أو السنة على خلاف ما يشتهي فيبدأ بأنواع من التأويلات: لعل المراد كذا، ما الحكمة من كذا، لعله قيل في هذا كذا. وهذا ولا شك ليس مسلك أهل الاتباع الصادق وأهل الإيمان الواجب، إنما يُطَّرح كل

رأي ويُطَّرح كل عقل ويُطَّرح قول كل قائل تحت الكتاب والسنة، ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف:٣].

إذن: أهل السنة والجماعة إنما يعولون في باب الصفات مهما تصرفت مسائل هذا الباب، إنما يعولون على كتاب الله وعلى سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأيضًا على ما يرجع إليهما وهو أقوال الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فإن الصحابي إذا ثبت عنه مقالة في إثبات اسم أو صفة لله عز وجل، أو نفي صفة عن الله عز وجل؛ فإن الواجب قبول ذلك، لأن هذا القول من الصاحب محمول على الرفع إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن مثل هذا لا يُقال من قبيل الاجتهاد، إنما هو محمول على أنه بلغه في ذلك علم من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأين محل العقل؟ هل العقل -أيضًا- من جملة هذه الأدلة التي يمكن أن تستقل بإثبات الأسماء والصفات لله عز وجل؟ هل يمكن ذلك؟ هل يمكن أن نعدَّ الكتاب والسنة وأقوال الصحابة ونضيف إليهما العقل أيضًا؟ الجواب: لا، العقل مرتبته متأخرة في هذا المقام، العقل لا يستقل بإدراك تفاصيل أسماء الله عز وجل وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على وجه الاستقلال والتفصيل، يمكن للعقل أن يصاحب النقل في إثبات بعض الصفات، وهي التي تسمى عند العلماء: الصفات النقلية العقلية، فالعقل يؤيد النقل ويدل على ما دل عليه النقل من ثبوت

الصفات، كحياة الله عز وجل وعلمه وعلوّه وقوته وحكمته، إلى غير ذلك، لكن أن يكون مرجعًا ومعوَّلًا عليه في هذا المقام الغيبي؟ الجواب: لا.

ويخطئ خطًا عظيمًا ذاك الذي يعتمد على عقله في مسائل الغيب، العقل له في شرعنا منزلة، والشرع أنزله منزلته اللائقة به، **ولكن تنبه إلى قاعدتين مهمتين في هذا المقام، عليهما قام منهج أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بالعقل:**

۞ القاعدة الأولى تقول: إن العقل لا يمكن أن يفيد هدىً ما لم يتصل به نور الوحي، مَثَل العقل -وانتبه لهذا المثَل- مَثَل البصيرة كعين البصر. مثل العقل كالعين، العين يُبصر بها، ولكن تبقى عاجزة إذا كان الظلام دامسًا، إذا لم يكن ثمة نور وضوء فإن هذه العين لا تعمل ولا ترى شيئًا، تبقى معطلة لا قيمة لها، تبدأ بالعمل ويكون لها أثر ونفع متى ما وُجِد نور حسي يتصل بها، كذلك الشأن في العقل إذا لم يتصل بهذا العقل النور المعنوي نور الوحي فإنه يكون حينئذٍ معطلًا، لا يثمن فائدة، بل ربما أدى إلى عكس هذه الفائدة، يوقع في الضلال، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد بيَّن لنا ذلك، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف:٢٦] والسبب: ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف:٢٦] ما استضاءوا بنور الوحي، وبالتالي ما أغنت عنهم أفئدتهم ولا

عقولهم شيئًا، لأنهم كانوا معرضين عن الوحي، ﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف:٢٦].

إذن: العقل إنما يُنتفع به في ثمرة الهداية متى ما اتصل به نور الوحي، فالعقل آلة جعلها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ابن آدم لأجل أن يفهم كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ويتدبر ذلك ويحمله على محمله، وبالتالي إذا أعرض عن الوحي فإنه لا يفيد شيئًا، ولذلك من المُسَلَّم به أن العقل لا يستقل بالهداية، الهداية لها طريق وحيد هو الوحي، قال سبحانه: ﴿ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ [سبأ:٥٠]، هذا هو طريق الهداية: وحي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

۞ القاعدة الثانية: أن العقل محدود، العقل لا يمكنه أن يجول في كل فضاء وأن يدخل إلى كل باب، وأن يحكم في كل مسألة، الأمر ليس كذلك، العقل له حدود ضيقة لا يمكنه أن يتجاوزها، سبب ذلك: أنه مكبَّل بالمحسوسات، لا يمكنه أن يدرك شيئًا خارجًا عن حدود المحسوسات.

إذن: مَثَل العقل -وانتبه لهذا المثل- مَثَلُه كمثَل حاكم يحكم في مكان معين ولا يمكن أن ينفذ له حكم في مكان آخر، أرأيت رئيسًا أو حاكمًا أو سلطانًا يحكم في بقعة من الأرض، هل ينفذ له حكم في بقعة أخرى وفي بلد آخر؟ هل يمكن أن يقال: أصدر هذا الحاكم قرارًا والقرار يتعلق ببلد آخر؟ الجواب: لا، لا ينفذ له حكم، لم؟ لأن له سلطانًا معينًا، هذا السلطان ضيق محدود بالمحسوسات، إذا

خرج عن هذه الحدود فَقَد قيمته وأصبح تائهًا، ومن ذلك مسائل الغيب، هذه خارج حدود العقل، والعقل نفسه يسلِّم بذلك، العقل يقول: إنني لا يمكن أن أعمل خارج حدود المحسوس، هكذا يقول العقل، ومسائل الغيب لا تدخل في المحسوسات، لأنها غيب، أليس كذلك ؟ ، وبالتالي إذا أراد العقل أن يَزِن -مثلًا- مسائل اليوم الآخر يضع هذا العقل مسائل اليوم الآخر في ميزانه، وبالتالي يترتب القبول أو الرد على حكم العقل. هل هذا مقبول؟ الجواب: ليس مقبولًا، أنت يا أيها العقل لا يمكنك أن تحكم على شيء خارج عن الحدود التي تفهمها وتعرفها وتدركها، الحياة الآخرة حياة مختلفة، ليست من جنس هذه الحياة التي يعرفها العقل، وبالتالي لا يمكنه أن يكون ميزانًا توزن به مسائل اليوم الآخر، فكيف إذا كان الأمر متعلقًا بصفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وبنعوت جلاله وكماله وجماله؟ لا شك أن العقل هاهنا سوف يقف، ولا يمكنه أن يرتفع إلى هذه المنزلة فيكون حاكمًا على هذه المسائل.

إذا فهمنا هاتين القاعدتين سنفهم الخلاصة عند أهل السنة والجماعة في هذا المقام وهي: العقل تابع والنقل متبوع، المقدَّم هو النقل، والمراد بالنقل: الكتاب والسنة، والعقل يأتي في المرتبة الخلفية، يأتي تابعًا منقادًا، هذا الذي ينبغي للنقل، متى ما سار النقل إلى وجهة فعلى العقل أن يتابعه على ذلك، لأنه تابع والنقل هو المتبوع.

هذا هو الحق الذي لا شك فيه في هذا المقام، عقولنا محدودة ولها مجال معين، فلا يمكن أن تحكم في خارجه، ولذلك أخرج ابن بطة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الإبانة: أن رجلًا جاء إلى ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بابن له وقال: إنه قد حيَّرت الفكرة لُبَّه وأبعدته عن ربه. شاب مسكين، ذهب به عقله في أودية لا يطيقها، فوقع في أمر عظيم، فجاء أبوه به إلى ابن عباس الحبر البحر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فقال له ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: تعال يا ابن أخي، ما هذا الخيال المشرف هناك؟ نظر فقال: فلان. قال: أحسنت. وما هو الذي وراءه؟ قال: لا أدري. فقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: فكما جعل الله لأبصار العيون حدًا محدودًا من دونها حجاب مستور، فكذلك جعل لبصائر القلوب حدًا لا يجاوزها. فعند ذلك انقطع هذا الشاب عن هذه الفكرة السيئة.

إذن: كما أن البصر محدود، هل يمكنك أن ترى ما وراء هذا الجدار؟ انظر، من فيكم نظره ستة على ستة يمكن أن ينظر ما خلف الجدار؟ يمكن؟ والله لا يمكن، إذن: كذلك العقل له حد محدود لا يمكنه أن يتجاوزه.

إذن: مسائل الغيب لا يُحكَّم فيها العقل، إنما في مسائل معيَّنة ومحدودة ويكون فيها تابعًا للنقل لا مستقلًا.

هذا هو منزلة العقل في هذا الباب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وعلى ما سار عليه سلف الأمة وأئمة الهدى من بعهم سائرون**)، هذا -أيضًا- فارق مهم يتميز به أهل السنة عن غيرهم وهو أنهم في اتباعهم لكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعتمدون نهج السلف الصالح، فبفهم السلف الصالح يفهمون نصوص الكتاب والسنة، ويتكلمون في المسائل التي تكلم فيها السلف، ويسكتون عما سكت عنه السلف، ويتابعونهم في منهج الاستدلال والتلقي، هذه ميزة لأهل السنة والجماعة، ولذلك أثنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الذين تابعوا الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بإحسان، قال سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وفي حديث العرباض عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»، التطبيق العملي لسنة نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستجده في سنة أصحابه من بعده، ورأسهم الخلفاء الراشدون.

إذن: هذا الذي يتعين علينا معشر أهل السنة والجماعة أن نكون للسلف الصالح -رحمهم الله- متابعين، والله جل وعلا حثنا على متابعة الأخيار، فقال سبحانه: ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان:١٥]، من أولى الناس بهذا الوصف بعد أنبياء الله ورسله؟ أليس الصحابة؟ أليس التابعون من بعدهم؟ أليس

أتباعهم؟ أتباع التابعين من بعد التابعين؟ إذن: علينا أن نتابعهم، ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، ورأس الصادقين بعد الأنبياء: أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم الذين تربوا على أيديهم وهم التابعون، ثم الذين تربوا على أيدي التابعين وهم أتباع التابعين، هؤلاء صفوة الأمة، هؤلاء خيارها، هؤلاء الذين زكاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووصفهم بالخيرية فقال: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

إذن: اتباع السلف الصالح رحمهم الله حتم لا خيار فيه، ليس المجال مفتوحًا أن تقرأ كتاب الله أو سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم تأتي بالبدائع والغرائب فتقول: أنا أفهم هذا، وأنا يترجح عندي هذا، وأنا وصلت إلى علم كذا، الأمر ليس كذلك، هذه النصوص الآيات والأحاديث سمعها قبلك من هم أعلم بالكتاب والسنة منك، وأفهم لمراد الله ومراد رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منك، إذن: لا يمكن أن تَصِل إلى علم وخير ما وصلوا إليه.

ولذلك ما أحسن ما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن المشركين: ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف:١١] يعني: هذه مقالة المشركين في حق أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو كانت دعوة الإسلام خيرًا ما سبقنا إليها الصحابة، نحن السادة والأشراف كنا نحن سابقنا إلى هذا، ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف:١١]، هنا قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وقال أهل السنة

والجماعة في كل علم أو عمل لم يسبق إليه أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: لو كان خيرًا لسبقونا إليه، فإنهم لم يَدَعوا خصلة من خصال الخير إلا وهم السابقون إليها.

إذن: باب من الأبواب في مطالب الدين، في المطالب الإلهية أو غيرها وجدت أن السلف الصالح أعرضوا عن الكلام في هذا الموضوع عليك أن تعرض، وليس لك أن تنقر، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفُّوا، ولن تبلغ علمهم، ولن تكون أحرص منهم، ويكفيك شرفًا وفضلًا أن تكون متابعًا لهم، فتقول حيث قالوا، وتسكت حيث سكتوا.

إذن: عندنا فارقان منهجيان مهمان يتميز بهما أهل السنة والجماعة عن غيرهما، ضعهما نصب عينيك.

الأول: تقديم الكتاب والسنة على كل مقالة وعلى كل رأي وعلى كل عقل.

والفارق الثاني: اعتماد منهج السلف الصالح في فهم الدين ومعرفة الكتاب والسنة، يجب أن نتابع السلف الصالح رحمهم الله في هذا المقام.

ثم قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**ونرى وجوب إجراء نصوص الكتاب والسنة في ذلك**) يعني: في باب الصفات (**على ظاهرها وحملها على حقيقتها اللائقة بالله عز وجل**).

من طريقة أهل السنة والجماعة في الاستدلال: أنهم يحملون النصوص المتعلقة بالصفات على ظاهرها، بمعنى: أنه لا يمكن أن يُقبل في نصوص الصفات أن تُحمل على خلاف ظاهرها دعوى تُدَّعى بلا دليل، هذا لا يمكن أن يكون مقبولًا، بل واجب أن تُحمل نصوص الكتاب والسنة في باب الصفات -كما هو الشأن في الأبواب الأخرى- على ظاهرها، ومن ادعى خلاف ظاهرها فإنه مطالَب بالدليل وإلا فإن قوله مردود، لماذا؟ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعل هذا الكتاب كتابًا مبينًا ونورًا مبينًا وتبيانًا لكل شيء، ولا يمكن أن يكون كذلك إذا كان له ظاهر غير مراد وله باطن هو المراد، لا يمكن أن يكون كذلك إذا كان بهذه المثابة.

الله جعل هذا القرآن هداية للناس، نورًا يستنيرون به وضياءً يستضيئون به وبشرى للمسلمين، كيف يكون كذلك وهو يتكلم بما هو في ظاهره شيء وفي باطنه شيء آخر والباطن هو المراد؟ يعني: لا يمكن أن يكون هذا القرآن هداية للناس وفيه ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠] والمراد أن تفهم من هذه الآية أن الله لا داخل العالم ولا خارجه، ما يمكن أن يكون كتاب هداية إذا كان كذلك.

لا يمكن أن يكون كتاب هداية والله عز وجل ينص في هذا الكتاب العظيم أن له يدًا وعلينا أن نفهم من كل هذه النصوص أن الله لا يَدَ له، إنما هذه مجاز، والمراد القدرة والقوة أو النعمة. لا يمكن أن يكون كتاب هداية وهو كذلك.

لا يمكن أن يأتي في كتاب الله في مواضع عديدة أنه مستوٍ على عرشه، وعلينا أن نفهم من هذه النصوص التي هي بلسان عربي مبين ومعناها مفهوم في لغة العرب علينا أن نفهم خلاف ذلك، وأن (استوى على العرش) يعني: استولى على العرش. هذا لا يمكن أن يكون كتاب هداية وهو كذلك.

لا يمكن أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحدث ويتكلم مع أصحابه وأصحابه يبلغون الأمة بنصوص الصفات ولها ظاهر يُفهم منها والمطلوب أن نعتقد خلاف ظاهرها، لا يمكن.

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله ينزل إلى سماء الدنيا إذا بقي ثلث الليل الآخر» والمطلوب منا أن نفهم من هذا الحديث أنه ينزل أمره أو ينزل مَلَك من ملائكته، هو يتكلم بلسان فصيح واضح: «إن الله تعالى ينزل» والمطلوب منك أن لا تعتقد ذلك، بل لو اعتقدت ذلك أنت مشبِّه كفرت بالله عز وجل. هذا لا يمكن أن يكون كتاب هداية إذا كان ذلك كذلك. النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن الله ينزل» والمطلوب مني أن لا أفهم هذا، بل أفهم أن المراد: إن أمره ينزل أو إن مَلَكًا ينزل. لماذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحريص علينا الذي هو أشفق شفيق على هذه الأمة، لماذا ما بيَّن لنا ذلك؟ أليس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول كما عند النسائي وأبي داود وغيرهما: «إنما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم»، بالله تجد أن الوالد المحب المشفق يقول لابنه: اذهب ذات اليمين، فإذا ذهب قال: أنت مخطئ، المطلوب أن

تفهم من ذات اليمين ذات الشمال. هذا لا يفعله الذي يريد الهداية، كيف يُعتقد هذا في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؟ والله يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦]، الله يريد ليبين لنا ونحن نقول: لا، المطلوب هو أن نفهم من هذه النصوص خلاف ظاهرها. هذا الذي يقول هذا لا شك أنه قد وقع في أمر عظيم، فإنه بلسان حاله متهمٌ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إما في علمه، وإما في نصحه، وإما في بيانه، لا يمكن أن يتحدث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بهذه الأحاديث الكثيرة وهي بالمئات وربما أكثر، ويتلو على المسلمين هذا القرآن ليل نهار ولا مرة واحدة يقول لهم: حذارِ أن تحملوا النصوص على ظاهرها. والمطلوب من الأمة صغيرها وكبيرها، ورجالها ونسائها، وعلمائها وجهالها أن يقرؤوا القرآن، وإذا بهم إذا حملوه على ظاهره وصل بهم إلى الضلال! هذا لا يمكن أن يكون إلا وقائل ذلك متهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في واحد من هذه الأمور الثلاثة.

وما أحسن ما قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في نونيته:

فسل المعطل عن ثلاث	تقضي على التعطيل بالبطلان
ماذا تقول أكان يعرف ربه	هذا الرسولُ حقيقة العرفان
أم لا وهل كانت نصيحته لنا	كل النصيحة ليس بالخوان
أم لا وهل حاز فالفصاحة	فاللفظ والمعنى له طوعان
فإذا انتهت هذي الثلاثة فيه كا	ملة مبرأة من النقصان

فلأي شيء عاش فينا كاتمًا ... للنفي والتعطيل في الأزمان

ولأي شيء لم يصرّح بالذي ... صرحتم في ربنا الرحمن

ألعجزه عن ذاك أم تقصيره ... في النصح أم لخفاء هذا الشان

حاشاه بل ذا وصفكم يا أمة ... التعطيل لا المبعوث بالقرآن

إذن: هذه نبذة تبين لك أن هذا المقام الذي أخطأ فيه كثير من الناس، كما قد تجده في بعض الكتب أو في بعض أقوال الناس الذين يزعمون أن ظاهر الكتاب والسنة في باب الصفات يفيد التشبيه، ومن اعتقده فقد ضل ضلالًا مبينًا، وربما قعَّدوا قاعدة وما أشنعها من قاعدة حينما يقولون: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الضلال. أعوذ بالله! بل والله إن هذا عين الضلال، وإن الأخذ بظاهر الكتاب والسنة هو الهدى والنور، لأن الله ما جعل هذا الكتاب كتاب ألغاز وكتاب أحاجي، فضلًا عن أن يكون كتاب إضلال، حاشا وكلا! الله يُنزَّه عن ذلك، وكتابه يُنزَّه عن ذلك، إنما هو كتاب هداية وبيان وتبيين وإرشاد ونور مبين، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا وظاهره الذي هو لائق به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الحق المبين الذي يجب اعتقاده والذي لا يجوز العدول عنه.



قال المصنف رحمه الله:

ونتبرأ من طريق المحرفين لها، الذين صرفوها إلىٰ غير ما أراد الله بها ورسوله ﷺ، ومن طريق المعطلين لها الذين عطلوها عن مدلولها الذي أراده الله ورسوله ﷺ، ومن طريق الغالين فيها الذين حملوها علىٰ التمثيل أو تكلفوا لمدلولها التكييف.

ونعلم علم اليقين أن ما جاء في كتاب الله تعالىٰ أو سنة نبيه ﷺ فهو حق لا يناقض بعضه بعضًا، لقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

ولأن التناقض في الأخبار يستلزم تكذيب بعضها بعضًا، وهذا محال في خبر الله تعالىٰ ورسوله ﷺ.

ومن ادَّعىٰ أن في كتاب الله تعالىٰ أو في سنة رسوله ﷺ أو بينهما تناقضًا فذلك لسوء قصده وزيغ قلبه، فليتب إلىٰ الله تعالىٰ ولينزع عن غيِّه.

ومن توهم التناقض في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ أو بينهما فذلك إما لقلة علمه، أو قصور فهمه، أو تقصيره في التدبر، فليبحث عن العلم، وليجتهد في التدبر حتىٰ يتبين له الحق، فإن لم يتبين له فليكِل الأمر إلىٰ عالمه، وليكف عن توهمه، وليقل كما يقول الراسخون في العلم: آمنا به كُلٌّ من عند ربنا.

وليعلم أن الكتاب والسنة لا تناقض فيهما ولا بينهما ولا اختلاف.



قال الشارح وفقه الله:

فهذه الجملة -من هذه الرسالة القيِّمة للشيخ الإمام العلامة محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ- تتمة وصِلة لكلامه السابق الذي بيَّن فيه المنهج الحق في الإيمان بأسماء الله وصفاته، وما يجب حَمْل كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه، وهو أن الحق الذي لا شك فيه أن نصوص الصفات في الكتاب والسنة واجبٌ حملها على الظاهر اللائق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، المنزَّه عن كل نقص وعن كل تمثيل بالمخلوقين.

وهذا المنهج هو المنهج الوسط بين طرفين منحرفين، وهما: المعطلة والممثلة، فبيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن طريقة أهل السنة فيها البراءة من طريق المحرفين الذين صرفوها إلى غير ما أراد الله بها ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن طريق المعطلين لها الذين عطلوها عن مدلولها الذي أراده الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والفريقان هم عند التحقيق فئة واحدة، فإن التحريف يؤدي إلى التعطيل، فهو وسيلته، والتعطيل ثمرة التحريف، إلا أن تعطيل صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يكون تعطيلًا صريحًا وذلك بالنفي الصريح لها، وهذا لا يجرؤ عليه مسلم، اللَّهم إلا فيما يدَّعونه من إنكار أخبار الآحاد التي هي الأحاديث الثابتة عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم

تبلغ درجة التواتر، فهذه ينكرونها صراحة، ولا يقبلونها لأنها عندهم تفيد الظن، وهو معارَض بدليل العقل القطعي الذي يزعمون.

وأما الطريق الثانية للتعطيل: فهي بوسيلة وواسطة التحريف، وهو الذي شاع عند المتأخرين أنه التأويل.

والفئة الثانية التي برأ الله عز وجل أهل السنة من سلوك مسلكها، وهم يبرؤون منها ومن مسلك أهلها: هي طريقة الممثلة المشبهة، حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن طريق الغالين فيها الذين حملوها على التمثيل أو تكلفوا لمدلولها التكييف)، وأهل السنة والجماعة يبرؤون من التمثيل ومن التكييف، كما مر معنا تفصيل ذلك، من شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تشبيه.

قال: (ونعلم علم اليقين أن ما جاء في كتاب الله تعالى أو سنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو حق لا يناقض بعضه بعضًا)، لا شك، كل ما في الكتاب والسنة فإنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا يقينٌ لا يجوز أن يرتاب فيه مؤمن، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥]، ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ [يونس:٥٣]، فوالله وبالله وتالله، إن كل ما جاء في كتاب الله وصح عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه حق ليس فيه أدنى شائبة من باطل، كلا ورب السماء، ومن ذلك نصوص الصفات، والله جل وعلا

لم يكن ليضيف لنفسه ما تقتضي إضافته إليه النقص والعيب أو التمثيل بخلقه، الله أعظم من ذلك، والله أعزُّ من ذلك، وليس أحدٌ أحب إليه المدح من الله عز وجل ولذلك أثنى على نفسه، فكيف يقال: إن ظاهر نصوص الصفات يفيد التشبيه؟! لا يقول هذا إلا مريض بداء التشبيه، ثم رمى هذا الداء وجعله في كتاب الله، وحاشا كتاب الله عز وجل من ذلك.

إذن: هو الحق. ومن لازم كونه حقًا -أعني: كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- أنه لا تناقض ولا اختلاف، لا يمكن أن يكون هناك آية تناقض آية، أو أن يكون هناك آية تناقض حديثًا، أو أن يكون هناك حديث يناقض حديثًا، هذا فرض باطل، لا يجوز لإنسان يؤمن بالله واليوم الآخر أن يظنه في الكتاب والسنة، وكل من كان عنده توهم من ذلك فليعد على نفسه باللائمة، وليرجع إلى العلماء الراسخين فإنهم يبينون له الحق، الكتاب والسنة يصدق بعضُ أدلتهما بعضًا، ويشبه بعض أدلتهما بعضًا، وهذا ما بيَّنه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر:٢٣]، يشبه بعضه بعضًا، ويصدق بعضه بعضًا، وليس أنه تأتي آية فيه مثبتة لشيء وتأتي آية أخرى فتنفي ذلك الشيء، هذا مما يجب اعتقاد تنزيه كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عنه، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

أما والشأن والحال أنه من عند الله فإنه لا اختلاف فيه ولا تناقض فيه والحمد لله!

قال: (ولأن التناقض في الأخبار يستلزم تكذيب بعضها بعضًا، وهذا محال في خبر الله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(ومن ادَّعى أن في كتاب الله تعالى أو سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بينهما تناقضًا فذلك لسوء قصده وزيغ قلبه، فليتب إلى الله تعالى ولينزع عن غيِّه) وصَدَق، لا يمكن أن يدَّعي أحد أو يزعم زاعم أن في الكتاب والسنة أشياء متناقضة مختلفة، لا يمكن أن يكون ذلك إلا من قلب زائغ، وإلا من نفس مريضة، والعياذ بالله!

ولو أن هذا الإنسان استقام قلبه وصلح صدره وصدق إيمانه ما زعم هذا الزعم، إنما أوتي من غَبَش وسوء قصد فادَّعى هذه الدعوى وزعم هذا الزعم، وأما لو كان مؤمنًا حقًا فوالله لا يمكن أن يزعم هذا الزعم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ [النحل:١٠٤] نعم، يكون هذا الكتاب عليهم عمى، هذا كتاب عزيز، لا يتبين الحق فيه ولا يظهر ولا يتنور القلب بأنواره إلا لمن أقبل عليه وهو متواضع يريد الحق، يريد الخير، يريد الهدى، هنا تظهر له أنوار

هذا الكتاب العظيم وهداياته، ويتجلى له أنه الحق الذي لا لبس فيه ولا اختلاف، ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت:٤٤].

هذا من عِزة هذا الكتاب، ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت:٤١]، فكل من ادَّعى وزعم وشنَّع على كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيء من ذلك فإن ذلك راجع إما إلى زيغ في قلبه أو سوء في قصده، وعلاج هذا: دعوته إلى التوبة إلى الله عز وجل.

وهناك صنف آخر يتوهم ويستشكل، لكنه لا يرمي كتاب الله أو سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتناقض والاختلاف، لكنه يستشكل أشياء وتَرِد عليه واردات يتوهم فيها أنه ربما يكون ظاهر هذه الآية يخالف ظاهر تلك، أو أن هذا الحديث يُستشكل مع ذاك، فهذا مما قد يقع، وسبب ذلك: قلة العلم. وهذه الميزة والفارق بين العالِم وغيره، العالِم هو الذي تَقِلُّ عنده هذه المشكلات، لأنه يبصر بنور العلم، وبالتالي فالنصوص عنده كأنها نص واحد، مؤتلفة ومتفقة، لا تناقض بينها ولا اختلاف. أما الجاهل فهو الذي تكثر عنده هذه الاستشكالات، علاج هذا: أن يطلب العلم، وأن يرجع إلى أهل العلم، وأن يسأل فيما استُشكل عليه، وبالتالي يتبين له الحق إن كان مريدًا له.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن توهم التناقض في كتاب الله أو في سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بينهما فذلك إما لقلة علمه، أو قصور فهمه، أو تقصيره في التدبر)، قصور الفهم أو التقصير في التدبر وسيلتان لنقص العلم، فالخلاصة: أن سبب هذا التوهم هو نقص العلم، ومثل هذا ما أحراه أن يطلب العلم وأن يتأمله.

والعلم كل العلم هو في تنزيل الآيات على بعضها، وتنزيل السنة على بعضها، وتنزيل القرآن على السنة، والسنة على القرآن، هذا هو العلم الذي هو العلم حقًا، دعك من الشقاشق، ودعك من الزخارف، إنما العلم هو أن يستبين لك استقامة نصوص الكتاب والسنة على منهج واحد، بحيث يصدق بعض ذلك بعضًا. مَن كان كذلك فليهْنَه العلم، ولذلك العلماء المبرزون الراسخون هم الذين تمكنوا في هذا الباب وهو باب درء التعارض الذي قد يُتوهَّم بين النصوص، فإن هذا مما يبرز فيه الراسخون في العلم.

فمن أراد أن يسلم من الوقوع في هذا التوهم الذي قد يجرُّ إلى الضلال فعليه أن يشمر عن ساعد الجد في طلب العلم، وليكن قاصدًا الحق، وليكن حسن النية، يريد الوصول إلى مراد الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومثل هذا فليبشر، سوف يصل إلى الخير والحق.

وحذارِ إن وقع في قلبك شيء من هذه الاستشكالات أن تسكت عنها، وأن تغفلها، فإن هذا مثل الورم الذي يبدأ صغيرًا، لكنه يفحش ويستفحل مع الوقت، وكم من أناس ارتكسوا في ضلال بعيد بسبب شبهة بَدَت في أول الأمر صغيرة، فسكتوا عنها وأغفلوا عن علاجها وإذا بها مع الوقت تكبر، والشيطان ينفخ فيها حتى ربما أدت إلى أن يرتكس هذا الإنسان، وربما ارتد على عقبيه، والعياذ بالله!

فالشُّبَه شأنها عظيم، وينبغي الحزم في التعامل معها، وينبغي عدم الغفلة عنها، منذ أن يَرِد عليك شيء من ذلك تشعر أن قلبك قد تعلق به ينبغي عليك أن تبادر إلى طبيب يعالج لك هذا الإشكال.

وطبيب ذاك العالم الرباني

العلماء هم الذين يطبِّبون القلوب بتوفيق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فليبحث عن العلم، وليجتهد في التدبر حتى يتبين له الحق، فإن لم يتبين له فليكِل الأمر إلى عالمه، وليَكُفَّ عن توهمه، وليقل كما يقول الراسخون في العلم: آمنا به كُلٌّ من عند ربنا، وليعلم أن الكتاب والسنة لا تناقض فيهما ولا بينهما ولا اختلاف).

لو قُدِّر أنك استشكلت استشكالًا أو توهمت في ظاهر دليلين شيئًا من الاختلاف والتناقض، ولكنك لم تصل بعد إلى حل هذا الإشكال، العلاج في مثل هذه الحال هو أن لا يؤثر هذا في تسليمك بالأصل، المشكل يبقى مشكلًا، ضعه في

محله ولا تبالغ فيه، ولا ينبغي أن يقدح في إيمانك الراسخ بأن القرآن والسنة حق لا اختلاف بينهما ولا تناقض، إنما هذا موضع مشكل يبقى في زاوية معينة ولا يكبر ولا يقدح في الأصل، ومع الوقت ومع الاجتهاد في الطلب يزول بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لكن اعتصم عند الاستشكالات بالأصول، هذه قاعدة مهمة لطالب العلم، اعتصم عند الاستشكال بالأصول، ما هو الأصل في هذا الباب؟ الأصل أن كلام الله عز وجل حق يصدق بعضه بعضًا، وأن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صادق مصدوق، وأن أحاديثه لا تناقض فيها ولا اختلاف، هذا هو الأصل، إذًا اعتصم به واستمسك به، ورُدَّ المتشابه إليه، وقل: آمنا به كُلٌّ من عند ربنا، وقف عند هذا الحد ولا تبالغ، ولا يستجرينك الشيطان، ولا يُلبسنَّ عليك، وإنما لو وضعت هذا الإشكال في محله ولم تبالغ فيه فإنه لن يؤثر فيك إن شاء الله، وسوف توفق إلى الحق -بإذن الله- إن طلبته من بابه، إن طلبته من بابه وسلكت السبيل إليه فإنك تصل -إن شاء الله-، حتى تصل إلى ذلك ينبغي أن يبقى المشكل مشكلًا، ولا يكون عاصفًا لإيمانك.

هذا من الأمر المهم، فإن بعض الناس لضعف عقله وضعف إيمانه تجد أن المشكل الواحد يصبح بالنسبة له عاصفة هوجاء، ربما تؤثر على الإيمان، ربما

اقتلعت الإيمان، وهذا نقص في العقل وضعف في الإيمان، والواجب أن تضع الأمور في مواضعها ولا تبالغ هذه المبالغة، ويزول الإشكال إن شاء الله تعالى.

وبهذه الجملة والنصيحة من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ انتهى كلامه عن الركن الأول من أركان الإيمان وهو: الإيمان بالله، وانتقل بعده إلى الكلام عن الركن الثاني وهو الإيمان بالملائكة.



قال المصنف رحمه الله:

فصل

ونؤمن بملائكة الله تعالىٰ، وأنهم عِبَادٌ مكرمون، ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٧].

قال الشارح وفقه الله:

الإيمان بالملائكة، هذا هو الركن الثاني من أركان الإيمان كما بيَّن هذا النبي صَلَّآللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حديث جبريل كما سيأتي -إن شاء الله- الكلام عنه.

الملائكة جمع مَلَك أو مَلأَك، وبدون الألف أشهر، والأكثر والأشهر أن اشتقاق هذه الكلمة من الألوكة، يعني: الرسالة، كما قال أبو ذويب الهذلي:

ألكني إليها وخير الرسول أعلمهم بنواحي الخبر

ألكني إليها يعني: أرسلني إليها. وهذا لا شك أنه حق، فإن الملائكة رسل الله عز وجل، ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١]، ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات:٣١]، فالملائكة رسل الله عز وجل يرسلهم بما شاء جل وعلا.

والملائكة في الشرع: هم عِبادٌ مكرمون، خلقهم الله عز وجل من نور، لا يحصي عددهم إلا الله، دائبون في طاعة الله، يدبِّر بهم شئون هذا العالم.

الملائكة في الشرع، في الكتاب والسنة هم عِبادٌ مكرمون، خلقهم الله تعالى من نور، لا يحصي عددهم إلا الله، دائبون في طاعته، ولا يعصون الله ما أمرهم،

ويدبر الله عز وجل بهم شئون هذا العالم، ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:٥]، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

هم عِبادٌ لله عز وجل، عِبادٌ لا معبودون، الله عز وجل خلقهم وليس لهم من الأمر شيء، ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [مريم:٦٤]، ليس لهم من الأمر شيء، ولا يجوز أن تتعلق القلوب بهم، ولا يجوز دعاؤهم ولا الاستغاثة بهم.

يا لله العجب من أُناس يَدَعون دعاء الإله الرب العظيم، السميع البصير المجيب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ثم يدْعون جبريل أو ميكائيل أو إسرافيل، أو يدعون نبيًا، أو يدعون وليًا، يا لله العجب! لماذا لا تدعو الله؟ ما ظنك برب العالمين؟ هل ظنك به أحسن الظن؟ لو كان ذلك كذلك ما لجأت إلى غيره ولا دعوت غيره، لكن لما كان ظنك بالله ظن السَّوء، لما أظلم قلبك وما قدرت الله حق قدره لجأت لغيره، ودعوت العبد وتركت المعبود سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، مع أن أشرف البشر وأكرمهم على الله -وهو النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- يقول الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، ، يقول سبحانه عنه مخاطبًا إياه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨].

الملائكة، هذا العالم العلوي الكريم الذي شرَّفه الله عز وجل ونسبه إليه، ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥]، نسبهم الله عز وجل هذه النسبة التي هي

نسبة تشريف ومع ذلك ليس لهم من الأمر شيء، ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ [مريم:٦٤]، ليس لهم من الأمر شيء.

يقول الله عز وجل عنهم: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء:٢٩]، فوعدهم الله عز وجل بالعذاب لو أن أحدًا تجرأ فقال: إنه إله يُعبد من دون الله. إذن: كيف يُلجأ لغير الله؟ ما ذاك إلا من سوء الظن بالله عز وجل، ولذلك صدق الله في قوله عن المشركين: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الزمر:٦٧]، والله لو أحسنوا الظن بالله، وعظموا الله حق تعظيمه، وقدروه حق قدره ما لجؤوا لغيره.

إذن: الملائكة عباد لا معبودون، هم مربوبون وليسوا أربابًا، هم يدعون الله ولا يُدعَون، وقد أجمع المسلمون -وكان من المعلوم من دينهم بالضرورة- أن من دعا مَلَكًا من الملائكة جبريل أو غيره عليهم الصلاة والسلام فإنه ارتد عن دين الله وكفر بالله، فالدعاء يجب أن يكون لله عز وجل، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦].

عِبَادٌ مكرمون أكرمهم الله عز وجل، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦] كما سيأتي إن شاء الله.

خلقهم الله عز وجل من نور، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث عائشة في صحيح مسلم، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خلق الله الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصِف لكم» يعني: من طين.

كيف خلقهم من نور؟ وكيف كان خِلقتهم من نور؟ نقول: الله أعلم، لا ندري، هذا غيب، إنما نصدق بما أخبر الله عز وجل.

وعددهم كبير، لا يحصي عددهم إلا الله، أعدادٌ عظيمة، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر:٣١]، والملائكة أعظم جند الله كما قال أهل العلم، فأعدادهم هائلة.

ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال عن جهنم -عافاني الله وإياكم منها-: «يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام، يجر كلَ زمام سبعون ألف مَلَك»، سبحان الله! كم هذا العدد؟ سبعون ألف زمام، كل زمام يجره سبعون ألف ملك، هذا فقط الموكلون بجرِّ جهنم إلى المكان الذي يشاؤه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، عدد هائل.

أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما سيأتي معنا إن شاء الله في الصحيحين- عن البيت المعمور الذي هو في السماء السابعة أنه يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك يصلون فيه، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم. مرة واحدة فقط، كل يوم يدخل سبعون ألف مَلَك يتعبدون في هذا البيت المعمور ثم لا يعودون إليه.

إذن: هذا عدد هائل، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر:٣١].

خلقهم الله عز وجل وهم دائبون في طاعة الله، كما سيأتي معنا، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠] ولا يملُّون ولا ينقطعون عن طاعة الله عز وجل.

والله عز وجل يدبر بهم شؤون هذا العالم، الملائكة يدبرهم الله عز وجل، وهم بأمره يدبِّرون شؤون هذا العالم، ولذا أقسم الله عز وجل بهم في قوله: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات:٥] وهم الملائكة، يدبِّر الله عز وجل بهم شؤون هذا العالم عُلْوِيِّه وسُفْلِيِّه، كما سيأتي الكلام عن ذلك إن شاء الله.

قلنا: إن الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما جاء جبريل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسأله عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته»، ثاني ركن ذكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الإيمان بالله هو الإيمان بالملائكة... إلى آخر الحديث.

وهكذا جاء الأمر في حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي رواه عنه ابنه عبد الله، وهو الحديث المشهور بحديث جبريل الطويل الذي خرجه الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه.

ولا شك أن أهل الإيمان يؤمنون بالملائكة، ورأسهم رسولهم ونبيهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ

وَمَلائِكَتِهِ ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وبالتالي التكذيب بهم والكفر بهم ضلال بعيد، ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١٣٦].

وأجمع المسلمون على كفر من كذب بوجودهم، أو أنكر ما أخبر الله عز وجل أو رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنهم.

ما معنى الإيمان بالملائكة؟ كيف يكون إيماننا بالملائكة؟

الإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

❁ أولًا: الإيمان والتصديق بوجودهم، أن الله عز وجل خلق خلقًا هم الملائكة، فهم موجودون لا شك في ذلك ولا ريب، والله عز وجل هو خالقهم، هم عباد لا معبودون، كما تقدم.

❁ والأمر الثاني: الإيمان بما علمنا من أسمائهم وألقابهم، وبما علمنا من صفاتهم، وبما علمنا من أعمالهم.

الإيمان بما علمنا، وإذا قلنا (علمنا) فإننا لا نعلم شيئًا حتى يُعلِّمنا الله، ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة:٣٢]، فالله عز وجل هو الذي علَّمنا في كتابه وفيما أوحاه إلى رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذن: ما ثبت في القرآن أو في صحيح سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه الأمور الثلاثة فإنه واجب علينا التصديق به.

أولًا: ما علمنا من أسمائهم وألقابهم. واعلم أنه قد جاء في الكتاب والسنة تسمية وتلقيب الملائكة لطوائف منهم وفئات، ولأفراد وآحاد، التسميات والألقاب في الكتاب والسنة فيما يتعلق بالملائكة جاءت لمجموعات وفئات منهم، وجاءت لآحاد وأفراد.

فجاء -مثلًا- الزبانية الذين هم خزنة النار، عافاني الله وإياكم منها! ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق:١٨].

جاء أيضًا: المعقبات، جاء أيضًا: الحفظة، جاء أيضًا: حملة العرش، جاء أيضًا: خزنة الجنة وجاء أيضًا: خزنة النار، جاء أيضًا: ملائكة الموت، ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام:٦١]، مَلَك الموت وأعوانه. إلى غير ذلك من هذه المجموعات.

وجاء -أيضًا- الكروبيون، ولكن هذه التسمية أو هذا اللقب لم يصح به دليل، يعني: ما جاء في القرآن ولا صح به حديث عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ولا عن صحابي، لكن تكلم بهذا الاسم بعض السلف: الكروبيين، وهم إما حملة العرش أو مَن حوله، مَن حول العرش، هكذا فُسِّر. هذا اللقب: الكروبيين، لكنه لم يصح فيما أعلم، والله أعلم.

أما بالنسبة لآحادهم وأفرادهم فجاء في النصوص تسمية جبريل وميكائيل وإسرافيل، وجاء -أيضًا- المنكر والنكير، وجاء -أيضًا- مالك الذي هو خازن النار، وجاء -أيضًا- مَلك الموت، وجاء -أيضًا- صاحب الصور وهو إسرافيل

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكن هكذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إلى غير ذلك مما جاء في النصوص.

وبعض الناس ربما سمى بعض الملائكة بما لم يأت الدليل عليه، مثل: عزرائيل، بعض الناس يسمون مَلَك الموت عزرائيل، وهذا لم يصح به دليل، تكلم به بعض أهل العلم واستعملوه لكنه لا دليل عليه.

كذلك يسمون خازن الجنة: رضوان، وهذا لم يصح به حديث عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيه حديث لكنه ضعيف، بل ضعيف جدًا.

كذلك بعض الناس يسمي الكَتَبة: رقيب وعتيد، وهذان الصواب أنهما وصفان للمَلَكين، كلاهما رقيب وكلاهما عتيد، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، رقيب: مراقب، وعتيد يعني: ملازم، وهذان وصفان لكُلٍّ من المَلَكين، كلاهما رقيب وكلاهما عتيد.

أيضًا نسأل سؤالًا: هل نقول -مثلًا- إن من الملائكة الذين سُمُّوا: إبليس، باعتبار أنه كان مَلَكًا؟

الصواب في هذا: أن إبليس ليس من الملائكة، وأما ما قاله بعض أهل العلم من أنه منهم لأنه دخل في الأمر بالسجود فنقول: إنه كائنٌ معهم وليس منهم، هذا هو التحقيق في إبليس أنه كائنٌ معهم، فشمله الأمر، وليس منهم، أو كما قال شيخ الإسلام في المجلد الرابع من مجموع الفتاوى: إن التحقيق في إبليس أنه معهم

باعتبار صورته، وليس منهم باعتبار أصله ولا مثاله. يعني: هو في الوجود والكون، هو كائن معهم وكان يتعبد لله عز وجل مع الملائكة لكنه ليس منهم، ليس من جنسهم. فهذا هو الصحيح في ذلك، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعلم.

إذًا قلنا: نصدق بما علمنا من أسمائهم وصفاتهم، يجب أن نصدق بكل ما ثبت عندنا من صفات الملائكة.

من ذلك: أنهم خُلِقوا من نور، والله أعلم كيف ذلك. وأنبه هنا إلى أن بعض أهل العلم قد يستعمل كلمة (أجسام) في حق الملائكة، فيقول -مثلًا- في تعريفهم: إنهم أجسام نورانية. والذي أوصي به اجتناب هذه الكلمة، فإن كلمة (أجسام) في وصف الملائكة شيء لا أعلم دليلًا عليه، وكلمة الجسم والأجسام -كما تعلمون- فيها بحث طويل، وللمتكلمين خوض كثير، والذي جاء به القرآن والسنة في استعمال كلمة (الجسم) هو أنه هذا الجسد الكثيف الذي هو مجمع الأعضاء، والذي هو من لحم ودم، وهذا لا شك أنه لا ينطبق على الملائكة، هم خِلْقة أخرى خلقها الله عز وجل من نور والله أعلم كيف هي، فكلمة (جسم) أرى أن تتجنبها، هذا أسلم وأحوط.

إذن: من صفاتهم أنهم خُلِقوا من نور.

من صفاتهم -أيضًا-: أنهم أولوا أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وأكثر من ذلك قد رأى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جبريل عليه السلام وله ستمائة جناح سد بها الأفق كما جاء في حديث ابن مسعود في الصحيحين.

أيضًا من صفاتهم: أن لهم قلوبًا، قال الله عز وجل: ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ [سبأ:٢٣]، كيف هي قلوبهم؟ تشبه قلوب الناس؟ على شكل الكمثرى كما -مثلًا- في قلب الإنسان، أو نقول الله أعلم؟ الله أعلم، ولا حاجة إلى هذا الخوض والتكلف.

أيضًا لهم أيدي، قال الله عز وجل: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام:٩٣]، كيف هي أيديهم؟ الله أعلم.

أيضًا من صفاتهم: أن لهم أعينًا، كما ثبت في الصحيح في قصة لطم موسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لعين مَلَك الموت ففقأها.

أيضًا لهم آذان، كما ثبت عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «أُذن لي أن أحدث عن مَلَك من حملة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»، الله أكبر! انظر إلى هذه الخِلْقة العظيمة التي تندهش لها النفوس.

الشاهد: أن لهم آذانًا أيضًا. هذا وغيره من صفاتهم الخَلْقية.

أيضًا: أنهم أهل منظر حسن، كما قال عز وجل عن جبريل عليه السلام: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم:٦]، المِرَّة كما فسرها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو أحد قولي أهل التفسير: المِرَّة: المنظر الحسن.

والقول الثاني: أن المِرَّة يعني القوة. وكلاهما حق، فهم أهل قوة وأهل منظر حسن. وهذا المستقر في نفوس الناس، ولذلك النسوة ماذا قُلْن عن يوسف عليه السلام؟ ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١].

أيضًا هناك صفات خُلُقية، عندنا صفات خَلْقية وعندنا صفات خُلُقية، وأعظم صفاتهم: أنهم عابدون لله لا يفترون، خائفون من الله عز وجل، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠].

أيضًا من صفاتهم: أنهم أهل حياء، ولذلك أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة».

أيضًا: يحبون ويبغضون، وحبهم وبغضهم تابع لحب الله عز وجل وبغضه، كما ثبت في الصحيحين: «أن الله عز وجل إذا أحب عبدًا نادى جبريل: إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبونه»، والعكس، إذا أبغض الله عبدًا قال: يا جبريل، إني أبغض فلانًا فأبغضه. نعوذ بالله أن يكون حالنا حال هذا الإنسان. إني أبغض فلانًا فأبغضه،

فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، فيبغضونه.

إذن: هذا من صفات الملائكة عليهم الصلاة والسلام.

وبقي عندنا أمران أؤجل الكلام عنهما -إن شاء الله- .



قال المصنف رحمه الله:

فصل: ونؤمن بملائكة الله تعالىٰ، وأنهم عِبَادٌ مكرمون، ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٧].

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

كنا قد بدأنا -بعون الله عز وجل- الكلام عن الإيمان بالملائكة عليهم السلام الذي هو الركن الثاني من أركان الإيمان، وذكرنا أن الإيمان بالملائكة يتضمن الإيمان بأربعة أمور:

- أولًا: الإيمان بوجودهم، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ خلقهم، فهم عِباد مربوبون.

- والأمر الثاني: الإيمان بما ثبت لهم من أسماء وصفات وأعمال، وذكرنا طرفًا مما جاء في أسمائهم وألقابهم وما جاء في صفاتهم الخَلْقِية والخُلُقية، وكذلك ما يتعلق بأعمالهم، فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد يسر الملائكة وأمرهم بأعمال، وأعظم أعمالهم: عبادة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهم يؤمنون بالله، ويعبدونه ويخافونه، ويسبحونه، ويصلون له ويسجدون، ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:٧]، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:١٦٥-١٦٦].

وأبرز عباداتهم التي جاءت في النصوص: تسبيح الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وكذلك ثمة أعمال يأمرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، فإن الملائكة من جند الله، يدبر الله شؤون هذا الكون بهم، فهم المدبرات أمرًا، كما قال سبحانه: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:٥]، وهم الملائكة عليهم الصلاة والسلام.

فالله عز وجل هو الذي يدبر الأمر، ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس:٣١].

والملائكة مدبرة أيضًا، وإضافة التدبير إلى الله عز وجل هي من جهة أمره وإذنه ومشيئته وخلقه، وإضافة التدبير إلى الملائكة من جهة المباشرة، فهم الذين يباشرون ذلك بأمر الله، فصحت إضافة التدبير إلى الله عز وجل وإضافة التدبير إلى الملائكة، والأعمال التي كُلِّف الملائكة كثيرة كما سيأتي الكلام عن ذلك إن شاء الله.

❁ أما الأمر الثالث: فإنه اعتقاد فضلهم، وإنزالهم منزلتهم، فإن الملائكة عبادٌ مكرمون بنص كتاب الله عز وجل، وصفهم الله عز وجل بأنهم كرام، ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٥-١٦].

والملائكة أضافهم الله عز وجل إليه، وهذه الإضافة إضافة تشريف، ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وصفهم الله عز وجل بأنهم عنده، ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ [الأنبياء:١٩]، ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر:٧]، هؤلاء يحملون

عرش الله عز وجل، منهم من يحمل العرش، ومنهم من هو حوله، فهم مقربون إلى الله عز وجل، ﴿ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء:١٧٢].

هؤلاء لهم العلو، هم الملأ الأعلى الذين لهم علو المكان ولهم علو المكانة، هؤلاء الذين أكثر الله عز وجل من ذِكْرهم في كتابه، حتى قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه إغاثة اللهفان: إنه لا تخلو سورة من القرآن من ذِكْر الملائكة، إما تصريحًا، وإما تلويحًا، وإما إشارة.

هؤلاء الذين أقسم الله عز وجل بهم، كما تجده في مفتتح الصافات وفي مفتتح المرسلات وفي مفتتح النازعات، لا شك أن تعظيمهم ولا شك أن اعتقاد فضلهم شيء واجب، يجب على الإنسان أن يعتقد ذلك، أن لهم المكانة، وأن لهم المنزلة، وأن لهم الشرف العظيم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

۞ الأمر الرابع: موالاتهم ومحبتهم، مما يتضمنه الإيمان بالملائكة: موالاتهم عليهم السلام ومحبتهم، وكيف لا يكون ذلك كذلك والملائكة أولياء المؤمنين في الدنيا والآخرة، ولذلك فإنهم إذا بشروا المؤمنين..

وهم يبشرون المؤمنين، يتنزلون عليهم مبشرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ ﴾ [فصلت:٣٠]، وهذا التنزُّل كما حققه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكون عند الموت، ويكون عند البعث، ويكون عند دخول الجنة، هؤلاء الملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام يقولون: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [فصلت:٣١]، لهم الولاية لأهل الإيمان، فكيف لا يتخذهم المؤمن أولياء؟ هؤلاء الذين قال الله عز وجل عنهم أو قال عن بعضهم كما هو عن جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ ﴾ [التحريم:٤] يعني: النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التحريم:٤].

هؤلاء الذين هم يحبوننا معشر المؤمنين، وهم حريصون علينا أشد الحرص، وهذا من معنى ولايتهم لنا، فإنهم منذ أن يكون الإنسان نطفة في رحم أمه وهم يتولونه، وإلى أن يغادر هذه الحياة، ثم بعد ذلك يوم أن يُبعث، ثم بعد ذلك إذا دخل الجنة بفضل الله عز وجل، ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]، في كل ذلك وفيما بينه الملائكة يتولون عباد الله المؤمنين، يسددونهم ويثبتونهم، ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال:١٢].

يذكرونهم إذا نسوا، يقذفون في قلوبهم الخير والعلم، ولذلك نقل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن مذهب السلف في العلم الذي يكون عقيب النظر والاستدلال أنه يكون من الملائكة، يعني: إلهام من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بواسطة الملائكة، يقذفون ذلك في القلوب كما بيَّن هذا وبسطه بسطًا نافعًا في كتابه الرد على المنطقيين.

ولذا يقول ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إن للمَلَك لمَّة، وإن للشيطان لمَّة»، ما هي لمَّة المَلَك؟ قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «وأما لمَّة الملك فإنها إيعاد بالخير وتصديق بالحق»، وهذا روي مرفوعًا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما عند الترمذي وغيره.

هؤلاء الملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام يدعون الله لنا ويستغفرون الله لنا، كما أخبر الله عز وجل عنهم: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٥]، وكما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ -وتأمل هذا الدعاء العجيب- ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر:٧-٩].

انظر إلى هذا الدعاء العظيم الذي لا يمكن أن يصدر إلا ممن هم محبون لنا معشر أهل الإيمان.

إذا كان ذلك كذلك فإن من المتعين على أهل الإيمان أن يحبونهم، وأن يوالونهم، بعكس حال الكفار، ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨]، أهل الإيمان على الضد من ذلك، لا يتخذون الملائكة أعداءً، وإنما يتخذونهم أولياء، هذا هو المتعين على أهل الإيمان،

ويتبع ذلك مراعاة الأدب معهم، واجتناب أذيتهم، فإن من آمن بهؤلاء الملائكة الكرام، وقام بالذي ينبغي عليه من اعتقاد فضلهم، ومن محبتهم وولايتهم؛ فإنه ينبغي عليه أن يراعي الأدب معهم، وأن يحذر من أذيتهم، فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد أرشدنا لهذا، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢] قال أهل التفسير: فأجِلُّوهم. إذا كان الشأن كذلك فإن حقهم أن يُجلّهم المؤمن، فلا يُري هؤلاء الملائكة من نفسه ما لا ينبغي، الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، كما أخبر بهذا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فالأذية لا تنبغي حتى ولو كانت برائحة بصل أو ثوم، ولذلك أمر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من أكل بصلًا أو ثومًا أن لا يقربنَّ مساجد المسلمين، وعلل ذلك عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بقوله: «فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم».

أليس المؤمن من الإنس يتأذى بحصول المعصية في حضرته؟ إذًا كذلك لا ينبغي أن يؤذى الملائكة بذلك، حق الملائكة: الإكرام، ولذلك أحسن ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابه الداء والدواء حينما قال: إذا كان إكرامُ الضيف والجار من لوازم الإيمان، فكيف بإكرام أفضل جار وخير ضيف.

هذا المَلَك الذي يكون معك ويوكِّله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بك، هذا جارٌ لك وضيف عليك، حقه أن يُكرم، وأن يُتأدَّب معه، وأن يُحذر من أذيته، ولذلك تلحظ هذا واضحًا في السنة، تجد -مثلًا- النهي عن أذية الملائكة ولو بالرائحة،

تجد أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ينهى -كما ثبت عنه في الصحيح- أن يبصق المسلم في صلاته عن يمينه، وعلل ذلك بقوله: «فإن عن يمينه مَلَكًا»، إذن: لا ينبغي أذيتهم بهذا الفعل الذي لا ينبغي.

كذلك ينبغي على الإنسان أن يحرص على أن لا يكون منه سبب يمنع دخول الملائكة بيته، الملائكة تنفر ولا تدخل بيتًا فيه كلب أو تمثال أو صورة، كما ثبت هذا عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الحديث المتفق عليه، الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب ولا صورة، هذا مما ينبغي أن يجتنبه المسلم، بعض الناس -مع الأسف الشديد- يقول: إنه يزيِّن بيته بالصور، صور ذوات الأرواح، إما أن تكون صورًا معلقة لا ظل لها، وإما أن تكون -وهذا أشد- صورًا مجسَّمة لذوات الأرواح، يقول: أنا أزيِّن البيت، أنت بهذا وقعت في سبب يمنع الملائكة من دخول بيتك، وإذا دخل الملائكة بيتك فأبشر بالخير، في دخول الملائكة بيتك حصول الخير العظيم لك، وإذا لم تدخل الملائكة دخلت الشياطين، نعم أنت تزين البيت لكنك تزينه للشياطين ولست تزينه للملائكة.

إذن: هذا من الأمور التي ينبغي مراعاتها وينبغي ملاحظتها، وهذا من تحقيق الإيمان بالملائكة عليهم الصلاة والسلام.



قال المصنف رحمه الله:

خلقهم الله تعالىٰ من نور، فقاموا بعبادته وانقادوا لطاعته.



قال الشارح وفقه الله:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونؤمن بملائكة الله تعالى)، وهذا -كما أسلفت- من أركان الإيمان، وهذا من البر كما أخبر الله عز وجل، وبيَّن كذلك أن الكفر بهم ضلال بعيد، والشأن في الإيمان بهم وفي ذكرهم وإثبات وجودهم كثير في كتاب الله وفي سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الأحاديث التي تتعلق بالملائكة عليهم الصلاة والسلام شيء كثير يصعب حصره، فالإيمان بذلك لا شك أنه من أعظم أركان الإيمان، بل هو الركن الثاني في ترتيب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الإيمان به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأنهم عباد مكرمون، ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٧]) هذا جزء من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦] فإن المشركين قالوا -ويا قُبح ما قالوا-: إن الملائكة بنات الله، فأكذبهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذلك وبيَّن أنهم عباد مكرَمون، وصفهم الله عز وجل بأنهم عبادٌ مكرَمون. وهذا ما ذكرت أنه قد جاء في كتاب الله عز وجل في هذه الآية، كذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار:١٠-١١]، ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٥-١٦].

قال: ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ معنى قوله: لا يسبقونه بالقول، أي: لا يتقدمون عليه بالقول، فلا يقولون إلا بما يقول وبما يأمرهم أن يقولوا، وهذا من عظيم طاعتهم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

قال: ﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ الباء هاهنا للسببية، فإذا أمرهم الله عز وجل فإنهم يعملون، ولا يعملون إلا إذا أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ﴿ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦]، ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم:٦٤].

إذن: بأمر الله عز وجل، إذا كان الأمر من الله عز وجل فإنهم يفعلون.

ويجوز أن تكون الباء هاهنا للمصاحبة، فإنما عملهم وفعلهم مصاحب لأمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.



قال المصنف رحمه الله:

خلقهم الله تعالىٰ من نور، فقاموا بعبادته، وانقادوا لطاعته.



قال الشارح وفقه الله:

كلمة (من نور) هذه ساقطة في نسختي وفي بعض النسخ التي اطلعت عليها، والصواب ثبوتها، فإذا كانت غير موجودة عندك فأثبتها.

(خلقهم الله عز وجل من نور) كما مر معنا في درس البارحة في حديث عائشة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: «خلق الله الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما ذُكِر لكم».

فنحن يجب أن نعتقد أن الملائكة خلقهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من نور، لكن كيف كان ذلك؟ نقول: الله أعلم، هذه مسألة غيبية ما أخبرنا الله عز وجل بها، فالله أعلم.

قال: (فقاموا بعبادته وانقادوا لطاعته)، لا شك أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام معصومون من معصية الله عز وجل، وهذا من توفيق الله عز وجل لهم، الملائكة مجبولون على طاعة الله، يخطئ بعض الناس حينما يقول عنهم: إنهم مجبورون على طاعة الله، هذه كلمة لا ينبغي استعمالها، والصواب أن نقول: إنهم مجبولون على طاعة الله، وفقهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لطاعته، ولذا فإنهم معصومون عن معصية الله عز وجل، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن طائفة منهم وهم خزنة

النار، قال: ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ [التحريم:٦]، وبقية الملائكة حالهم كحال هؤلاء الكرام عليهم الصلاة والسلام.

وكيف تكون منهم المعصية ووقتهم كله مشغول بطاعة الله؟ فلا ينقطعون عن طاعة الله عز وجل البتة، أنَّى تكون المعصية منهم وهذه حالهم؟

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠]).

لما قال سبحانه: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ [الأنبياء:١٩] وهم الملائكة ﴿ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩]، الاستكبار يعني: الاستنكاف، لا يستنكفون عن طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال جل وعلا: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٧٢].

أيضًا أنهم لا يستحسرون، معنى (يستحسرون) قيل: ينقطعون عن طاعة الله، لا يتوقفون البتة، بل هم في عبادة دائبة مستمرة في طاعة الله.

وقيل: (لا يستحسرون) يعني: لا يتعبون.

وقيل: (لا يستحسرون) يعني: لا يملُّون.

وكل ذلك -فيما يبدو- يرجع إلى معنىً واحد، فيمكننا أن نقول: إنهم لا ينقطعون عن طاعة الله عز وجل، لا بسبب تعب ولا بسبب ملل وسآمة، لا

ينقطعون عن طاعة الله، والانقطاع إن حصل فإنما مرجعه إلى: إما تعب وإما سآمة، وهذا كله لا يكون منهم، فلا هم الذين يسأمون ولا هم الذين يتعبون، وبالتالي فإنهم عن عبادة الله لا ينقطعون.

قال: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، لا ينقطعون عن تسبيح الله عز وجل وطاعته في كل وقت، حتى وهم يباشرون الأعمال التي أمرهم الله عز وجل بها فإنهم لا ينقطعون عن تسبيح الله عز وجل، ولذا قال مَن قال مِن السلف عنهم: إنهم يُلهمون تسبيح الله عز وجل كما نُلهم نحن النفس. كيف أننا ونحن نباشر الأعمال نتكلم أو نقوم أو نقعد أو نفعل بأيدينا ومع ذلك فإن هذا لا يمنعنا من التنفس، نُلهم النَّفَس، الشأن في الملائكة -على ما قال هؤلاء الأسلاف رحمهم الله- إنهم يُلهمون التسبيح كما نُلهم نحن النَّفَس، وبالتالي فإنهم لا ينشغلون عنه ولا ينقطعون عنه.



قال المصنف رحمه الله:

حجبهم الله عنا فلا نراهم، وربما كشفهم لبعض عباده، فقد رأىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جبريل عليه السلام علىٰ صورته له ستمائة جناح قد سد الأفق، وتمثل جبريل عليه السلام لمريم بشرًا سويًا، فخاطبته وخاطبها، وأتىٰ إلىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وعنده الصحابة بصورة رجل لا يُعرف ولا يُرىٰ عليه أثر السفر، شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، فجلس إلىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ووضع كفيه علىٰ فخذيه، وخاطب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وخاطبه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأخبر النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أصحابه أنه جبريل.

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

هذه مسألة مهمة وهي: مسألة رؤية الملائكة عليهم الصلاة والسلام، الأصل والقاعدة هي: أن الملائكة عالم غيبي فلا يُرون، الأصل أن الناس لا يرون الملائكة.

ولو تلمسنا الحكمة في ذلك لوقفنا على ثلاثة أسباب:

- أولًا: أن مادة خلقهم مختلفة، فهم خُلِقوا من نور.
- والأمر الثاني: أن الملائكة على صورتهم التي هم عليها خَلْق عظيم، ولذلك من رحمة الله عز وجل بالناس أنهم لا يرونهم على هيئتهم، وإلا لأصابهم

من ذلك شيء عظيم، ولذلك لما كان المشركون يطلبون نزول الملائكة وأن يكون لهم رسل من الملائكة قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩].

من رحمة الله عز وجل بنا حتى يستقيم لنا الحال وتستقيم بنا الحياة أننا لا نرى هذا العالَمَ الغيبي من الملائكة والجن وما إلى ذلك، هذا ستره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنا، وإلا فكيف نهنأ بعيش أو بمنام أو بما شاكل ذلك ونحن نرى هذه الأشياء العجيبة الغريبة، فمن رحمة الله عز وجل أن حجب عنا رؤية ذلك.

۞ والأمر الثالث: أن في هذا ابتلاءً وامتحانًا لنا، حتى يتميز المؤمنون من غيرهم، فإن الإيمان بالملائكة إيمان بأمر غيبي، وأول سمة جاءت في وصف المؤمنين -كما في مفتتح البقرة-: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣]، فلو كان الناس يرون الملائكة كما يرون المشاهدات لم يكن هذا من الإيمان بالغيب، فتزول حكمة الابتلاء والامتحان.

إذن: عندنا ثلاثة أسباب يمكن أن نتلمسها في شأن حجب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الملائكة عنا.

يبقى بعد ذلك أن عندنا في مسألة رؤية الملائكة تحريرًا لمقام مهم، نحن بحاجة إلى أن نحرر المقام، ونعيد القول في ذلك إلى ستة أمور:

۞ أولًا: في سماع الملائكة، الملائكة يُمكن أن تُسمع أصواتهم. انظر، انتقلنا الآن إلى مسألة السماع وليس الرؤية، وذلك للقرب بين المسألتين، الملائكة يمكن للناس أن يسمعوا صوتهم، ولذلك سمعت مريم عليها السلام صوتهم، ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٤٢].

إذن: يمكن سماع صوت المَلَك، يمكن أن يسمع الإنسان شيئًا من صوته وكلامه، ولذلك في صحيح مسلم من حديث مطرف عن عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إخباراً عن نفسه: إنه كان يُسلَّم عليه حتى اكتوى فانقطع هذا التسليم، فلما ترك الكي عاد إليه هذا الصوت. وبيَّن الشراح -كما بيَّن هذا النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره- أنه كان يسمع تسليم الملائكة.

إذن: السماع لأصوات الملائكة هذا شيء ممكن، ولكن ليس المقام بالمقام السهل الذي يتساهل فيه الإنسان فيظن أن كل شيء يسمعه أنه صوت مَلَك، ربما يكون صوت جنٍ، صوت شيطان، ما يدريك أنه صوت مَلَك، فالمقام يحتاج إلى تحقق.

۞ الأمر الثاني: رؤية الملائكة في الآخرة، وهذا واقع لا شك فيه، قال الله عز وجل عن الكفار: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٢٢].

إذن: الملائكة يُرون في الآخرة.

۞ المسألة الثالثة: رؤية الملائكة في المنام، وهذا أمر ممكن أيضًا، فيمكن أن يرى الإنسانُ في منامه الملائكةَ عليهم الصلاة والسلام، ومن ذلك ما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أنه رأى في منامه مَلَكين أتيا إليه فأخذاه، ثم ذهبا به إلى النار فرآها كالبئر المطوية، ففزع فزعًا شديدًا، فلقي مَلَكًا ثالثًا فقال: إنك لا تُراع. فلما قص هذا على حفصة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، فقصت ذلك على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «نِعم العبدُ عبد الله لو كان يقوم من الليل»، فما كان ينام بعد ذلك من الليل إلا قليلًا.

إذن: رؤية الملائكة في المنام أمر ممكن، كم شيء عندنا الآن؟ ثلاثة.

۞ الأمر الرابع: رؤية غير الإنسان للملائكة، وهذا قد ثبت عندنا في شأن الديكة، الديك، النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت مَلَكًا»، فيمكن أن تقع رؤية الملائكة من غير الإنس، والذي ثبت عندنا رؤية الديكة لهم، لكن كيف يرونهم؟ وهل يرونهم على هيئتهم أو على خلاف هيئتهم؟ هذا شيء مسكوت عنه في هذا الحديث فنقول: الله أعلم، حسبنا أن نقول: إنها إذا صاحت فإنها رأت ملكًا.

۞ الأمر الخامس: رؤية النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الحياة الدنيوية يقظة، وهذا قد ثبت له عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ مرتين، على هيئتهم وصورتهم التي خلقهم الله عز وجل عليها، رؤيتهم على غير هيئتهم -كما سيأتي إن شاء الله- هذا ثبت للنبي

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرًا، لكن رؤية الملائكة على هيئتهم وصورتهم التي خلقهم الله عز وجل عليها هذا كان من النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، رأى جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على هيئته مرتين كما ثبت في حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في الصحيحين، وبيَّن هذا ابن مسعود كما في الصحيحين: أنه رآه وله ستمائة جناح سد بها الأفق، كما سيأتي -أيضًا- في كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إذن: النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له شأن، وهو أنه قد حصل له رؤية الملائكة على هيئتهم، كان منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذلك حيث رأى جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على صورته التي هي صورته مرتين، كما أخبر عن نفسه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث عائشة.

ا۞ لأمر السادس والأخير وهو: رؤية غير النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للملائكة في الحياة الدنيا يقظة على هيئتهم التي خلقهم الله عز وجل عليها.

الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذا غير واقع ولا دليل عليه، إذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما ثبت عندنا أنه رآه مرتين فحسب، إذًا غيره لم يرَ الملائكة على هيئتهم التي هم عليها، ولا دليل على ذلك، إنما يمكن رؤية الملائكة على غير هيئتهم، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد جعل لهم قدرة على التشكل والتمثّل والتصور، يتصورون ويتشكلون.

وجاء هذا.. يمكن أن نقسم الأدلة في هذا على ضربين:

إما أن يُروا على هيئة رجل، وهذا جاءت الأدلة فيه كثيرة، من ذلك: ما كان من رؤية مريم عليها الصلاة والسلام لجبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقد تمثل لها بشرًا سويًا، يعني: إنسانًا تام البشرية.

كذلك ما كان مما سمعت في حديث جبريل المشهور وهو: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رأوا جبريل في صورة رجل ما عرفوه، لكنه شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر.

كذلك كان يأتي جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على صورة دحية الكلبي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أن جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جاء إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكلَّمه في صورة رجل، فلما ذهب قال لها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من هذا؟» قالت: دحية. ثم قام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخطب فأخبر أن جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد جاءه.

فدل هذا على أنه قد يأتي -أيضًا- في صورة رجل.

كذلك ما ثبت في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنه رأى رجلين عليهما ثياب بيضاء عن يمين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشماله في غزوة أحد، وبُيِّن في آخر رواية مسلم أنهما جبريل وميكائيل.

كذلك في قصة إبراهيم ولوط عليهما الصلاة والسلام، وهذه مبيَّنة في كتاب الله عز وجل أنه قد جاءه الملائكة في صورة رجال. فدل هذا على أنهم يتصورون في صورة رجال.

كذلك في قصة الأعمى والأقرع والأبرص، جاءهم المَلَك في صورة رجل.

ذاك الذي ذهب إلى قرية لأجل أن يزور أخاه في الله، أرصد الله عز وجل له ملكًا في صورة رجل.

إذن: هذا -وله أمثلة كثيرة- فيه أن الملائكة يُمكن أن يُروا لكن على صورة غير صورتهم، وهذه النصوص جاء فيها رؤيتهم على صورة رجل.

والضرب الثاني: رؤيتهم على غير ذلك، ومن ذلك ما أخرج الإمام مسلم وعلَّقه -أيضًا- البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه: أن أُسيد بن حضير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان يقرأ في الليل من سورة البقرة، فرأى ظُلة فوق رأسه فيها مثل المصابيح، فأخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن تلك الملائكة تنزلت تستمع للقرآن.

فإذن: يمكن أن يُرى مثل ذلك من قِبَل المؤمنين في اليقظة، لكنها ليست صورتهم التي هي صورتهم.

إذن الخلاصة: أن رؤية الملائكة عليهم الصلاة والسلام على هيئتهم التي خلقهم الله عز وجل عليها أن هذا شيء لم يقع إلا للنبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وكذلك ينبغي أن يُلاحظ أن رؤية الملائكة عليهم الصلاة والسلام على غير

صورتهم أن هذا -أيضًا- من الأمر الذي ينبغي أن يتنبه له الإنسان، فليس كل ما عرض أو لاح أمام الإنسان يكون مَلَكًا، بعض الناس يتهيأ له أشياء من هذا القبيل.

يعني أنا أقول: إذا كان إبراهيم ولوط عليهم الصلاة والسلام ما عرفوا أن هؤلاء الرجال ملائكة إلا بعد أن أخبروهم، كذلك الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ما عرفوا أن هذا جبريل عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، إذًا كيف بغيرهم؟ فهذا الباب ينبغي أن يتنبه له الإنسان، فإنه ربما يتمثل الشيطان لابن آدم فيظن أنه يرى مَلَكًا.

وبعض أهل الخرافة والدجل يتكثرون بمثل هذه الأشياء، وربما يخلطون برؤيتهم لهذه الأشياء والوساوس التي تتمثل لهم، ربما خلطوا شيئًا كثيرًا من الكذب، والله المستعان! أَعِد جزاك الله خيرًا.



قال المصنف رحمه الله:

حجبهم الله عنا فلا نـراهم، وربمـا كشـفهم لـبعض عبـاده، فقـد رأىٰ النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريل عليه السلام علىٰ صورته له ستمائة جناح.



قال الشارح وفقه الله:

يعني: كونه رآه على صورته -كما قلنا- هذا حصل مرتين كما في حديث عائشة في الصحيحين.

(له ستمائة جناح) هذا -أيضًا- ثبت في حديث ابن مسعود في الصحيحين.



قال المصنف رحمه الله:

وتمثل جبريل عليه السلام لمريم بشرًا سويًا.



قال الشارح وفقه الله:

يعني: تـام البشريـة، فخاطبته وخاطبهـا، ﴿قَالَـتْ إِنِّي أَعُـوذُ بِـالرَّحْمَنِ مِنْـكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾ [مريم:١٨-١٩].



قال المصنف رحمه الله:

وأتىٰ إلىٰ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعنده الصحابة بصورة رجل لا يُعرف ولا يُرىٰ عليه أثر السفر، شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، فجلس إلىٰ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووضع كفيه علىٰ فخذيه، وخاطب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخاطبه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخبر النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه أنه جبريل عليه السلام.



قال الشارح وفقه الله:

وأنه جاء يعلمهم أمر دينهم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن للملائكة أعمالًا كُلِّفوا بها، ومنهم جبريل عليه السلام الموكل بالوحي، ينزل به من عند الله علىٰ من يشاء من أنبيائه ورسله، ومنهم ميكائيل الموكل بالمطر والنبات.



قال الشارح وفقه الله:

مرَّ بنا أن من الإيمان بالملائكة: الإيمان بما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم من تكليفهم بأعمال وأمور، فهم الذين يدبر الله عز وجل بهم شؤون هذا العالَم، مع غناه تبارك وتعالى عن كل أحد، وكونه يأمرهم فيدبرون شؤون العالَم لا يعني البتة

أنه محتاجٌ إليهم، بل هم المحتاجون إليه، وهم الذين ما قاموا بما أُمروا به إلا بإعانته وتوفيقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكنها حكمة الله جل وعلا.

الملائكة من أعظم جند الله، وهم المدبرات أمرًا في قوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:٥] كما هو قول أكثر المفسرين.

كذلك هم المقسمات أمرًا في قوله تعالى: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات:٤].

وأصناف ما كُلِّفوا به جاء في الكتاب والسنة في مواضع كثيرة، وقد ساق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من ذلك، فيجب علينا الإيمان بما أُخبرنا به، هذا داخل في الإيمان بالملائكة الذي هو الركن الثاني من أركان الإيمان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمنهم جبريل الموكل بالوحي)، جبريل عليه السلام أشهر الملائكة وأكثرهم ذكرًا في النصوص، ولم يزل أهل العلم يتواردون على بيان فضيلته ومكانته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وكلمة (جبريل) فيها لغات كثيرة، أوصلها الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتح إلى ثلاث عشرة لغة، جبريل جاء في القرآن في ثلاثة مواضع، في آيتين متعاقبتين في سورة البقرة: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [البقرة:٩٧] ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بعد ذلك: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة:٩٨] هذان موضعان. والموضع الثالث في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ﴾ [التحريم:٤]،

فهذه ثلاثة مواضع ذكر الله عز وجل فيها هذا المَلَك الجليل باسمه، وأما ميكائيل ففي الموضع السابق في قوله تعالى: ﴿ وَمِيكَالَ ﴾ [البقرة:٩٨] كما سيأتي.

وجبريل جاء في القرآن فيه عدة قراءات في هذه المواضع الثلاثة: جِبريل وجَبريل وجَبرائل وجَبرائيل.

والمقصود أن العلماء مختلفون في هذا الاسم، بعضهم قال: إنه اسم عربي مشتق من جبروت الله، والأظهر -والله أعلم- أن هذا ليس بوجيه، وأن الأقرب أن هذا الاسم اسم سرياني، وأن معناه عبد الله، كما هو قول كثير من أهل العلم، والعلم عند الله عز وجل.

جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وُصِف في النصوص بأنه الروح، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ ﴾ [القدر:٤].

كذلك وُصِف بأنه الروح الأمين، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣].

كذلك وُصِف بأنه روح القُدُس، والقُدُس يعني الطهارة والنزاهة، فهو الروح الطاهرة عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [النحل:١٠٢].

وكذلك وُصِف بصفات تدل على عظيم قدْره، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١]، مُطاع يُطاع من قبل الملائكة، فإن له إمرة عليهم بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كذلك جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عظيم العبادة والخوف من الله عز وجل، صح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مررت ليلة عُرِج بي على جبريل كالحِلس البالي من خشية الله»، الحِلس ثوب وقديم، كالحلس البالي من خشية الله. فهو عظيم الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذا المَلَك الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبه، وهو وليُّه، فإن الله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ ﴾ [التحريم:٤].

كان يحب أن تكثر زيارته للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك قال له: «ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا، فأنزل الله عز وجل قوله سبحانه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم:٦٤]، فهم -أعني: الملائكة: جبريل وبقية الملائكة عليهم الصلاة والسلام- لا ينزلون من السماء إلا بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأمْرُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مقارن لحكمته.

إذن: جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو المَلَك الموكل بوحي الله عز وجل، وهذا ما دلت عليه النصوص الكثيرة، كما مر بنا، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [النحل:١٠٢]، فالله تكلم به، هذا الوحي القرآن وغيره من وحي الله إلى رسله، الله عز وجل تكلم بذلك حقيقة، وسمع ذلك جبريل من الله عز وجل، ثم بلَّغه إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسمعه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جبريل، وكان يدارس النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن كما هو معلوم.

وأما الأدلة من السنة على إبلاغ وحي الله من قِبَل جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإن ذلك أدلة كثيرة، كم من الأحاديث التي ثبتت في الصحيحين والسنن والمسانيد التي فيها أن جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جاء إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فأبلغه بكذا وبيَّن له كذا، هذا شيء كثير يصعب حصره، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنهم ميكائيل)، ميكائيل مَلَك كريم من ملائكة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والقرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره ذكر: أن هذه الكلمة (ميكائيل) فيها ست لغات، وقد جاء ذِكْره في كتاب الله عز وجل في موضع واحد في سورة البقرة: ﴿ وَمِيكَالَ ﴾[البقرة:٩٨]، وفي قراءة: (وميكائيل)، وفي قراءة: (ميكائل)، فهذه ثلاث قراءات في ميكال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أو ميكائيل.

وقال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنهم ميكائيل الموكل بالمطر والنبات)، وهذا ما ثبت عن النبي صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في الطبراني في معجمه، وكذلك عند أبي الشيخ في العظمة، وبالمناسبة كتاب العظمة لأبي الشيخ هذا من أكثر الكتب وأوسعها في ذكر الملائكة عليهم الصلاة والسلام، في ذكرهم وذكر صفاتهم، وذكر أسمائهم وأعمالهم، هذا من أوسع الكتب في ذكر الملائكة عليهم الصلاة والسلام، أعني: في ذكر الأحاديث والآثار الواردة في شأنهم. فمن أراد التوسع في هذا فإنني أوصيه بقراءة هذا الكتاب، كتاب العظمة لأبي الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأقول: أخرج الطبراني وأبو الشيخ في العظمة وكذلك البيهق في الشعب وابن أبي شيبة في العرش وغيرهم من أهل العلم من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سأل جبريل عليه السلام فقال: «على أيِّ شيء ميكائيل؟ فقال: على القطر والنبات»، القطْر يعني: المطر، فهو المَلَك الموكَّل بشأن المطر، وكذلك بشأن النبات.



قال المصنف رحمه الله:

ومنهم إسرافيل الموكل بالنفخ في الصور حين الصعق والنشور.



قال الشارح وفقه الله:

هذا المَلَك الثالث الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو إسرافيل عليه السلام، وإسرافيل عليه السلام ما جاء ذِكْره في القرآن، لكن جاء في السنة في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يفتتح صلاته إذا قام من الليل بقوله: «اللّٰهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل»، فكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتوسل إلى الله عز وجل بربوبيته لهؤلاء الملائكة.

وهذا الحديث يدل على أفضلية هؤلاء الملائكة الكرام الثلاثة الذين هم مقدَّمو الملائكة، والذين هم من أشرف وأفضل الملائكة.

وهاهنا مسألة وهي: أن من عقيدة أهل السنة والجماعة المتعلقة بباب الإيمان بالملائكة: أن الملائكة متفاضلون، وهذا مما يُضاف إلى ما قدمناه سابقًا فيما يتضمنه الإيمان بالملائكة، يضاف إلى ذلك اعتقاد أنهم متفاضلون، ويدل على هذا حديث رفاعة بن رافع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في صحيح البخاري: «أن جبريل سأل النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فقال: ما تعدُّون أهل بدر فيكم؟ فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أفضل المسلمين»، وهو عند ابن ماجه قال: «من خيارنا. فقال جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: وهم كذلك فيمن شهد بدرًا من الملائكة»، فكما أن أهل بدر من

الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم من أفاضل الصحابة كذلك الذين شهدوا بدرًا من الملائكة، الملائكة عليهم الصلاة والسلام متفاضلون.

ويدل على ذلك -أيضًا- قوله تعالى: ﴿ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء:١٧٢]، وكثير من أهل العلم على أن قوله هاهنا: ﴿ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء:١٧٢] هو في وصف طائفة من الملائكة. وبعضهم ذهب إلى أن هذه الكلمة صفة كاشفة، يعني: كل الملائكة مقرِّبون إلى الله عز وجل، ولكن الأقرب -والله أعلم- أن هؤلاء طائفة من الملائكة هم أقرب إلى الله عز وجل.

وعلى كل حال، الملائكة -كما أخبر الله عز وجل في قوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات:١٦٤] فهم متفاوتون ومتفاضلون بحسب قربهم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبحسب الأعمال التي كُلِّفوا بها.

ومباحث التفاضل عند أهل العلم يُنظر فيها من جهتين:

- أولًا: من جهة التنصيص على أن هذا أفضل من هذا.
- وتارة يُنظر إلى مجموع ما ورد من الفضائل في حق كل فرد، ثم بعد ذلك يترجح ما أو من الأفضل.

والذي يظهر -والله أعلم- أن هؤلاء الملائكة الثلاثة هم من أفضل الملائكة، وبعض أهل العلم أضاف إليهم مَلَك الموت، وجعل هؤلاء الأربعة هم أفضل الملائكة.

وبعضهم يقول: إن حملة العرش هم أفضل الملائكة.

والأدلة -على كل حال- التي تدل على القطع في هذه المسألة ليست بذاك الظهور، لكن الأقرب -والله أعلم- أن هؤلاء الملائكة الثلاثة من أفضل الملائكة، وأما كون جبريل عليه السلام أفضل الملائكة على الإطلاق فهذا الذي يظهر -والله تعالى أعلم- في مجموع ما ورد عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالذي ينظر فيما ورد في شأن جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من أدلة كثيرة يدل على أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أفضل الملائكة، والعلم عند الله عز وجل.

قال: (ومنهم إسرافيل الموكل بالنفخ في الصور)، وهذا ما أجمع العلماء عليه كما نقل هذا الإجماع القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بل ذكر أن هذا الذي عليه إجماع الأمم، وكذلك نقل الإجماع على ذلك الحليلي الشافعي وغيرهم من أهل العلم، وهذا الذي لا تجد غيره في كتب أهل العلم أن إسرافيل هو الموكل بالنفخ في الصور عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وأما الصور فإنه قرن يُنفخ فيه، يعني معناه في اللغة تلك الآلة التي يُزمَر بها، ولكن لا شك أن شأن الصور الأخروي شأن عظيم، لا شك أنه شأن عظيم.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر أن النفخ في الصور يكون في موضعين، قال: (حين الصعق والنشور)، وهذا هو الأقرب -والله أعلم- أن النفخ في الصور يكون مرتين: مرة يكون بهذا النفخ الصعقُ لجميع الخلائق الذين يكونون أحياء، في آخر

هذه الحياة حين يأذن الله عز وجل بانتهاء هذه الحياة الدنيا، فيأمر هذا المَلَك الكريم الذي هو إسرافيل عليه السلام، وجاء تلقيبه بأنه صاحب الصور كما ثبت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فيأمره بأن ينفخ فيه فيُصعق كل من على هذه البسيطة، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، فالله أعلم أن النفخ إنما يكون مرتين: نفخة للصعق، ويحصل قبل الصعق فزع، كما دل على هذا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ [النمل:٨٧]، فالفزع يحصل مع النفخة الأولى، فزع فصعق.

ثم يكون بينهما أربعون، كما أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما في حديث أبي هريرة في الصحيحين، ثم يأمر الله عز وجل إسرافيل فينفخ في الصور النفخة الثانية التي هي نفخة البعث، فإذا نُفخ في الصور قام الناس لرب العالمين، ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١].

وبعض أهل العلم يذكر أن إسرافيل عليه السلام أحدُ حملة العرش، ولذلك بعضهم ذكر أن هذا يدل على أفضليته لأنه لم يَرِد هذا في شأن جبريل عليه السلام فضلًا عن ميكائيل، ولكن هذا الحديث ضعيف، الذي فيه أن إسرافيل أحدُ حملة العرش هذا ضعيف لم يثبت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأخرجه أبو الشيخ في

العظمة وغيره من أهل العلم لكن الإسناد فيه عدة علل، فلا يصح فيما أعلم، والعلم عند الله عز وجل.



قال المصنف رحمه الله:

ومنهم مَلَك الموت الموكَّل بقبض الأرواح عند الموت.



قال الشارح وفقه الله:

قال: (ومنهم مَلَك الموت) كلَّفه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأوكل إليه قبض الأرواح، كما دل على هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]، فهذا مَلَكٌ لقبه أنه مَلَك الموت.

وهذا الموضع اختلف فيه العلماء: هل الذي يقبض الروح مَلكٌ واحد، أو الذي يقبض الروح ملائكة، عدد من الملائكة؟ فإننا نجد هذه الآية فيها أن الذي يقبض: واحد، ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة:١١]، لكننا نجد في آيات أخرى أن الذي يقبض الأرواح عددٌ من الملائكة، كما في قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١]، ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [محمد:٢٧].

كذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ [النازعات:١]، وأكثر المفسرين على أن النازعات: الملائكة، وهم الذين يقبضون الأرواح.

وبعضهم قال: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [النازعات:١-٢]، النازعات: الملائكة إذا قبضوا أرواح الكفار، فإن ذلك القبض نزع شديد، وأما الناشطات فالملائكة إذا قبضت أرواح المؤمنين فإن ذلك يكون بلين.

المقصـود: أن الأدلـة عـلى أن هنـاك أدلـة تـدل عـلى أن الـذي يقـبض الأرواح ملائكة وليس واحدًا، **ولذلك اختلفت مسالك العلماء في هذا الموضع إلى ثلاثة مسالك:**

۞ المسلك الأول: أن الـذي يقـبض الأرواح مَلَكٌ واحـد، وإنـما جـاء الجمـع للتعظـيم، الـذي يقـبض إيـش؟ واحـد، ومـا جـاء مِـن الجمـع (رسـلنا وتـوفتهم الملائكة) وأمثالها قالوا: هذا جمعٌ للتعظيم.

۞ المسلك الثاني عكس الأول، وهو: أن الذي يقبض الأرواح ملائكة وليس واحدًا، وأما الإفراد فإنه للجنس، الإفراد في قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة:١١] قـالوا: هـذا للجنس، كـما في قولـه تعـالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ [إبراهيم:٣٤] فهذا الإفراد للجنس والمقصود نِعَم الله الكثيرة.

۞ المسلك الثالث: أن الله عز وجل وكَّل ملكًا بقبض الأرواح وله أعوان، وهـذا هـو الصـحيح، وهـذا هـو الـذي تشـهد لـه الأدلـة أنـه مَلَك ولـه أعـوان مـن الملائكـة، وهـذا لا شـك أنـه هـو الـراجح، وإن كـان العلـماء مختلفـون كيفيـة عمـل هؤلاء الأعوان، ماذا يصنعون؟

فمـن أهـل العلـم مـن قـال: إن أعـوانَ مَلَـك المـوت يعـالجون أمـر الـروح حتـى تصل إلى الحلقوم، ثم بعد ذلك يأتي ملك الموت فيقبض الروح.

ومنهم من قال: إنَّ ملك الموت يأمر أعوانه بالقبض فتستجيب لأمره.

ومنهم من قال: إن مَلَك الموت هو الذي يقبض الأرواح ثم أعوانه يتولونها بعد ذلك، يأخذونها منه ثم يصعدون بها إلى السماء.

وهذا الثالث يشهد له حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خرجه الإمام أحمد في مسنده وغيره، وهو حديث مشهور، وهو أصل الباب في مسألة الفتنة وأيضًا في مسألة عذاب القبر ونعيمه، هو من الأحاديث المشهورة في هذا الباب، وفيه أن الذي يقبض الروح هو مَلَك الموت، فإذا قبضها: إن كانت هذه الروح من أهل الإيمان فإنه يتولاها بعد ذلك الملائكة الذين وصفهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الحديث بأنهم بيض الوجوه، يأخذونها منه ولا يدَعونها عنده طرفة عين، وإن كانت الروح روحًا شقية -نسأل الله السلامة والعافية- فإنه يأخذها منه -ولا يَدَعونها طرفة عين- الملائكة الذين وصفهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأنهم سود الوجوه ومعهم المسوح، هؤلاء يتولون شأن الروح، يكفنونها بعد ذلك، بعد أخذها منه ويصعدون بها إلى السماء.

أقول: هذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم- أن مَلَك الموت واحد وله أعوان.

ويبقى البحث بعد ذلك في الجمع بين قول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة:١١] وبين ما دلت الأدلة عليه من أن الله عز وجل هو الذي يتوفى عباده، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠]،

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران:١٤٥]، في أدلة كثيرة.

والجواب عن هذا أن يقال: إن الإضافتين مختلفتان، أُضيف التوفي إلى الملائكة أو إلى المَلَك من باب إضافة الشيء إلى سببه المباشر، وأما إضافة التوفي إلى الله عز وجل فإن ذلك إضافة الشيء إلى من أمر به وأذن وشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:١٤٥] والله عز وجل أعلم.

ومر بنا: أن هذا المَلَك -أعني: مَلَك الموت- يسمى عند بعض الناس بعزرائيل، وهذا منتشر عند العامة، وهذا ما لا دليل عليه، لا يوجد دليل صحيح -فيما أعلم- أن مَلَك الموت اسمه عزرائيل، وليس لن أن نسمي الملائكة من عند أنفسنا، هذه مسائل غيبية بابها توقيفي، ليس لنا أن نتجاوز النصوص، فإذا لم يثبت أن مَلَك الموت اسمه عزرائيل فلا يجوز لنا أن نسميه بذلك، والعلم عند الله عز وجل.



قال المصنف رحمه الله:

ومنهم مَلَك الجبال الموكَّل بها.

قال الشارح وفقه الله:

(ومنهم مَلَك الجبال) الله عز وجل وكَّل بشؤون الجبال مَلَكا، ويقول ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتح: إنه لم يقف على اسمه.

ودل على هذا المَلَك وعمله: ما ثبت في الصحيح عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينما سألته عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا عن أشد ما وجد -والحديث في الصحيحين عند البخاري ومسلم- فذكر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أن أشد ما وجد مِن قريش ما كان من يوم العقبة، عقبة منى حينما كان عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يقف ثمة ويعرض نفسه على القبائل، فعرض نفسه على ابن عبد ياليل ابن عبد كُلال فلم يجبه إلى ما طلب صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فخرج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مهمومًا فلم يُفِق إلا بمكان يُقال له قرن الثعالب، فإذا بجبريل عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في غمامة أظلته فوق رأسه وأبلغه أن معه مَلَك الجبال فسلَّم على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأخبره أن الله عز وجل أمره يعمل بأمر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما يشاء، قال: «إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين» يعني: الجبلين الكبيرين في مكة.

فهذا دليل يدل على هذا المَلَك الذي هو مَلَك الجبال وعلى عمله، وأنه موكَل بشؤون الجبال، والله أعلم كيف يكون ذلك، لكن المقصود أننا نؤمن أن هذا المَلَك يتولى شؤون الجبال والعلم عند الله عز وجل.



قال المصنف رحمه الله:

ومنهم مالك خازن النار.



قال الشارح وفقه الله:

أيضًا نؤمن بمالكٍ خازن النار، وقد جاء النص عليه في كتاب الله عز وجل -مالك-: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧].

ووصف النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذا المَلَك الكريم في حديث سمرة في رؤيا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ التي رآها، وفيها بيان بعض أحوال البرزخ والجنة والنار، ورؤيا الأنبياء وحي من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والحديث مشهور في صحيح البخاري، وفيه أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن وصف مالكٍ خازن النار، وأنه رآه في صورة رجل كريه المرأى، منظره كريه، كأكره ما أنت راءٍ من الرجال، صورته صورة كريهة جدًا، هكذا وصف النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صورته، وهو الذي أوكل الله عز وجل به شأن جهنم، عافاني الله وإياكم! فهو خازن النار.

وكذلك خازن النار مالك عليه السلام له أعوان من الملائكة يُسمون خزنة النار، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ [غافر:٤٩]، فهؤلاء خزنة النار.

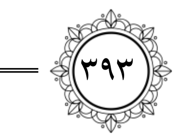
إذن: هناك عدد من الملائكة مع مالك عليه السلام يتولون شؤون هذه الدار دار العذاب، عافاني الله وإياكم منها!

وقد وصفهم الله عز وجل بقوله: ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦].

ومقدَّم هؤلاء الملائكة: تسعة عشر، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠]، هؤلاء مقدمو أولئك الملائكة، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر:٣١].

والله عز وجل أعلم.





قال المصنف رحمه الله:

ومنهم ملائكة موكَّلون بالأجنة في الأرحام.



قال الشارح وفقه الله:

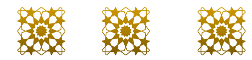
ومنهم -أيضًا- ملائكة موكَّلون بالأجنة في الأرحام، كما ثبت في الصحيحين عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث عديدة، وفيها التنصيص على أن الله وكَّل بالرحم ملكًا، كما جاء في حديث أنس وجاء -أيضًا- في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وجاء -أيضًا- في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري وغيرهم، في الصحيحين وغيرهما، وفي ذلك أن هذا المَلَك أوكل الله عز وجل به شؤون الأجنَّة في الأرحام، فهو الذي يتولاها بالتصوير والتخليق، وكونها ذكرًا أو أنثى، سويَّة أو غير سويَّة، ثم بعد ذلك يتولى نفخ الروح فيها، وكل ذلك بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهؤلاء هم الموكَّلون بالأجنة.

والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

وآخرون موكَّلون بحفظ بني آدم.



قال الشارح وفقه الله:

أيضًا من أعمال الملائكة: حفظ بني آدم، يحفظون عليهم أنفسهم وأبدانهم مما يؤذيهم ويزعجهم، وهذا ما دل عليه قول الله عز وجل: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد:١١].

كذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١] على أحد أقوال أهل التفسير فيها أيضًا.

فهؤلاء ملائكة مهمتهم حراسة بني آدم، كل واحد أوكل الله عز وجل به من يحرسه من الملائكة.

وهؤلاء يتعاقبون، ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ [الرعد:١١] يعني: يتعاقبون، يخلف بعضهم بعضًا على ابن آدم، «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار» كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



قال المصنف رحمه الله:

وآخرون موكَّلون بكتابة أعمالهم، لكل شخص ملكان ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧-١٨].

قال الشارح وفقه الله:

هؤلاء الكَتَبة عليهم الصلاة والسلام، وجاء الدليل على ثبوتهم وثبوت أعمالهم كثيرة في الكتاب والسنة، ومن ذلك: هذه الآية التي أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومن ذلك -أيضًا- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار:١٠-١١].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حديث البطاقة المشهورة المخرج في سنن الترمذي وغيره بإسناد صحيح عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفيه أن الله عز وجل يقول لصاحب البطاقة: «أظلمك كتبتي الحافظون؟».

فهؤلاء ملكان كريمان اثنان، أوكل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بهما كتابة كل ما يصدر من ابن آدم من قول أو فعل، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، وقد أجمع السلف على أن الذي على اليمين يكتب الحسنات، وعلى أن الذي على الشمال يكتب السيئات، وموقعهما من ابن آدم، محلهما من ابن آدم الله أعلم به، لا نستطيع

أن نحدد ذلك على وجه اليقين، هل هم على العاتقين، أو هما على الأضراس، أو هما على العنفقة، أو.. أو..؟ مما يذكره كثير من الناس، كل ذلك لا دليل عليه، لكننا نؤمن أن أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، والله أعلم بمحل ذلك على وجه التعيين.



قال المصنف رحمه الله:

وآخرون موكَّلون بسؤال الميت بعد الانتهاء من تسليمه إلىٰ مثواه، يأتيه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه، فـ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

فإن كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يزال متعلقًا بالإيمان بالملائكة عليهم الصلاة والسلام، ووصل الكلام في الدرس الماضي إلى ذِكْر الأعمال التي كلَّف الله عز وجل بها الملائكة، وأنبه في ابتداء هذا الدرس إلى ضبط ما ذُكِر في الدرس الماضي من أسماء الملائكة الواردة في القرآن، فإن أسماء الملائكة الواردة في القرآن هي: جبريل وميكال ومالك وهاروت وماروت، الراجح من كلام أهل العلم أن هاروت وماروت اسمان لملكين، فهؤلاء هم الملائكة الذين ذُكِرت أسماؤهم، وأعني بالأسماء: الأعلام، أما بذِكْر ألقابهم وأوصافهم كملك الموت وكالزبانية وأمثال ذلك فهذا لا شك أنه أكثر مما ذكرت لك.

يذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن مما وكل الله عز وجل به الملائكة: سؤال الملكين للميت في قبره، وهذه هي الفتنة، والمراد بالفتنة: الامتحان والابتلاء الذي يكون في القبور، والنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخبر -كما في الصحيحين-: «إنه قد أُوحي إلي أنكم تُفتنون في قبوركم مثل أو قريبًا من فتنة الدجال».

والدليل على ثبوت هذه الفتنة في كتاب الله عز وجل وفي أحاديث كثيرة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد بلغت هذه الأحاديث نحوًا من ستين حديثًا، كما ذكر هذا السيوطي في أرجوزته: التثبيت.

ومن ذلك هذه الآية التي ساقها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]، فسرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسؤال في القبر، وذلك لما ثبت في الصحيحين من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا أُقعد المؤمن في قبره أُتي فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم:٢٧]»، فهذا تفسير من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذه الآية.

ولم يَرِد في هذا الحديث -أعني: في حديث البراء- ذِكْر الملكين، لكن جاء ذِكْرهما في أحاديث أخرى، بل جاء التنصيص على اسمها، فهذان الملكان اسم أحدهما: المنكر، والآخر: النكير، كما ثبت هذا في سنن الترمذي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإسناد حسن قوي، وجاء -أيضًا- وصفهما بأنهما أسودان أزرقان، اسمهما: المنكر والنكير. هكذا جاءت رواية عند الترمذي وغيره.

وجاء عند أبي نعيم وغيره بالتنكير: منكر ونكير، لكن الأقوى أن هذين الاسمين محليان بـ(أل): المنكر والنكير. ويخطئ بعض الناس فيكسر الكاف: المنكِر والنكير، هذا ليس بصحيح.

كما قال السيوطي في أرجوزة التثبيت.

فهذان المَلَكان نؤمن أن اسمهما المنكر والنكير، وأن وصفهما أنهما أسودان أزرقان، والله أعلم كيف يكون حالهما، كيف يكونان أسودين أزرقين؟ ذكر العلماء في هذا عدة تفسيرات، والأسلم أن نقول: الله أعلم.

وذكر بعضهم أن المَلَكين اللذين يأتيان المؤمن اسمهما: المبشر والبشير، ولكن هذا لا دليل عليه.

فالذي يظهر -والله أعلم- أن هذين المَلَكين يأتيان المؤمن والفاجر والكافر.

وأنبه هنا إلى ما جاء في مسند أحمد وغيره من أنه قد أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الميت يأتيه المَلَك أو يأتيه مَلَكٌ، هكذا بالإفراد، مع أن الذي ثبت عندنا في الحديث الذي ذكرت لك أنهما مَلَكان، وهذا -أيضًا- ثابت في الصحيح أنهما مَلَكان، لكن جاء في بعض الروايات أن الذي يأتي ويفتن مَلَكٌ واحد.

وتوجيه ذلك -والله أعلم- إما أن يُقال: إن ذِكْر المَلَك يُراد به الجنس أو أنهما اثنان، والذي يسأل واحد، يأتيان اثنان والذي يتولى الفتنة والسؤال واحد.

أو يقال: إن ذلك يختلف باختلاف الناس، فمن الناس مَن يأتيه ملكان، ومنهم من يأتيه مَلك واحد.

هذه الأجوبة الثلاثة يُجاب بها في هذه المسألة المستشكلة وهي: أن بعض الروايات فيها تثنية الملكين، وفيها فيه إفراد الملكين، والعلم عند الله عز وجل.

المقصود: أن مِن الأعمال التي كلَّف الله عز وجل بها الملائكة: الفتنة والابتلاء والامتحان للأموات في قبورهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وآخرون موكَّلون بسؤال الميت بعد الانتهاء من تسليمه إلى مثواه) وذلك أن الفتنة -كما ثبت في حديث البراء الطويل في مسند أحمد وغيره- إنما تكون بعد أن تُقبض الروح ثم تأخذها الملائكة: إما الملائكة الذين هم بيض الوجوه، وإما الملائكة الذين هم سود الوجوه، بحسب حال الإنسان من كونه مؤمنًا أو غير مؤمن، ثم يصعد الملائكة بهذه الروح إلى السماء، ثم بعد ذلك يأمر الله عز وجل بإنزالها إلى الأرض، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فتُعاد روحه في جسده»، ثم ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يأتيه المَلَكان بعد ذلك، بعد أن تُعاد روحه في جسده.

فهذا مراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما قال: (بعد الانتهاء من تسليمه إلى مثواه) إذا أُقبر وعادت الروح إليه -عودًا الله أعلم كيف يكون- يأتيه حينئذٍ الملكان فيسألانه عن ربه ودينه ونبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أكثر الأحاديث فيها أن السؤال يكون عن هذه الأمور الثلاثة، ما هي؟ ربه، ودينه، ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن في بعضها الاقتصار على بعضها، في بعض الروايات الاقتصار على بعضها.

والجمع بين ذلك، بين ما جاء في أنها ثلاثة أو أقل أن يقال: إن ذلك يختلف باختلاف أحوال الناس، فمنهم من يُسأل الأسئلة الثلاثة، ومنهم من يُسأل أقل من ذلك.

أو يقال: إن تلك الروايات حصل فيها اختصار من الرواة، والعلم عند الله عز وجل.



قال المصنف رحمه الله:

ومنهم الملائكة الموكَّلون بأهل الجنة، ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

قال الشارح وفقه الله:

أيضًا من الأعمال التي كُلِّف بها الملائكة: أنهم وُكِّلوا بالجنة وأهلها، وهؤلاء هم خزنة الجنة، كما قال الله عز وجل: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر:٧٣]، وكذلك في هذه الآية: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

وهؤلاء الملائكة الكرام أوكل الله عز وجل بهم ما يتعلق بشؤون الجنة وأهلها، ومن ذلك: تسليمهم عليهم، وأنهم يدخلون عليهم من كل باب، وهذا دليل على أن الجنة فيها أبواب كثيرة، نسأل الله عز وجل من فضله! فإذا دخلوا بشروا أهل الإيمان وسلموا عليهم، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤].



قال المصنف رحمه الله:

وقد أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن البيت المعمور في السماء يدخله -وفي رواية: يصلي فيه- كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

قال الشارح وفقه الله:

أيضًا من الأعمال التي كُلِّف بها الملائكة: عمارة البيت المعمور بعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والبيت المعمور هو بيت جعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعبادة أهل السماء، يعني: الملائكة، وهو -كما جاءت في هذا آثار كثيرة- يحاذي الكعبة، في السماء السابعة، والدليل على أنه في السماء السابعة ما ثبت في الصحيحين عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه رأى إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مسندًا ظهره إليه.

وهاهنا لطيفة ذكرها ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره وهي: أن الله عز وجل جعل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هذا الموضع لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل. قال: لأنه باني الكعبة الأرضية التي هي بيت الله عز وجل الذي جعله لعبادته في الأرض، فجازاه الله عز وجل أن يكون في هذا الموضع عند البيت الذي جعله الله عز وجل لعبادته في السماء.

وهذا البيت المعمور قد ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه في سورة الطور: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور:٤] كما هو قول جمهور المفسرين في تفسير البيت

المعمـور، المـراد بـه هـذا البيـت الـذي جعلـه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لعبادتـه في السـماء السابعة.

وجاءت آثار عديدة عن السلف: أن اسمه الضُّرَاح، بالضاد أخت الصاد.

وهـذا البيـت المعمـور أخـبر النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كـما في الصـحيحين- أنـه يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك، وفي رواية -كما قال الشيخ، وهذه الرواية في البخاري-: «يصلي فيه كل يوم سبعون ألف مَلَك، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم»، يعني: النوبة للمَلَك لا تتكرر، يدخله مرة واحدة، سبعون ألف ملك كل يوم منذ ما شاء الله وإلى ما شاء الله، فلا شك أن الملائكة أعداد عظيمة هائلة، يعني: الأسبوع الواحد كم يدخل هذا البيت في الأسبوع الواحد من الملائكة؟ عدد ليس بسهل، هذا في الأسبوع، فكيف فيما مضى وكيف فيما هو قادم؟ فلا شك أن هذا يدلك على عظمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، حيث خلق هذا الخلق العظيم الكثير سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فالمقصـود: أن هـؤلاء الملائكـة يعبـدون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في هـذا البيـت كـما أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله تعالى أعلم.

هذا ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبقيت أعمال أخرى لم يذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، من ذلك: حَمْل العرش، فإن من الأعمال الجليلة حمل عرش الله عز وجل، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿الَّـذِينَ يَحْمِلُـونَ الْعَـرْشَ وَمَـنْ حَوْلَـهُ يُسَـبِّحُونَ بِحَمْـدِ رَبِّهِـمْ

وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر:٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة:١٧].

ولا شك أن هؤلاء الملائكة ملائكة مقربون، وهم من أفضل الملائكة؛ لقربهم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أيضًا من الأعمال التي كُلِّف بها بعض الملائكة: أنهم يسيحون في الأرض يطلبون حِلَق الذكر، فإذا وجدوا بغيتهم، وجدوا حِلَق الذكر حفوا بها، قالوا لبعضهم: هلموا إلى حاجتكم، فيحضرون هذه المجالس كما ثبت هذا في الصحيحين عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أيضًا من الملائكة ملائكة سياحون في الأرض يبلغون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمته السلام، كما ثبت هذا فيما أخرج النسائي وغيره عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أيضًا من الملائكة ملائكة وظيفتهم حراسة مكة والمدينة من أن يدخلها الدجال، على كل نَقَب من أنقابها كما أخبر بهذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ملائكة يمنعون دخول الدجال كما ثبت هذا في الصحيح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أيضًا من الملائكة: كُتَّاب الداخلين إلى المساجد يوم الجمعة، فإن الله عز وجل أوكل بهذا بعض الملائكة، يقفون على أبواب المساجد ويسجلون الداخلين ويكتبونهم في كتب وصحف عندهم الأول فالأول حتى يدخل الإمام فيطوون صحفهم.

والصحيح أن هؤلاء ليسوا كتبة الحسنات والسيئات، إنما ذلك شأنٌ آخر وشيء آخر، كتابة الداخلين إلى المساجد، وقد أوكل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بهذا من أوكل من الملائكة.

إذن: هذا بعض ما عرفنا من أعمال ووظائف الملائكة التي يكلفهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها.

والواجب على المؤمن أن يؤمن بذلك كله، وهذا ليس من فضول العلم، وليس من المسائل السهلة الهيِّنة التي لا يلقي لها الإنسان بالًا، كلا والله، هذا كله ركن من أركان الإيمان، كل ما بلغ الإنسان مما ثبت في كتاب الله أو صح عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن الملائكة فإنه داخل في الإيمان بالملائكة، يجب اعتقاده والجزم به وتصديقه حتى يسلم للإنسان إيمانه، فإنه لا إيمان إلا بالإيمان بالملائكة مع بقية الأركان، والله تعالى أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

فصل

ونؤمن بأن الله تعالىٰ أنزل علىٰ رسله كتبًا حجة علىٰ العالَمين، ومحجة للعاملين، يعلمونهم بها الحكمة ويزكونهم.

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الركن الثالث من أركان الإيمان وهو الإيمان بالكتب.

والمقصود بالكتب: ما أوحى الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إلى رسله عليهم الصلاة والسلام مِن كلامه الذي فيه الهدى والنور لعباده، يبصرهم ويهديهم.

والإيمان بهذا لا شك أنه من أوجب الواجبات، والله عز وجل أمر نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك فقال: ﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ [الشورى:١٥].

كذلك يقول الله عز وجل: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة:١٣٦].

وهذا حال أهل الإيمان ورأسهم في هذا نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم المؤمنون من بعده، ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥]، فالإيمان بالكتب هو حال أهل الإيمان، بخلاف الكفار الذين

يكفرون بالكتب، ولا شك أن هذا من أعظم الضلال، ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

بل الإيمان بالكتب أحد أركان الإيمان، فلا إيمان إلا بتحقيقه، كما أخبر بهذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جبريل المشهور.

والأمر بالإيمان بالكتب لا شك أنه مما تواترت به الأحاديث والآيات، بل هذا دعامة الدين، الإيمان بالكتب وبالرسل كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجواب الصحيح: إنه دعامة الدين وعموده. فلا يمكن أن يتحقق شيء من الإيمان إلا بالإيمان بالكتب والرسل، ولذلك يمكن أن نقول: إن الإيمان بالكتب وبالرسل يدخل في الإيمان بالله، والإيمان بالله يدخل في الإيمان بالكتب والرسل، كل واحد من هذه يتضمن الآخر، لأن إيماننا بالله عز جل يقتضي.الإيمان بكل ما أخبر الله عز وجل به، من ذلك: الإيمان بالكتب وبالرسل، والكتب والرسل قد جاء في الكتب وفي دعوات الرسل الأمر بالإيمان بالله، فمن آمن بالكتب وبالرسل آمن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذه الأركان العظيمة يتضمن بعضها بعضًا، ويستلزم بعضها بعضًا.

وإنزال الكتب لله فيه حكمة بالغة، ولذلك الله عز وجل يقول: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية:٢] لأن لله عز وجل حكمة بالغة في إنزال كتبه على رسله عليهم الصلاة والسلام.

ومن تلك الحِكَم: إنذار الجاحدين وإقامة الحجة على العالَمين، ولأجل ذلك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول في مفتتح سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجَا * قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف:١-٣] ثم قال: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف:٤].

فمن حِكَم إنزال كتاب الله عز وجل القرآن، وهكذا بقية الكتب: إنذارُ هؤلاء الجاحدين وإقامة الحجة عليهم، ولذلك إذا سِيق الذين كفروا إلى جهنم زمرًا.. نسأل الله العافية والسلامة! ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى﴾ [الزمر:٧١].

إذن: قامت الحجة على هؤلاء الناس أجمعين -ومنهم هؤلاء الكفار- بتلاوة كتب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فدل هذا على أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حكيم، ولا أحد أحب إليه العذر منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولذلك أنزل كتبه وأرسل رسله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

أيضًا من الحِكَم من إنزال الكُتب: الحُكْم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ولأجل ذلك يقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة:٢١٣].

العقول لا تستقلُّ بالوصول إلى العدل والإنصاف وإقامة الحق بين الناس، لابد من كتاب منزَل يقيم العدل والإنصاف ويحكم بين الناس ويفصل بينهم فيما يختلفون فيه. والخلاف بين البشر كثير في أمور الدنيا وفي أمور الدين، فما الذي يفصل بين الناس إلا وحي الله عز وجل الذي أنزله على رسله عليهم الصلاة والسلام.

أيضًا من حكِمَ إنزال الكتب: الدعوة إلى إقامة القسط، وذلك لقول الله تعالى -كما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الحديد:٢٥] لِمَ؟ ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد:٢٥]، وأعظم القسط: توحيد الله عز وجل، وأعظم الظلم: الشرك بالله عز وجل.

فهذا الكتاب العظيم الذي ينزله الله عز وجل على رسوله لا شك أنه يتضمن الهداية والنجاة، وإقامة العدل والقسط في الناس، يهديهم ويزكيهم ويصلح قلوبهم، فهذا من حكمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في إنزال الكتب.

ثم بعد ذلك نقول: كيف يحقق المؤمن الإيمان بالكتب؟ كيف أكون مؤديًا هذا الركن من أركان الإيمان؟

الجواب: أن الإيمان بالكتب يتضمن خمسة أمور:

۞ أولًا: اعتقاد أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنزل على رسله كتبًا هي كلامه الذي تكلم به حقيقة، ووحيه الذي أنزله إلى رسله عليهم الصلاة والسلام.

الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله لا شك أنها كلامه، تكلم الله عز وجل بذلك حقيقة، فالذي تكلم بالقرآن هو الله، والذي تكلم بالتوراة هو الله، والذي تكلم بالإنجيل هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهكذا بقية الكتب، فهي كلام الله الذي أنزله وأوحاه إلى أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام.

۞ الأمر الثاني: الإيمان بما علمنا من هذه الكتب تفصيلًا، والإيمان ببقيتها إجمالًا.

كتب الله عز وجل لا شك أنها كتب كثيرة، كما سيأتي كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك، وعلمنا شيئًا منها، وخُزِن عنا علم أكثرها، فما علمنا من هذه أو من أسمائها فإننا نؤمن به على وجه التفصيل، وما لم نعلم فإننا نؤمن به إجمالًا، وما علمناه -كما سيأتي- هو القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم، هذه خمسة، وصحف موسى إن كانت غير التوراة كما سنتكلم عن هذا قريبًا إن شاء الله، لأن المسألة فيها خلاف طويل بين أهل العلم.

فهذا ما علمناه من كتب الله عز وجل تعيينًا، فهذه نؤمن بها بعينها، وما عدا ذلك فإننا نؤمن به إيمانًا مجملًا.

۞ الأمر الثالث: اعتقاد أن هذه الكتب اشتملت على الهدى والنور وبيان مراد الله عز وجل من عباده: عقيدة وعبادة، وما فيه سعادتهم في العاجل والآجل.

۞ الأمر الرابع: اعتقاد أن هذه الكتب كتب كاملة، لا نقص فيها ولا عيب، وأنه يجب تعظيمها وإجلالها.

۞ الأمر الخامس: العمل بما لم يُنسخ منها وهو القرآن الكريم.

هذه الأمور الخمسة مما يجب على المؤمن أن يؤمن به فيما يرجع إلى هذا الباب وهو باب الإيمان بالكتب.

يقابل الإيمان بالكتب: الكفر بالكتب، وهذا له صور، أهمها أربع صور:

۞ أولًا: التكذيب بها جميعًا، كما هو حال الملاحدة وغيرهم من الكفار الذين يكذبون بالكتب جميعًا، ما أنزل الله من شيء لا على محمد ولا على عيسى ولا على إبراهيم صلى الله عليهم وسلم أجمعين، بل لا يؤمنون بهؤلاء الرسل أصلًا فضلًا عن أن يكون أوحي إليهم أو أُنزل عليهم كتب.

۞ والصورة الثانية: الإيمان ببعض الكتب والكفر ببعض الكتب كما كان من اليهود الذين قالوا: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾[البقرة:٩١] ما

سوى ما أُنزل عليهم فإنهم يكفرون به، فلا شك أن هذا كفر بالكتب، فمن كفر وكذب بكتاب واحد فقد كفر وكذب بالكتب جميعًا، لأن مصدرها كلها واحد، كلها تكلم الله عز وجل بها، وبعضها يشبه بعضًا فيما تدعو إليه من الأصول والقواعد والكليات، وبالتالي فمن كفر ببعضٍ فقد كفر بها جميعًا في حقيقة الحال.

۞ الأمر الثالث: الإيمان ببعض كتاب والكفر ببعض، وهذا كفر بالكتب جميعًا، كما كان -أيضًا- من حال الأمة الغضبية: اليهود، الذين قال الله عز وجل عنهم: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة:٨٥]، فكانوا يأخذون ويعملون ويؤمنون ببعض الكتاب، وما لا يوافق أهواءهم فإنهم يكفرون به، وهذا لا شك أنه من الكفر بالكتب.

ومن ذلك -أيضًا- حال مُن يُسمَّون القرآنيين في هذا الزمان، الذين يزعمون أنهم يأخذون بالقرآن فقط ولا يأخذون بالسنة، أو يقولون: نأخذ من السنة بما دل عليه القرآن، أما ما دلت عليه السنة استقلالًا فإنهم لا يأخذون به، لا شك أن هؤلاء قد آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، ما الذي كفروا به؟ كفروا بقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر:٧] وما جاء في هذا المعنى من القرآن، لا شك أنهم كفروا ببعض القرآن بهذا، وبالتالي كانوا كافرين بالكتب.

۞ الصورة الرابعة: التي تنافي وتُضاد الإيمان بالكتب: الاستهزاء أو السبُّ لها. لا شك ولا ريب أن المسلمين مجمعون على وجوب إجلال وتعظيم كلام الله عز وجل ووحيه جميعًا، وعليه؛ فما نافى ذلك من سخرية واستهزاء أو سبٍّ ولعن وما يجري في مجرى هذا فلا شك أن هذا كفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وعليه؛ فمن سخر بالقرآن، أو بآية أو كلمة أو حرف من القرآن، أو سبَّ صحف إبراهيم، قال: صحف إبراهيم كذا وكذا، أو -والعياذ بالله- لعن التوراة التي أنزلها الله على موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كل ذلك كفر باتفاق المسلمين، فإن من الإيمان بالكتب -كما أسلفنا- تعظيمها وإجلالها، وينافي ذلك إهانة ذلك وسبُّه وشتمه ولعنه، الإهانة أوسع، ولذلك -كما سيأتي معنا إن شاء الله عندما نتكلم عن القرآن الكريم- من ركض المصحف برجله، أو رماه في الحُش في دورة المياه وهو يعلم أنه كتاب الله عز وجل نقول: هذا كفر بالله عز وجل ومنافٍ للإيمان بالكتب.

إذن: إهانة هذه الكتب، كلُّ ما يضاد تعظيمها وإجلالها من استهزاء وسبٍّ، أو إهانة عملية فإن ذلك كله منافٍ للإيمان بالكتب. نعوذ بالله من هذه الحال!



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن الله تعالىٰ أنزل علىٰ رسله كتبًا، حجة علىٰ العالَمين، ومحجة للعاملِين، يعلمونهم بها الحكمة ويزكونهم.

ونؤمن بأن الله تعالىٰ أنزل مع كل رسول كتابًا، لقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥].

❃ ❃ ❃

قال الشارح وفقه الله:

فيبيِّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن الله تعالى أنزل مع كل رسولًا، وهذا هو أحد قولي أهل العلم في هذه المسألة، وهذا هو ظاهر القرآن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنزل على كل رسول كتابًا، كما هو ظاهر قول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]، وقل مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة:٢١٣]، فالمناسبة ظاهرة بين الجمع في قوله: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة:٢١٣] وبين قوله: ﴿الْكِتَابَ﴾ وذلك أن الكتاب مفرد محلىً بـ(أل) فيفيد العموم، والمتقرر عند أهل العلم أنه لا فرق في مقام الاستغراق بين لفظ الجمع ولفظ الإفراد، فهما على السواء، ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:٢١٣] يعني: وأنزل معهم الكتب.

وقل مثل ذلك -أيضًا- في قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر:٢٥]

فدل هذا على أن الرسل عليهم الصلاة والسلام أرسل الله مع كل واحد منهم كتابًا.

ومما يفيد هذا -أيضًا- من جهة المعنى: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعل وحيه الذي ينزِله على رسله فاصلًا وحاكمًا بين الناس فيما هم فيه يختلفون، والاختلاف حاصل لجميع الأمم، وكل أمة بعث الله إليها رسولًا، ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر:٢٤]، إذا كان الذي يفصل بين الناس فيما يختلفون فيه كتابٌ منزلٌ من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فهذا مما يقوي أن مع كل رسول كتابًا، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعلم.

ولهذا كان الصحيح في مسألة عدد الكتب أن نقول: إن مع كل رسولٍ كتابًا، وأما القول بأن عدد كتب الله التي أنزلها على رسله أربعة ومائة كتاب فإن هذا غير صحيح، والسبب في ذلك: أنه مبني على دليل غير صحيح، فإن هذا القول مبني على حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الطويل الذي أخرجه ابن حبان في صحيحه وغيره، وفيه: أن الله عز وجل أنزل أربعة ومائة كتاب. لكن الحديث ضعيف، بل هو شديد الضعف، لا يصح بحال عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لذلك نقول: إن مع كل رسولٍ كتابًا، والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونعلم من هذه الكتب: التوراة التي أنزلها الله تعالىٰ علىٰ موسىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي أعظم كتب بني إسرائيل، قال تعالىٰ: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة:٤٤].

قال الشارح وفقه الله:

ثم بدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالكلام عن الكتب التي عرفناها وأُعلمنا بها وهي: التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وصحف موسى، طبعًا بالإضافة إلى كتاب الله عز جل القرآن الذي له بحث خاص سيأتي في آخر هذا المبحث.

إذن: الكتب التي علمناها بين كونها ستة وخمسة، وذلك راجع إلى البحث في صحف موسى هل هي التوراة أم لا.

بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (التوراة)، والتوراة كتاب الله عز وجل ووحيه الذي أوحاه إلى نبيه وكليمه موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

والتوراة الأقرب -والله أعلم- أنها كلمة أعجمية لا عربية، وهي بالعبرانية يقال: إن أصل هذه الكلمة: طورا، بالطاء، وطورا بالعبرانية تعني: الهدى. ولا شك أن الله عز وجل قد وصف التوراة بأن فيها هدىً ونور، كما سمعت قبل قليل.

والتوراة ثبت في صحيح مسلم أن الله عز وجل كتبها بيده، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المشهور الذي هو حديث محاجة آدم وموسى عليهما الصلاة

والسلام، والحديث مخرج في الصحيحين، في رواية الصحيحين: «خَطَّ لك بيده»، وفي رواية لمسلم: «كتب لك التوراة بيده»، فهذا مما ينبغي علينا أن نؤمن به.

وكان هذا -أعني: هذه الكتابة- قبل أن يُخلق موسى بأربعين عامًا، كما ثبت -أيضًا- في رواية أخرى في صحيح مسلم من هذا الحديث، من حديث المحاجة بين آدم وموسى عليهم السلام، ثبت في رواية عند مسلم -أيضًا- أن الله عز وجل كتب التوراة قبل خلق موسى بأربعين عامًا.

وهذا الكتاب كتاب عظيم، فيه هدىً ونور، وهو أعظم كتب بني إسرائيل دون شك، وهو الأصل، حتى إن الإنجيل ذاك الكتاب العظيم إنما هو متممٌ وتابعٌ للتوراة.

وهذا الكتاب العظيم جاءنا في كتابنا بعضُ ما جاء فيه، من ذلك: صفة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الأعراف:١٥٧] إلى آخره.

كذلك صفة أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما بيَّن الله عز وجل ذلك: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح:٢٩] إلى أن قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ [الفتح:٢٩].

كذلك جاء في كتاب الله عز وجل بيانُ بعض ما جاء في التوراة من أحكام القصاص، مما بيَّن الله عز وجل ذلك في كتابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ﴾ [المائدة:٤٥]، إلى آخر ما بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وعندنا هاهنا مسألة يذكرها بعض الناس، وقد قال بها بعض التابعين، وهي من المعروف عند أهل الكتاب: أن الله كتب التوراة وناولها موسى من يده إلى يده. ولكن هذا ليس فيه شيء صحيح عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما بيَّن هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المجلد الثاني عشر من مجموع الفتاوى.

وعندنا -أيضًا- بحثان يتعلقان بالتوراة: ما الفرق أو العلاقة بين التوراة والألواح؟ والله عز وجل قد بيَّن أنه كتب لنبيه موسى عليه السلام في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلًا لكل شيء. وهل الألواح شيء آخر خلاف التوراة؟ جاء في حديث أبي ذر -الذي ذكرته لك وهو ضعيف- أن موسى عليه السلام آتاه الله عز وجل الألواح قبل التوراة.

والعلماء مختلفون، منهم من قال: إن في الألواح شيءٌ آخر من وحي الله عز وجل خلاف التوراة.

والقول الثاني: أن ما في الألواح إنما هو التوراة، ولا شيء غير ذلك.

ولعل هذا القول أقرب، وذلك لقرينة في الحديث وهو حديث محاجة آدم وموسى الذي أسلفته قبل قليل، فإن في بعض رواياته: «وكتب لك التوراة بيده»، وفي بعضها: «وآتاك الألواح فيها تفصيل كل شيء»، هكذا قال آدم عليه السلام لموسى عليه السلام. فمرة ذُكِرت التوراة، ومرة ذُكِرت الألواح، فكأن إحدى الروايتين تفسير للأخرى، لا سيما وأن الله عز وجل قد بيَّن أنه قد كتب له في الألواح موعظة وتفصيلًا لكل شيء.

إذن: الغالب -والله تعالى أعلم- أن هذا هو التوراة، ولا شيء خلاف ذلك، لا سيما وأن المشهور عند أهل العلم أن التوراة كتاب كبير، وفيه كثير من الآيات، وأجزاء هذه الكتب تسمى آيات كما هو القرآن، ولذلك في حديث آية الرجم في الصحيح: فقرأ فوضع يده على آية الرجم. فإذن: القطعة من هذا الكتاب تُسمى آية، كما هو الحال في كتاب الله عز وجل القرآن.

البحث الثاني في صحف موسى التي سيتكلم عنها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد قليل، فإنه قال في فقرة د: (صحف إبراهيم وموسى)، كأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعلها مستقلة وليست هي التوراة، وفي شرحه على هذا الكتاب كأنه توقف، لم يترجح له: هل صحف موسى هي التوراة أو هي كتابٌ آخر؟ وهذه مسألة -أيضًا- اختلف فيها العلماء اختلافًا طويلًا.

ولعل الأقرب -والله تعالى أعلم- أن صحف موسى هي التوراة وليست شيئًا زائدًا عليها، ويجعل الإنسان يميل إلى هذا القول حديث عند أحمد في المسند وحسنه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أُنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان، وأُنزلت التوراة لست من رمضان»، وما ذكر في هذا الحديث ماذا؟ يعني: ذكر صحف إبراهيم وما ذكر صحف موسى، وإنما ذكر التوراة، فهذا مما يقرر أن صحف موسى هي التوراة، لا سيما على القول بأن الألواح مشتملة على التوراة، فإذا كان فيها كل شيء فماذا عسى أن يكون في هذه الصحف؟ فالذي يظهر -والله أعلم- أن صحف موسى هي التوراة لا شيءٌ زائدٌ عليها، والعلم عند الله عز وجل.

قال المصنف رحمه الله:

الإنجيل الذي أنزله تعالىٰ علىٰ عيسىٰ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مصدق للتوراة ومتممٌ لها، قال تعالىٰ: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًىٰ وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًىٰ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران:٥٠].

❊ ❊ ❊

قال الشارح وفقه الله:

الكتاب الثاني الذي أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإنجيل، وهو الكتاب الذي أنزله الله عز وجل على نبيه عيسى عليه السلام.

والعلماء -أيضًا- مختلفون في كلمة (الإنجيل) أهي كلمة عربية أم أعجمية؟ والأقرب -والله أعلم- أنها كلمة أعجمية.

واختلفوا -أيضًا- هل هي سريانية أو رومية أو يونانية أو عِبرانية؟ اختلاف طويل في أصل هذه الكلمة.

المقصود: أن هذا كتاب عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهو كتاب تابع ومتممٌ للتوراة، كما بيَّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهو مصدقٌ للتوراة ومتممٌ لها، كما قال جل وعلا: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٤٦].

كذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران:٥٠]، إذن: في الإنجيل نسخ بعض ما جاء في التوراة.

وبيَّن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ -أيضًا- في كتابه شيئًا مما جاء في الإنجيل كما سبق، فيما يتعلق بالقصاص، ما يتعلق بصفة أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.. إلى آخر ما هنالك.

والذي بين أيدي النصارى اليوم، هذه الأناجيل الأربعة التي جُمِعت فيما سموه العهد الجديد: إنجيل متَّى ولوقا ومُرقص ويوحنَّا، وهذه من قرأ فيها يجد أنها كتب فيها تاريخ عيسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ مع بعض الأحكام والمواعظ، وهي كتبٌ فاقدة الإسناد والصلة بمن نُسِبت إليه، واشتملت على كثير من التناقضات فيما بينها، إضافة إلى كثير من الأخطاء، وسنتكلم عن هذا -إن شاء الله- بعد قليل فيما يتعلق بالتحريف الذي حصل في هذه الكتب القديمة.

كذلك الشأن في التوراة، فإن ما بين أيدي أهل الكتاب اليوم -وهو كما عند هؤلاء ممن يسمونه الكتاب المقدس الذي يشتمل على العهد القديم- هو التوراة، والعهد الجديد ما يزعمون أنه الإنجيل، هذا -أيضًا- قد بُدِّل وحُرِّف وغُيِّر كثيرًا، كما سنتكلم عن هذا -إن شاء الله- بعد قليل، والله تعالى أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

الزبور الذي آتاه الله تعالىٰ داوود صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



قال الشارح وفقه الله:

كما قال جل وعلا: ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء:٥٥].

وذكر أهل العلم -ومنهم قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أن الزبور فيه تسابيح وثناء على الله عز وجل وتمجيد ومواعظ، كأن هذا هو الأغلب على هذا الكتاب أنه فيه ثناء على الله عز وجل وتسبيح وتمجيد ومواعظ مما بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا الكتاب، والعلم عند الله عز وجل.



قال المصنف رحمه الله:

صحف إبراهيم وموسىٰ عليهما الصلاة والسلام.



قال الشارح وفقه الله:

صحف إبراهيم وموسى، مضى الكلام عن صحف موسى.

أما صحف إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنه قد جاء الدليل عليها وعلى صحف موسى في موضعين في كتاب الله عز وجل: في سورة النجم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [النجم:٣٦-٣٨].

وكذلك في سورة الأعلى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى:١٩].

وما يتعلق بصحف إبراهيم عليه السلام هي شيء لا يُعرف اليوم في أيدي الناس شيء منها، بخلاف التوراة والإنجيل، كذلك الزبور هناك أشياء موجودة عند بعض الناس تُنسب إلى أنها الزبور، لكن صحف إبراهيم هذه لا تُعرف في أيدي الناس، والعلم عند الله عز وجل.

ومن أسمج السخافات التي سُمِع بها في هذا الزمان: زَعْم بعض الناس العلاقة بين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والبراهمة الهندوس عُبَّاد البقر، بل عُبَّاد كل شيء، الذين هم أعظم الناس شركًا بالله عز وجل، يزعمون أن هناك علاقة بين ما في أيديهم من كتاب يسمى الفيدا، كتاب مقدس عندهم يسمى الفيدا وبين صحف إبراهيم، وهذا من السماجة ومن التلاعب بمحل، أين إبراهيم

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وملته من ملة الشرك ومن كتاب هذه الملة حتى يُقرن أو يُزعم العلاقة بين هذا وهذا؟ ملة إبراهيم ملة التوحيد، أعظم الناس توحيدًا بعد نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فكيف يُزعم أن هناك شيئًا من العلاقة بين هذه الملة الحنيفية التي كان عليها إبراهيم عليه السلام وتلك الملة الكافرة التي هي أعظم الملل كفرًا وشركًا؟

الهندوس يعبدون كل شيء، المعبودات عندهم لا تُحصر. نسأل الله السلامة والعافية! فالبقر والشجر والحجر والقرود والفروج كل شيء يُعبد، أعوذ بالله من هذه الحال! فكيف يُقارَن هذا بدعوة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وصحفه الجليلة العظيمة التي فيها الهدى والنور، التي هي وحي من الله عز وجل.

فعلى كل حال، الزمان يحوي شيئًا عجيبًا، لا سيما هذا الزمان المتأخر، والله المستعان!



قال المصنف رحمه الله:

القرآن العظيم الذي أنزله الله علىٰ نبيه محمد خاتم النبيين، قال تعالىٰ: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، فكان مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، فنسخ الله به جميع الكتب السابقة، وتكفل بحفظه عن عبث العابثين وزيغ المحرفين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] لأنه سيبقىٰ حجة علىٰ الناس أجمعين إلىٰ يوم القيامة.

❊ ❊ ❊

قال الشارح وفقه الله:

أخيرًا تكلم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الكتاب العظيم الذي هو أعظم كتب الله عز وجل، الذي يهدي للتي هي أقوم.

القرآن الكريم المعجزة العظيمة لنبينا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، الكتاب الباقي الذي تكفل الله عز وجل بحفظه، وهو باقٍ غضًا لم يُشَب، محضًا ما دخله أيُّ شيء من التبديل والتحريف بحمد الله سبحانه، هذا هو القرآن العظيم.

وقد مضى كلامٌ مفصل في أوائل هذه الرسالة عندما تكلمنا عن صفة الكلام، وذكرنا دلائل كثيرة تدل على أن هذا القرآن كلام الله عز وجل حقًا.

والقرآن يختلف عن تلك الكتب الأخرى من جهتين:

أولًا: أن تلك الكتب ما تكفل الله عز وجل بحفظها، بخلاف القرآن، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، فالله عز وجل قد تكفل بحفظه،

فاليوم أكثر من ألف وأربعمائة عام وكتاب الله عز وجل لم يُشَب، محض، غض، كما أُنزل اليوم.

أما الكتب السابقة فالله عز وجل قد أوكل حفظها إلى أهلها، كما قال عز وجل عن أهل الكتاب: ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [المائدة:٤٤]، فكان منهم ما كان من النسيان والتبديل.. إلى آخره.

فهذا هو الفرق الأول.

والفرق الثاني: أن القرآن ناسخ وتلك منسوخة، وهذا من العلم المعلوم من الدين بالضرورة أن كتاب الله عز وجل ناسخ لكل ما قبله من الكتب، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيما سمعت من قوله جل وعلا: ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨].

هيمنة القرآن على الكتب التي تقدمته تظهر من أربع جهات:

❁ أولًا: أن القرآن مصدق لتلك الكتب، كما بيَّن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذلك فيما سمعت: ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨].

❁ الأمر الثاني: أن هذا القرآن شاهدٌ بتحريف ما حُرِّف من تلك الكتب، فإذا ما عُرِض ما في تلك الكتب على كتاب الله عز وجل تبين تحريف كثير من ذلك، وصدق الله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:٧٦].

❁ الأمر الثالث: من هيمنة القرآن أنه شاهد بإقرار حكم الله الذي هو فيها، ومن ذلك آية الرجم، كما ثبت هذا في الصحيح عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

۞ الأمر الرابع من هيمنة القرآن: أنه ناسخ لكل ما سبقه، ولذلك لا يمكن أن ينجو عبدٌ يزعم الإسلام وهو يتبع غير القرآن، الله عز وجل يقول مخاطبًا المؤمنين المسلمين أمة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣]، هذا القرآن هو الذي أُمرنا بتلاوته، وهو الذي أُمرنا باعتقاد ما فيه، وهو الذي أُمرنا بالعمل بما جاء فيه.

وأما ما عداها فالقرآن مهيمنٌ عليها، ولذلك نلخص هيمنة القرآن بكلمة جميلة لشيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ، قال فيها عن هذا القرآن العظيم وهيمنته على الكتب الأخرى: إنه شاهدٌ في الخبريات. شاهدٌ لها، لتلك الكتب السابقة في الخبريات، وحاكم عليها في العمليات. شاهدٌ لتلك الكتب في الخبريات، وحاكمٌ عليها في العمليات.

كتاب الله عز وجل القرآن الواجب فيه على أهل الإيمان النصح، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما أخرج الإمام مسلم رَحِمَهُٱللَّهُ في صحيحه: «**الدين النصيحة**»، جعل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الدين في كلمة واحدة وهي: النصيحة.

قال الصحابة: «**قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**».

ما معنى النصح لكتاب الله عز وجل؟ الجواب: أنه القيام بحق القرآن قيامًا خالصًا من القوادح.

النصيحة من النصح، والنصح هو الإخلاص، يقال: لبن نصيح يعني: لبن خالص.

إذن: إذا قمت بحق كتاب الله عز وجل عليك قيامًا سالمًا خالصًا من كل قادح، هنا تكون ناصحًا لكتاب الله عز وجل، وذلك الحق يتضمن ثلاثة أمور:

۞ أولًا: الاعتقاد والتصديق بكل ما جاء فيه، وهذا -أيضًا- من المعلوم من الدين بالضرورة، فمن كذب آية بل كلمة بل حرفًا من كتاب الله عز وجل فإنه كافر باتفاق المسلمين.

إذن: اعتقاد وتصديق كل ما جاء فيه.

۞ الأمر الثاني: العمل بما جاء فيه، امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

۞ الأمر الثالث: تعظيمه وإجلاله، هذا الكتاب محل التعظيم، محل الإجلال، محل التقدير، محل الاحترام، ولذا أجمع المسلمون على أن من أهان المصحف إهانة واضحة لا لبس فيها، كأن يدوسه بقدمه وهو يعلم أنه كتاب الله، أو يرميه في الخلاء أو دورة المياه، أو يكتبه بالدم، أو يبول عليه؛ أنه كافر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ودون ذلك مراتب تصل إلى درجة التحريم وتصل إلى درجة الكراهة، يعني: منها ما يصل إلى درجة التحريم، ومن ذلك ما يصل إلى درجة الكراهة، والناظر في كلام العلماء في هذا المقام يجد ما يعجب له الإنسان من عظيم إجلالهم واحترامهم لكتاب الله عز وجل.

ومن الصور التي ينبغي التنبيه عليها: ما نص عليه جمع من الفقهاء من فِعْل مكروه لا يليق، وهو أن بعض الناس إذا كان يمسك بالمصحف ويقرأ فيه أنه يقلب صفحاته بعد بَلِّ ريقه، وهذا فِعْل لا يليق، فيه من تعريض صفحات

المصحف للاهتراء، كما أن فيه شيئًا لا يليق ولا ينبغي، يعني: هذا شيء لا يحسن بك أن تفعل.

أيضًا وضع المصحف وحمل المصحف، لا يصلح أنك ترمي المصحف هكذا كما نرى بعض الناس يفعل، أو لا يُحسِن أخذه، يأخذه كما يأخذ أيَّ شيء، وربما أشار به: يا فلان، هكذا يفعل، وربما ضرب على ظهر أحد المصلين بالمصحف يناديه، القرآن ما نزل لكي يُستعمل ويستخدم.

أيضًا في هذا المسجد المبارك نجد بعض الناس إذا صلى خلف بعض السواري التي فيها تكييف، يجد أن التكييف قد آذاه، يأخذ المصحف ويرصه على فتحات التكييف حتى لا يصيبه، القرآن ما نزل لكي يُستخدم ويُستعمل، القرآن نزل ليُعظَّم ويُجل، ويُعتقد ما فيه، ويُهتدى بنوره، ويُعمل بما جاء فيه.

أما استخدامه واستعماله، أو يتكئ عليه، بعض الناس رأيتهم إذا أراد أن يكتب شيئًا ما عنده شيء يتكئ عليه، وضع الورقة على المصحف وبدأ يكتب، هذا لا يليق، هذا ليس من الأدب مع كتاب الله عز وجل، لابد من التأدب مع كتاب الله، وهذا من النصح لكتاب الله عز وجل.

فهذا ما يتعلق بالقرآن، والكلام في القرآن كلام كثير وعظيم، وينبغي أن يعتني الإنسان بذلك، هذا كتابٌ ما أجلَّه وما أعظمه!

والله إنه لفرقان، انظر إلى هذه الكلمة العظيمة: ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة:١٨٥]، يفرق بين الحق والباطل، بين الهدى والنور، بين الهدى والضلال، بين النور والظلمة، وكثير من الناس -مع الأسف الشديد- لما

أعرضوا عن كتاب الله عز وجل، ما جعلوه محل تدبر وتأمل، ليسوا من الذين إذا مروا على آية من كتاب الله تمهلوا، قرأوا بهدوء، ماذا يريد الله عز وجل بهذا؟ فيهتدون، يجدون شفاء قلوبهم وصلاح عقولهم بهذا القرآن، لا، يقرأ القرآن لأجل يحسن صوته، يقرأ لأجل الأجر والبركة، هذا خير، لكن هناك ما هو أعظم وأهم وهو التدبُّر، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص:٢٩] لم؟ ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص:٢٩]، التدبر، التأمل.

ولذا من جعل حظه من هذا الكتاب العظيم التدبُّر والله إنه سيكون له فرقانًا، ستزول عنه كثير من الإشكالات، لأن عنده بصيرة وفرقان، أصبح الحق جليًا بين ناظريه، وأصبح الباطل جليًا بين ناظريه، أما الإعراض عن كتاب الله عز وجل وتأمله وتدبره هذا والله من الأمر المؤسف.

عجيب أن يقرأ مسلمٌ كتاب الله لكن لا يتحرك في قلبه شيء يدعوه إلى أن يتأمل ويعرف ماذا أراد الله بهذا، يعني: ربما يقرأ إنسانٌ خمسين سنة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:١-٢] ما يدري إيش فلق، غاسق، وقب، ما يعرف. لا تعرف، لماذا ما فكرت ولو يومًا أن تفهم؟ ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى:٢] ما معنى (سجى)؟ إذن: هذا كله من التقصير، من عدم القيام بحق هذا القرآن.

إذن: كتاب الله عز وجل شأنه شأن عظيم، من أوجب الواجبات، أنت خُلِقت ووجدت في هذه الحياة لأجل أن تعتني بالقرآن والسنة وتفهم ما فيهما ثم تعتقد وتعمل، هذا من أهدافك الرئيسة في هذه الحياة، كيف تغفل عن ذلك؟

كيف تهمل ذلك؟ هذا خذلان وحرمان، فنعوذ بالله من الخذلان، ونعوذ بالله من الحرمان!



قال المصنف رحمه الله:

القرآن العظيم الذي أنزله الله علىٰ نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم النبيين، هدىً للناس وبينات من الهدىٰ والفرقان، فكان مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، فنسخ الله به جميع الكتب السابقة، وتكفل بحفظه عن عبث العابثين وزيغ المحرفين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] لأنه سيبقىٰ حجة علىٰ الناس أجمعين إلىٰ يوم القيامة.

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

فمضى الكلام عما يتعلق بهذا الكتاب الحكيم والقرآن الكريم، الذي هو من أعظم نِعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الناس، وبيَّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخر كلامه هاهنا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد تكفل بحفظه عن عبث العابثين وزيغ المحرفين، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وبيَّن سبب ذلك في قوله: (لأنه سيبقى حجة على الخلق أجمعين إلى يوم القيامة)، وصدق، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد تكفل بحفظ كتابه ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١-٢٢]، قرأ نافع رَحِمَهُ ٱللَّهُ بضم كلمة (محفوظ) فصارت هذه الكلمة راجعة إلى القرآن، فهو محفوظ، بل هو قرآن مجيدٌ في لوحٍ محفوظٌ. كلا القراءتين حق: بالكسر، اللوح المحفوظ محفوظ، وبالرفع: القرآن محفوظ.

والقرآن محفوظ من ثلاث جهات:

أولًا: من جهة حفظه من التلاشي والضياع، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد تكفل بحفظه، فلم يضع ولم يتلاشى ولا شيء منه بحمد الله.

ثم هو محفوظ -ثانيًا- من إلقاء الشياطين، فعندما كان ينزل القرآن حفظ الله عز وجل هذا القرآن، فلم يكن يُلقى ويُلبَّس من قِبَل الشياطين فيختلط بوحي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شيءٌ البتة.

وكذلك هو محفوظ -ثالثًا- من التبديل بالزيادة أو النقصان أو التحريف، قرآن عظيم محفوظ، حفظه الجمُّ الغفير من لدن رسول الله صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعلى مسمعٍ منه، بلغوا درجة التواتر فأكثر، ثم لم يزل يسمعه المتأخر من المتقدم إلى هذا اليوم، فهو محفوظ بحفظ الله عز وجل.

ومهما رام شيطانٌ من شياطين الإنس أو الجن أن يزيد فيه أو ينقص، أو يغيِّر أو يحرف، فإنه لا يمكن أن يثبت شيء من ذلك، بل لابد أن يتبين هذا الضلال على سبيل العجلة والسرعة، طفل صغير من أطفال المسلمين يمكن أن يكتشف أيَّ شيء من هذا التبديل في كتاب الله، أليس كذلك؟ فلا شك أن هذا من حفظ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهذا القرآن، وهذه آية من آيات صدق رسول الله صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وعلامة واضحة لأولي الألباب أن هذا الوحي إنما هو كلام الذي أرسل هذا الرسول الكريم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وصلى الله على نبينا وسلم، وإلا فأيُّ كلامٍ سواه لا يكون محفوظًا هذا الحفظ، لو كان قول البشر. وليس قول الله لما حُفِظَ هذا الحفظ

بهذه الدقة العجيبة، بل لا أقول: إن الآيات محفوظة، بل ولا أقول: إن الكلمات محفوظة فحسب، بل إن الحركات محفوظة، لا يمكن لإنسان أن يغيِّر حركة واحدة فقط من كتاب الله عز وجل، فأيُّ حفظ كهذا الحفظ؟ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١-٢٢] والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

أما الكتب السابقة فإنها مؤقتة بأمدٍ ينتهي بنزول ما ينسخها ويبين ما حصل فيها من تحريف وتغيير، ولهذا لم تكن معصومة منه، فقد وقع فيها التحريف والزيادة والنقص، قال تعالىٰ: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء:٤٦].

❋ ❋ ❋

قال الشارح وفقه الله:

أما الكتب السابقة على هذا القرآن فإن الأمر فيها مختلف، لما كان الواحد من هذه الكتب ليس باقيًا وليس حجة على الناس في كل زمان ومكان منذ نزوله اختلف الأمر فيه، فأوكل الله عز وجل حفظ ذلك إلى أهل هذه الكتب التي أُنزلت عليهم، ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة:٤٤]، فكان ما كان من

عدم حفظ هذه الكتب، بل كانت هذه الكتب لما أُوكلت لهؤلاء العلماء والأحبار من أهلها قد دخلها ما دخلها من الزيادة والنقصان والتحريف، وذلك لأنها مؤقتة بالوقت الذي ينزل الكتاب الناسخ لهذه الكتب، وهو -أيضًا- الذي يبين ما فيها من تحريف، وهذا من هيمنة القرآن على الكتب السابقة كما سبق بيانه.

واختلف العلماء في هذه الكتب التي بأيدي أهل الكتاب: هل دخلها التحريف في جميعها، فلم يَعُد شيء منها على ما أنزل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ أو أنه ما دخلها التحريف في ألفاظها، إنما هي محفوظة كما أُنزلت على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إنما التحريف كان تحريف المعاني بتأويلها وحملها على خلاف ظاهرها؟ أو أنه قد دخل التحريف في بعضها وسلم بعضها، لكن الأمر قد اختلط فلم يمكن التمييز؟ ثلاثة أقوال لأهل العلم، والثالث هو الصواب لا شك فيه.

أما كون هذه الكتب قد دخلها التحريف والتبديل بالزيادة والنقصان فهذا لا شك فيه ولا ريب، فإن أهل الكتاب قد بدَّلوا وغيَّروا، وهذه الكتب التي بين أيديهم فيها قطعًا ما ليس من كتاب الله عز وجل، بل كثير مما فيها يُنزَّه كلام الله عز وجل عنه، هذا أمر لا يمتري فيه كل من شم رائحة لدين الله عز وجل وشدى شيئًا من العلم بهذا الدين.

لا يمكن أن يكون في كتاب الله عز وجل وصف سليمان عليه السلام ذاك النبي الكريم بأنه قد عبد الأصنام كما تجده في أسفار اليهود، في التوراة التي بين أيديهم اليوم.

أو أن هارون النبي والرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد شارك في صنع العجل وفي عبادته أيضًا، أو أن لوطًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ النبي والرسول الكريم قد شرب الخمر وزنى كما تجد في أسفارهم التي بين أيديهم اليوم، لا شك أن هذا وأمثاله كثير مما هو واقعٌ في كتبهم وثابتٌ في كتبهم.

وهذا دليل وبرهان على أنه قد دخلها ما دخلها من التبديل، من التغيير، من الزيادة والنقصان، من التحريف، كما سيأتي بيانه إن شاء الله فيما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أدلة. ناهيك عن أخطاءٍ كثيرة وعن تناقضات فيما بين هذه الكتب.

إذن: التحريف قد دخل هذه الكتب لا شك فيه.

أما أن يكون كل ما فيها قد حُرِّف فهذا -أيضًا- لا يستقيم، بل هناك شيء مما فيها لا شك أنه على ما أُنزل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويشهد لهذا ما جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قصة آية الرجم حينما أُتي إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برجل وامرأة من اليهود قد زنيا، فسال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليهود: ماذا يجدون في كتابهم عقوبة للزنى؟ فأخبروا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم يُفضحون ويُجلدون، فأمرهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأتوا بالتوراة، قال لهم:

«ائتوا بالتوراة إن كنتم صادقين»، فلما جيء بها ونُشِرت بين يدي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإذا بالفتى اليهودي الذي كان يقرأ يضع يده على آية الرجم، فيقرأ ما قبلها ويقرأ ما بعدها، وهاهنا قال عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مرْه يا رسول الله أن يرفع يده، فيرفع يده وإذا آية الرجم، فأمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برجمها.

الشاهد: أن هذا من كلام الله عز وجل، آية الرجم من كلام الله عز وجل، وقد بقيت في كتاب الله في التوراة التي بين أيديهم وما دخلها التحريف، لكن كان منهم إخفاؤها، وإلا فهي باقية كما يدل على هذا هذا الحديث.

إذن: الصواب أن الذي بين أيدي أهل الكتاب قد دخله ما دخله من التحريف، فاختلط الأمر ولم يمكن التمييز، ولذا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أخرج البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما كان من اليهود مَن يقرأ من التوراة بالعبرية فيفسره لأهل الإسلام بالعربية، كان هذا يحصل من بعض اليهود في المدينة، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بما أنزل إلينا وأنزل إليكم»**، لا تصدقوهم لأنكم قد تصدقون ما ليس من كلام الله، ولا تكذبوهم لأنكم قد تكذبون ما هو من كلام الله، لأن الأمر قد اختلط ولم يمكن التمييز، وإنما الأسلم أن يقول الإنسان: آمنا بما أُنزل إلينا وأُنزل إليكم، وهذا فيه

احتياط تام، بحيث لا يصدق الإنسان لكذب، ولا يكذب بصدق، فهذا هو الحق في هذه المسألة الذي لا شك فيه.

والتحقيق في هذا المقام -أعني: ما الذي كان مِن أهل الكتاب فيما يتعلق بكتبهم- أن الذي كان منهم ما يأتي:

أولًا: النسيان، وذلك كما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن النصارى: ﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة:١٤]، والنسيان هاهنا يشمل النسيان بمعنى الترك عن عمد، ويشمل -أيضًا- النسيان الذي هو بمعنى الذهول عن الشيء، استُحفظوا كتاب الله عز وجل فنسوا شيئًا منه فضاع ولم يوجد.

الأمر الثاني الذي كان منهم: أنهم كانوا ينقِصون ويكتمون ويخفون، النقص والكتمان والإخفاء، كانوا يكتمون بعض ما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويحذفونه عن عمد من كتاب الله عز وجل.

الأمر الثالث: أنهم كانوا يزيدون في كتاب الله عز وجل، وهذا والذي قبله داخل في معنى التبديل، فالتبديل قد يكون بالنقص وقد يكون بالزيادة.

الأمر الرابع الذي كان منهم: أنهم كانوا يحرفون تحريفًا لفظيًا، كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أخرج الشيخان عنه أنه قال: **«أُمر اليهود أن يقولوا حطة»** يعني: غفرًا، احطط عنا يا ربنا ذنوبنا، أُمروا أن يسألوا الله المغفرة.

« أُمر اليهود أن يقولوا حطة وأن يدخلوا الباب سجدًا، فدخلوا الباب على أستاههم»، صاروا يزحفون على أدبارهم وقالوا: «حبة في شعرة»، ما معنى حبة في شعرة؟ هذا كلام لا معنى له، إنما هو العناد والطغيان الذي عليه تلك الأمة الغضبية، نسأل الله السلامة والعافية من حالهم!

فهذا من التحريف اللفظي الذي كان عليه أهل الكتاب ودخل ما دخل منه في كتاب الله عز وجل.

الأمر الخامس: التحريف المعنوي، يعني: أنهم كانوا يحرفون، أو كما هو اصطلاح المتأخرين: كانوا يؤولون معاني الكتاب الذي بين أيديهم على المعاني الباطلة، ويحملون هذه الكلمات على عقائدهم الباطلة التي كانوا عليها.

إذن: هذا هو الذي كان من أهل الكتاب وهو خمسة أشياء، كان منهم: النسيان، كان منهم: النقص، كان منهم: الزيادة، كان منهم: التحريف اللفظي، وكان منهم -أيضًا-: التحريف المعنوي.

واستدل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى على هذا بجملة من الأدلة في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقبل أن نقرأها أنبه إلى أننا إذا فهمنا هذا فهمنا أن القَدْر الواجب علينا فيما يتعلق بالإيمان بالكتب إنما هو الإيمان بأصولها الأولى التي أُنزلت على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أما التي بين أيديهم اليوم بعد أن دخلها ما دخلها

فإنه لا يجب علينا التصديق بما فيها، لأن فيها ما هو من كلام الله وفيها ما ليس من كلام الله عز وجل، والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

قال تعالىٰ: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء:٤٦].



قال الشارح وفقه الله:

هذا ما أسلفنا ذكره، والتحريف صنعة اليهود، كما بيَّن الله عز وجل في كتابه في هذه الآية وفي غيرها، ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]، والتحريف -كما أسلفت- هو لألفاظه ولمعانيه كما هو قول جمهور أهل العلم، بخلاف من قال: إن التحريف إنما كان للمعاني فحسب، والصواب أن التحريف واقع في كليهما.



قال المصنف رحمه الله:

وقال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩].

قال الشارح وفقه الله:

هذا دليل على أنه قد وقع منهم الزيادة، ووقع منهم التحريف اللفظي، هذه تدل على هذين الأمرين: الزيادة، أن يُدخل في كتاب الله ما ليس منه. وأيضًا: التحريف اللفظي.



قال المصنف رحمه الله:

وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًىٰ لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام:٩١].



قال الشارح وفقه الله:

هذا هو الكتمان والإخفاء والنقصان.



قال المصنف رحمه الله:

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَىٰ اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [آل عمران:٧٨-٧٩].

قال الشارح وفقه الله:

هذه الآية -أيضًا- فيها دليل على التحريف اللفظي والمعنوي، وذلك أن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ [آل عمران:٧٨] قال جماعة من السلف كمجاهد وقتادة والربيع بن أنس والشعبي وغيرهم من المفسرين: (يَلْوُونَ) أي: يحرفون.

وتدل الآية -أيضًا- على -إضافة إلى التحريف- الزيادة في كتاب الله، لأنه قال بعد ذلك: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٨]، وهذا يشمل -أيضًا- الزيادة.

ويُحتمل أن قوله: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ [آل عمران:٧٨] أنهم كانوا يتلون غير التوراة وما بأيديهم من هذه الكتب باللّحون التي كانوا يقرؤون بهذا التوراة حتى يوهموا الناس أنها من كلام الله.

أقول: قوله: ﴿ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ ﴾ [آل عمران:٧٨] يحتمل أن يكون المراد -أيضًا- أنهم كانوا يتلون غير الكلام الذي أنزل عليهم باللحون والأداء، معلوم أن تلاوة كلام الله عز وجل لها أداء ولها تلاوة ولها تغني، وهذا واقع عند أهل الإسلام وعند غيرهم أيضًا، فكانوا يخدعون الجُهَّال بأن يؤدوا ويتلوا هذا الكلام الذي لم يُنزل عليهم باللحون التي كانوا يتلون بها الكلام الذي أُنزل عليهم حتى يخدعوا هؤلاء الجهال.

فهذا مما تحتمله هذه الآية من المعنى، وهذا ما نص عليه -أيضًا- جماعة من أهل التفسير، والله أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة:١٥].

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

هذا -كما أسلفنا- فيه ما كانوا عليه من الإخفاء والكتمان والإنقاص من كتاب الله عز وجل.

والخلاصة بعد هذا العرض وهي التي ينبغي أن نتنبه لها: أن مِن الخطأ العظيم ظَنُّ أن هناك شيئًا من الخير في هذه الكتب التي بين أيدي أهل الكتاب -فضلًا عن غيرهم- ليس في كتاب الله، ولذا يُطلب ويُحرص على قراءته كما يفعل هذا من يفعل في هذا الزمان مع الأسف الشديد، وهذا خطأٌ وأيُّ خطأ.

قلنا: ميزة القرآن العظيم على الكتب السابقة من جهتين:

أولًا: من جهة أن القرآن محفوظ، وما سواه بُدِّل وغُيِّر.

الأمر الثاني: أن القرآن ناسخ وتلك منسوخة، فالواجب أن يعكف الإنسان على الناسخ، وأن يحرص على تدبره، وأن يعمل به، أما أن يدع هذا ثم يذهب يروم تلاوة وقراءة هذه الكتب التي بين أيديهم هذا خطأ عظيم، وأهل العلم لم يزالوا يشددون على هذا الأمر، حتى إن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ سئل عن قراءة كتب أهل الكتاب، فغضب وقال: هذه مسألة مسلم؟ كما ذكر ابن مفلح في الفروع عن

الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كيف يفعل هذا مسلم؟ يترك كتاب الله ويذهب يقرأ ما بأيدي أهل الكتاب؟ سبحان الله العظيم!

إذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد غضب على عمر وهو عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أعلم هذه الأمة بعد أبي بكر وأعرف الناس بمراد الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خير هذه الأمة بعد أبي بكر من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ومع ذلك يغضب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه رآه يقرأ أوراقًا من التوراة، ويقول: «أفي شكٍّ يا ابن الخطاب؟» أو يقول: «أمتهوكون يا ابن الخطاب؟ والله لقد جئتكم بها بيضاء نقية، والله لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي»، موسى الذي أُنزل عليه هذا الكلام، الذي أُنزل عليه التوراة التي هي التوراة ولم يدخلها شيء من التحريف ومع ذلك لو أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِث وهو حي -عليهما الصلاة والسلام- والله ما كان يَسَعُ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلا أن يتبع النبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

كيف يطلب الإنسان شيئًا من الهدى والخير من هذه الكتب التي بين أيديهم التي لو سَلِمت من التحريف والتبديل فإنها منسوخة، وكل ما فيها من خير كتاب الله عز وجل فيه الغُنية عنه، فكيف وفيها ما فيها من التبديل والتغيير، بل الكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولذلك ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول كما عند عبد الرزاق بإسناد حسن: «لا تسألوا أهل الكتاب، فلن يهدوكم وقد ضلوا»، يا أخي هؤلاء ضلال بنص كتاب

الله عز وجل، تريد الهداية من قِبَلهم ومن طريقهم ومن جهتهم؟ سبحان الله العظيم!

ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أخرج عنه الإمام البخاري في صحيحه كلامًا عظيمًا، قال رَحِمَهُٱللَّهُ: «كيف تسألون أهل الكتاب وعندكم كتابكم الذي أنزل على محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو أحدث، تقرؤونه محضًا لم يُشَب»، أحدث، هذا آخر كتاب أنزله الله على رسول، أحدث عهدًا بالله، تقرؤونه محضًا لم يُشَب، الحمد لله! ما دخله شيء، والله لكأنما نزل اليوم، كما أُنزل على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

«وقد أخبركم» يعني: النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أو القرآن، «أن أهل الكتاب قد بدَّلوا وغيَّروا، وكانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، أفلا ينهاكم العلم عن أن تسألوهم»، ما أحسن هذا الكلام! وما أجمعه للخير! وما أدفعه للشبهة في هذا الباب!

اليوم مع هذه الثورة المعلوماتية وكثرة التواصل، وسائل التواصل بين أيدي الناس وجدنا من ناشئة المسلمين -مع الأسف الشديد- من يقول: أريد أن أنزِّل الكتاب المقدس، أو ما يسمونه الكتاب المقدس، يقول: أنزِّله وأقرأ، إيش فيها؟ ليس فيها شيء، يا أخي هذا حب استطلاع، لماذا تكممون الأفواه؟ لماذا تمنعوننا من أن نقرأ في هذه الكتب؟ لا إله إلا الله! أيُّ فتنة هذه؟! وأيُّ ابتلاءٍ هذا؟!

بل والله وجدت بعضهم يغرِّد، من أبناء المسلمين، مسلم أبًا عن جد، تجد أنه يغرِّد -كما يقولون: تغريد- يغرد بقطعة ويحيلها إلى السِّفْر الفلاني والإصحاح الفلاني من هذا الكتاب، يقول: قطعة، انظر، كما تفعل أنت حينما تغرد أو تتلو أو تضع شيئًا من كتاب الله أو حديثًا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هؤلاء يضعون شيئًا، يقول لك: هذا جزء من الكتاب المقدس، اقرأ واستفد وتدبر وانتفع. سبحان الله! أفي شك نحن؟ أمتهوكون؟ راجعون بعد الهداية إلى الضلالة؟ ما الذي في هذا الكتاب من خير ليس في كتاب الله عز وجل وهو صافٍ نقي محض، ما شابه أيُّ شائبة والحمد لله رب العالمين، نَدَع ذلك ونذهب نتتبع ما عند أهل الكتاب؟ مع الأسف الشديد! فلا شك أن هذا من الخطأ العظيم، ومن بلايا هذا الزمان، ومن أسباب انفتاح هذا الأمر.

بعض الناس ربما تجد أنه يدخِل في بيته قنوات من هذه القنوات التي عند أهل الكتاب، التي هي ليل نهار تتلو.. ورأيت هذا بنفسي، بعض الجهال يقول: نتفرج، نسمع، قنوات مثل القنوات التي تتلو كتاب الله عز وجل والناس تشغلها في البيوت، هناك قنوات لهم، أربعة وعشرين ساعة وهي تتلو ما عندهم في كتبهم، وصاحبنا يقول: إيش فيها؟ نقرأ.

ولا شك أن هذا من الأمر المحرم الواضح التحريم، وقد نقل جماعة من أهل العلم الإجماع على تحريم قراءة ما بأيدي أهل الكتاب، ولا يُستثنى من هذا إلا حالة واحدة يجتمع فيها أمران:

الأمر الأول: أن يقرأ عالمٌ متمكن في العلم.

ثانيًا: لمصلحة شرعية. فقط هذا الذي يُستثنى، يحتاج أن يقرأ ليقيم الحجة على أهل الكتاب، ليرد عليهم، وعنده من العلم ما يزيل عنه -بإذن الله ورحمته- عوادي هذه الشُّبَه لا بأس، أما ما عدا ذلك غِرٌّ شاب جاهل بكثير من دينه، لا يفقه إلا النزر اليسير من دين الإسلام ثم يذهب يتتبع ما عندهم ويقول: هذا من الثقافة؟ بل هذا والله من الانحراف ومن الخذلان، الله ما أمرنا في كتابه إلا أن نتلو كتابه، ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف:٢٧]، هذا الذي أمرنا الله عز وجل بتلاوته، هذا الذي أمرنا الله باتباعه، ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٣]، ما قال الله: اتبعوا الكتب التي بين أيدي أهل الكتاب، لا والله، يكفينا كتاب الله، وحسبنا سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا حاجة بنا إلى ما سوى ذلك، الهدى والله لن تجده يا عبد الله، يا من شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله لن تجد هدىً إلا من طريق محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كل الطرق إلى الله عز وجل مسدودة إلا من طريق

هذا النبي الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال جل وعلا: ﴿ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ [سبأ:٥٠]، هذا هو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهكذا أمته من بعده.

هذا ما يتعلق بهذا الفصل وهو المتعلق بالإيمان بالكتب، وبعد ذلك تكلم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الركن الرابع من أركان الإيمان وهو الإيمان بالرسل.



قال المصنف رحمه الله:

فصل

ونؤمن بأن الله تعالىٰ بعث إلىٰ الناس رسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علىٰ الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزًا حكيمًا.

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الكلام عن الركن الرابع من أركان الإيمان وهو: الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام.

ومن المعلوم من الدين بالضرورة: وجوب الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام، بل هذا ركن من أركان الإيمان، كما بيَّن هذا النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جبريل المشهور.

والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة، ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥].

والنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء عنه أحاديث كثيرة في هذا المقام، ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن صياد حينما قال النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آمنت بالله ورسله».

والكفر بالرسل عليهم الصلاة والسلام كفر عظيم، بل أولئك الكافرون بالرسل هم الكافرون حقًا، كما بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٠=١٥٢]، هذا حال المؤمنين، وهذا باب عظيم من أبواب اكتساب الأجور ومغفرة الذنوب.

العقيدة الصحيحة يظن بعض الناس أنها شيءٌ واجبٌ على الناس ولكن لا يقصد من وراء ذلك تحصيل الأجر العظيم ومغفرة الذنوب، ربما يتوهم أن هذا في فضائل الأعمال، ولكن هذه الآية تبين أن أصحاب العقيدة الصحيحة الذين يؤمنون بالله ورسله حقًا أولئك الذين ينالون الأجر العظيم من الله عز وجل، وأولئك أهل مغفرة الذنوب تفضلًا من الله تبارك وتعالى.

الشاهد: أن أهل الإيمان يؤمنون بالرسل ولا يفرقون بين أحد منهم، بخلاف الكفار الذين هم بين تكذيب الرسل جميعًا وعدم الإيمان بهم كلهم، وبين الذين يفرِّقون بينهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، كحال أهل الكتاب وغيرهم من الكفار الذين يزعمون أنهم يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعضهم، ومن أولئك نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنهم لو آمنوا به الإيمان الصحيح لكانوا مسلمين.

المقصود: أن الإيمان بالرسل ركن ركين وأصل أصيل من أصول الإيمان.

وقبل أن نتكلم عن الإيمان بالرسل وكيف يكون، وما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من مسائل في هذا الباب؛ أمهِّد بذكر أربع مسائل ممهدات:

۞ المسألة الأولى: أن حاجة العباد إلى النبوة والرسالة أعظم الحاجات، فإنه لا ثبات لهذا العالَم إلا بآثار النبوة، لا أقول: إن الناس حاجتهم إلى النبوة والرسالة كحاجتهم إلى الشمس، أو إلى الطعام أو إلى الماء أو إلى النَّفَس، كلا، إنما حاجتهم أعظم من ذلك بكثير، فالدنيا ملعونة، والقلوب مظلمة، والعقول ضالة إلا ما طلع عليه شمس الرسالة واستنار بنور النبوة. هذا هو الحق الذي لا شك فيه، حاجة العباد إلى هذه الرسالة التي يمتن الله عز وجل بها على العباد أعظم الحاجات على الإطلاق.

ولذا إذا كسفت شمس النبوة، وطُمِست أعلامها، واندرست آثارها من الأرض؛ هنا يخرب العالم، تُكوَّر الشمس، ويُخسف بالقمر، وتتشقق السماء، وتنتثر النجوم، ويخرب العالم، فلا قيام لهذا العالم إلا ببقاء آثار النبوة والرسالة فيه، فالنبوة من أعظم نِعَم الله.

نعمة وأيُّ نعمة، ومِنَّة وأيُّ مِنَّة أن بعث الله عز وجل النبيين من أنفسنا معشر. الناس مبشرين ومنذرين، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، إي والله! الأنبياء والرسل عليهم الصلاة

والسلام هم الذين يخرجون الناس من الظلام الدامس إلى أنوار الهداية، ولذا يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم:١]، ويقول لموسى عليه السلام: ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم:٥].

إذن: الناس في ظلام، نَعَم، في ظلام الضلال والانحراف والغواية إلا مَن مَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه بالاهتداء بنور النبوة، ولذلك كانت أعظم النعم من الله عز وجل، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

عند الدارمي والبيهقي في الشُّعَب وغيرهما بأسانيد مرسلة وموصولة، والحديث لا بأس به، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما أنا رحمة مهداة»، إي ورب السماء! إن نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمة مهداة إلى الناس، وهكذا كان حال الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام في أزمانهم، كانوا رحمة من الله عز وجل، مهداة إلى الناس في تلك الأوقات.

۞ المسألة الثانية: معتقد أهل السنة والجماعة في النبوة ينتظم أمرين:

◉ أولًا: أنهم يعتقدون أن النبوة اصطفاء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يمكن الوصول إليها إلا باجتباء واصطفاء من الله جل وعلا، ولا يمكن البتة أن يوصل إليها بأي وسيلة من العبد، مهما ارتاض برياضات يزعم أنها روحانية، مهما عكف في مكان مظلم، مهما تخلَّق وحسُنت آدابه وأخلاقه، مهما أكثر من الأذكار، مهما

فعل فإنه لا يمكن أن يصل إلى النبوة أو الرسالة، إنما يكون ذلك اصطفاءً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا غير، ولذا يقول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].

إذن: القضية اصطفاء من الله عز وجل. وهذا الاصطفاء قد انتهى بعد اصطفاء الله عز وجل نبيه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا مطمع للوصول إلى هذه الرتبة المنيفة بعد بعثة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

◉ الأمر الثاني: أن الله عز وجل إنما يصطفي لهذه الرتبة الشريفة مَن هو من أمثل الناس، خير الناس في أزمانهم وأماكنهم هم من يصطفيهم الله عز وجل لهذه الرتبة وهذا الشرف العظيم.

ومن عرف ذلك عرف أن مذهب أهل السنة والجماعة في هذا المقام وسط بين انحرافين:

◉ الأول: الذي يقول: إن النبوة أو الرسالة شيء يُكتسب، بمعنى: أن من راض نفسه برياضات، وعكف في أماكن مظلمة، واستعمل بعض الأمور؛ فإنه يمكن أن يصل إلى رتبة النبوة والرسالة. وهذا لا شك أنه ضلال مبين.

◉ والانحراف الثاني: انحراف من زعم أن الله عز وجل يمكن أن يبعث رسولًا نبيًا أيَّ أحد ولو كان أفجر الناس، ولو كان أفسق الناس. ولا شك أن هذا

غير صحيح، بل هذا منافٍ لحكمة الله عز وجل، ولذا يقول الله سبحانه: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام:١٢٤].

فالله عز وجل إنما يصطفي ويختار خير الناس في مجتمعاتهم وأممهم، فهم قبل النبوة والرسالة خيار، أناس يُعرفون بالصلاح وحسن الأخلاق، ثم يزداد شرفهم شرفًا بعد أن يَمُنَّ الله عز وجل عليهم بالوحي والاصطفاء.

إذن: هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة في مسألة النبوة باختصار.

۞المسألة الثالثة: وظيفة الرسل: إقامة الحجة على العباد، وهذا يتفرع إلى ثلاثة أمور:

أولًا: تعريف العباد بربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذه الأمور الثلاثة التي أذكرها عليه مدار وظيفة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

◉أولًا: أن يعرِّفوا العباد بربهم ومعبودهم وخالقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما له من حق العبودية عليهم، وما يستحقه من صفات الكمال ونعوت الجلال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

◉ الأمر الثاني: تعريف العباد بالطريق الموصل إلى مرضاة الله عز وجل، كيف يعبدون الله فيرضى عنهم، وما هي الأمور التي يبغضها ويكرهها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيدعونها ويجتنبونها حتى ينالوا محبة الله عز وجل ورضوانه؟

◉ الأمر الثالث: تعريفهم بالجزاء، ما جزاء من استجاب وما جزاء من أعرض.

إذن: هذه الأمور الثلاثة عليها مدار وظيفة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام في أممهم.

۞ الأمر الرابع: أن الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام متفقون ومختلفون، متفقون في أربعة أمور: في أصول العقائد، وأصول العبادات، وأصول الأخلاق، والحفاظ على الضروريات. أربعة أمور، هذا قَدْر مشترك متفق عليه بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وهم مختلفون في تفاصيل الشرائع، ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨]، فتفاصيل الشرائع لا شك أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام متفاوتون فيها بحسب ما يوحي الله عز وجل إليهم، والله جل وعلا حكيم.

إذن: هذه المسائل الأربع تمهِّد لنا البحث فيما نحن بصدده وهو: كيف يكون الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام؟

الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام يشمل تحقيق خمسة أمور:

۞ أولًا: اعتقاد أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام، فيؤمن العبد بهم إجمالًا وتفصيلًا.

أما التفصيل: فيؤمن بأعيان من سُمِّي لنا في الكتاب والسنة، ففلان يُعتقد أنه نبي، وفلان يُعتقد أنه نبي، وهلم جرا، إلى آخر من سُمِّي لنا في الكتاب والسنة، ومَن عداهم فيؤمَن بهم إيمانًا إجماليًا، لأن الله عز وجل لم يبين لنا في كتابه وهكذا نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلَّ الأنبياء والمرسلين، إنما علمنا منهم بعضًا، بل علمنا منهم القليل، وخُزِن عنا علمُ الأكثر، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيَّن هذا في كتابه، بيَّن لنا فيما يتعلق عن الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام فقال: ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر:٧٨]، فمن علمنا وسُمِّي لنا بأعيانهم هؤلاء يجب الإيمان بهم تفصيلًا، ومن لم نُعلَم باسمه ولم نعرفه على وجه التعيين فإننا نؤمن بذلك إيمانًا إجماليًا.

ولا شك أن الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام كُثُر، ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر:٢٤]، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

إذن: الأنبياء والرسل لا شك أنهم كُثُر.

وقد جاء في صحيح ابن حبان من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ذِكْر عدة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنهم يبلغون أربعة وعشرين ألفًا ومائة ألف، مائة وأربعة وعشرون ألفًا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

كما ثبت في هذا الحديث أن الرسل منهم ثلاثمائة وبضعة عشر.

وفي حديث آخر عند ابن حبان: أنهم ثلاثمائة وخمسة عشر.

وهذا الحديث محل بحث عند أهل العلم، منهم من صححه، ومنهم من حسنه، ومنهم من ضعفه ورأى أن هذا الباب لا يصح فيه شيء، والمقام -على كل حال- يحتاج إلى تفصيل كثير.

والذين سُمُّوا لنا في القرآن -كما قال أهل العلم- خمسة وعشرون، منهم ثمانية عشر. ذُكِروا لنا على نسق واحد في سورة الأنعام، في قول الله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ [الأنعام:٨٣] إلى آخره.

في تلك حجتنا منهم ثمانية　　　من بعد عشر ويبقى سبعة

إدريس هود شعيب صالح　　　ذو الكفل آدم بالمختار قد

صلى الله على نبينا وسلم وعلى الأنبياء والمرسلين.

هؤلاء خمسة وعشرون الذين سُمُّوا في القرآن، ويبقى البحث بعد ذلك في عزير عليه السلام هل هو نبي؟ إذا كان نبيًا فإن العدد يكون حينئذٍ ستة وعشرين، وإذا قيل: إنه رجل صالح فإنه لا يكون داخلًا في ذلك، والمسألة محل خلاف بين أهل العلم.

ايضًا هناك من سُمِّي لنا في السنة زيادة على مَن في القرآن، من ذلك: يوشع بن نون، كما جاء في مسند أحمد بإسناد صحيح: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حبس الشمس له أثناء مسيره إلى بيت المقدس، والشمس إنما حُبست لنبي من الأنبياء كما بيَّن هذا

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إجمالًا، وأنه لنبي من الأنبياء كما ثبت في الصحيحين، وتفسير ذلك في مسند أحمد وأنه يوشع عليه السلام.

أيضًا: الخضر عليه السلام، فالصحيح من قولي أهل العلم أن الخضر كان نبيًا، والمسألة محل خلاف بين أهل العلم.

كذلك يذكر كثير من أهل العلم: أن شيثًا نبي من الأنبياء، والمذكور في كتب التاريخ والسير أنه ابن آدم المباشر، وأن جميع البشر من نسله، بقية إخوته ما كان لهم عقب، إنما كل البشر من نسل شيث بن آدم عليهما الصلاة والسلام كما يذكر أهل العلم.

والتنصيص على أن شيثًا كان نبيًا شيء مشهور وكثير جدًا في كتب أهل العلم: في كتب التفاسير، وفي كتب التواريخ، وفي كتب شروح الحديث، ولا أعلم دليلًا على هذا إلا ما جاء في حديث ابن حبان من حديث أبي ذر الطويل، وهو حديث ضعيف لا شك في ضعفه، وإن مال إلى تقويته بعض أهل العلم، لكن الصواب أنه حديث لا يصح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المهم أن في هذا الحديث أن شيثًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُنزل إليه خمسون صحيفة، ولكن هذا -كما أسلفت- ضعيف، فلا أعلم دليلًا واضحًا وصحيحًا صريحًا على نبوة شيث عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولكن هذا -كما ذكرت لكم- مشهور في كتب أهل العلم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم.

۞ الأمر الثاني : مما يتضمنه الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام: التصديق بما ثبت لهم من أخبار وفضائل ومعجزات في الكتاب والسنة، فمن الإيمان بالرسل: أن يصدق العبد بكل ما جاء في النصوص، في الكتاب وصحيح سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أخبارهم وفضائلهم ومعجزاتهم عليهم الصلاة والسلام.

وما من شك أن الكتاب والسنة مليئان بأخبار الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وما كان لهم من الفضائل والمحاسن والآيات والبراهين والمعجزات، فكم في النصوص من خبر عن إبراهيم عليه السلام وعن نوح عليه السلام وعن موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فكل شيء يصل العبد من أخبارهم بطريق صحيحة فإنه واجب عليه أن يصدق بذلك.

أما ما روي في شأن أحدٍ منهم في كتب أهل الكتاب فإنه إن كان ظاهر البطلان، دل الكتاب والسنة على بطلانه فإنه واجبٌ تكذيبه، يجب تكذيبه، وهذا مما ننبه عليه أو ننبه في شأنه فيما يتعلق بما ذُكِر: أن ما في أيدي أهل الكتاب إذا بلغنا علمه فإننا لا نصدقه ولا نكذبه، لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بما أُنزل إلينا وأُنزل إليكم»، لكن يُستثنى من هذا ما إذا تبين لنا بدليل الكتاب والسنة أن ما في كتبهم باطل،

هذا مما يجب تكذيبه، وقد ذكرت لك نماذج من الأمور الباطلة الواقعة في كتبهم، فهذا مما يجب الجزم بتكذيبه وأنه باطل.

إذن: ما ثبت عندنا من أخبارهم وما يتعلق بهم فإنه يجب التصديق بذلك.

الأمر الثالث من الإيمان بهم: تعظيمهم وإجلالهم وتقديرهم عليهم الصلاة والسلام، الأنبياء جميعًا حقهم الإجلال والتكريم والتعظيم، والمقصود بالتعظيم: التعظيم الشرعي لا أن يُرفعوا فوق رُتَبهم.

وينبني على هذا: أن المسلمين مجمعون على أن مَن سب نبيًا ثبتت نبوته، أو استهزأ به؛ فإنه كافر مرتد، أجمع المسلمون على أن من سب أيَّ نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثبتت نبوته، أو أنه سخر واستهزأ به بأي نوع من أنواع السخرية والاستهزاء: بلسان، بكتابة، بإشارة؛ فلا شك في أنه يكون بذلك كافرًا مرتدًا، والعياذ بالله!

الأمر الرابع الذي يتعلق بالإيمان بهم: اعتقاد أنهم أفضل البشر، وأنهم متفاضلون فيما بينهم، كلهم فاضل، وبعضهم أفضل من بعض، وهذا ما بيَّن الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [الإسراء:٥٥]، ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وقد يقول قائل: وماذا نصنع بقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثابت في الصحيحين: «لا تخيروا بين الأنبياء»؟

والجوب عن ذلك أن يُقال: إن التأليف والجمع بين النصوص لابد منه، وهذا أولى من مسلك من سلك مسلك النسخ، والجمع -بحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- متيسر، فإن المقصود بذلك: أنه لا تجوز المفاضلة بما يقتضي انتقاص المفضول، النهي عن المفاضلة وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تخيروا بين الأنبياء» النهي هاهنا يتعلق بتفضيلٍ وتخيير يتضمن انتقاص المفضول، وإنما الواجب حينما يُفضَّل بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن تُحفظ مكانة المفضول.

إذا قيل: إن نبيًا هو فلان أفضل من فلان؛ فإن المفضول ليس ناقصًا، وإنما هو فاضل لكن ذاك أفضل وأكمل منه.

أو -وهو جوابٍ ثانٍ- أن يقال: إن النهي عن التفضيل بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبيل العقل والاجتهاد، إنما الواجب أن نتبع في ذلك الخبر، الله عز وجل هو الذي فضَّل بعضهم على بعض، ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا ﴾ [البقرة:٢٥٣] الأمر راجع إلى الله عز وجل، أنتم لا تفضلوا من عند أنفسكم، إنما اتبعوا في هذا ما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به.

إذا تبين لنا هذا فإن تحرير المقام في المفاضلة بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يمكن أن نحصره في ستة أمور:

❁ أولًا: أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أفضل من جميع الأولياء فضلًا عمن دونهم من الناس، وهذا إجماع قطعي لا شك فيه، كل فرد فرد من

الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أفضل من كل واحد من الأولياء مهما عَلَت رتبته، وهذا إجماع لا شك فيه.

۞ الأمر الثاني: أن أهل العلم قد نصوا على أنه لا خلاف في أن الرسل أفضل من الأنبياء الذين ليسوا رسلًا، وهذا نُفي فيه الخلاف عند أهل العلم، بمعنى: القاعدة في هذا المقام هي أن هناك فرقًا بين الأنبياء والرسل، هذا هو الصحيح الذي لا شك فيه، وعليه النص، وعليه جماهير أهل العلم أن هناك فرقًا بين النبي والرسول.

والتحقيق في هذا: أن الرسالة أعمُّ من النبوة ، وعليه؛ فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا، كل رسول فهو يجمع بين كونه رسولًا ونبيًا، ولا يلزم أن يكون كل نبي رسولًا، إذن: الرسالة أعم والنبوة أكثر، فالأنبياء أكثر من المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

ويبقى البحث بعد ذلك في مسألة طويلة الذيل جدًا، والخلاف فيها طويل، وليس فيها قاطع فيما يظهر والعلم عند الله عز وجل، وهي: ما الفرق بين النبي والرسول؟ ذُكِرت أشياء كثيرة عند أهل العلم، وفي هذا المقام أخذٌ ورد.

ولعل أقرب ما يمكن أن يقال في هذا المقام هو: أن الرسول من بُعِث إلى قوم مخالفين في الجملة، والنبي من بُعِث إلى قوم موافقين في الجملة، هذا أقرب ما يمكن أن يقال في هذا المقام، وتحت هذه المسألة بحث طويل.

۞ الأمر الثالث: أن أولي العزم من الرسل أفضل الرسل، يعني: أفضل بقية الرسل عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: لا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم أفضل من بقية الرسل. نفى الخلاف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين أهل العلم في هذه المسألة.

فأولوا العزم من الرسل أفضل هؤلاء الرسل، هم الصفوة من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

واختلف أهل العلم في تعيين أولي العزم من الرسل، والجمهور وهو المروي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهم من السلف: أنهم الخمسة الذين ذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأحزاب وذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الشورى، وهم الذين جاء فيهم -أيضًا- حديث الشفاعة، إضافة إلى آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي هو أبو البشر، وسنتكلم عنهم بعد قليل إن شاء الله: نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح عليهم الصلاة والسلام.

۞ المسألة الرابعة: أن نبينا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أفضل أولي العزم من الرسل، وهذا إجماع قطعي لا شك فيه، والأدلة عليه كثيرة جدًا. النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل أولي العزم من الرسل، وعليه؛ فهو أفضل الرسل، وعليه؛ فهو أفضل الأنبياء، وعليه؛ فهو أفضل البشر. عليهم الصلاة والسلام، وهذا شيء لا شك فيه ويعلمه كل مسلم.

۞ الأمر الخامس: أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أفضل أول العزم من الرسل بعد نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما دل على هذا ما ثبت في حديث أنس في الصحيحين: أن رجلًا قال للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا خير البرية، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ذاك إبراهيم عليه السلام»، فهو خير البرية، ويُستثنى - بالإجماع- نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا شك أنه أفضل منه.

ونقل بعض أهل العلم الإجماع على ذلك، كما حكاه السيوطي وغيره أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له الرتبة في الفضل بعد محمدً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

۞ المسألة السادسة : هي في البحث والتفضيل بين الثلاثة الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام البقية من أولي العزم من الرسل: موسى وعيسى ونوح عليهم الصلاة والسلام. والمسألة فيها بحث طويل، وأشهر الأقوال فيها ثلاثة:

القول الأول: هو التوقف وعدم التفضيل بين هؤلاء الثلاثة، إنما نقول: أفضلهم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم إبراهيم ثم بعد ذلك نسكت عن التفضيل، موسى وعيسى ونوح الله أعلم من الأفضل فيهم لعدم ورود الدليل القاطع.

القول الثاني: تفضيل موسى على عيسى ونوح عليهما الصلاة والسلام والتوقف فيهما، نقول: الرتبة الثالثة لموسى عليه السلام، وأما بعد ذلك نقول: نوح وعيسى بدون مفاضلة بينهما، وهذا ما نحا إليه جماعة من أهل العلم، وهو الذي نص عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما سيأتي في كلامه إن شاء الله.

القـول الثالـث: أن يفاضـل بيـنهم بـالقول بـأن موسـى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ هـو الأفضل ثم عيسى ثم نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وهذا ما مال إليه بعض أهل العلم، وفي هذا يقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فتح الباري: إنه لم يقف على نقل في التفضيل بين هؤلاء الثلاثة لكن الذي ينقدح في النفس تفضيل موسى ثم عيسى ثم ..... عليهم الصلاة والسلام، والله عز وجل أعلم.

۞ الأمر الخامس مما يتضمنه الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام: اتباع سيدهم وخاتمهم محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ما يتعلق بالإيمان بالرسل في المسائل السابقة يتعلق بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أما هذا الأمر الأخير فإنه مختص بالنبي محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يا معشر أمته، فإن الاتباع والعمل ليس إلا لشريعة محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما جاء به، فواجبٌ على كل من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله أن يطيع هذا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فيما أمر، وأن يصدقه فيما أخبر، وأن يجتنب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع. وهذا من العلم المعلوم من الدين بالضرورة، من دين الإسلام، الاتباع إنما هو للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بل إن الله عز وجل قد أخذ العهد والميثاق على جميع الأنبياء والمرسلين أنه لو بُعِث النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم أحياء أن يتبعوه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ومر بنا

الحديث الذي في مسند أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ في درس البارحة: «لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي».

إذن: هذه جملة ما يجب على العبد من الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام، وثمة مسائل وتفاصيل تعرض لها المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ فيما ذكر في هذه النبذة، ولعلنا نؤجل هذا .



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن الله تعالىٰ بعث إلىٰ الناس رسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علىٰ الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزًا حكيمًا.

ونؤمن بأن أولهم نوح وآخرهم محمد صلىٰ الله عليهم وسلم أجمعين، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء:١٦٣]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

قال الشارح وفقه الله:

فقد مضى شيء من الحديث في الدروس الماضية يتعلق بركن الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هاهنا يبين أن الله تعالى بعث إلى خلقه رسلًا، وفي النسخة التي عندكم: (بعث إلى الناس)، وهذه أجود؛ لأن الرسل الصواب من كلام أهل العلم أنهم ما بُعِثوا إلى جميع الخلق، كالملائكة عليهم الصلاة والسلام، إنما بُعِثوا إلى الثقلين: الجن والإنس.

وكذلك الخلْق الذين لا عقل لهم، كالجبال والأرض والشمس والقمر - أيضًا- هذه لم تكن مكلَّفة، فلم يتعلق بها إرسال الرسل، التعبير بقوله: (الناس) لا شك أنه.. أو بعث إلى الناس فلا شك أن هذا أجود من النسخة التي فيها: بعث إلى خلقه.

ثـم بـيَّن أن أهـل السـنة يؤمنـون أن أول الرسـل نـوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأن آخرهم محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستدل على الشطر الأول من هذه الجملة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء:١٦٣]، فدل هذا على أن نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو أول الرسل.

ويدل على هذا صريحًا ما ثبت في الصحيحين في حديث الشفاعة من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الناس إذا أتوا إلى آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يطلبون منه أن يشفع عند الله عز وجل، فإنه يقول لهم: «اذهبوا إلى نوح أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض». وهـذا يقولـه آدم النبـي المكلَّـم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يقـول عـن نـوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إنه أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض».

وفي حديث الشفاعة -أيضًا- في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن الناس إذا أتوا إلى نوح عليه السلام بعد آدم يقولون: «إنك أول رسول إلى أهل الأرض»، فدل هذا على أن نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أول رسول إلى أهل الأرض.

وأما ما يتعلق بآدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا شك أنه متقدم زمنًا على نوح، بل هو أبو البشر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فالجواب عما قد يُستشكل من أولية آدم على نوح أن يقال: إن آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان نبيًا ولم يكن رسولًا.

أو يقال -وهذا جواب لبعض أهل العلم-: إن نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أول رسول إلى أهل الأرض بعد وقوع الشرك، وأما ما قبل نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإن الناس كانوا على التوحيد وعلى شريعة من الحق، والله عز وجل أعلم.

أما الشطر الثاني فهو كون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم الأنبياء والمرسلين، فاستدل عليه بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، فهذا دليل صريح على أنه آخر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد يقول قائل: أين الدليل على أنه خاتم المرسلين؟ الآية فيها أنه خاتم النبيين، فما الجواب؟ نحن تبين لنا فيما مضى أن العلاقة بين النبوة والرسالة هي: أن الرسالة أعم من حيث ذاتها، والنبوة أخص، وأن الرسالة أخص من حيث أهلها، والنبوة أعم، الرسالة من حيث ذاتها أعم، ومن حيث أهلها أخص، والعكس بالنسبة للنبوة.

وبناءً على هذا فإذا انتفت النبوة عن أحد بعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمن باب أولى أن تنتفي الرسالة، لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا، فبالنظر إلى كون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم النبيين فمن باب أولى أن يكون خاتم المرسلين، فلا نبي بعده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولا شك أن هذا من المعلوم من الدين بالضرورة، والأدلة عليه متواترة، ومن ذلك قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ثبت

عنه في الصحيحين، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إنما مَثَلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بيتًا فأحكمه وأحسنه إلا موضع لبنة، فكان الناس يطوفون به ويُعجبون ويقولون: هلا وُضِعت هذه اللبنة؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»، به خُتِمت النبوة والرسالة، ولم يَعُد هناك أحد يوحى إليه من السماء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حيث يكون نبيًا أو رسولًا.

وكل من ادعى النبوة والرسالة بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا شك أنه كاذب، سواء ادعى أنه نبي مستقل أو ادعى أنه نبي تابع، كما يُشقشق به بعض هؤلاء الدجالين المفترين الكذبة في العصر الحديث، يقول: خاتم النبيين المستقلين، لكنه يزعم أنه نبي تابع للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكل ذلك كذب ولا شك، ومعلوم من الدين بالضرورة، ومن زعم أن أحدًا بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون له حظٌ وقسط من النبوة مهما كانت، يعني: كونه نبيًا ويوصف بكونه نبيًا ولو كان تابعًا فلا شك أنه مكذب للكتاب والسنة، وتكذيب الكتاب والسنة كفر باتفاق المسلمين، والله أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

وأن أفضلهم محمد ثم إبراهيم ثم موسىٰ ثم نوح وعيسىٰ ابن مريم عليهم الصلاة والسلام، وهم المخصوصون في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧].

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

مسألة التفضيل مضى الكلام فيها على وجه التفصيل، وذكرنا أن المقام فيها يتفرع إلى ست مسائل، وعرفنا أن أفضل الرسل عليهم الصلاة والسلام هم أولوا العزم من الرسل، وهم الخمسة الذين ذُكِروا مجموعين في موضعين في كتاب الله عز وجل، أحدهما هذا الذي بين أيدينا من سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ﴾ [الأحزاب:٧] بدأ بالنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ﴿وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب:٧].

وجاءوا -أيضًا- مجموعين في سورة الشورى في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى:١٣] كما سيذكر هذه الآية المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ عن قريب.

وكذلك جُمِعوا في أحاديث الشفاعة، إضافة إلى آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ باعتباره أبا البشر. فبدأ الناس به ثم عطفوا بعد ذلك على نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، ثم ذهبوا إلى النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصلى الله عليهم جميعًا وسلم.

فهؤلاء هم أولوا العزم من الرسل، وهم أفضل الرسل، وبالتالي هم أفضل الأنبياء، وبالتالي هم أفضل البشر. وما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ترتيبهم مضى الكلام فيه إن كنتم تذكرون، والله أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونعتقد أن شريعة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاوية لفضائل شرائع هؤلاء الرسل المخصوصين بالفضل، لقوله تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورىٰ:١٣].

قال الشارح وفقه الله:

لا شك أن شريعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جامعةٌ لمحاسن الشرائع، وفيها ما ليس في غيرها من الشرائع، سواء كان هذا في جانب العقيدة أو في جانب العبادة أو في جانب الأخلاق، فتفاصيل ما يرجع إلى صفات الله عز وجل أو ما يتعلق باليوم

الآخر وما شاكل هذه المسائل فلا شك أنه أوضح وأكثر وأشهر في كتاب الله عز وجل وفي سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما كان في الشرائع السابقة.

ونحن قلنا: إن شرائع المرسلين متفقة في حد ومختلفة في حد آخر، فأصول العقائد وأصول العبادات وأصول الأخلاق ومن جهة -أيضًا- المحافظة على الضروريات فهذه ولا شك شيء اتفق عليه جميع الأنبياء والمرسلين، ثم بعد ذلك حصل بينهم ما حصل من اختلافٍ بحسب اختلاف أزمانهم وأماكنهم، ولا شك أن الشريعة الخاتمة الصالحة لكل زمان ومكان منذ بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا شك أنها ستكون جامعة لجميع محاسن تلك الشرائع، ولذا يقول الله عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى:١٣] إلى آخره.

كذلك يقول جل وعلا: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ حَكِيمٌ﴾ [النساء:٢٦]، وهذا يدل على أن شريعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكمل الشرائع، وأن أتباع هذه الشريعة ليسوا بحاجة إلى ما يكملها من غيرها، فهي شريعة كاملة، شريعة جامعة، بلغت الغاية في تحصيل المصالح ودفع المضار، وجلب السعادة على الأفراد والمجتمعات، والله المستعان!



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن جميع الرسل بشر مخلوقون، ليس لهم من خصائص الربوبية شيء، قال تعالىٰ عن نوح عليه السلام -وهو أولهم-: ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود:٣١]، وأمر الله تعالىٰ محمدًا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو آخرهم- أن يقول: ﴿لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٥٠]، وأن يقول: ﴿لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ [الأعراف:١٨٨]، وأن يقول: ﴿إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢١-٢٢].

قال الشارح وفقه الله:

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن أهل السنة والجماعة يؤمنون بأن جميع الرسل بشر مخلوقون، ليس لهم من خصائص الربوبية، بل ولا من الألوهية شيء. وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا من أوضح الأشياء وأجلاها في كتاب الله وفي سنة رسوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بشر وإن كانوا أفضل البشر، هم من الناس في تكوينهم وفي خِلْقتهم، إلا أنهم تميزوا عن بقية الناس بما اصطفاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به وهو النبوة والرسالة.

وأما من حيث ذواتهم وخلقتهم وتكوينهم فلا شك أنهم في ذلك بشر، فبشريتهم ثابتة لا شك فيها، وهذا الذي نبه عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد جاء كثيرًا في كتاب الله عز وجل، وجاء -أيضًا- في كتاب الله كثيرًا التنبيه على أن بشرية الرسل عليهم الصلاة والسلام كانت من أعظم الأسباب التي لأجلها أعرض الكفار عن اتباع الرسل، ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء:٩٤]، البشرية والرسالة عند القوم لا يجتمعان، هذا الذي يقول: إنه رسول، إما أن يكون بشرًا وإما أن يكون رسولًا، إما أن يجمع بين الوصفين فهذا عندهم مستحيل، ولذلك كانوا يواجهون الرسل عليهم الصلاة والسلام بهذه الجملة ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ [إبراهيم:١٠] ، يقولون ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ،كانت مسألة البشرية عندهم مسألة عائق عن قبولهم دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ولذلك قالوا: ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم:١٠]، بأيِّ شيء ردت الرسل عليهم الصلاة والسلام؟ ردوا ببيان الحق وما هم عليه -عليهم الصلاة والسلام-: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ [إبراهيم:١١]، في البشرية والخلقة نحن سواء، لكن التميز كان في شيء آخر: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم:١١]، هنا حصل الافتراق، صار هناك قدْر فارق، هناك قَدْر مشترك وهناك قَدْر فارق، القَدْر المشترك بين الرسل وبقية الناس: البشرية، والقَدْر الفارق: هذا الذي مَنَّ الله عز وجل عليهم به وهو النبوة والرسالة، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم:١١].

فهذا هو الحق المبين في هذا المقام، ولا شك أن هذا من عُتوٍّ وتكبُّر الكفار، كيف نطيع بشرًا مثلنا؟ ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون:٣٤].

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ﴾ [المؤمنون:٢٤] النبوة تصلح وتليق بالملائكة، لكن لا تصلح ولا تليق بالبشر، ولا شك أن هذا -كما أسلفت- باطل من القول، ولذا أمر الله عز وجل نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يبين حقيقة بشريته، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ [فصلت:٦] هذا القَدْر المشترك بيني وبينكم، ثم نبَّه على القَدْر الفارق: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [فصلت:٦] هنا حصل الاختلاف أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يوحى إليه وبقية الناس لا يوحى إليهم، الذين بُعِث فيهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولذا كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وإخوانه من المرسلين يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، كانوا يولدون، كانوا يتزوجون، كانوا يأكلون ويشربون، كانوا يضحكون، وكانوا يحزنون، وكانوا يفرحون، وكانوا يغضبون، وكانوا كبقية البشر في أمور خِلْقتهم ومعاشهم، ما كان هناك فرق بينهم وبين بقية الناس، اللَّهم إلا في أشياء اختصوا بها: نبوة الله عز وجل ورسالته وما يتبع ذلك.

فالنبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ -مثلًا- اختص بالرسالة عن بقية الناس، واختص عن بقية الناس -أيضًا- بكونه تنام عيناه ولا ينام قلبه، بكونه -أيضًا- يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه، إلى أشياء أخرى واردة في النصوص، كما أنه اختص عن بقية

الرسل عليهم الصلاة والسلام بأمور، فدل هذا على أن القَدْر المشترك بين الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ثابت، والقَدْر الفارق -أيضًا- ثابت، أما ثبوت شيء من وصف الإلهية أو الربوبية لأحد من الرسل فلا شك أن هذا من أبطل الباطل ومن أنكر المنكرات، بل هذا من الكفر المبين، نعوذ بالله من الكفر ومن حال أهله!

والحق الذي لا شك فيه هو ما نطقت به آيات القرآن، ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٣]، انتهت القضية، ولذلك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما في الصحيحين يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله».

ولاحظ ما أحسن هذه الجملة: «ولكن قولوا: عبد الله ورسوله» فإن هذه الجملة فيها ردٌّ على طرفي الضلال: على الجفاة وعلى الغلاة الذين أنكروا رسالة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فالرد عليهم في قوله: «ورسوله».

والغلاة الذين زعموا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ له شيء من خصائص الربوبية أو الإلهية، فالرد على هؤلاء بقوله: (عبده)، «إنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله»، فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عبدٌ لا يُعبد، ونبي لا يُكذَّب، بل يُطاع ويُتَّبع عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

والعجيب أن الغلاة من القبوريين وأضرابهم يشتركون مع المشركين الأولين في قَدْر ويختلفون في قَدْر، كلا الفريقين تدَّعي أن البشرية والرسالة لا تجتمعان، المشركون والغلاة اتفقوا على أن البشرية والرسالة لا تجتمعان، هذا قَدْر مشترك بين الفريقين.

ثم انفصلوا في قَدْر فارق، فما كان من المشركين إلا أنهم كذَّبوا بالرسالة وأثبتوا البشرية، فجاء المشركون المعاصرون القبوريون فعكسوا القضية، أثبتوا الرسالة ولكنهم كذبوا بالبشرية، فأثبتوا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا -وإن شئت فقل: كثيرًا- من خصائص الألوهية والربوبية له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُنبه على بيان الحق في هذا المقام بلسانه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وفيما يتلوه من كلام ربه الذي أوحاه إليه.

في الصحيحين يقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث سهوه في الصلاة، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إنما أنا بشر مثلكم، أذكر كما تذكرون، وأنسى كما تنسون**».

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما في الصحيحين: «**إنما أنا بشر مثلكم، ولعلكم تختصمون إلي، فيكون بعضكم ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فإنما هي قطعة من النار**»، يقول: أنا بشر مثلكم، وهؤلاء يقولون: لا، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس بشرًا مثلنا، ومن قال: إنه بشر مثلنا فقد انتقص النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هكذا يزعمون.

ما النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندكم؟ يقولون: مختلف، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُلِق من نور، بقية البشر خُلِقوا من تراب، من طين، أما النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُلِق من نور، ويروون في هذا أحاديث مكذوبة عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كالحديث المشهور بحديث جابر حينما سأله: ما أول ما خلق الله؟ قال: «نور نبيك يا جابر». كذب على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يُعرف هذا الحديث في شيء من كتب السنة، أتوا كذبًا وزورًا فألصقوه بمصنف عبد الرزاق، ولا وجود له في مصنف عبد الرزاق ولا في غيره، كذب صريح على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويزعمون أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أيضًا- لا ظل له لأنه من نور، ولذلك لا ظل له، وهذا كله -أيضًا- كذب.

ويزعمون أن بقية الكون خُلِق من نوره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. سبحان الله العظيم! ما أعظم هذه الفرية وما أعظم هذا الكذب! الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«إنما أنا بشر مثلكم»**، والله عز وجل يبين بشريته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهؤلاء يقولون: لا، الأمر ليس كذلك، وهذا تكذيب صريح لله ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولا شك أن الحكمة كل الحكمة أن يكون النبي بشرًا مثلنا، والله عز وجل امتن على عباده بهذه المنة وهي أن يكون الرسول مِنَّا معشر الناس، ولأجل كونه مِنَّا وبشرًا مثلنا فإنه يمكن الانتفاع بنبوته ورسالته، يمكن الاستماع إليه ويمكن

المحادثة معه، كما أنه يمكن الاقتداء به، لأنه بشر مثلنا، فيتتبع العبدُ أحوال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل شؤونه، ويسعى للاتساء والاقتداء به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأنه بشر مثله، إذا أكل فإننا نأكل كما أكل، وإذا نام فإننا ننام كما نام، وإذا صلى فإننا نصلي كما صلى، وإذا حج فإننا نحج كما حج، وإذا تزوج فإننا نتزوج كما يتزوج، وهكذا يمكننا الاقتداء به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وهذا الأمر يحتاج إلى تنبيه، فإن كثيرًا من الناس يعتقد هذا الباطل؛ لانتشاره في كتب ضالة مضلة، وفي علماء سوء ينشرون هذا الضلال بين الناس، ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد، بل إنهم جعلوا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشاركًا لله عز وجل فيما يختص به، وعليه؛ فإنهم حكموا بأنه كان يعلم الغيب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، الغيب المطلق يعلمه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويشارك في هذا ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا إله إلا الله! ماذا نقول فيما قال الله عز وجل: ﴿ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ [الأنعام:٥٠] هو يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: لا أعلم الغيب، أمره الله أن يقول هذا، وهو المستجيب لأمر ربه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كذلك أمره الله عز وجل أن يقول: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ [الأعراف:١٨٨].

إذن: النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يخبر بأمر الله عز وجل أنه لا يعلم الغيب، والقوم يقولون: لا، كيف لا يعلم الغيب؟

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح

كل شيء في اللوح، إذن: النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يعلم كل شيء في هذا الكون، من علومه علم اللوح والقلم، يعلم كل شيء، بل نص بعضهم على أنه يعلم كل ما يعلمه الله، هو الله عز وجل يقول له هذا القول الذي يأمره به ويمتثل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيقول: لا أعلم الغيب، هم يقولون: لا، كان يعلم الغيب. ماذا نصنع بهذه الآيات؟ نقول: هذا من باب التواضع وإلا هو يعلم الغيب. سبحان الله العظيم!

إذن: النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنتم يا معشر الذين تزعمون أنكم تعظمونه تتهمونه بالكذب، يكذب لأجل أن يتواضع، ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن مَن وصف النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالكذب فهو كافر، إذا وُصِف النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالكذب في حرف واحد فلا شك في كفر هذا المتهم، فكيف يُزعم أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قالها؟

ونقول لهم أيضًا: لماذا ما تواضع صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أشياء أخرى؟ لماذا ما تواضع في قوله: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»؟ لأن هذا مما أوحاه الله إليه، فلابد أن يبلغه ويبينه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

إذن: إما أن يتواضع في كل شيء ولا يخبر بما أوحاه الله إليه تواضعًا، بل يخبر بضد ذلك، وإما أن يخبر بكل ما أوحاه الله عز وجل إليه. والعجيب أن النصوص في هذا كثيرة.

ماذا نصنع في قول الله عز وجل: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ [التوبة:١٠١] إيش؟ ﴿ لا تَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة:١٠١]، نشطب هذه الآية من كتاب الله حتى يستقيم لنا تعظيم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ماذا نفعل في ما ثبت في الصحيحين في حديث الحوض حينما يُختلج أناس دون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: **«أصحابي أصحابي. فيقول الملائكة: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»**، هم يقولون: لا فرق بين حياة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموته لا في العلم ولا في القدرة، يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء في حياته وفي داخل قبره -أيضًا- لا فرق، والنصوص كثيرة تدل على أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كان يعلم الغيب.

في حديث التيمم في الصحيحين لما كان الصحابة ومعهم عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفر، فأضاعت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عقدًا كانت استعارته من أختها أسماء، فحبس النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس وهم في صحراء لأجل البحث عن هذا العقد، حتى إن الماء قد نفد، وجاء أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يعاتب ابنته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا حتى نزلت آية التيمم.

تقول عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: فبعثنا الناقة وإذا بالعقد تحتها.

لو كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم الغيب والناقة بين أيديهم ومع ذلك فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما علم بموقعها.

في قصة الإفك شهرٌ كامل والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هَمٍّ عظيم بسبب قالة السوء التي نالت حِبَّه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حتى إنه دخل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليها فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: **«يا عائشة، إن كنتِ بريئة فسيبرئكِ بالله، وإن كنتِ قد ألممتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه»**.

إذن: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعلم الغيب، أيعلم الغيب وهو يقول هذا القول؟ حتى نزل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في مقامه ذلك براءة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فسُرَّ وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفرح فرحًا عظيمًا بها، وكان من قبل في هَمٍّ عظيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكان يستشير أصحابه في هذا الشأن، أكان يعلم الغيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والحال كهذه الحال؟

في صحيح مسلم في غزوة الأحزاب مرت بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة ليلة شديدة الريح والقَر، يعني: البرد، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة»، إيش كان يطلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أن أحدًا يذهب فيأتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة بخبر القوم، «جعله الله معي يوم القيامة» كرر هذا ثلاث مرات صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا قام أحد حتى قال: «قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم» فقام. ما وجد بُدًا بعد أن دعاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لو

كان يعلم الغيب أكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بحاجة أن يرسل أحدًا من الصحابة لكان الأمر مكشوف وواضح عنده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فكيف يقال إنه كان يعلم الغيب ويعلم كل ما في اللوح المحفوظ؟ بل ويعلم كل ما يعلمه الله. ما أسمج هذا الكذب والبهتان، والله المستعان! أهكذا حال من يعظم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ يتهمه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالكذب أنه ما بلغ البلاغ المبين.

كذلك يقولون: إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يملك النفع والضر، والله عز وجل يأمره فيقول: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا﴾ [الأعراف:١٨٨]، يقولون: لا، ليس فقط يملك النفع والضر لنفسه، بل ولكل أحد، وهنا يخبر أنه لا يملك لنفسه هو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله، الشيء الذي يشاؤه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سيصيبه، أما هو لا يملك لنفسه لا نفعًا ولا ضرًا، فكيف يملك لغيره؟ وهم يقولون: لا، هذا تواضع وإلا هو يملك، ولذلك تجدهم يستغيثون بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل صغير وكبير، بل ويستغيثون بمن يزعمونهم الأولياء والصالحين في كل صغير وكبير، ويقولون: إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور. لا إله إلا الله! إذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد الأنبياء وسيد الأولياء ومع ذلك لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، كيف بمن سواه؟ فلا شك أن من زعم خلاف ما أخبر الله عز وجل فلا شك في أنه كافر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ ولذلك تأمل معي حينما يأتي هؤلاء القبوريون فيدعون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل شيء:

في هداية القلوب، وفي تفريج الكروب، وفي جلب الخيرات ودفع المضرات، في كل صغير وكبير.

نقول: ما بال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أعطى الهداية لعمه أبي طالب؟ أما كان يحب هدايته يا جماعة؟ والله كان يحب هدايته، وكان مجتهدًا في ذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى اللحظات الأخيرة في حياة أبي طالب، صحيح وإلا لا يا جماعة؟ «يا عماه، قل كلمة أحاج لك بها عند الله» كلمة بس، ومع ذلك آخر كلمة قالها أبو طالب: هو على ملة عبد المطلب. ما استطاع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجعله يتكلم فقط بلا إله إلا الله، قال: هو على ملة عبد المطلب. سبحان الله! فنزل قول الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦].

وعند القوم: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهدي من يشاء، ويعطي كل شيء، ويقدر على كل شيء، ويغفر الذنوب.

عُد إلى عبد الرحيم الملتجي ... بحمى جاهك يا غيث
وأقلني عثرتي يا سيدي ... في اكتساب الذنب في خمسين

يطلب إغاثة نفسه وغفران ذنبه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما يلجأ إلى الله. هل هناك تكذيب لكتاب الله أعظم من هذا التكذيب؟ والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في الصحيحين- يقوم فيخطب في الناس: «يا معشر قريش، لا

أغني عنكم من الله شيئًا»، يا عباس، يا صفية، بل يا فاطمة، كل أولئك يقول: «لا أغني عنكم من الله شيئًا»، وهم يقولون: لا، يغني، ينفع ويضر. ويفعل كل شيء، ويقدر على كل شيء. سبحان الله العظيم! أليس هذا تكذيبًا لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

إذن: يا إخوتاه، شأن التوحيد شأن عظيم، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بُعِث إلا لكي تتطهر القلوب، تتنظف من أوساخ وأدناس ودنس الشرك، يصبح الله عز وجل في قلب كل مسلم الأكبر والأعظم، هو الذي تتعلق به القلوب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلا ترجو سواه، ولا تخاف من غيره، هذا هو الذي جاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به من أول لحظة حينما بُعِث عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وإلى آخر لحظات حياته، التوحيد في الابتداء وفي الانتهاء وفي الأثناء، ما غفل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الدعوة إلى التوحيد وتصحيح مسار القلوب لكي تتجه إلى الله الباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا غير.

أما ما عليه هؤلاء فلا شك أنه وثنية، ما بُعِث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بالتحذير منها، التوحيد هو الأساس والأهم والأكبر في شريعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل والله ما جاء في دعوات كل الأنبياء ولا نزل في جميع الكتب شيء أعظم من التوحيد، هذه هي القضية الكبرى التي ينبغي عليك أن تكرس

حياتك لتحقيقها، توحيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والفرار والبعد عن كل ما يضاد هذا التوحيد، والله المستعان!



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن جميع الرسل بشر مخلوقون، ليس لهم من خصائص الربوبية شيء، قال تعالىٰ عن نوح عليه السلام -وهو أولهم-: ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود:٣١]، وأمر الله تعالىٰ محمدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو آخرهم- أن يقول: ﴿لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٥٠] وأن يقول: ﴿لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ [الأعراف:١٨٨]، وأن يقول: ﴿إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢١-٢٢].

ونؤمن بأنهم عبيد من عباد الله، أكرمهم الله تعالىٰ بالرسالة، ووصفهم بالعبودية في أعلىٰ مقاماتهم، وفي سياق الثناء عليهم.

❊ ❊ ❊

قال الشارح وفقه الله:

أرفع درجات الخلق أن يكونوا عبيدًا لله، لأن الله ما خلقهم إلا للعبادة، فإذا قاموا بالعبادة وارتقوا إلى أعلى درجاتها كانوا أعظم الخلق وأشرف الخلق، ولذا كان النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد الناس وأفضل البشر من الأنبياء والمرسلين فمن دونهم لأنه أعظم الناس عبودية لله عز وجل، أعظمهم خشية لله، وأعظمهم حبًا لله، وأعظمهم علمًا بالله، ولذلك هذه أعلى درجات الخلق أن يكونوا عبادًا

محققين لعبادة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولذلك أثنى الله عز وجل على الرسل عليهم الصلاة والسلام بالعبودية، فهذا من أعظم الدرجات التي يصل إليها الخلق ويتفاوتون بحسبها، والرسل عليهم الصلاة والسلام أعظم الناس في هذا المقام.



قال المصنف رحمه الله:

وقال عز وجل في أولهم نوح عليه السلام: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣].

وقال في آخرهم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

قال الشارح وفقه الله:

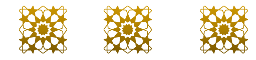
وفي غيرها: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩]، وغير ذلك من آيات القرآن كلها فيها وصف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعبودية، ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:١٠].

انظر هذه المقامات مقامات شريفة: مقام الوحي، وإنزال الكتب، والإسراء والمعراج، كل ذلك وُصِف فيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوصف العبودية، فدل هذا على أنه وصف ثناء عظيم على الأنبياء والمرسلين جميعًا، وأعظمهم عبودية لله: نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



قال المصنف رحمه الله:

وقال عز وجل في رسل آخرين: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ [ص:٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧]، قال تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠]، وقال في عيسىٰ بن مريم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩].



قال الشارح وفقه الله:

والله تعالى أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن الله تعالىٰ ختم الرسالات برسالة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأرسله إلىٰ جميع الناس، لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

قال الشارح وفقه الله:

فإنَّ من الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام ما بيَّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من وجوب الإيمان بأنَّ نبينا محمدًا بن عبد الله الهاشمي القرشي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو خاتم الأنبياء وخاتَم المرسلين، وهذا أمر لا شك فيه ولا ريب، والأدلة عليه أدلة قطعية كما تبين لنا هذا في الدروس الماضية.

كما أنَّه يجبُ أن يؤمَن بأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول إلى جميع الثقلين الجن والإنس، فكل من وُجِد بعد مبعث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإنس والجن فإنَّه واجب عليه أن يتبع هذا النبي الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ونؤمن بأن الله تعالى ختم الرسالات برسالة محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**) وهذا مضى الحديث فيه.

(**وأرسله إلى جميع النَّاس**) وليت المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: وأرسله إلى جميع الثقلين، أو: وأرسله إلى جميع الجن والإنس، فليست رسالة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مختصة بالناس، إنما هي عامة للإنس والجن الثقلين، ولا شك أن الجن قد كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام تُبعث إليهم -أيضًا- كما قال الله عز وجل: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ [الأنعام:١٣٠]، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم كانت دعوتهم تتناول الجنَّ أيضًا، ولذلك الجنُّ الذين سمعوا من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن لما رجعوا إلى قومهم قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [الأحقاف:٣٠]، فهم كانوا على علم واطلاع بما أُنزل على موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن ميزة نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخاصية التي اختص بها هي عموم الرسالة لجميع الجن ولجميع الإنس، أما فيما مضى فكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، رسالة النبي ممن كان قبل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت مخصوصة ولم تكن رسالة عامة، فهذه ميزة رسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها رسالةٌ عامة لجميع الثقلين.

ولذلك الجن لما سمعوا القرآن وولَّوا إلى قومهم منذرين قالوا لقومهم: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣١]، فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داعٍ إلى الجن كما أنه داعٍ إلى الإنس.

والدليل على عموم رسالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قد سمعت: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، فهذا دليل على عموم رسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للعرب وللعجم، لأهل الكتاب وللمشركين والوثنيين والملاحدة

ولجميع البشر ولجميع الجن، كل أولئك ملزَمون باتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والدخول في شريعته.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن شريعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي دين الإسلام الذي ارتضاه الله تعالىٰ لعباده، وأن الله تعالىٰ لا يقبل من أحد دينًا سواه، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

قال الشارح وفقه الله:

هذه من المسائل المهمة جدًا والتي تحتاج إلى تذكير -نظرًا لكثرة الملبسين على المسلمين، مع أن هذه من أصول دين الإسلام- وهو اعتقاد أن الدين المقبول عند الله عز وجل إنما هو دين الإسلام الذي بُعِث به النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا منذ بعثته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فمنذ أن أُرسل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُسخت جميع الأديان ونُسخت جميع الرسالات، ونُسخت جميع الكتب، وصار الدِّين الوحيد الذي هو مقبول عند الله عز وجل هو دين الإسلام، فمن لقي الله عز وجل بدين سواه فلا شك أنه من الكافرين الخاسرين، الذين هم خالدون مخلدون في النار، متى ما بلغته دعوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] فلا شك أنه ملزَم باتباع هذا النبي الكريم

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن كل دين سواه فإنه دين باطل، وهذا من أوضح الأمور وأجلاها وأكثرها أدلة في النصوص، مع كثرة الملبسين، والله المستعان!

والأدلة في هذا المقام يمكن أن نقسمها إلى مجموعات:

۞ **أولًا**: الأدلة التي أمر الله عز وجل فيها باتباع دين النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ذلك:

❖قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، صراط الله عز وجل إنما هو دين محمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❖كذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران:١٩]، كذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران:٨٣]، ودين الله في هذه الآية باتفاق إنما هو الإسلام الذي بُعِث به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❖ ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ﴾ [الأعراف:١٥٨]، النبي الأمي هو محمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❖ بل إن الله عز وجل أمر جميع الأنبياء والمرسلين أن يتبعوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو بُعِث وهم أحياء، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ

الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١]، إذا كان الأنبياء الكرام والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام مأمورين باتباع النبي محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكيف ببقية الناس؟

ولذا قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في تفسير هذه الآية: أخذ الله الميثاق على جميع الأنبياء أنه لو بُعِث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم أحياء لكان واجبًا عليهم أن يتبعوه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولذلك في «مسند الإمام أحمد» قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي»**.

إذن: بعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثة عامة للناس، وهذا هو الدين الذين أمر الله عز وجل باتباعه لا غير.

۞ **المجموعة الثانية من الأدلة على هذا الأصل الأصيل: الأدلة التي تدل على عموم رسالة النبي** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ذلك ما قد سمعت: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]، فلا يشذُّ أحد، ولا ينفرد أحد بإمكان أن لا يكون ملزمًا ومأمورًا باتباع رسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**بُعثت إلى كل أحمر وأسود**»، إلى جميع الناس، «**بُعثت إلى كل أحمر وأسود**»، أخرجه الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه».

۞ **المجموعة الثالثة: الأدلة التي تدل على أن دين الإسلام الذي بُعِث به النبي** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **هو حقيقة الهداية وما سواه فضلالٌ**، ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾

[البقرة:١٣٥] يعني: هي الهداية، ليست اليهودية ولا في النصرانية بعد بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنَّما هي ملة إبراهيم، وملة إبراهيم هي التي كان عليها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٣].

ولا شك أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولى الناس بإبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ [آل عمران:٦٨] محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن تلك الأدلة أيضًا: قول الله عز وجل: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ [آل عمران:٢٠]، فلا يمكن أن تكون ثمة هداية بعد مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا وهي دينه وشريعته ورسالته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكل ما سوى ذلك فإنه ضلال ولا شك، صار ضلالًا اتباعه على كل من بلغته بعثة ورسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ **المجموعة الرابعة: ما دل على أن الإسلام هو الدين الذي يقبله الله لا غير**، ولو لم يكن في هذا الباب إلا ما دل على هذا المعنى لكفى بذلك -والله- دليلًا، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

وإن من المعلوم من الدين ومن القرآن والسنة بالضرورة: أن الإسلام بعد بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُراد به إلا دينه وملته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الإسلام الخاص

الذي بُعِث به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الإسلام لا غير، فمن ابتغى غيره فالله عز وجل لا يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، حكمٌ محكم من أحكم الحاكمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ **المجموعة الخامسة: الأدلةُ التي فيها وصف غير المسلمين بأنهم كفار، وإذا وُصِف بهذا أهلُ الكتاب الذين لهم صلةٌ بالكتب السماوية في الأصل فغيرهم ممن لا صلةَ لهم بالكتب السماوية أصلًا من باب أولى**، ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ [البينة:١] سمَّاهم الله عز وجل بأنهم من الكفار، وكذلك الحال في المشركين فضلًا عن الملاحدة وغيرهم، كل من لم يكن على دين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا شك أنه من الكافرين، ولا يجوز وصفه بأنه مؤمن، يقال: يجمعنا الإيمان، نحن جميعًا مؤمنون بالله. لا والله، المؤمنون بالله حقًا بعد بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليسوا إلا أهل الإسلام، ومن سواهم فإنهم كفار، لأن القسمة ثنائية، لا يمكن أن يخرج الناس عن هذه القسمة الثنائية، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، انتهت القضية، الناس رجلان: إما كافر وإما مؤمن، والمؤمن ليس إلا الذي شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأنا أتكلم بعد بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما قبل ذلك فالذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن رسوله الذي بُعِث إليه رسول الله فإنه مؤمن، لكن منذ بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

نُسِخ كل ذلك، فصار المؤمن حقًا ليس إلا الذي دخل في الإسلام دين النبي محمد صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ولذا نجد أن القرآن ينص على أن أهل الكتاب كفار كما قد سمعت، وكما قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾ [المائدة:٧٣] من هؤلاء؟ هؤلاء النصارى، هم في الأصل أهل كتاب، فكيف بالمشركين؟ فكيف بعُبَّاد الأبقار؟ فكيف بالملاحدة؟ لا شك أنهم أولى بهذا الوصف، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:٧٢] وأمثال ذلك في كتاب الله عز وجل، كل ذلك يدل على أن من لم يدخل في دين الإسلام فإنه محكوم عليه بالكفر ولا شك.

❁ **المجموعة السادسة: الأدلة التي فيها توعد من لم يدخل في دين الإسلام بالنار، وأنه من أصحاب النار**، وهذا بيِّنٌ في كتاب الله وفي سنة رسوله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾ [الفتح:١٣]، هم أولًا كفار، وثانيًا: متوعدون بالنار، بالعذاب، والرسول في هذه الآية هو النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا شك في ذلك.

قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود:١٧]، من يكفر به يعني: بالقرآن أو بالنبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، على خلاف بين أهل العلم، وكلاهما حق، سواء قلنا بهذا أو هذا فلا شك أنَّ الذي يكفر بالقرآن من أيِّ ملة

وعلى أيِّ دين فالنَّار موعده، كذلك إذا كان يكفرُ بالنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يقول: أنا لا أتبعه ولا أؤمن به ولا أعتقد أنَّه رسول من عند الله، بل حتى لو قال: أنَّا أعتقد أنَّه رسولٌ للعرب خاصة، هذا كافر بالله وكافر برسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كما كان ابن صياد حينما قال له النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أتشهد أني رسول الله؟**» قال: «أشهد أنك رسول الأميين». يعني: العرب. ما نفعه ذلك. وطوائف من اليهود والنَّصارى كانوا يعتقدون أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رسول ولكنه رسول مخصوص، خاص بالعرب لا غير، ومع ذلك ما نفعهم ذلك، ومحكوم عليهم بنص القرآن والسنة والإجماع بأنَّهم كفار، ما نفعهم ذلك.

قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده**» يقسمُ أبو القاسم صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، «**لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة**» يعني: من أمة الدعوة سمع بالنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، «**والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»، الحديث في «صحيح مسلم».

إذا كان هذا في حق أهل الكتاب فكيف بمن دونهم من الكفار؟

إذن: هذه بعضٌ وجملة من الأدلة التي تدل على هذا الأصل العظيم، وهو من محكمات هذا الدين وأصوله التي لا يجوز لمسلم أن يرتاب فيها أو يشك.

قد يقول قائل: وماذا نصنع بقول الله عز وجل: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]؟

نقـول: سبحان الله! بعض الناس يلبِّس، وصدق صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم**»، هؤلاء أهل زيغ يلبِّسون على الناس.

والحق الذي لا شك فيه أن هذه الآية -وهي قول الله عز وجل: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]- هذه جملة براءة لا جملة إقرار، هذه جملة براءة، لكم دينكم الضال المحرَّف، أبرأ إلى الله منه، لا أتبعه، أما أنا.. هكذا حال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وحال أتباعه من بعده فلهم دينهم الحق الذي بعث الله عز وجل به رسوله محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ليست الآية آية إقرار، لكم دينكم ابقوا عليه واستمروا، ولي دين أنا أبقى عليه ولا مشكلة، لا والله. ولا قال أحد قط من أهل العلم بالتفسير هذا الكلام، هذه جملة براءة لا جملة إقرار، وسبحان الله العظيم! انظر كيف يتركون هذه المحكمات الواضحات في الكتاب والسنة ويأتون يلبسون على بعض الناس بمثل هذه الآية التي ما فهموها ولا حملوها على وجهها؟

إذن: هذا المقام مقامٌ عقدي ومسلَّم من مسلَّمات الدين، لا يجوز التردد فيه ولا الاشتباه، وأمام هذا الأصل ابتُليت الأمة بطرفين منحرفين:

الطرف الأول: هم غلاة، أهل جهل، هؤلاء الذين لم تزل هذه الأمة منهم في بلاء، نظروا إلى هذه الأدلة فجعلوها متكئًا لهم فيما هم عليه من ظلم واعتداء

وسفك النفوس المعصومة، ولا شك أن هذه الأدلة ليس لها علاقة بهذا لا من قريب ولا من بعيد، بل هي بريئة منها تمام البراءة.

هذه النَّصوص تتحدث عن اعتقاد يجب اعتقاده، أمَّا من كان من غير المسلمين وله مع المسلمين عهدٌ فواجب الوفاء بعهده، وواجبٌ عصمةُ دمه وماله، ولذا يقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي سمعت كلامه الذي سبق والذي أُنزل عليه ما سبق هو الذي يقول: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة**»، هو نفسه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فيجب أن تُوضع النصوص في موضعها، وأن تُحمل على محملها، لا أن يضرب الإنسان النصوص ويخبط فيها خبط عشواء ثم يقول: والله هذا هو الدين، هذا ليس هو الدين، هذا إفساد في الدين.

والطرف الثاني: الطرف الذي لبَّس على الناس في شأن هذا المعتقد الأصيل تحت ذرائع شتى ودعايات مختلفة، يلبِّسون على الناس ويميِّعون هذه القضية العظيمة حتى يضيع في الناس الولاء والبراء، وينكسر حاجز الحب والبغض في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي هو من أوثق عرى الإيمان.

أما أهل الوسطية الحقة والاعتدال المحمود فإنهم يفرِّقون بين أمرين: بين الاعتقاد في القلب الذي لا يجوز للإنسان أن يتردد فيه وهو أن الدين عند الله هو الإسلام، وأن الذي ينجو عند الله هم المسلمون، وأن كل دين سوى دين

الإسلام بعد بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه باطل، وأن كل من لم يدخل في هذا الدين فإنه عند الله من الخاسرين، هذه عقيدة لا شك فيها، أَمَّا المعاملة فشأنٌ آخر يحكمها قول الله عز وجل: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة:٨]، معاملتهم، مبايعتهم، الشراء منهم، الأخذ والإعطاء كل ذلك لا حرج فيه في ضوء هذه الآية التي بيَّنت لنا هذا الحكم الشريف، والله المستعان!



قال المصنف رحمه الله:

ونرىٰ أن من زعم اليوم دينًا قائمًا مقبولًا عند الله سوىٰ دين الإسلام من دين اليهودية أو النصرانية أو غيرهما فهو كافر، ثم إن كان أصله مسلمًا يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتِل مرتدًا لأنه مكذب للقرآن.

ونرىٰ أن من كفر برسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ الناس جميعًا فقد كفر بجميع الرسل حتىٰ برسوله الذي يزعم أنه مؤمن به متبع له، لقوله تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] فجعلهم مكذبين لجميع الرسل مع أنه لم يسبق نوحًا رسول.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

قال الشارح وفقه الله:

هذا المقام فيه ثلاث قواعد محكمة ينبغي علينا أن نرعاها حق رعايتها، وقد مضى الإشارة إلى شيء من ذلك فيما مضى، ولا بأس أن نعيده بانتظام القواعد والكلام والضوابط في هذا المقام.

القاعدة الأولى: أن من كذَّب رسولًا فقد كذَّب بالرسل جميعًا، كما قد سمعت، قال الله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، وقال

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ [الفرقان:٣٧]، مع أنهم ما كذبوا إلا نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وليس قبله رسول، هو أول رسول إلى أهل الأرض، ومع ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ [الفرقان:٣٧].

وقل مثل ذلك في غير هذا من الآيات، قال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٢٣]، قال جل وعلا: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٤١]، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٣].

إذن: من كذَّب برسول فقد كذَّب جميع الرسل، ووجه هذا يظهر بأمرين:

◉ **أولًا**: أن هذا الرسول الذي كذب به هذا المكذب إنما جاء بالتوحيد، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، هذا هو التوحيد، إذن: هذا الرسول الذي كُذِّب إنما جاء بالتوحيد، وعليه؛ فهذا المكذِّب مكذِّب بالتوحيد، إذًا سيكذب كل رسول جاء بالتوحيد.

يعني: الآن هذا الذي كذَّب رسولًا، نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أو هود أو صالح أو شعيب أو غيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كذَّبه لذاته، لشخصه؟ أو كذَّب الذي جاء به من عند الله عز وجل ودين الأنبياء واحد في أصله، الكل متفق على الدعوة إلى توحيد الله، على الإيمان بالله والرسل.. إلى آخره.

إذن: التكذيب تسلط على ما جاء به هذا الرسول، وبالتالي كل رسول سيكون مكذَّبًا به، لأن الأصل واحد، قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما في «الصحيحين»: «**الأنبياء إخوة لعلَّات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»، الإخوة لعلات: الإخوة لأب، أمهاتهم شتى، لكن الأصل الذي بُعِث به جميع الأنبياء والمرسلين إنما هو التوحيد، شيء واحد، ولذلك ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى:١٣] كل ذلك يدل على وحدة الرسالات في أصلها، فمن كذب رسولًا الواقع أنه كذب بجميع الرسالات.

◉ **الأمر الثاني الذي به يتبين لك أن تكذيب رسول تكذيبٌ للرسل هو**: أن تكذيب المكذب لرسول إنما هو تكذيبٌ بجنس الرسالة، ولذلك هو يكذب بأصل البعثة، وبناءً على هذا فلا فرق بين رسول ورسول، إذا كان التكذيب عنده متوجهًا إلى أصل البعثة والرسالة كما مر بنا ذلك سابقًا، الكفار عندهم تنافي وتضاد بين البشرية والرسالة، لا يمكن أن يكون بشرًا ورسولًا، إما أن يكون رسولًا وإما أن يكون بشرًا، أثبتوا البشرية ونفوا الرسالة، إذن: تعلَّق التكذيب عندهم بجنس الرسالة، ولا فرق بين رسول ورسول، فصاروا حقًا مكذبين بالرسل وإن كانوا ما كذبوا في الأصل إلا واحدًا.

ولذلك لو قُدِّر أنه بعث لهذا المكذِّب لرسول، بُعِث له كل الرسل فالنتيجة واحدة، لو بُعِث له نوح فكذَّبه، لو قدَّرنا أنه بُعِث له -أيضًا- هود ثم بُعِث له

صالح ثم بُعِث له أيوب ثم بُعِث له إبراهيم، ماذا سيصنع؟ سيستمر بالتكذيب، فصدق أنه من كذب رسولًا فقد كذب بالرسل جميعًا.

۞ **القاعدة الثانية**: من آمَن ببعض الرسل وكفر ببعضٍ فقد كفر بهم جميعًا، حتى بالذي يزعم هذا الزاعم أنه يؤمن به أو بهم، حتى هذا فإنه في الحقيقة كافر به وإن زعم أنه يؤمن به.

ولذا اليهودي يزعم أنه يؤمن بموسى لكنه يكذب بعيسى وبمحمدٍ عليهم الصلاة والسلام، النصراني يزعم أنه يؤمن بعيسى ويكفر بمحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحق أن اليهودي كافر بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعيسى وأيضًا بموسى عليهم الصلاة والسلام.

كذلك النصراني واقع الحال أنه كافر بمحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكافر -أيضًا- بعيسى الذي يزعم أنه يؤمن به.

ووجه ذلك: أنه لما كفر برسول وزعم أنه يؤمن برسول تبين لنا أن إيمانه ليس إيمانًا شرعيًا صادقًا، لأنه لو كان إيمانًا شرعيًا صادقًا لآمن بالرسول ولآمن بنظيره أيضًا، فلا فرق بينهم، كلهم إخوة لعلَّات، أليس كذلك؟ يعني: التفريق بين المتماثلات مذموم عقلًا، ما الفرق بين عيسى ومحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصل البعثة والإرسال؟ هل ثمة فرق؟ لا فرق، إذن: كل من آمن بعيسى وزعم أنه يؤمن إيمانًا صادقًا هو ملزَم بأن يؤمن بمحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما كفر بمحمد تبين لنا أنه ما

كان إيمانًا لله، ما كان إيمانًا شرعيًا صحيحًا، ذاك الذي يزعم أنه تعلق بعيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فصدق أن من آمن ببعض وكفر ببعض فإنه كافر بالرسل جميعًا حتى الذي يزعم أنه يؤمن به.

۞ **القاعدة الثالثة**: الكفر برسولٍ كفر بمرسِله، التكذيب بالرسول تكذيب بمن أرسله، ولذلك سمعت قبل قليل قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء:١٥٠] هؤلاء حكم الله عليهم بأنهم كفار بالله عز وجل، مع أنهم يزعمون أنهم يؤمنون بالله لكنهم كفار بالرسل، هذا معنى قوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء:١٥٠] يقولون: نؤمن بالله لكن ما نؤمن بالرسل، سماهم الله كافرين بالله وكافرين بالرسل.

إذن: من كفر وكَذَّب رسولًا فالواقع والحق أنه إنما كذَّب مَن أرسله، مَن بعثه، مَن أيَّده بالمعجزات، مَن أيَّده بالآيات، هو في الحقيقة مكذِّبٌ له، ولذلك اسمع ماذا يقول الله عز وجل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]، حقيقة الحال أنَّ التكذيب ما تعلَّق بذاتك يا رسولنا، إنما تعلق بالله، الحق أنَّ الكفر تعلَّق بالله عز وجل، هم كفارٌ بالله، هم مكذبون بآيات الله، وفي هذا تسليةٌ للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذن: عندنا ثلاث قواعد تحكم هذا الباب المهم.

۞ **الأولى**: من كفر برسول فقد كفر بالرسل.

۞ **الثانية**: من آمن ببعض وكفر ببعض فقد كفر بهم جميعًا.

۞ **الثالثة**: من كذَّب الرسول فقد كذب مرسِله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونرىٰ أن من كفر برسالة محمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ الناس جميعًا فقد كفر بجميع الرسل حتىٰ برسوله الذي يزعم أنه مؤمن به متبع له، لقوله تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] فجعلهم مكذبين لجميع الرسل مع أنه لم يسبق نوحًا رسول.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

قال الشارح وفقه الله:

انظر، حتى تفهم هذه الآية خذها من آخرها أولًا، هؤلاء يقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ماذا أصبحوا؟ كافرين بالجميع، صاروا كافرين بالرسل، إذا صاروا كافرين بالرسل جميعًا ماذا صاروا؟ هنا أصبحوا يفرِّقون بين الله ورسله، يعني: بين الإيمان بالله والإيمان بالرسل، إذا كانوا كذلك أصبحوا كافرين بالله. إذن: إذا أخذتها بهذا الشكل سوف يتضح لك المعنى، آمنوا ببعض وكفروا ببعض فصاروا كافرين بالرسل جميعًا، وإذا كانوا كافرين بالرسل صاروا كافرين بالله.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأنه لا نبي بعد محمدٍ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ادَّعى النبوة بعده أو صدَّق من ادعاها فهو كافر، لأنه مكذب للكتاب والسنة وإجماع المسلمين.

قال الشارح وفقه الله:

عندنا شوية مختلف: لأنه مكذب لله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإجماع المسلمين.

يبدو النسخة التي معك متأخرة عن هذه، على كل حال المعنى في كُلٍّ واحد، وهذه المسألة تكررت معنا في هذا الدرس وما قبله، وعلمنا أن من الاعتقاد الواجب على جميع المسلمين اعتقاد ختم النبوة والرسالة بالنبي محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبناءً على هذا كل من زعم أنه رسول بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو كافر، وكل من زعم أنه نبي بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو كافر، وكل من صدقه في ذلك فهو كافر، وهذا لتكذيبه القرآن والسنة، وهذا حكم أجمع عليه المسلمون، والكذابون كُثُر، ولكن رؤوسهم والكبار منهم ثلاثون، كما جاء في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يزالوا يخرجون بين وقت وآخر في الناس ويزعمون أو يزعم الزاعم منهم أنه رسول ونبي ويوحى إليه من الله كما كان يُوحى لمحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولعيسى وموسى، ولا شك أن هذا كذب بل كفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خلفاء راشدين خلفوه في أمته علمًا ودعوة وولاية، وبأن أفضلهم وأحقهم بالخلافة: أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين.

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

فإن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قد ذكر مبحثًا تابعًا لمبحث الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام، وأهل العلم في مصنفات الاعتقاد قد يوردون ما يتعلق بمبحث الصحابة تبعًا لمبحث الإيمان بالرسل، لأن صحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم وزراء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم خاصته، وهم الذين نهضوا بنصرته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فكان من المناسب أن يُعطف هذا المبحث على مبحث الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام.

ومن أهل العلم مَن يبحث هذا المبحث ويورده في مصنفات الاعتقاد في أواخر كتب الاعتقاد، يعني: عقيب الانتهاء من بيان أركان الإيمان الستة يضيفون بعد ذلك ما يتعلق بمبحث الصحابة، وما يتبع ذلك من مباحث الإمامة وما إلى ذلك.

وعلى كل حال، المقام مقام اجتهادي اعتباري.

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (ونؤمن) أي: معشر أهل السنة والجماعة (بأن للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خلفاء راشدين، خلَفوه في أمته علمًا ودعوة وولاية على المؤمنين)، ولا شك أن مِن أهم الأمور على الأمة: تنصيب حاكم يحكم فيهم ويتولى

شؤونهم، ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعيد وفاته اجتمع مِن اجتمع من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لأجل النظر في الخليفة بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد نقل الإجماع غير واحد من أهل العلم على وجوب تنصيب الخليفة لهذه الأمة، وممن نص على هذا الإجماع: ابن حزم والنووي والماوردي وغيرهم من أهل العلم.

وإذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد صح عنه -كما عند أبي داود وغيره- الأمر بأن ثلاثة إذا خرجوا في سفر أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يؤمِّروا عليهم أحدهم، فإذا كان هذا في شأن ثلاثة في سفر، فكيف بشأن أمة من المسلمين؟ فلا شك أن تنصيب الحاكم على المسلمين من الأمور الواجبة، ولا تستقيم ولا تنتظم مصالح الناس في أمور دينهم أو دنياهم إلا بوجود حاكم وولي أمر يرعى شؤون ذلك.

لا يصلح الناس فوضى لا سراة ... ولا سراة إذا جُهَّالهم سادوا

بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تولى شؤون المسلمين: خلفاؤه الراشدون المهديون من بعده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ورضي الله عنهم، وهم أربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين. وقد حث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على لزوم سنتهم والاهتداء بهديهم، فقال كما في حديث العرباض بن سارية: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ».

وهؤلاء الخلفاء الأربعة يطبق ويجمع أهل السنة والجماعة على خلافتهم وولايتهم، وعلى أن من طعن في خلافة أحد من هؤلاء الأئمة فهو أضل من حمار أهله، وأنه قد أزرى بالمهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فلا شك في صحة وثبوت

خلافة هؤلاء الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم بالترتيب الذي كان وقدَّره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أمير المؤمنين، وهو خليفة أبي بكر، ويليه عثمان أمير المؤمنين وهو خليفة عمر، ويليه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو خليفة عثمان وهو أمير المؤمنين، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

فهؤلاء هم الخلفاء الراشدون، وأهل السنة والجماعة يثبتون ولايتهم، وأنهم خَلَف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الأمة في شأن العلم وبثِّه، وفي شأن الدعوة ونشرها، وكذلك في شأن الولاية على المؤمنين وتصريف شؤونهم.

قال: (وبأن أفضلهم وأحقهم بالخلافة: أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)، ولا شك أن أهل السنة يرتِّبون الخلافة بهذا الترتيب الذي كان، وهم يجمعون بين أن هذا الترتيب هو الترتيب في الخلافة وفي أحقية الخلافة، وفي أفضلية الخلفاء، فترتيبهم في الخلافة كترتيبهم في الفضل رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ومر بنا ما يتعلق بالمفاضلة بين أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالصحابة متفاضلون، وأفضل الصحابة على الإطلاق: هؤلاء الأربعة، وأفضل الأربعة لا شك أنهما الشيخان: أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومر بنا أن أفضل الشيخين: أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلا نزاع، فما طلعت الشمس ولا غربت بعد الأنبياء أفضل من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم يليه في الفضل: عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم يليه في الفضل: عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هذا الذي استقر عليه أمر أهل السنة والجماعة،

وكان قد سبقه خلاف قديم في المفاضلة بين عثمان وعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، لكن الذي استقر عليه أمر أهل السنة والجماعة هو تفضيل عثمان على علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فهم في الفضيلة ترتيبًا كالخلافة ترتيبًا.

والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

وهكذا كانوا في الخلافة قَدرًا كما كانوا في الفضيلة شرعًا، وما كان الله تعالىٰ -وله الحكمة البالغة- يولِّي علىٰ خير القرون رجلًا وفيهم من هو خير منه وأجدر بالخلافة.

قال الشارح وفقه الله:

يقول: (وهكذا كانوا في الخلافة قَدَرًا) قدرًا كونيًا وبمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كان ما كان من تولي الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بهذا الترتيب، فالمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: (كانوا في الخلافة قَدَرًا كما كانوا في الفضيلة) وعليه؛ فالقاعدة عند أهل السنة والجماعة: أن ترتيب الخلفاء الراشدين في الخلافة كترتيبهم في الفضيلة. فإن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -كما أسلفت- متفاضلون، وهؤلاء الخلفاء متفاضلون، والتفضيل بين الصحابة له أصل في السنة كما لا يخفاكم، كما في صحيح البخاري من قول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**كنا نُخيِّر على عهد رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فنقول: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان**»، فالمفاضلة والتخيير بين الصحابة هذا الشيء كان على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان يقرُّه، وكان هذا هو عمل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فالمقصود: أن الصحابة كانوا يحرصون على تولية أفضلهم، ما كانوا يعمدون إلى المفضول فيولِّونه، كلا، إنما كانوا يولُّون الأفضل، ويشهد لهذا قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما ذهب إلى الكوفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد تولية عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطب في الناس في الكوفة وقال: «أمَّرنا خير من بقي ولم نألُ»، يعني: لم نقصر، اجتهدنا

فولَّينا خير من بقي، وهذا أثر صحيح احتج به الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما عند الخلال في السنة، وأخرجه الطبراني في معجمه وأبو نعيم في الحلية وغيرهم بإسناد صحيح عنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فدأب الصحابة تولية الأفضل، وما كانوا يقدمون المفضول على الفاضل.

إذًا يقول لنا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وما كان الله تعالى -وله الحكمة البالغة- ليولي على خير القرون) الذين هم الصحابة (رجلًا وفيهم من هو خير منه وأجدر بالخلافة)، **وذلك إذا تأملت يظهر لك من وجهين:**

❁ أولًا: أن مصلحة الأمة هي في تولية الأفضل، وهذا شيء لا يُنازَع فيه، ولا يُعارض هذا مفسدة، يعني: في عهد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ما كان هناك تشوُّف للحكم ولا تطلُّع للخلافة ولا حرص عليها كما كان الشأن في القرون التي تَلَت القرن الأول، كان هناك حرص عليها ولذلك قال العلماء بصحة تولية المفضول مع ثبوت ووجود الفاضل، وذلك لمعارضة مفسدة، فمصلحة المسلمين تقتضي صحة تولية المفضول إذا وُلِّي، لكن في عهد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ما كان هناك مفسدة تعارِض تولية الفاضل.

إذن: مصلحة الأمة في تولية الأفضل، وما كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يختارون لأنفسهم ولمصالحهم، إنما كان يختارون لمصلحة الأمة.

إذن: الحكمة كانت تقتضي تولية الأفضل.

❁ ووجه آخر وهو وجه لطيف أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المجلد الثامن من منهاج السنة وهو: أن الخلافة خلافة نبوة، وإذا كان النبي

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل البشر. فاللائق أن يكون خليفته أفضل الناس، لأنه خليفة له، فاللائق هو أن يكون الخليفة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشبه الناس به وأقربهم إليه، ولا شك أن الأشبه به والأقرب إليه هو أفضلهم في ذلك الوقت، ولا شك أنه لم يكن بين الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في وقت أبي بكر أفضل من أبي بكر، ولا كان الأفضل في وقت عمر أفضل من عمر، ولا كان الأفضل في وقت عثمان أفضل من عثمان، ولا كان الأفضل في وقت علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أفضل من علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

إذن: الأمر كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو: (وما كان الله تعالى -وله الحكمة البالغة- ليولي على خير القرون رجلًا وفيهم من هو خير منهم وأجدر بالخلافة).

والله أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن المفضول من هؤلاء قد يتميز بخصيصة يفوق فيها من هو أفضل منه، لكنه لا يستحق بها الفضل المطلق علىٰ من فضله؛ لأن موجبات الفضل كثيرة متنوعة.

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

ينبهنا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هاهنا إلى أمرين:

❁ أولًا: أن التفاضل ثابت بين الخلفاء الراشدين، هذا هو الأمر الأول.

❁ الأمر الثاني: أن ثبوت فضيلة للمفضول لا تعني تفضيله على من فضله، يعني: على من هو خير وأفضل منه.

إذن: القاعدة في الأمر الأول هي: الصحابة مشتركون في الفضيلة متفاوتون في التفضيل، ما هي القاعدة؟ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ومنهم الخلفاء الراشدون، فهذا الحكم ينسحب على الصحابة كلهم وعلى الخلفاء الراشدين على وجه الخصوص، نقول: إن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أو إن الخلفاء الراشدين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ مشتركون في الفضيلة، متفاوتون في التفضيل. كلهم فاضل، وكلهم عدلٌ، وكلهم خَيِّرٌ وإن كان بعضهم أفضل من بعض.

الأمر الثاني: أن ثبوت فضيلة خاصة للمفضول لا تعني أنه صار أفضل بالإطلاق ممن هو أفضل منه.

إذن: يضبط لنا هذا المقام قاعدة تقول: الفضيلة الخاصة لا تقتضي التفضيل.

خذ مثلًا: عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الشيطان يفر من عمر»، هذه فضيلة خاصة بعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا نعلم ثبوت نظيرها لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هل هذه الفضيلة تعني أن عمر أفضل من أبي بكر؟ لا، إذن: هذه فضيلة خاصة، والفضيلة الخاصة لا تعني التفضيل، التفضيل يُنظر إليه بمجموع ما ورد، مجموع ما ورد يدل على أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل من عمر، أما ثبوت هذه الفضيلة لعمر دون أبي بكر لا تعني أن عمر أفضل.

إذا ثبت -مثلًا- في عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الملائكة تستحيي منه، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة»، ولا نعلم هذا الفضل قد ثبت لعمر، فهل هذا يعني أن عثمان أفضل من عمر؟ الجواب: لا، الفضيلة الخاصة لا تقتضي التفضيل.

خذ مثلًا: ثبت في علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حقه: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»، لا نعلم هذه الفضيلة قد جاءت في عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهل هذا يعني أن عليًا أفضل من عثمان؟ الجواب: لا، الفضيلة الخاصة لا تقتضي التفضيل.

بل جاء في غير الخلفاء الراشدين فضيلة لا نعلمها وردت في الخلفاء الراشدين، يعني: إذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفرضكم زيد»، هل هذه الفضيلة الخاصة تقتضي أن يكون لأنه أفرض الصحابة أعلمهم بالفرائض والمواريث أنه أفضل من أبي بكر وعمر؟ الجواب: لا، الفضيلة الخاصة لا تقتضي التفضيل.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن هذه الأمة خير الأمم وأكرمها على الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

قال الشارح وفقه الله:

يؤمن أهل السنة والجماعة أن أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها خير الأمم وأكرمها على الله عز وجل، وهذا أمر لا يرتاب فيه مرتاب، فإن نبي هذه الأمة أفضل الأنبياء، وكتابها أفضل الكتب، وشريعتها أكمل الشرائع، وعقولها أسدُّ العقول، وأخلاقها وأعمالها أحسن الأخلاق والأعمال، إذن: كيف لا تكون أفضل الأمم؟ والدليل على هذا قول الله عز وجل: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وكلمة (الناس) كلمة عامة تشمل جميع الناس، فأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الأمم وخير الأمم ولا شك.

ويشهد لهذا -أيضًا- قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢]، والذين اصطفاهم الله عز وجل في هذه الآية هم أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال هذا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره من أهل العلم.

ويدل على هذا -أيضًا- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]،يعني : خياراً عدولاً .

ويدل على هذا -أيضًا- ما ثبت عند أحمد والترمذي وابن ماجه والنسائي في الكبرى وغيرهم بإسناد حسن جيد من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده

عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «أنتم تُوَفُّون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله».

إذن: هذه الأمة -لا شك- أفضل الأمم في الدنيا وفي الآخرة أيضًا، في الصحيحين قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة»، اللَّهم لك الحمد ولك الشكر على هذا الفضل العظيم، أمة محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أهل الجنة وسكانها من جميع المؤمنين في جميع الأمم هم ماذا؟ رجا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكونوا شطرها، نصف أهل الجنة من أمة محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذه أمة مرحومة، هذه أمة متأخرة سابقة، ولذلك هذه الأمم أول الأمم مرورًا على الصراط، وهذه الأمم أول الأمم محاسبة، وهذه الأمة هي أول الأمم دخولًا الجنة، وصدق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة».

إذن: أمة محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اصطفاها الله عز وجل واختارها وفضلها على العالمين.

قد يقول قائل: وهل أفضلية هذه الأمة حتى على بني إسرائيل الذين قال الله عز وجل في حقهم: ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧]؟

الجواب: نعم، أمة محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير وأفضل من بني إسرائيل، وأما ما جاء في هذا النص وأمثاله فالجواب عنه أن يقال: إن بني إسرائيل أفضل الأمم في وقتهم وما قبل، ولا ينسحب هذا على أمة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في وقتهم كانوا هم الأفضل بالنسبة لمن في ذاك الزمان وما قبل، أما بعد أن بُعِث النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستجابت له أمة الإجابة فلا شك أن هذه الأمة أفضل الأمم وأكرمها على الله بنص الكتاب والسنة.

والله أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن خير هذه الأمة: الصحابة ثم التابعون ثم تابعوهم.



قال الشارح وفقه الله:

إذا كانت هذه الأمة خير الأمم وأفضلها على الله فينبغي أن يُعلم أن أفضل هذه الأمة هم القرون الثلاثة المفضلة، الذين زكاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووصفهم بالخيرية، حيث قال كما في الصحيحين: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، فدل هذا على أن أفضل هذه الأمة هم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يليهم في الفضل: التابعون، ويليهم في الفضل: أتباع التابعين.

وثمة فرق بين تفضيل الصحابة على من بعدهم وبين تفضيل التابعين على أتباع التابعين، انتبه! ثمة فرق بين التفضيلين، أما تفضيل الصحابة على من بعدهم من التابعين فضلًا عن أتباع التابعين فإنه تفضيل جملة على جملة، وتفضيل كل فرد على كل فرد، يعني: هو تفضيلٌ في الجملة والتفضيل.

بمعنى: القول الصحيح والذي عليه جمهور أهل العلم أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كما أنهم في الجملة أفضل من جملة التابعين وتابعيهم فضلًا عمن بعدهم، فإن كل فرد فرد من الصحابة أفضل من كل فرد فرد جاء بعدهم من التابعين فمن بعدهم.

أدنى أصحاب النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منزلة وليس فيهم دني لكن بالنسبة للتفاضل بينهم هو أفضل من أفضل التابعين فضلًا عمن دونه، إذا كان أجر الصدقة بالنسبة لصحابي من أصحاب النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أجره عند الله عز وجل، أجر هذا العمل مما تتحير فيه الألباب وتقف أمامه مندهشة، ألم يقل النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما ثبت في الصحيحين: «لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»، تعرفون جبل أحد يا جماعة؟ تخيل أن جبل أحد، هذا الجبل الكبير الذي يمتد عدة كيلو مترات أنه ينقلب ذهبًا وتتصدق به في سبيل الله، كم طن ذهب تتوقعون؟ جبل أحد لو صار ذهبًا، بدل الحجارة أصبح ذهبًا، كم طن ذهب؟ شيء لا يمكن الإحاطة به، ثم تتصدق به يا عبد الله، والله عز وجل لا يبخسك أجرك ولا يظلمك مثقال ذرة.

ولكن لو جاء صحابي فتصدق بِمُدٍّ، المُد ما يملأ هكذا، بُر أو شعير أو أيّ شيء بهذا القَدْر، تمر أو غيره، تصدق به في سبيل الله، لا، ليس مُدًا، بل تصدق بنصف مُد، هكذا، أخذ حفنة من طعام فتصدق بها، أيُّ الصدقتين أعظم أجرًا عند الله؟ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: لو تصدقت بما يساوي جبل أحد ذهبًا ما يبلغ نصف مُدٍّ يتصدق به صحابي، ولا نملك إلا أن نقول: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:٧٠]، الله لا يظلمك، لكنه يضاعف لمن يشاء والله ذو الفضل العظيم.

إذا كان هذا في أجر الصدقة، كيف أجر الصلاة؟ لو قارنت صلاتك بصلاة صحابي، فكيف بأجر الجهاد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذب عن حبيب الله عز وجل وخليله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ فكيف ببقية الأعمال؟

إذن: هل يمكن أن يُظن أن أحدًا من الأمة يفوق في الفضل أحدًا من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ الجواب: لا، ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:٧٠]، تجاوزوا القنطرة، حازوا قصبات العُلى رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

أما إذا نظرنا إلى تفضيل التابعين على أتباع التابعين فهذا تفضيل جملة على جملة، في الجملة القرن الثاني أفضل من القرن الثالث، وإن كان لا يمنع هذا أن يكون الواحد من أتباع التابعين أفضل من الواحد أو من بعض التابعين، يمكن أن يأتي أحد من أتباع التابعين فيفوق في الفضل أحدًا أو جماعة من التابعين رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.



قال المصنف رحمه الله:

وبأنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله عز وجل.

قال الشارح وفقه الله:

ونؤمن معشر أهل السنة والجماعة أنه لا تزال طائفة من هذه الأمة المحمدية على الحق ظاهرين.

الحق لا يزال ولن يزال في هذه الأمة ولم يضمحل، لن يأتي على هذه الأمة وقت من الأوقات يضيع فيها الحق، هذا لا يمكن أن يكون، بل لا يزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين، كما أخبر بهذا المعنى نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحديث بهذا المعنى ثابت في الصحيحين، في بعض الروايات متفق عليها، وفي بعضها قد رواها أحد الشيخين من رواية جابر ومن رواية المغيرة ومن رواية معاوية ومن رواية ثوبان ومن رواية غيرهم رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

ومن ذلك رواية ثوبان في صحيح مسلم: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»، أمر الله يعني: ما يكون قُبيل قيام الساعة من تلك الريح الطيبة التي تقبض أرواح كل من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا يبقى إلا شرار الخلق يتهارشون في هذه الدنيا.

المقصود: أنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق. وانتبه يا رعاك الله أن (أل) في قوله: (الحق) إما أن تكون للاستغراق، فالحق المحض الكامل في هذه

الطائفة، لا يشذ شيء من الحق فيكون عند غيرها، أو أن تكون (أل) هنا للعهد، يعني: الحق الذي كان عليه محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه.

وأنت إذا نظرت إلى هذا وتأملت فيه تبين لك من هي هذه الطائفة.

الأمة قد شاء الله عز وجل وحكمته بالغة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يقع ما وقع فيها من اختلاف وتشعبات وتحزبات، افترقت الأمة إلى فرق كثيرة، حتى إنها غلبت وزادت على اليهود والنصارى، اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين، والنصارى على اثنتين وسبعين، هذه الأمة افترقت كما قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ إلى ثلاث وسبعين فرقة، فرقة واحدة من هذه الفرق حازت الحق بحذافيره، فمن تظنون؟ ألا تظنون أن هذه الفرقة هي الفرقة التي ثبتت على الحق المحض والإسلام الصافي عن الشوب؟ أليسوا هم أولى الناس بأن يكونوا هذه الطائفة؟ الجواب بالتأكيد: بلى.

إذن: هذه الطائفة هم أهل السنة والجماعة، الذين هم أهل السنة حقًا وهم الجماعة صدقًا، الذين ثبتوا على ما كان عليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه.

إذن: من أراد أن يكون من هذه الطائفة المنصورة والفرقة الناجية فليلزم وليثبت على ما كان عليه أهل السنة والجماعة أتباع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأتباع الصحابة من بعده، الذين لا يقدِّمون قولًا على قول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا يقدمون نهجًا ولا فهمًا على فهم أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ من بعده.



قال المصنف رحمه الله:

ونعتقد أن ما جرى بين الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ من الفتن فقد صدر عن تأويل اجتهدوا فيه، فمن كان منهم مصيبًا كان له أجران، ومن كان منهم مخطئًا فله أجر واحد، وخطؤه مغفور له.

❋ ❋ ❋

قال الشارح وفقه الله:

أشار المؤلف هاهنا إلى مسألة مهمة وهي: الفتنة التي شاء الله عز وجل وقدَّر بحكمته البالغة أن تقع بين الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، حصل بين الصحابة ما حصل من فتنة وقتال، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨].

ما الذي يجب علينا معشر أهل السنة والجماعة؟ الواجب علينا هاهنا أمران أطبق على ذكرهما جميع أهل العلم.

الأول: السكوت والكف وعدم الخوض.

والثاني: اعتقاد أنهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كانوا مجتهدين، وعليه؛ فهم دائرون بين أجر وأجرين.

وما أحسن ما قال ابن رسلان رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى:

وما جرى بين الصحاب ... عنه وأجر الاجتهاد نثبت

وكذلك ما قال الحكمي رَحِمَهُٱللَّهُ:

والحق في فتنة بين الصحاب ... هو السكوت وأن الكلَ مجتهدُ

الأمر الأول: أن نسكت ونعرض ونتغافل عن الخوض في هذا الموضوع.

والسؤال: لماذا ينبغي علينا أن نعرض عن الخوض في هذا الموضوع ولا نلجّ فيه؟

الجواب: أن هذا يرجع إلى أمور:

أولًا: أن هذا امتثال لأمر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي قال: «وإذا ذُكِر أصحابي فأمسكوا»، والحديث عند الطبراني وحسنه الحافظ العراقي وغيره.

الأمر الثاني: أنه لا فائدة تُرجى من وراء ذلك لا في علم ولا في عمل، ما الحاجة بك إلى أن تخوض؟ لا فائدة، و«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، هذه فتنة جرت بين قوم كلهم مرحومون، فمالك ولهم؟ هذا شيء لا ناقة لك فيه ولا بعير.

دع ما جرى بين الصحابة في ... بسيوفهم يوم التقى الجمعان

فقتيلهم منهم وقاتلهم لهم ... وكلاهما في الحشر مرحومان

ما علاقتك بهذا الأمر؟ وما أحسن ما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تلك دماءٌ طهَّر منها الله سيفي فأطهر منها لساني».

الأمر الثالث: أنه يُخشى من الخوض في هذا الموضوع أن لا يسلم قلب الخائض فتزل قدم بعد ثبوتها، ويقع في القلب شيء من البغض على أحد من أصحاب النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وتلك ورطة وأيُّ ورطة!

إن السلامة من سلمى ... أن لا تحل على حال بواديها

اهرب وانأى وابتعد عن هذا الخوض الذي قد يوردك الموارد، فما أكثر الذين خاضوا في هذا الموضوع، فتحوا -في زعمهم- كتب التاريخ وقالوا: دعونا ننظر ما الذي حصل، والحق مع هذا وإلا الحق مع هذا؟ وإذا به لا يطوي كتابه إلا وقد

وقع في قلبه شيء من البغض، وصار يشنأ بعض أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحذارِ يا عبد الله!

واحذر من الخوض الذي قد بفضلهم مما جرى لو تدري

فإنه عن اجتهاد قد صدر فاسلم أذلَّ الله من لهم هجر

الأمر الرابع: أن هذا الموضوع قد دسَّ فيه أهل الكذب والبدع الشيء الكثير، أكثر ما رُوي في هذا الموضوع غير صحيح، فالوقوف على حقيقة ما حصل وهذه حال المرويات في هذا الباب شيء بعد هذا متعسر أو متعذر على كثير من الناس، فالأولى بالإنسان أن يعرض وأن يكف حتى يسلم له اعتقاده في حق أولئك الأخيار رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

الأمر الخامس: أن الوقوف على حقيقة ما حصل أصلًا أمر من الصعوبة بمكان، لأن المقام كان مقام فتنة وقتال، يعني الذي يقول: والله أنا أريد أن أحقق التاريخ، أريد أن أدرس هذا الموضوع وأعرف ما الذي جرى من هذا وما الذي جرى من هذا، نقول له: ماذا تظن؟ أكنت تظن أن أحدًا كان يجلس على تلَّة فيشرف على القتال وبيده ورقة وقلم ويسجل؟ يدوِّن ما الذي حصل هنا وما الذي حصل هنا؟

الذي نُقِل إلينا نُتَف، وكثير منها -كما ذكرت لك- شيء غير صحيح، فالوقوف على حقيقة جميع ما حصل -حتى تكون الصورة كما يقولون كاملة في عينك- أمر من الصعوبة بمكان، فالأولى بعد كل هذا ولا شك إذا استحضرت هذه الأمور الخمسة الأولى ولا شك هو الإعراض والكف وعدم الخوض.

الأمر الثاني: أن نعتقد أن الذي كان إنما هو صادر عن اجتهاد، ولا يعدم المجتهد منهم الأجر أو الأجرين، للمصيب أجران وللمخطئ أجرٌ واحد، وذلك لأن كل طرف من أطراف الفتنة والقتال الذي حصل كان يعتقد نصرة الحق الذي بان له وظهر له.

حقيقة ما جرى أقرب مثال لها: تأديب القاضي لمن يعتقده مخطئًا، أقرب مثال وصورة تقرِّب لنا فهم الموضوع، وأن المسألة كانت اجتهادًا: تأديب القاضي لمن كان مخطئًا، قاضي يعتقد أن هذا مخطئ فيعزره باجتهاده، هل القاضي يحمل البغض والحقد والعداوة لهذا الإنسان، أو هو ساعٍ في تأديبه وتقويمه وإصلاحه؟ هكذا كان الأمر في حق أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، كانت القضية أن كل طرف يعتقد أنه ينصر حقًا، وأنه يمنع الآخَر مما ليس بحق، والمظنون بهم أن كل الأمر قد زال وانتهى، ولم يَعُد ثمة حزازات في النفوس بمجرد انتهاء تلك الفتنة وانقضائها، والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونرىٰ أنه يجب الكف عن مساويهم، فلا نذكرهم إلا بما يستحقونه من الثناء الجميل، وأن نطهر قلوبنا من الغل والحقد علىٰ أحد منهم، لقوله تعالىٰ فيهم: ﴿ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد:١٠]، وقول الله تعالىٰ فينا: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

قال الشارح وفقه الله:

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وهذا آخر ما ذكر في هذا الموضع-: (ونرى أنه يجب أن نكف عن مساويهم فلا نذكرهم إلا بما يستحقونه من الثناء الجميل).

هذا هو شأن أهل السنة والجماعة، لا يذكرون أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بالذكر الحسن وبالحمد الجميل والثناء العطر، وهذا فرع عن صادق حبهم لهم في الله عز وجل.

والأمر في ذلك أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ نحن نعتقد فيهم الفضيلة لا العصمة، أصحاب النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ورضي الله عنهم عندنا معشر أهل السنة والجماعة فاضلون لا معصومون، والقاعدة في هذا المقام هي: أن الفضيلة لا تعني العصمة، وأن العدالة لا تنافي الوقوع في الخطأ. فأصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

نحن نقول: إنهم أهل فضل وعدالة ورتبة منيفة، لكنهم ليسوا معصومين، ليسوا أنبياء، ولذا يجوز على الواحد منهم ما يجوز على البشر من الخطأ، وكل ابن آدم خطَّاء كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذن: لو أحد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في خطأ أو معصية ما الذي يجب علينا؟ يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: أن نغض الطرف ونعرض ونهمل ونتغافل عن هذا الموضوع، فضلًا عن أن نشيعه ونبثه بين الناس.

قال: (ونرى أنه يجب أن نكف عن مساويهم، فلا نذكرهم إلا بما يستحقونه من الثناء الجميل).

وقل خير قول في الصحابة ... ولا تك طعانًا تعيب وتجرح

واعلم أن ما يروى في كتب التواريخ والأدب من شيء يشعر بوقوع أحد منهم في زلة أو خطأ أن هذا لا يخلو من ثلاث أحوال:

أولًا: أن يكون كذبًا، وأكثر ما ورد في مساوي الصحابة لا يصح، وهذا نص عليه الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في السير، أكثر ما يُروى مما يشعر بالقدح في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فإنه لا يصح، وما لا يصح قد كُفينا مؤنته، واجب اطّراحه.

الأمر الثاني: أن يُروى شيء يشعر بخلاف المعهود عنهم من العدالة والفضل، ولكنَّ له محملًا حسنًا، أثر صحيح ويمكن أن نحمله على محمل حسن، يحتمل محملًا سيئًا ويحتمل محملًا حسنًا، ما الذي يتعين علينا؟ أن نحمله على المحمل الحسن، إذا كان هذا مطلوبًا منا في حق آحاد المسلمين، فكيف بأولئك الخيار

الأفاضل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ؟ حقهم على الأمة يقتضي أن نحمل ذلك ما أمكن على أحسن المحامل.

الأمر الثالث: أن يصح ولا نقف له على محمل حسن، فنعتقد أن ذلك كان منهم عن اجتهاد مسوغ لهذا الخطأ الذي كان، حصل منهم على سبيل الاجتهاد المسوغ أو على سبيل الخطأ والسهو، والعلم عند الله عز وجل.

ومهما يكن من شيء، هب أنه قد تحقق وقوع ذنب صريح لا إشكال فيه من أحدهم، فإننا نقول: إن هذا الذنب والخطأ يكتنفه واحد من خمسة أمور أو أكثر:

الأول: أن يُغفر لهذا الصحابي بسبب توبته إلى الله منه، والمعهود من حالهم أنهم أسرع الناس إلى التوبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

الأمر الثاني: أن يُغفر له هذا الخطأ بسبب سابقتهم إلى الإسلام، وقد ثبت في الصحيحين قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -والخطاب لعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

الأمر الثالث: أن يُغفر لأحدهم هذا الذنب بسبب عمل صالح قد قام به، ومن المعلوم عندكم قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود:١١٤]، هذا في شأن الحسنات مطلقًا، فكيف بحسناتٍ ذات وزن وثقل عظيم، كما مر بنا في الحديث الماضي: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»، حسناتهم ليست كبقية الحسنات.

الأمر الرابع: أن يُغفر لهذا المخطئ خطؤه بسبب بلاءٍ قد حصل عليه في هذه الدنيا، والقاعدة قد استقرت في الشريعة والأدلة عليها متعددة تدل على أن المصائب كفارات لأصحابها.

الأمر الخامس: أن يُغفر لهذا المخطئ خطؤه بسبب شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا شك أنهم أولى الناس بشفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكيف لا وهم أصحابه، وكيف لا وهم أعظم الناس توحيدًا وأبعدهم عن الشرك، ومن حقق هذا الوصف كان أولى الناس بالشفاعة، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قال في شأن شفاعته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا»، أبعد الناس عن الشرك هم الصحابة، إذًا النتيجة: أولى الناس بالشفاعة هم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

والمهم أن مِن المخذولين مَن يتسلل مما روي فيما يظنون أنه مساوئ جرت من أحد من الصحابة، يتسللون من هذا إلى الطعن فيهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بل وصل الحال ببعض المخذولين إلى أن يكفِّرهم جميعًا إلا نزرًا يسيرًا، بل ربما تقربوا إلى الله بالطعن والسب واللعن لهم، بل لأفاضلهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، وهذا -والله- هو الخذلان، نعوذ بالله من الخذلان!

واعلم -يا رعاك الله- أن الطعن في الصحابة طعن يشمل أربعة أمور:

أولًا: هو طعن فيهم، وبالتالي كان طعنًا في هذه الأمة، إذا كان خير الأمة مطعونًا فيه فكيف بالأمة؟ أليس كذلك؟ هؤلاء هم الصفوة من هذه الأمة وهم مطعون فيهم، وهم مثلوبون، إذًا هذه الأمة شر الأمم.

والأمر الثاني: أن الطعن فيهم يلزم منه الطعن في رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، لأن الأمر عند الناس جميعًا معلوم في أحوالهم بل في فِطَرهم أنه يُحكم على الإنسان بقرينه.

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ....

فالناس تحكم على الشخص بحسب ممشاه، بحسب من يقارنه، فإذا كان هؤلاء مطعونًا فيهم وهم أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الذين هم حوله في الحِل والحرم، في الترحال وفي الحضر، إذًا سوف يلزم من هذا الطعن في رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وما أحسن ما قال الإمام مالك رَحِمَهُٱللَّهُ في هذا المقام: أولئك قومٌ أرادوا الطعن في رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فما استطاعوا، فطعنوا في أصحابه حتى يقال: رجل سوء، ولو كان رجلًا صالحًا لكان له أصحاب صالحون.

إذن: يلزم من الطعن في الصحابة الطعن في رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

الأمر الثالث: أنه يلزم من الطعن في الصحابة الطعن في الشريعة من أولها إلى آخرها، تصبح شريعة مطعون فيها برمَّتها، لأن هذه الشريعة قيامها على القرآن والسنة، والقرآن والسنة من الذي نقلهما إلينا؟ هل وصل إلينا حرف من القرآن من غير طريق الصحابة؟ هل وصل إلينا حرف من الحديث من غير طريق الصحابة؟ إذًا كيف تكون هذه الشريعة شريعة صحيحة والوسيلة والإسناد والطريق إلى وصول هذه الشريعة إلى هذه الأمة إنما كان عن طريق مطعون فيهم،

إذن هذه الشريعة من أولها إلى آخرها سوف تكون شريعة منقوضة مطعونًا فيها، هؤلاء أرادوا أن يقدحوا في الشريعة فقدحوا في حملتها رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم.

الأمر الرابع: أنه يلزم من الطعن في الصحابة القدح في حكمة الله عز وجل.

يا لله العجب! هذه الأمة التي هي خير الأمم يكون صفوتها وأولها ومن يوصفون فيها بالخيرية مطعونًا فيهم!!

أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذين هم حوله ومعه ويكتبون وحيه، ويدوِّنون وينقلون سنته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويجاهدون معه وهم مطعون فيهم، هذا يتنافى وحكمة الله عز وجل، كل الأمم تعتقد أن أصحاب رسولها خير الناس، هذا الذي تقتضيه حكمة الله عز وجل، وهؤلاء المخذولون يجعلونهم شر الناس، والله المستعان!

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (لقوله تعالى فيهم: ﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [الحديد:١٠]) هذا دليل على فضيلتهم، ودليل على التفضيل فيما بينهم، لقوله: ﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ [الحديد:١٠]، والفتح ما هو؟ مر بنا في شرح الواسطية، جمهور أهل العلم على أنه فتح مكة والذي كان في السنة الثامنة.

والقول الثاني الذي ذهب إليه طائفة من أهل العلم: أن الفتح هاهنا هو صلح الحديبية الذي كان في السنة السادسة، وفي صحيح البخاري عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ما يفيد أن هذا هو الفتح، والله تعالى أعلم.

كـذلك قـال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقـول الله تعـالى فينـا: ﴿وَالَّـذِينَ جَـاءُوا مِـنْ بَعْـدِهِمْ يَقُولُـونَ رَبَّنَـا اغْفِرْ لَنَـا وَلِإِخْوَانِنَـا الَّـذِينَ سَبَقُونَا بِـالإِيمَانِ وَلا تَجْعَـلْ فِي قُلُوبِنَـا غِـلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠])، الحق المتعين على هذه الأمة بعد الصحابة: أن تلهج ألسنتهم بالثناء والدعاء، فيستغفرون ويترضون عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

وأيضًا: أن تمتلئ قلوبهم حبًا لأصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر:١٠].

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آية الإيمان: حب الأنصار، وآية النفاق: بغض الأنصار»، وإذا ثبت هذا في حق الأنصار فلأن يثبت في حق المهاجرين من باب أولى، لأنهم جمعوا بين الهجرة والنصرة.

فمن أعظم ما يتقرب به الإنسان إلى الله عز وجل: حب أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي الله تعالى عنهم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن باليوم الآخر، وهو يوم القيامة الذي لا يوم بعده، حين يبعث الناس أحياء للبقاء: إما في دار النعيم، وإما في دار العذاب الأليم.



قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الكلام عن الركن الخامس من أركان الإيمان وهو: الإيمان باليوم الآخِر، ومن المعلوم بالاضطرار من دين الله عز وجل: وجوب الإيمان باليوم الآخِر، والحياة الآخرة التي تكون بعد هذه الحياة، بل هذا -كما سمعت- ركن من أركان الإيمان، كما دل على هذا حديث جبريل المشهور حينما عدَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخِر.

والكفر باليوم الآخِر ضلال بعيد، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا﴾[النساء:١٣٦].

ومبحث اليوم الآخر عند أهل العلم يتضمن ثلاثة موضوعات رئيسة، كلها مما يؤمن به أهل السنة والجماعة:

المبحث الأول: الإيمان بما يكون في البرزخ.

والبرزخ المراد به تلك الفترة التي تكون بين الموت، مغادرة هذه الحياة الدنيا وقيام الساعة.

والبرزخ يتضمن الإيمان بأمور:

۞ أولًا: بما يكون عند الاحتضار مما أخبر الله به ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

۞ والأمر الثاني: ما يكون من ضمة القبر وضغطة القبر التي صحت بها الأحاديث عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

۞ والأمر الثالث: ما يكون في البرزخ من الفتنة، الاختبار والامتحان الذي هو سؤال الملكين في القبر، فيسألان كل ميت عن ربه ودينه ونبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

۞ والأمر الرابع: الإيمان بما يتعلق بنعيم القبر وعذابه، فإن القبر إما أن يكون روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران، نسأل الله فضله ونعوذ بالله من عذاب القبر!

هذه المسائل التي تنتظم الإيمان بما يكون في البرزخ.

الموضوع الرئيس الثاني: ما يتعلق بالساعة وأهوالها ومواقفها، فإن القيامة إذا قامت ثمة مواقف وأهوال شديدة بيَّنها الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والمؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ ساق من ذلك جملة مما يتعلق بإيتاء الصحف والوزن والشفاعة والحوض وما إلى ذلك.

الأمر الثالث: هو الإيمان بالجنة والنار وما فيهما، فإن الجنة دار النعيم، نسأل الله أن يدخلنا الجنة! وإن النار دار العذاب والجحيم، نعوذ بالله من النار!

وقد جاء في الأدلة وصف الجنة وما فيها ومَن فيها، ومن هم أهلها وكيف حالهم فيها، وكذلك ما يتعلق بجهنم، نعوذ بالله منها! فيجب الإيمان بكل ذلك،

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ -أيضًا- أشار إلى شيء من هذا، أشار إلى نبذة في كل موضوع من هذه الموضوعات الثلاثة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونؤمن باليوم الآخِر، وهو يوم القيامة).

يوم القيامة واليوم الآخِر ربما يُطلق بمعنىً خاص وهو ما يكون مما يكون بعد نفخة الصور النفخة الثانية وإلى استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، فهذا هو المعنى الخاص لليوم الآخِر وللقيامة، وهذا بمصطلح القيامة أو يوم القيامة ألصق.

وتُطلق كلمة اليوم الآخِر والمراد: كل ما يتعلق بالحياة الآخرة من البرزخ وإلى دخول الجنة والنار.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حين يُبعث الناس أحياءً للبقاء: إما في دار النعيم، وإما في دار العذاب الأليم)، يعني: أن الساعة أو القيامة الله عز وجل يحيي فيها الناس حياة أخرى تختلف عن هذه الحياة الدنيا، الناس في هذه الحياة يحيون حياة مؤقتة، أما في ذلك اليوم فإنهم يحيون حياة مؤبدة، تعود أرواحهم إلى أجسادهم بعد أن يتكامل عودها في القبور، فإن الأجسام تتحلل في القبور، والأرض تأكل الأجساد إلا ما شاء الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ثم إن الله عز وجل قبيل قيام الساعة، قبيل نفخ الصور النفخة الثانية يرسل سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مطرًا أو ماءً كالطل أو كالظل تنبت منه أجسام بني آدم، تعود تلك الأجساد مرة أخرى وطورًا آخر، الله عز وجل قد خلق الناس

طورًا بعد طور، فيعودون طورًا آخر وتعود أرواحهم في أجسادهم حينما يأذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بقيام الساعة.

المقصود: أن الناس إذا تكامل خلْقهم في قبورهم فيأذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الوقت الذي يشاء بأن ينفخ إسرافيل عليه السلام نفخة البعث، فيقوم الناس لرب العالمين، وهذه هي القيامة، وهذه هي الساعة.

وينبغي أن نعلم أمرين يتعلقان بها:

الأول: أن الساعة قريبة.

والثاني: أن لها وقتًا استأثر الله عز وجل بعلمه.

وقد جمع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هذين الأمرين في قوله جل وعلا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ [النازعات:٤٢-٤٤]، ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣]، فعلمها إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤]، لها وقت محدد ومعين لكن لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى.

ولذا لما سأل جبريل عليه السلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، فلا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا جبريل عليه السلام فضلًا عمن دونهما يعلمون متى تكون الساعة، هذا شيء استأثر الله عز وجل بعلمه.

أيضًا مع ذلك فإن قيام الساعة شيء قريب، والقُرْب قضية نسبية، يعني: بالنسبة إلى الزمن منذ مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى انتهاء هذه الحياة فإن قيام الساعة شيء قريب إذا قُورِنت هذه المدة بما مضى من عُمُر الدنيا، ولذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، ويقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ثبت عنه في الصحيحين: «بُعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسبابة والوسطى.

فهذا يدل على القرب الشديد بين مبعث النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقيام الساعة، ولكن المسألة -كما ذكرت- مسألة نسبية، يعني: هذا قُرْب بالنسبة لما مضى من عُمُر الدنيا.



قال المصنف رحمه الله:

فنؤمن بالبعث وهو إحياء الله تعالىٰ الموتىٰ حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية، قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين، حفاةً بلا نعال، عراة بلا ثياب، غرلًا بلا ختان، قال تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

قال الشارح وفقه الله:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فنؤمن بالبعث)، البعث: هو إحياء الناس وإخراجهم من قبورهم للحساب والجزاء، وهو الذي عُبِّر عنه -أيضًا- بالنشور، قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:١٥].

والبعث أصلٌ من أصول الملة التي تكاثر في الأدلة بيانها وإثباتها، وهي أعظم الأمور التي أنكرها المشركون بعد التوحيد، ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

فالبعث حق لا شك فيه، والناس إذا ماتوا وقُبِروا فلن يكون هذا نهاية المطاف، خطأ وأيُّ خطأ ما يقوله بعض الناس إذا ذكروا موت أحد قالوا: إنه دُفِن في مثواه الأخير. نسمع هذا ونقرأ هذا -أيضًا- يقولون: فلان دُفِن في مثواه

الأخير. هذا كذب، هذا كلام باطل ليس بصحيح، ليس الموت وليس القبر مثوىً أخيرًا، إنما هي مرحلة من المراحل، أما المثوى الأخير فإنه تلك الدار التي تكون بعد ذلك إما جنة للمؤمنين، وإما نار للكافرين.

فهذه مرحلة من المراحل وهي ما يكون في البرزخ كما أسلفت.

المقصود: أن الكفار كانوا ينكرون ذلك أشد الإنكار، وهذا من سَفَه وضعف عقولهم، ما حجتكم؟ وما دليلكم؟ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨]، سبحان الله! ما أدراكم وما أعلمكم؟ أليس الذي أنشأكم أول مرة وأنتم تقرون بذلك قادرًا على أن يعيدكم مرة أخرى؟ أليس العقل الرشيد يسلِّم بأن الإعادة أسهل من الإنشاء، الإعادة لشيء كان موجودًا أسهل من إنشاء شيء كان معدومًا ولم يكن موجودًا، فإذا كان الله عز وجل قد قدر على الخلق فهو على الإعادة أقدر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المقصود: أن هذا الأمر حق لا شك فيه، وهو أن الله عز وجل سيحيي الناس لأجل أن يُحاسبوا ثم أن يُجازوا.

قال: (حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية)، إسرافيل عليه السلام هو المَلَك الموكَّل بالنفخ في الصور بالإجماع، كما ذكرنا هذا فيما مضى.

والنفخ في الصور يتعلق به أمران: يتعلق به انتهاء حياة، ويتعلق به ابتداء حياة.

النفخة الأولى يتعلق بها انتهاء الحياة على هذه البسيطة، فإنه إذا بقي من بقي في هذه الحياة في آخر أيام هذه الدنيا وأذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لإسرافيل أن ينفخ في الصور فإن بهذا النفخ يُصعق الناس ويهلكون، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨]، هذه هي النفخة الأولى التي هي نهاية حياة، ثم يأذن الله عز وجل بنفخة أخرى، هذه بداية حياة، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، فشأن هذا المَلَك الكريم شأنٌ عظيم، أوكل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به هذا الأمر المهم والعظيم وهو إنهاء ما بقي من هذه الحياة على هذه البسيطة، ثم بعد ذلك يحيي الله عز وجل الناس بواسطة هذا النفخ الذي يكون من إسرافيل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال: (حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية)، الصور سئل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه ففسَّره بقوله: «قرنٌ يُنفخ فيه»، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأنه: «قرن يُنفخ فيه»، والمقصود بذلك من جهة اللغة بالقرن أو الصور يعني: ما يعرفه الناس ويسمونه بالبوق، تلك الآلة المجوَّفة التي يُزمَر بها، التي هي ضيقة في طرف وواسعة في طرف آخر. هذا قدْر مشترك يعرفه الناس في هذا القرن أو في هذا الصور، ولكن لا شك أن الحقيقة التي عليها ذاك الصور الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام لا شك أنها حقيقة عظيمة، والله عز وجل أعلم بكيفية هذا الصور.

المقصود: أن هذا الصور أوكل الله عز وجل به إسرافيل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وثبت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن صاحب الصور ما طرف مذ وُكِّل به. الطَّرْف ما هو؟ هذه حركة العين، يقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما طَرَف صاحب الصور مُذ وُكِّل به» لأنه يخشى أن يأتيه الأمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنفخ في أثناء طرفه. انظر إلى عظيم استجابة وطاعة الملائكة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ويقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: النفخة الثانية. والصحيح من كلام أهل العلم ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن النفخ في الصور يكون مرتين، فهما نفختان، وأما القول بأن النفخ في الصور يكون ثلاث مرات فإنه قول مرجوح، والعلم عند الله عز وجل، إنما هما نفختان، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

إذن: هما نفخة صعق ونفخة بعث.

أما قول الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ [النمل:٨٧] فإن الفزع لا يتنافى مع الصعق، فإنه يكون قبل حصول الصعق، فيفزع الناس لأن تلك الصيحة صيحة عظيمة جدًا، تأخذ القلوب بالخوف والرهبة فيفزعون، ثم على إثر ذلك يُصعقون.

فهما نفختان بينهما أربعون، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بين النفختين أربعون»، قالوا لأبي

هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أربعون يومًا؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت. يعني: لا أجيبكم، والسبب أنه ما بلغه أو ما سمع من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تحديدًا لهذه الأربعين، فهو يبِّلغ ما سمع عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فالله أعلم ما هي هذه الأربعون: أهي أربعون يومًا، أو أربعون سنة، أو أربعون شهرًا، الله تعالى أعلم، لكننا نؤمن أن بين النفختين أربعون، والعلم عند الله عز وجل.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].)

هذه النفخة الثانية هي علامة الساعة، إذا كانت قام الناس لرب العالمين، وقامت القيامة، وكانت الساعة، وهي التي قال الله عز وجل عنها: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر:٨]، وهي التي قال الله عز وجل -أيضًا-: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات:٦-٧]، الراجفة هي نفخة الصعق، والرادفة هي نفخة البعث كما قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (فيقوم الناس من قبورهم)، إذا نُفِخ في الصور هذه النفخة قام الناس، قال جل وعلا: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١]، إذا نُفِخ في الصور حيي الناس وقاموا من قبورهم.

ويجب علينا أن نؤمن بأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أول من تنشق عنه الأرض، أول من يخرج من قبره من الناس هو نبينا الكريم محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ثبت هذا عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صحيح مسلم.

ويقوم بعد ذلك الناس، وإذا قاموا من قبورهم فإنهم يكونون على هيئة أخبر عنها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: (فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة بلا نعال، عراة بلا ثياب، غرلًا بلا ختان)، هذه صفات ثلاث للناس إذا قاموا من قبورهم.

أولًا: أنهم يكونون حفاة، فلا توجد نعال ينتعلونها، يكونون حفاة.

الصفة الثانية: أنهم يكونون عراة، ولما سألت عائشة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه المسألة وهي: أن الناس يكونون عراة في ذلك المقام العظيم، الرجال والنساء جميعًا، فأجاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «الأمر أعظم من أن يُهمهم ذلك» من أن ينظر رجل إلى امرأة أو تنظر امرأة إلى رجل، المقام مقام عظيم.

وينبغي علينا أن نؤمن أن الناس إذا قاموا -كما أسلفت- يكونون عراة لكنهم بعد ذلك يُكسون، يعني: يلبسون ثيابًا.

ويدل على هذا ما ثبت في صحيح البخاري من قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أول من يُكسى إبراهيم عليه السلام»، هذا قوله: (أول) يدل على أن هناك من

يُكسى بعده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فأول من يُكسى هو إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ثم نبينا محمدٌ صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما ثبت هذا عن علي رَضِيَٱللَّهُ عَنْهُ بإسناد صحيح قال: «أول من يُكسى إبراهيم ثم محمدٌ صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

هل هذا يعني أفضلية إبراهيم على محمد صلى الله عليهما وسلم؟ لا، وما القاعدة هنا؟ الفضيلة الخاصة لا تقتضي التفضيل.

الصفة الثالثة: أنهم يكونون غرلًا. غرلًا جمع أغرل، والأغرل غير المختون، بمعنى: أن من كان مختونًا فإنه تعود إليه تلك الجلدة التي كانت على ذَكَره وقُطِعت، تعود مرة أخرى ليتحقق قول الله عز وجل: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا﴾ [الأنبياء:١٠٤]، فيتحقق ما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، فيتكامل خلق الناس كما كان أول مرة، والله المستعان!

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

إذا بُعِث الناس كان بعد ذلك الحشر، إذا بُعِثوا وأُحيوا وقاموا من قبورهم إنهم بعد ذلك يُحشرون إلى أرض المحشر، وهذه الأرض وصفها النبي صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في الصحيحين- بأنها أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد. كم صفة؟ أربع صفات: بيضاء عفراء، يعني: بياضها ليس بياضًا ناصعًا، يضرب إلى الحمرة.

قال: بيضاء عفراء كقُرصة النقي، القُرصة يعني: الخبزة، ما نسميه القرص، يعني: الخبزة، والنقي هو الدقيق الصافي، والخبزة المصنوعة من الدقيق الصافي تكون مستوية، ما فيها نتوءات ولا حُفَر ولا شيء من هذا، كذلك الأرض تكون أرضًا مستوية كقُرصة النقي ليس فيها معلم لأحد، ليس هناك علامات يعرف الناس بها المواقع والأماكن كما هو الحال على هذه الأرض، الناس يتعارفون بعلامات من جبال، من أودية، من علامات منصوبة، أما يوم القيامة فالأرض ليس فيها علامة من العلامات، فيتحقق قول الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

الصحيح من كلام أهل العلم أن الأرض تتبدل صفات وذاتًا، الأرض في صفاتها تتغير وهي في ذاتها تتغير، وثبت عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: «يُحشر الناس على أرض بيضاء نقية كأنها فضة، لم يُسفك فيها دم حرام ولم يُعمل فيها بخطيئة»، أرض بيضاء كأنها فضة نقية، وأيضًا لم يُسفك فيها دم حرام ولم يُعمل فيها بخطيئة. وأثر الصحابي -كما تعلَّمنا- في هذه المقامات الغيبية له حكم الرفع إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فهذه صفة الأرض التي يُحشر الناس عليها.

أما حالهم إذا حُشِروا فإنها أحوال متفاوتة مختلفة، الكفار يُحشرون على حال بئيسة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء:٩٧]، نسأل الله السلامة والعافية!

يُحشرون على وجوههم، يعني: يمشون على وجوههم. سبحان الله العظيم! في الصحيحين: أن رجلًا سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كيف يُحشر الكافر على وجهه؟ فانظر ماذا أجاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه في الآخرة» ما الجواب؟ بلى والله، الله على كل شيء قدير، فانظر إلى هذه الهيئة البائسة أن الكافر يمشي على وجهه.

وليس الأمر هذا فحسب، بل يكون كما قال الله عز وجل: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء:٩٧]، يفقدون هذه الحواس، والظاهر -والله تعالى أعلم- أن هذا إنما يكون أول ما يُبعثون ثم تعود إليهم بعد ذلك حواسهم، وهذا ما يقتضيه الجمع بين الأدلة، فإنهم يتكلمون ويتحاجون في النار، ويسمعون جواب بعضهم وجواب الملائكة.. إلى آخره، والله عز وجل يسألهم ويحاسبهم ويجيبون، فدل هذا على أن هذه الحواس -والعلم عند الله عز وجل- تعود إليهم بعد ذلك.

وأفيدك -يا طالب العلم- بفائدة مهمة في مباحث اليوم الآخِر وهي: أن الأدلة في هذا الباب كثيرة، وربما يظهر لك أول وهلة حصول شيء من التعارض بينها.

والجواب القوي المهم الذي ينفعك في الجمع بين هذه النصوص هو: أن ذلك اليوم يومٌ طويل ومواقفه كثيرة، وعليه؛ فبعض الأدلة تُحمل على وقت دون وقت أو مقام دون مقام، والأخرى على وقت آخر ومقام آخر، وقد أجاب بنحو هذا الجواب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما في صحيح البخاري في إجابته لمسائل سُئِل عنها، والظاهر أنها مسائل نافع بن الأزرق الخارجي، فإنه بيَّن أنه يومٌ طويل، ففي بعض الأحوال يكون الحال كذا وفي بعض الأحوال يكون الحال كذا والعلم عند الله عز وجل.

أيضًا من أحوال الناس في ذلك اليوم: ما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المتكبرين يُحشرون كأمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان. سبحان الله العظيم! المتكبر يُحشر. صورته صورة رجل لكن حجمه حجم نملة، الذرُّ هو النمل الصغير، ثبت هذا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا جزاء وفاق، كما أنه كان يتعالى على الخلق الله عز وجل يجعله صاغرًا في ذلك اليوم.

أيضًا من أحوال الناس في ذلك اليوم العظيم: ما ثبت في صحيح البخاري عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الذي يسأل الناس تكثرًا يُحشر وليس في وجهه مزعة لحم،

يعني: وجهه يصبح ما فيه ولا قطعة لحم، كأنه يصبح -كما يسمونه- هيكل عظمي، ليس في وجهه مزعة لحم. نسأل الله السلامة والعافية! من هذا؟ الذي يسأل الناس تكثرًا، عنده ما يكفيه ولكنه يستكثر، يطلب المزيد.

أيضًا من أحوال الناس في ذلك اليوم: أن أهل الوضوء يُحشرون غرلًا محجلين من آثار الوضوء.

أيضًا من أحوال الناس في ذلك اليوم: أن الشهداء يُحشرون ودماؤهم تسيل، اللون لون الدم والريح ريح المسك. نسأل الله من فضله!

وفي الجملة: يُحشر أهل الإيمان على أحسن حال، ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم:٨٥]، (وَفْدًا) يعني: مكرَمين. يقول: اليوم جاء الوفد، يعني: من أُكرموا. ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٥-٨٦]، (وِرْدًا) يعني: عطاشًا. نسأل الله السلامة والعافية.

كذلك مما يجب أن نؤمن به في ذلك المقام: أن الحيوانات تُحشر، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥]، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، فهذا يدل على أن الحيوانات تُحشر، ويتحقق عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حيث أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يُقتص في ذلك اليوم العظيم

للشاة الجماء من الشاة القرناء، كما ثبت هذا في صحيح مسلم عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومما ينبغي أن نؤمن أو يجب أن نؤمن به -أيضًا- في ذلك اليوم العظيم: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحشر الناس جميعًا فلا يتخلف أحد، أحصاهم الله عز وجل وعدَّهم عدًا، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:٩٥].

ثبت في الصحيحين عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «يحشر الأولون والآخِرون في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر»، الأولون والآخرون من لدن آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي هو أبو البشر وإلى آخر إنسان في هذه الحياة، كلهم يُحشرون في موضع واحد وفي مكان واحد وهو أرض المحشر كما أخبر بذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

في ذلك المقام إذا حُشِر الناس فإنه يطول مقامهم ويعظم كربهم، حتى إن الأمم تكون جاثية، ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية:٢٨]، يَصِل الأمر إلى حد أن تبلغ القلوب الحناجر، وهذا -والله أعلم- على حقيقته وظاهره، فإنه مع الخوف القلب يرتفع فيصل القلب إلى حد الحناجر، ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر:١٨]، كل امرئ له شأن يغنيه، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧]،

يصل الأمر إلى حد أن تشيب رؤوس الأطفال، إلى هذه الدرجة تشيب رؤوس الأطفال، ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل:١٧].

تبيَّض فيه وجوه وتسودُّ فيه وجوه، كما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وتدنو الشمس من الخلائق، كما ثبت في صحيح مسلم عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تكون منهم بمقدار ميل، قال سليم بن عامر أحد رواة هذا الحديث رَحِمَهُ اللَّهُ: «فوالله ما أدري ماذا أراد بالميل، أميل المسافة أم ميل المكحلة»، وكلاهما -والله- إن كان هذا أو هذا فالأمر -والله- عظيم، فإن الشمس و قربت في هذه من الأرض ولو شيئًا يسيرًا لاحترق كل ما على هذه البسيطة، فكيف إذا بلغت منهم إلى مقدار ميل وليكن ميل المسافة، فلا شك أن المقام مقام عظيم.

فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الناس يعرقون، ويختلف حالهم بحسب أعمالهم، منهم من يكون عَرَقه إلى حد كعبيه، ومنهم من يكون عرقه إلى حد ركبتيه، ومنهم من يصل عرقه إلى حقويه، إلى موضع عقد الإزار، ومنهم من يلجمه العرق وأشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى فِيْه، فهذا يدل على أن حال الناس في ذلك اليوم حال عظيمة جدًا، يصيبهم من الكرب الشيء العظيم، والله المستعان!

لكن فاتني أن أنبه إلى أن من شاء الله عز وجل تخفيف ذلك المقام عليه فإنه يخفف عليه، ومن أولئك: السبعة الذين يظلهم الله عز وجل في ظله يوم لا ظل إلا ظله، أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بصحائف الأعمال تعطىٰ باليمين، أو من وراء الظهور بالشمال، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق:٧-١٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

قال الشارح وفقه الله:

فيذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من جملة عقيدة أهل السنة والجماعة إيمانهم بإيتاء الصحف يوم القيامة، وهذا موقف من مواقف القيامة التي دلت عليها الأدلة وآمن بها المؤمنون.

قال: (ونؤمن بصحائف الأعمال)، قال العلماء: صحائف الأعمال تلك التي كُتبت فيها أعمال ابن آدم، وقد مر بنا -إن كنتم تذكرون- عندما تكلمنا عن وظائف الملائكة عليهم الصلاة والسلام أن الله عز وجل أوكل بملكين حفظ وكتابة أعمال الإنسان، هذه الصحف التي كُتبت فيها الأعمال يعطاها ابن آدم في ذلك الموقف العظيم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء:١٣]، (طَائِرَهُ) قيل: إنه ما طار عنه ولزمه مما كتب الله عز وجل من

سعادة أو شقاوة، فما كتبه الله عز وجل على ابن آدم فإنه حاصل ولابد، ولا يمكن أن يغالَب الله عز وجل في قَدَره.

وقيل: إن (طَائِرَهُ) يعني: عمله، ما صدر عنه وطار عنه من عمل فإن هذا سوف يلقاه في ذلك الموقف العظيم، ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣] مفتوحًا لا يكلف نفسه بفتحه، سوف يجده أمامه مفتوحًا، ويقال له: اقرأ كتابك، حتى ولو كان غير قارئ في الدنيا سيجعله الله قارئًا في ذلك الموقف، ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]، وهذا من عدْل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي جعلك حسيبًا وشهيدًا على نفسك.

ويقول الله عز وجل -أيضًا-: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، هو العدل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يظلم أحدًا.

ومن ذلك -أيضًا- قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩]، فكل ما عمله الإنسان في هذه الحياة سيشاهده مكتوبًا بين عينيه وسيقرؤه ليكون حسيبًا وشهيدًا على نفسه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونؤمن بصحائف الأعمال تعطى باليمين أو من وراء الظهور بالشمال)، حال الناس في تلقُّف وتلقي هذه الصحف يرجع إلى حالتين: من الناس مَن يأخذ كتابه بيمينه من أمامه، وهؤلاء هم السعداء فهنيئًا لهم، هم الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:٧-٩]، وهم الذين قال الله عز وجل في حقهم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة:١٩-٢٢]، نسأل الله من فضله .

يقابلهم أهل الصفة الثانية، وهم الذين يجمعون بين أخذهم الكتاب بالشمال ومن وراء الظهر أيضًا، نعوذ بالله من هذه الحال! وهذا ما يقتضيه الجمع بين آيتي الانشقاق والحاقة، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ [الانشقاق:١٠-١٢]، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحاقة: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة:٢٥-٢٧]، فهؤلاء يجمعون بين كونهم آخذين كتبهم بشمالهم ومن وراء ظهورهم، وكيف يكون ذلك؟

من أهل العلم من قال: إنها تُلوى يده الشمال فيأخذ الكتاب من وراء الظهر.

وقيل: إنها تُخلع وتُركَّب من خلف الظهر، فيكون آخذًا كتابًا بشماله ومن وراء ظهره.

وقيل: إنه يخرق صدره، يدخِل يده فيخرق صدره فيأخذه كتابه بشماله من وراء ظهره.

والأسلم في هذا أن نقول: الله تعالى أعلم، والله على كل شيء قدير، هو قادر على أن يجعلهم آخذين كتبهم بشمالهم ومن وراء ظهورهم.

ويبقى بعد ذلك الحال في العصاة الذين شاء الله عز وجل تعذيبهم على معاصيهم، هل يأخذون كتبهم بأيمانهم، أو يأخذون كتبهم بشمالهم، أو كيف يكون الحال؟

ظاهر ما جاء في الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم في آيتي الانشقاق والحاقة أنهم من أهل الجنة من أول وهلة، لكن هؤلاء عصاة يُعذَّبون في النار ما شاء الله أن يُعذَّبوا، لم يعفُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنهم، ولابد من طائفة من العصاة أن يُعذَّبوا في النار كما دلت على هذا جملة من سنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

أقول: اختلف العلماء في هؤلاء العصاة.

من العلماء مَن قال: إن هؤلاء -أيضًا- يأخذون كتبهم بأيمانهم، ثم اختلفوا، قيل: إنهم يأخذون كتبهم بأيمانهم قبل دخولهم النار ليكون ذلك علامة على عدم خلودهم في النار.

وقيل: إنهم يأخذون كتبهم بأيمانهم ولكن بعد خروجهم من النار. نعوذ بالله من النار!

وقال بعض أهل العلم: إنهم يأخذون كتبهم بشمالهم من أمامهم، فلا حالهم حال السعداء الذين هم من أهل الجنة من أول وهلة، فيأخذون كتبهم بشمالهم لا بأيمانهم، ولا حالهم حال الكفار الذين يأخذون كتبهم من وراء ظهورهم، فهم بين بين.

والأسلم في هذا أن يُقال: الله تعالى أعلم، لا ندري كيف سيكون الحال.

وأنت إذا تأملت في أدلة ما جاء في اليوم الآخر تجد أنه كثيرًا ما يُسكت عن بيان حال هذه الفئة، تجد أنه يُبيِّن حال المتقين ويُبيِّن حال الكافرين، وأما هؤلاء الذين هم أهل الكبائر، الذين لم يشأ الله مغفرة ذنوبهم وشاء تعذيبهم فهؤلاء تجد أنه كثيرًا ما يُسكت عن بيان حالهم، ولعل في هذا ما فيه من التخويف والتحذير والإنذار، والعلم عند الله عز وجل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونؤمن بصحائف الأعمال تُعطى باليمين أو من وراء الظهور بالشمال، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٧-٨])، المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما تعرض لمسألة الحساب، ولعله اكتفى بذكر الحساب في هذه الآية، فإن الذي عليه جماعة من أهل العلم أن موقف الحساب يلي

موقف إيتاء الصحف، فهم يُعطون صحفهم ثم بعد ذلك يُحاسَبون، وموقف الحساب من أكثر مواقف القيامة ورودًا في النصوص.

والمراد بالحساب: سؤال الله عز وجل العباد عن أعمالهم وإيقافهم عليها، وتذكيرهم ما نسوا منه. اللّٰهم سلم سلم! موقف عظيم، لو لم يكن إلا موقف الحياء من الله عز وجل.

والحساب ينقسم إلى قسمين:

- ينقسم إلى عرض.
- وإلى مناقشة.

العرض هو الحساب اليسير، هو الذي جاء ذِكْره في هذه الآية: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]، هذا هو العرض، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال كما ثبت عنه في الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «ليس أحدٌ يحاسَب إلا هلك»، فقالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: فقد قال الله سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]. استشكلت، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكم بحكم يفيد العموم، ليس أحد يُحاسَب إلا هلك، مع أن الآية تدل على أن مِن الناس مَن سوف يُحاسَب حسابًا يسيرًا، ويتبع هذا أن ينقلب إلى أهله مسرورًا، فأجاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «إنما ذلكِ العرض، وليس أحدٌ يُحاسَب إلا هلك»، العرض بمعنى: أن تُعرض على ابن آدم أعماله ثم يُعفى عنه. اللّٰهم حاسبنا حسابًا يسيرًا.

ثبت في مسند أحمد من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا أنها سمعت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول في صلاته: «اللَّهم حاسبني حسابًا يسيرًا»، هذا من أدعية الصلاة فاحرص عليها، اللَّهم حاسبني حسابًا يسيرًا.

فلما قضى عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ صلاته سألته: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟ فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «أن يُنظر في كتابه ثم يُعفى عنه»، هذا هو الحساب اليسير، هذا حال أهل الرحمة والسعادة الذين رحمهم الله عز وجل وشملهم بعفوه.

أما القسم الثاني فإنه المناقشة، وهذا الذي أراده النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بقوله: «ليس أحدٌ يحاسَب إلا هلك»، والمراد بالمناقشة: التدقيق مع عدم المسامحة، مناقشة فيها تدقيقٌ وإحصاء ثم لا مسامحة ولا عفو، ومن الذي ينجو إذا حوسب محاسبة كهذه؟ من الذي يقول: إنني أديت كل ما أوجب الله عليَّ كما يحبه الله، ومَن الذي يقول: إنني اجتنبت كل ما نهى الله عنه، ومن الذي يقول: إنني شكرت الله عز وجل على نِعَمه.

إذن: الذي يُحاسَب ويُدقَّق عليه فإنه هالكٌ لا محالة.

إذن: هذا الموقف العظيم ينقسم -كما علمنا- إلى عرض ومناقشة، وليس أحدٌ يحاسَب حساب المناقشة إلا هلك وعُذِّب.

ومما يتعلق بموقف الحساب: أن نعلم أن أمة محمدٍ صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أول الأمم محاسبة، كما صح هذا عن رسول الله صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهم الآخِرون الأولون يوم القيامة.

أيضًا مما يتعلق بموقف الحساب: أن نعلم أن ثمة طائفة من المؤمنين مستثنون من الحساب، نسأل الله من فضله! هناك أناس من المؤمنين سوف يدخلون الجنة دون أن يُحاسَبوا، ووصف هؤلاء جاء في حديث النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فإنهم متصفون بأربع صفات، إن كنت جادًا في الحرص على أن تكون منهم فاجتهد على أن تحقق هذه الأوصاف الأربعة، وأبشر فإن فضل الله واسع.

أخبر النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالسواد العظيم جدًا الذي يفوق عدد أمة موسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، قال كما في الصحيحين: «ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم أخبر النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد ذلك بوصفهم فقال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون».

أربع صفات: لا يسترقون، لا يطلبون من أحد أن يرقيهم، يرقون أنفسهم إذا احتاجوا إلى الرقية، وإن رقاهم أحد بغير طلب لا بأس، لا يمنعوهم لأن هذا ليس استرقاء.

الأمر الثاني: أنهم لا يكتوون، والاكتواء معروف، نوع من العلاج.

والأمر الثالث: أنهم لا يتطيرون، لا يتشاءمون، لا بألوان ولا بطيور ولا بحوادث، ولا برؤية ذي عاهة، ولا بأسماء، ولا بشيء إطلاقًا، قلوبهم معلقة بالله عز وجل، يعلمون أن الذي يجلب الخير ويدفع الضر هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن كل شيء مقدر، لماذا تشمئز قلوبهم وتتغير من أشياء لا حقيقة لها؟ ولذلك لا يتطيرون، يعلمون قول النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الطيرة شرك».

والوصف الجامع هو الوصف الأخير: «وعلى ربهم يتوكلون»، اعتمادهم وتفويضهم وحسن ظنهم بالله عظيم، يتوكلون على الله لا يتوكلون على غيره، هؤلاء سبعون ألفًا من هذه الأمة يفوزون بهذه الرتبة المنيفة الشريفة مستثنون من الحساب، وقد أنعم الله عز وجل وتفضل على هذه الأمة فزادهم على هذا العدد.

وخلاصة ما في هذا الباب: ما أخرج الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسنده بإسناد جيد كما قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لما ذكر النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هؤلاء السبعين ألفًا قال: «ومع كل ألفٍ سبعون ألفًا، وثلاث حثيات من حثيات ربي بكفه»، فهذا يدل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تفضل بهذا الفضل على عدد أكبر من العدد الأول وهو عدد السبعين ألفًا، فنسأل الله أن يجعلنا من جملتهم.

ومما يتعلق -أيضًا- بموضوع الحساب: أن نؤمن بأن أول عمل يُحاسب عليه ابن آدم في ذلك الموقف العظيم هو الصلاة، كما أخبر بهذا النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أول شيء تحاسَب عليه يا ابن آدم هو الصلاة، وإن كان ذلك كذلك فالحرص

الحرص على أداء الصلاة وإقامتها كما يحب الله عز وجل، وعلى أن تتمم ما قد يقع من خلل في فريضتك بالنوافل.

كما أن أول ما يحصل فيه محاسبة العبد بينه وبين الناس هو في الدماء، «أول ما يقضى بين الناس في الدماء»، بين الناس تقع مظالم في أشياء كثيرة، لكن أول شيء يُقضى فيه بين العباد هو فيما يتعلق بالدماء التي تُسفك حرامًا فيما بينهم، هذه أول ما يقع القضاء فيه في ذلك الموقف العظيم.

هذه بعض المسائل المتعلقة بموقف الحساب، وجرَّنا إلى الكلام فيه: إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية العظيمة من سورة الانشقاق: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٧-٨]، والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بالموازين توضع يوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ [الزلزلة:٧-٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٤].

وقال تعالىٰ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠].

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى موقف آخر من مواقف القيامة وهو موقف الوزن، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن موقف الوزن بعد موقف الحساب.

وهذا الموقف من أعظم المواقف التي ينفصل فيها الناس إلى أهل سعادة وإلى أهل شقاوة، ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٦-٩]، نعوذ بالله من النار!

وهذا الموقف قد دلت عليه أدلة كثيرة تدل على الوزن وتدل على الميزان، وتدل على ما يتعلق بهذا من مسائل أخر.

أولًا: نذكر ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه قال: (ونؤمن بالموازين توضع يوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا)، كأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يميل إلى أن الذي يوضع يوم القيامة موازين متعددة وليس ميزانًا واحدًا، وهذا الذي ذهبت إليه طائفة من أهل العلم، قالوا: إن الذي يوضع موازين، ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

قالوا: ويدل على أن الموازين متعددة في ذلك اليوم أنه لم يَرِد ذكر الميزان الأخروي في القرآن إلا مجموعًا، فدل هذا على أنها موازين وليس ميزانًا.

واختلفوا: هل هي موازين متعددة بحسب الأشخاص، فكل إنسان له ميزان يخصه؟ أو هي موازين متعددة بحسب الأمم، كل أمة لها ميزانها؟ أو هي متعددة بحسب الأعمال، كل عمل من الأعمال فله ميزان؟ اختلفوا.

والقول الآخَر: أن الذي يوضع يوم القيامة ميزانٌ واحد، قالوا: لأن هذا هو الذي دلت عليه السنة، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان، خفيفتان على اللسان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

أكثر الأحاديث في السنة جاء فيها ذكر الميزان مفردًا، ومن أصرح تلك الأحاديث: ما أخرج الحاكم في صحيحه بإسناد صحيح من حديث سلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وُزِنت فيه السماوات والأرض لوزنته» يعني: ميزان عظيم جدًا، السماوات والأرض على سعتهما يمكن أن يوزنا في الميزان، «فتقول الملائكة: يا رب، لمن يَزِنُ

هذا؟ فيقول سبحانه: لمن شئت من خلقي. فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك».

فهذا القول هو أن الميزان مفرد، كل الأمم وكل الأشخاص وكل الأعمال توزن فيه.

وأما ما جاء في جمعه في الآيات فهؤلاء يقولون: إنه مجموع، إما لكثرة ما يوزن فيه، أو لكثرة مَن يوزن فيه، أو أن الجمع إنما كان للتعظيم، وهذا القول هو الأقرب، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم.

مهما يكن من شيء فإن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الميزان الوارد في هذا المقام ميزانٌ حقيقي له كفتان، توضع في إحداهما أعمالٌ هي الحسنات وفي الأخرى السيئات، فتثقل إحداهما أو تخف، كما يدل على هذا حديث البطاقة عند الترمذي في جامعه، وهو حديث مشهور، وأظن أننا ذكرناه غير مرة.

ومما يتعلق بهذا المقام -أيضًا-: أن نؤمن بأن الميزان ميزانٌ دقيق عادل، دقيق يزن مثاقيل الذر، كما أن الإنسان لا يُظلم شيئًا مما يُوضع فيه، ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء:٤٧]، (شيئًا) يفيد العموم، تفيد العموم هذه الكلمة، أيّ شيء ولو كان مثقال ذرة، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ [الزلزلة:٧-٨].

كما يتعلق بموضوع الوزن مسألة تُبحث كثيرًا عند أهل العلم إذا جاءوا إلى ذكر هذا الموضوع وهي: ما الذي يوزن؟ ما الذي يوضع في هذا الميزان؟ قيل: إن الذي يوضع هو الأعمال، أعمالك، صلاتك، صيامك، حجُّك، معاصيك، كل ذلك يجعله الله عز وجل في هيئة توزن، والله على كل شيء قدير، الله لا يعجزه شيء.

وقيل: إن الذي يوزن صحف الأعمال، تلك التي كُتب فيها عملك وتلقاها منشورة يوم القيامة هي التي توضع في الميزان، والثقل والخفة بحسب ما كُتِب فيها.

وقيل: إن الذي يوزن هم العاملون، ويثقلون أو يخفُّون بحسب أعمالهم، ولذلك أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الرجل العظيم السمين الذي لا يَزِن عند الله عز وجل جناح بعوضة. ليس العبرة بثقل الإنسان وحجمه ووزنه، كلا، إنما بحسب أعماله، ولذلك لما ضحك بعض أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من دِقَّة ساقي ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لهُما في الميزان أثقل من أحد»، وهذا حديث أخرجه أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في المسند بإسناد جيد. فدل هذا على أن العامل قد يُوزن.

والقول الرابع هو الأقرب -والعلم عند الله عز وجل- أن الوزن حاصل لهذه الأمور الثلاثة: إما أن هذا يوزن تارة وهذا يوزن تارة وهذا يوزن تارة، أو أن ذلك

يُجمع فيوزن، وهذا قلت إنه أقرب لأن فيه جمعًا بين أطراف الأدلة في هذا الباب، والعلم عند الله عز وجل.

لكن مهما قيل فيما يوزن فاعلم أن الذي يوزن يرجع إلى ثلاثة أشياء: أعمالك التي عملتها، سواء انقطعت بموتك أو استمرت بعد موتك، فإن من الأعمال ما يستمر بعد الموت، إن أوقفت وقفًا، أو سبَّلت شيئًا صدقة، أو ورَّثت علمًا فإن هذا يستمر لك بعد موتك ولا ينقطع بموتك.

كما أن مِن السيئات والمعاصي ما يستمر، هذا الذي تسبب في معصية، أدخل على بيته منكرًا، أتى بأجهزة يُعصى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من خلالها فيشاهَد فيها ما لا يحل، ويُسمع فيها ما لا يحل، ثم يموت ويتركها فيعصي الله عز وجل بسببها أهل البيت، هذا وهو في قبره تُكتب عليه السيئات، قاعدة الشريعة قد استقرت على أن المتسبب كالفاعل، ما هي قاعدة الشريعة؟ المتسبب كالفاعل، المتسبب في الخير أو المتسبب في الشر، الثواب والإثم يتعلق به كما يتعلق بالفاعل.

إذن: هناك أعمال تستمر.

الصنف الثاني: ما يُهدى إلى الإنسان من حسنات غيره إهداءً شرعيًا، فلو تصدق أحدٌ عن ميت بصدقة فإنها تكون مع حسناته، مع هذا الميت، أو حج عن ميت أو اعتمر، أو قضى عنه صومًا واجبًا، هذه حسنة تهدى إلى الميت ويناله ثوابها، وتكون مع جملة حسناته إن تقبلها الله عز وجل.

الصنف الثالث: نتيجة المقاصَّة بين الظالم والمظلوم، فإن القصاص يوم القيامة ليس بالدينار والدرهم، إنما هو بالحسنات والسيئات، فإن المظلوم يأخذ من حسنات ظالمه، فتكون مع حسناته التي توزن، فإن فَنِيَت حسنات الظالم أُخِذ من سيئات المظلوم فوضعت مع سيئات الظالم فوُزنت.

إذن: هذه الأصناف الثلاثة التي توزن يوم القيامة مهما قيل فيما يوزن.

لكنني أنبهك إلى أن ثمة أعمالًا لها مزيد اختصاص بثقل الميزان، تثقل أكثر من غيرها، والحصيف من تتبعها وحرص عليها، ما يدريك لعل حسنة من تلك الحسنات تكون سبب نجاتك.

من تلك الحسنات التي أخبر النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها تثقل في الميزان وهي أعظم حسنة: كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بصدق ويقين وإخلاص، لا التي يقولها الإنسان وكأنه يهذي، كأنه نائم يتكلم، ليس لقلبه منها حظ، هذا ليس المقصود، إنما المقصود أن تُقال لا إله إلا الله باللسان والقلب يصدق ويخلص ويحب.

أيضًا ما سمعت قبل قليل: سبحان الله وبحمده، قال النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنهما: «ثقيلتان في الميزان».

أيضًا قول (الحمد لله)، في صحيح مسلم قال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والحمد لله تملأ الميزان».

ومن ذلك حُسْن الخلق: ما مِن شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من خُلُقٍ حسن.

ومن ذلك -أيضًا- خمس أخبر بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما خرج الإمام أحمد بإسناد صحيح، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بخٍ بخٍ، لخمس ما أثقلهن في الميزان: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، والولد الصالح يموت فيحتسبه والده»، هذه ثقيلة في الميزان، بل ما أثقلها في الميزان كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أخيرًا: ما هي نتيجة الوزن؟ هذه أهم مسألة ينبغي أن يعرفها الإنسان: ما هي نتيجة الوزن؟

الناس في الوزن ينقسمون إلى ثلاث أحوال:

الحال الأولى: أن تثقل الحسنات وتخف السيئات، وهذه حال أهل الرحمة والتوفيق والسعادة، اللَّهم اجعلنا منهم يا الله! ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة:٦-٧]، ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٨]، والأصل في هذا أن من ثقلت حسناته على سيئاته ولو بواحدة فإنه إلى الجنة مباشرة، لا يمر بالنار، لأن الله وعد -وهو الذي لا يخلف الميعاد- أن الذي تثقل حسناته فإنه سعيد مرحوم في جنة عالية، ولذلك استكثر من الحسنات، ما يدريك رُبَّ حسنة تكون سببًا في نجاتك.

والناس أصحاب هذه الحال متفاوتون، منهم من ليس عنده إلا حسنات محضة وليس في الكفة الأخرى سيئات: الأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام.

كذلك الذي كان من أهل الإيمان قد رُزِق توبة نصوحًا قبل الموت، هذا يموت وقد غُفِرت سيئاته، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، ما معنى ذنب مغفور؟ ذنب غفره الله، ذنب تجاوز الله عنه، ما معنى ذلك؟ يعني: أنه لا يوزن في الميزان، يُعفى عن الإنسان فلا يكون مع سيئاته التي توزن، فإن لهذا الوزن أثر وأيُّ أثر، السعادة والشقاء مرتبطة بنتيجة الوزن.

ومنهم من هو دون ذلك، إلى أن يكون آخرهم من عنده حسنات كثيرة وسيئات كثيرة إلا أن حسناته أرجح ولو بشيء قليل، فهذا نجا.

الصنف الثاني: من ترجحت سيئاته على حسناته، وهذا الذي أراده الله عز وجل بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة:٨] يعني: خفَّت كفة الحسنات وثقلت كفة السيئات، فهؤلاء أهل المحنة والبلية، ظاهر النصوص يدل على أن مَن ترجحت سيئاته على حسناته فإنه يكون من أهل النار المعذبين فيها ما شاء الله أن يُعذَّبوا إن كان عنده أصل التوحيد، اللّهم إلا أن يتداركه الله عز وجل برحمته فيقبل فيه شفاعة.

الصنف الثالث: هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم، عنده حسنات في كفة يقابلها سيئات تساويها. الصحيح في هؤلاء أنهم يكونون على الأعراف، هؤلاء هم أهل الأعراف، ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾ [الأعراف:٤٦]، الأعراف مرتَفع بين الجنة والنار، يكون عليه هؤلاء الذين ما عندهم حسنات راجحة تكون سببًا في دخولهم الجنة، ولا سيئات راجحة تكون سببًا في دخولهم النار، فيوقفون على الأعراف مدة يشاؤها الله عز وجل ثم يكون آخر أمرهم أن يكونوا من أهل الجنة، كما قال الله عز وجل في سورة الأعراف عنهم: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٤٩]، الله عز وجل غلبت رحمته غضبه جل وعلا.

فهذه الأحوال التي ينقسم إليها الناس في ذلك المقام العظيم.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بالشفاعة العظمىٰ لرسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة، يشفع عند الله تعالىٰ بإذنه ليقضي بين عباده، حين يصيبهم من الهمِّ والكرب ما لا يطيقون، فيذهبون إلىٰ آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ حتىٰ تنتهي إلىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

فيذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ضمن مواقف القيامة: موقفَ الشفاعة العظمى لرسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وموضوع الشفاعة من الموضوعات الجليلة العظيمة التي يبحثها علماء الاعتقاد ضمن مباحث اليوم الآخِر، كما أنهم يبحثونها ضمن مباحث الألوهية، كما أنهم يبحثونها ضمن مباحث النبوة، وذلك في ما يُبحث في خصائص النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشفاعة معروفة من جهة اللغة، وهي: التوسط للغير في جلب خير أو دفع ضر. والبحث هاهنا إنما هو في الشفاعة الأخروية التي تكون يوم القيامة.

والناظر في كتاب الله عز وجل يجد أن الشفاعة فيه جاءت منفية وجاءت مثبتة، فتارة نجد أدلة تدل على ثبوت الشفاعة، وتارة نجد ما يدل على أنه لا توجد شفاعة في ذلك اليوم العظيم، ﴿ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة:٢٥٤].

ومورد الإثبات غير مورد النفي، فهذا له موضع وهذا له موضع.

أما الشفاعة المنفية فإنما يُراد بها عدة أمور:

أولاً: الشفاعة التي تكون بدون إذن الله عز وجل، فما يُظن من حصول شفاعة بلا إذن من الله تبارك وتعالى في ذلك اليوم فهذا شيء ممتنع غاية الامتناع، قال سبحانه: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

ولاحظ كيف كان هذا النفي على صيغة الاستفهام الإنكاري لأنه مشوب بالتحدي، من ذا الذي يجرؤ على أن يشفع عند الله عز وجل إلا إذا أذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ من ذا الذي يجرؤ على أن يشفع عنده بدون إذنه؟

ثانياً: الشفاعة التي تكون للكفار، فالكفار ليس لهم حظ في الشفاعة، ليس لهم شفيع عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا كما بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من شأنهم أنهم يقولون يوم القيامة: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١].

الأمر الثالث: الشفاعة التي تُطلب من غير الله وتُرجى من غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا -أيضاً- لا شك أنه شيء باطل، الشفاعة كلها لله عز وجل،

فهي مِلْكٌ له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يشركه فيها غيره، قال سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤].

وبناءً على هذا يتبين لنا القسم الآخَر وهو الشفاعة الثابتة التي ستكون يوم القيامة، وهذه هي التي اجتمع فيها شرطان:

الشرط الأول: إذن الله عز وجل للشافع أن يشفع.

والشرط الثاني: رضا الله عز وجل عن المشفوع له. وقد جمعهما قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦].

وتنبه إلى نكتة لطيفة في موضوع الشفاعة، وهي: أنك لو تأملت في النصوص لوجدت أن الغالب أن تكون هذه الشفاعة الأخروية في النصوص منفية، الغالب أن تكون الشفاعة الأخروية في النصوص منفية، والإثبات في الغالب استثناء، الإثبات لها استثناء من هذا النفي، فما سر ذلك؟

الجواب: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يبين لعباده أن الشفاعة التي تكون عنده يوم القيامة شيء آخر، بخلاف الشفاعة التي يعهدها الناس في هذه الدنيا، الشفاعة عند الله شيء آخر، ولا يليق أن تكون من جنس ما يعهده الناس بينهم في هذه الدنيا، هذا يتنافى وعظمة الربوبية وحق الألوهية، لا يمكن أن تكون الشفاعة عند الله عز وجل بهذه المثابة، ما الشفاعة في الدنيا؟

الشفاعة في الدنيا إما أن تكون شفاعة محبة أو أن تكون شفاعة وجاهة، يشفع الحبيبُ عند محبِّه في شأن من الأمور، يشفع الابن عند أبيه، تشفع المرأة عند زوجها، يشفع الصديق عند صديقه في أمر من الأمور فيتقدم بين يديه بالشفاعة بدون استئذان، شاء هذا المشفوع عنده أم أبى، يتقدم بين يديه فيتكلم ويشفع، حتى ولو كان المشفوع عنده لا يريد أن يُشفَع عنده في هذا الأمر ومع ذلك يتقدم بين يديه، وربما يقبل المشفوع عنده هذه الشفاعة رغماً عنه، ربما يكون لا يريد، يشفع ابن السلطان عند السلطان في شأن شخص اجترح خطأً أو جريمة ولا يريد أن يكلمه أحد في شأنه، ومع ذلك يأتي هذا المحبوب فيشفع عنده، وتجد أن هذا الذي شُفِع عنده -وهو السلطان- يقبل ولو كان كارهاً، لأنه لا يصبر على جفوة حبيبه.

كذلك الأمر في شفاعة الوجاهة، يشفع عند ذي السلطان شخص وجيه له مكانة وقدْر، يتقدم بين يديه في هذه الشفاعة دون استئذان، ولو كانت الشفاعة في شخص يكرهه ولا يريد أن يعفو عنه، وربما يقبل هذه الشفاعة رغماً عنه، لأنه يحتاج إلى هذا الوجيه، كأن يكون جندياً كبيراً أو وزيراً عنده أو تاجراً يحتاجه، ولا تتم له حاجاته ولا أمر سلطنته إلا بأن يُرضي هؤلاء عنه، فلأجل هذا يقبل شفاعته، ولربما أبانوا له عن شيء كان يجهله، وربما أثَّروا في رأيه فأقنعوه بأن المصلحة خلاف رأيه فيقتنع برأيهم.

أسالكم: هل يُظن أن الشفاعة التي تكون عند الله عز وجل من هذا الجنس؟ والله ما قدر الله حق قدره مَن ظن أن الله عز وجل يُشفع عنده شفاعة هذا شأنها، والله ما كان ولا يكون، ويتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!

هل الشافع يُعْلِم الله عز وجل في شيء يجهله وهو العليم بكل شيء؟ هل الشافع المخلوق يؤثِّر في مشيئة الله عز وجل فيجعل اللهَ عز وجل مريداً لشيء لم يكن مريداً له؟ تبينت له مصلحة كان يجهلها؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!

هل الله عز وجل يقبل شفاعة هذا الشافع لأنه لا يصبر على جفوته؟ لأنه لا يقدر على أن يردَّه وهو الغني العظيم سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؟ من ظن هذا فما قَدَر الله حق قدره.

اعلم أن الشفاعة عند الله إنما هي شفاعة عبد لا شفاعة شريك، في الدنيا الشفاعة شفاعة شريك، لأنه أثَّر في حصول المطلوب أو دفع المرهوب، الشافع هنا له أثر في تحصيل المطلوب، حينما يذهب معك صديق للمدير، مدير لإدارة لك فيها حاجة، تأخذ صديقه معك فتدخلان عليه في مكتبه، فيتكلم الشافع فيقنع المدير بحاجتك، السؤال: هل حصول هذه الحاجة وتحقيقها كان باجتماع اثنين: المدير والشافع وإلا لا؟ إذاً: هو شريك أو ليس بشريك؟ وهل الله عز وجل يكون معه شريك؟ أم الله هو الواحد الأحد الذي لا شريك له في شيء من الشؤون البتة؟

إذاً: ينبغي علينا أن نفهم هذه القاعدة فهماً جيداً، وأن نستيقنها استيقاناً تاماً: الشفاعة في الآخرة إنما هي شفاعة عبدٍ لا شفاعة شريك، الله لا شريك له، حقيقة الأمر في الشفاعة هي أنها من الله عز وجل وإليه، منه ابتداءً وإليه انتهاءً، وصدق الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٤٤].

ولذا من الذي حرَّك قلب الشافع لكي يشفع؟ الله. ومن الذي أذن للشافع أن يشفع؟ الله. ومن الذي أمر الشافع أن يشفع؟ سبحان الله! الشفاعة يوم القيامة تكون بأمر من الله والشافع لا يملك إلا أن يستجيب، أليس سيد الشفعاء وأعظمهم حظاً في الشفاعة وهو نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا سجد عند الله عز وجل يقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بعد أن يحمده محامد يفتحها عليه في ذلك المقام، يقول الله عز وجل: «يا محمد، ارفع رأسك، وقُلْ يسمعْ، واشفع تُشفع»، (اشفع) فعل أمر.

إذاً: حقيقة الأمر أن الله آمِرٌ للشافع أن يشفع، والشافع يطيع الله عز وجل ويستجيب فيشفع.

إذاً: الله هو الذي يأمره أن يشفع فيشفع، ثم الله عز وجل هو الذي وفَّق المشفوع فيه للسبب الذي حلت الشفاعة بسببه وهو كونه يوحد الله عز وجل، وهذا من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فضل محض، والله عز وجل هو الذي يتفضل بقبول الشفاعة بعد ذلك، إذا عرفت هذا عرفت أن المسألة كلها ترجع إلى الله، تحققت هاهنا بقول الله عز وجل: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٤٤].

إذن: هذا الذي يُظن من أحوال الناس في الشفاعة في الدنيا يجب أن يُخرج من القلوب، يجب أن يُعلم أن هذا لا يُظن البتة ولا يليق بالله عز وجل أن تكون الشفاعة عنده من جنس الشفاعة التي تكون بين الناس في الدنيا، لا والله، إنما هي شفاعة من الله وإليه.

حقيقة الأمر: أن الله شفع من نفسه إلى نفسه. هذه كلمة حسنة قالها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حقيقة الحال في الشفاعة أن الله شفع من نفسه إلى نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بعض الناس يقول: أنا أسأل النبي أو الولي عند قبره أو بعيداً عنه أن يشفع لي عند الله، يسأل نبياً أو ولياً عند قبره أو بعيداً عنه الشفاعة عند الله، فيأتي إلى قبره أو يناديه عن بُعْد ويقول: يا سيدي فلان، أسألك الشفاعة، وإذا قلت له: لماذا تسأله وتدعوه بهذا؟ يقول: لأنه يملك الشفاعة فأنا أسأله إياها. ما رأيكم يا جماعة؟ هل هذا الكلام صحيح؟ هل هذا النبي أو الولي يملكُ الشفاعة عند الله؟ لا والله، كيف يكون ذلك والله عز وجل يقول: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤] من أولها إلى آخرها.

إذاً: هذا الذي يشفع لا يملك الشفاعة، ولذا تأمل معي فيما ثبت في الصحيحين من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما ذكر حديث الشفاعة الطويل الذي يرويه عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيه: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستأذن على ربه فيؤذَن له، ثم إنه يحمده بمحامد عظيمة لم يكن يُحسنها في الدنيا، ثم يخر لله عز

وجل ساجداً فيحمده في سجوده ويثني عليه، ثم يرفع رأسه فيحمد الله عز وجل ويثني عليه، ولا يتكلم بالشفاعة حتى يُقال له: اشفع تشفع، فيشفع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، هذا يكون في المرة الأولى، يحد الله له حداً من أهل النار فيخرجهم منها بإذن الله.

ثم إذا أراد أن يشفع المرة الثانية ماذا يصنع؟ هل يرجع فيشفع عند الله مباشرة؟ أو يقدم بين يدي ذلك تلك المقدمات السابقة؟ يحمد الله ويسجد له، ولا يتكلم حتى يؤذن له، بل حتى يؤمَر بالشفاعة، يتكرر منه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أربع مرات.

إذن: هل هو مالكٌ للشفاعة صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو أنه يؤذن له في ذلك الوقت؟ ليس في الدنيا، يؤذن له في ذلك المقام أن يشفع عند الله عز وجل، الله عز وجل يكرمه بالشفاعة فيأذن له فيها، لا أنه مالكٌ فيها، لا أنه مالكٌ لها يتصرف فيها بما يشاء صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الأمر ليس كذلك.

لله حق لا يكون لغيره	ولعبده حقٌ هما حقان
لا تجعلوا الحقَّين حقاً واحداً	من غير تمييز ولا برهان

الله عز وجل له حقٌ لا يشركه فيه أحد، ولنبيه محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حق، وأكبر الخطأ أن يُخلط بين الحقَّين فيُجعل ما لله عز وجل لغيره.

إذن: هذا من الأمور العظيمة، فإن مسألة الشفاعة من أعظم الأسباب التي أدت إلى وقوع الشرك من جهة عدم فهمها الفهم الصحيح في القديم والحديث، كثير من الناس تعلقت قلوبهم بغير الله في حصول الشفاعة فأشركوا مع الله.

المشركون الأولون ما سبب شركهم؟ بيَّن الله عز وجل ذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]، ولأجل ذلك تعلقت قلوبهم بهم، ظنوا أن الأمر منهم وإليهم، وأن لهم دالَّة على الله وإدلالاً على الله وحقاً على الله، بحيث أنه لا يرد لهم شفاعة، بل لا يقدر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً! الأمر -والله- ليس كذلك، هذه هي شفاعة الشريك التي نفاها الله عز وجل، أما الشفاعة التي تكون فذلك لونٌ آخر وجنس آخر، تلك شفاعةُ عبد عند ربه وسيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك لا يتكلم أحد بين يدي الله عز وجل، بل لا يتكلم أحد في ذلك اليوم العظيم إلا بإذن الله عز وجل، ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [هود:١٠٥]، هذا من عظمة الله العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومن خوف القلوب منه تبارك وتعالى.

إذاً: حذارِ من التلبيس الذي يكون في هذا الموضوع، الشفاعة لله، والأمر فيها إلى الله، والواجب أن تتعلق القلوب بالله لا أن تتعلق القلوب بغيره، إذا كنت ترجو الشفاعة فسلها ممن يملكها وهو الله، إذا كنت ترجو شفاعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقل: يا الله شفِّع فيَّ نبيك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا هو الصراط

المستقيم، هذا هو الحق المبين، هذا هو لُبُّ التوحيد وخالص التفريد، وما عدا ذلك فإنه سَنَن المشركين الذين قلوبهم تعلقت بغير الله عز وجل، موضوع الشفاعة ما فهموه على وجهه فتعلقت القلوب بغير الله عز وجل، حتى إنك تجد أحدهم يصدح في أبيات يقولها تتعلق بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول:

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

لا إله إلا الله، انظر كيف أن القلب تعلق بغير الله، أما أهل الإيمان فقولهم قولٌ آخر: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٩]، قلوب أهل الإيمان تعلقت بالله، بالله مالك يوم الدين، مَلِك يوم الدين، فلا يرجون سواه، ولا تتعلق قلوبهم بغيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا الذي جاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الناس لأجل أن يحققوه، ولأجل أن يتبصروا به.

إذن: موضع الشفاعة من الموضوعات الدقيقة والحساسة والمهمة التي ينبغي أن تُفهم على وجهها، وأوصيك إذا تلوت كتاب الله عز وجل، قف عند آيات الشفاعة وتأمل كيف أن سياقها وسباقها يجرُّ القلوب ويحثها على أن تتعلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا بغيره، تأمل في أحاديث الشفاعة في الصحيحين وغيرهما تجد صدق ما أقول، والله المستعان!

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (ونؤمن بالشفاعة العظمى لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة)، هذه الشفاعة العظمى هي الشفاعة في إراحة الناس من كرب الموقف،

فإنهم يصيبهم من الهم والغم ما لا يطيقون ولا يحتملون، تقرب الشمس ويشتد الحر ويزيد العرق حتى يبلغ -كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نصف الآذان، يبلغ العرق نصف الآذان إلى هنا، عند ذلك يتنادى الناس أن يبحثوا عن شخص يشفع لهم عند الله عز وجل في إراحتهم من هذا الموقف حتى يبدأ فصل القضاء، فيُلهم الناس أن يذهبوا إلى آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ثم يذهبون إلى نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ثم يذهبون إلى إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ثم يذهبون إلى موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ثم يذهبون إلى عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكل واحد منهم يعتذر، وكل واحد منهم يقول: نفسي نفسي، وكل واحد منهم يقول: إن الله قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله. حتى تنتهي النوبة بعد عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى النبي محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي هو سيد ولد آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإذا جاءوه قالوا: أنا لها. مقام عظيم يتأخر عنه جميع البشر، بل الأنبياء والملائكة ولا يتقدم له إلا سيد ولد آدم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: أنا لها، فيشفع عند الله تبارك وتعالى. هذه هي الشفاعة العظمى الخاصة بالنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ولذا في الصحيحين لما أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «أُعطيت خمساً لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلي» قال: «وأُعطيت الشفاعة»، وأكثر العلماء على أن

(أل) هاهنا للعهد، يعني: الشفاعة العظمى، وهي الشفاعة في إراحة الناس من كرب المقام في ذلك اليوم المشهود حتى يُفصل بين العباد.

وهذه الشفاعة هي المقام المحمود الذي جاء في قول الله عز وجل: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، كما فسر هذا ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا كما في صحيح البخاري، وكذلك أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -أيضاً- في صحيح البخاري وغيرهم من أهل العلم. فهذا هو المقام المحمود الذي يحمده عليه جميع الخلائق صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفيه بيان المنزلة العظيمة لهذا النبي الكريم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، منزلة لا يشاركه فيها أحد، ولا يجرؤ عليها أحد، اصطفى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لها سيد ولد آدم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (ونؤمن بالشفاعة العظمى لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خاصة، يشفع عند الله تعالى بإذنه ليقضي بين عباده، حين يصيبهم من الهمِّ والكرب ما لا يطيقون، فيذهبون إلى آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى حتى تنتهي إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ) فيشفع عند الله، وأسعد الناس بهذه الشفاعة مَن؟

أسعد الناس بهذه الشفاعة -كما بين الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ- هم الذين يدخلون الجنة بغير حساب، لأنهم سوف يكونون مباشرة إلى الجنة، إذا انتهى ذلك الموقف وبدأ فصل القضاء فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يأذن بعد شفاعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بدخولهم الجنة، حيث يقول الله عز وجل لنبيه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ:

«يا محمد، أدخِل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس في سائر الأبواب»، نسأل الله من فضله!

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في موضوع الشفاعة ثلاثة أنواع، قال: (ونؤمن بالشفاعة العظمى) وهي التي تكلمنا عنها، ثم قال: (ونؤمن بالشفاعة فيمن دخل النار مِن المؤمنين أن يخرجوا منها) وبعد هذا بعدة أسطر قال: (ونؤمن بشفاعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الجنة أن يدخلوها).

إذن: نفهم من هذا أن الشفاعة يوم القيامة أنواع، وأنها تتعدد، وأن منها ما هو خاص بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنها ما يكون له وأيضاً لغيره من الشفعاء، أما ما يختص به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالعلماء مجمعون على أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختص بثلاث شفاعات، ثمة شفاعات -سيأتي الحديث عنها- حصل فيها خلاف هل هي خاصة بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو له ولغيره من الشفعاء، أما هذه الثلاثة فبالإجماع، لا يشارك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها أحد.

أول ذلك: الشفاعة العظمى، لا أحد يقف هذا الموقف أو يشفع هذه الشفاعة إلا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثانياً: شفاعته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دخول أهل الجنة الجنة. إذا خلص المؤمنون من النار، بمعنى: أنهم عبروا الصراط، نجا الذين شاء الله عز وجل نجاتهم فإنهم

يجدون أبواب الجنة مغلقة، فلا تُفتح حتى يشفع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ربه فيأذن الله عز وجل بفتح أبوابها ودخول أهلها إليها.

ثالثاً: شفاعته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عمه أبي طالب أن يُخَفَّف عنه العذاب.

في الصحيحين أن العباس عم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأله، قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟

لا شك أن أبا طالب كان أثره في ابتداء الدعوة أثراً عظيماً، كان من أعظم الناس مناصرة ودفعاً عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا شك، فالعباس يقول: هل نفعته بشيء؟ فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم، هو في ضحضاح من النار»، الضحضاح في اللغة هو الماء القليل الذي يكون على وجه الأرض لا يكاد يبلغ الكعبين، كناية عن أنه في منزلة أخف من النار بالنسبة لغيره، نعوذ بالله من النار!

قال: «هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»، قوله: (ولولا أنا) يعني: لولا الشفاعة التي يعطيه الله عز وجل يوم القيامة. ولذلك هو أهون المشركين عذاباً في النار، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، ينتعل نعلين من نار يغلي منهما دماغه»، نسأل الله السلامة والعافية! هذا أخفهم عذاباً وإنه ليظن أنه أشدهم عذاباً، الله المستعان! نعوذ بالله من النار! نعوذ بالله من النار! نعوذ بالله من النار!

المقصود: أن هذه شفاعات ثلاث اختص بها النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يشركه فيها أحد.

قد يقول قائل: ألسنا قد علمنا أن من شروط الشفاعة: رضا الله عز وجل عن المشفوع فيه، والله لا يرضى عن الكافرين، أليس كذلك؟ فكيف تكون الشفاعة في أبي طالب؟ ما الجواب؟

نقول: هذه الشفاعة مستثناة، هذا أعدل الأجوبة في هذه المسألة، نقول: هذه مستثناة، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا معقب لحكمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

أما مَن عدا أبي طالب فإنه لا يُشفع فيه لا في تخفيفٍ ولا في إخراج، قال تعالى عنهم أنهم يقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء:١٠٠].

وأيضاً ليس هناك تخفيف أصلاً، بل ما ثَمَّ إلا زيادة في العذاب، ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:٣٠]، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ [البقرة:٨٦]، لا تخفيف وإنما زيادة، وأبو طالب شيء استثنائي، مستثنى، شُفِع فيه من قِبَل النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فخفف الله عز وجل عنه العذاب.

ثمة شفاعات ثابتة أخرى، من ذلك ما قال المؤلف رَحِمَهُاللَّهُ: (ونؤمن بالشفاعة فيمن دخل النار من المؤمنين أن يُخرجوا منها، وهي للنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وغيرهم من النبيين والمؤمنين والملائكة)، هذا من الشفاعات

العامة التي تكون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولغيره، وإن كان حظ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها أعظم من غيره، ولذلك تتبع أحاديث الشفاعة تجد صدق ما أقول، حظ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الشفاعة لا شك أنه أعظم من غيره.

والشفعاء ثلاثة أصناف: الأنبياء والملائكة والمؤمنون، فكلهم يشفع عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك يقول الله عز وجل في الحديث القدسي كما في الصحيحين: «شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين»، فيخرج قوماً من النار بدون شفاعة، إنما بمحض رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن: هذه شفاعةٌ فيمن دخل النار من عصاة الموحدين أن يُخرجوا منها، يمكثون فيها مدة يشاؤها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الله أعلم كم تكون ثم يُخرجون منها بسبب شفاعة الشفعاء.

فالمؤمنون كما هو الحال في الملائكة وفي حق الأنبياء ورأسهم نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشفعون عند الله عز وجل، ولذلك ثبت في الصحيحين أنهم يناشدون الله عز وجل أعظم ما تكون المناشدة، يقولون: يا ربنا، إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون ويحجون.

سبحان الله! مسلمون موحدون، يصلون ويصومون ويحجون ومع ذلك يدخلون النار بسبب ذنوب وأعمال نهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنها.

إذن: المقام جِد، والله المقام جِد، وجِدٌّ مخيف، حتى من أهل الصلاة والصيام والحج يدخلون النار بسبب معاصيهم وتقصيرهم في فعل ما أوجب الله عز وجل، فكيف حال الذي هو مقصر في هذه أصلاً؟ الله المستعان!

إذن: المقام حَرِيٌّ أن يُخاف.

المقصود أن هذه شفاعة من الشفاعات.

أيضاً من الشفاعات -وهذا لم يذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها، الشفاعة التي معنا الآن هي في قوم دخلوا النار أن يُخرجوا، الآن هناك شفاعة في قوم استحقوا النار، وكيف استحق هؤلاء النار؟ أولئك الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم في موقف الوزن، كما أخذنا هذا في درسٍ ماض، الذي رجحت سيئاته على حسناته هو الذي يستحق النار، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٨-٩]، نعوذ بالله منها!

إذاً: هؤلاء قومٌ استحقوا النار، فيشفع الشفعاء في أن لا يدخلوها.

ويدل على هذه الشفاعة عموم قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، قال العلماء: إذا كانت الشفاعة فيها إكرامٌ للشافع وإظهار لشرفه فلأن تكون الشفاعة في هؤلاء قبل دخول النار أظهر لشرف النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وللشفعاء منها بعد دخول النار، كما استدل لها الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتح برواية عند مسلم، وفيها: أنه لما يُضرب الصراط على متن جهنم

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فتحل الشفاعة وتقول الأنبياء: اللَّهم سلم سلم»، إيش قال هنا؟ «تحل الشفاعة»، لاحظ معي أن موقف المرور على الصراط بعد موقف الوزن، بعد الوزن يكون المرور على الصراط، في ذلك المقام قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فتحل الشفاعة»، قول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: «اللَّهم سلم سلم» نوع من الشفاعة، فبالتالي هذا أحد الأدلة التي تدل على هذا النوع.

وعلى كل حال، نقل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذا النوع من الشفاعة لم يخالف فيه إلا الوعيدية من الخوارج والمعتزلة.

فالذي يظهر -والله أعلم- أن مفهوم هذا أن هذه محل اتفاق بين أهل السنة والجماعة، وبعض أهل العلم كان لهم توقف فيها، لكن الصواب أن هذه الشفاعة ثابتة ولا شك.

وبقي عندنا نوعٌ من أنواع الشفاعة وهو: الشفاعة في دخول من لا حساب عليه إلى الجنة. وهذه التي يشفعها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والظاهر -والله أعلم- أنها شيء مختص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمسألة -على كل حال- محل خلاف، فيشفع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ربه ويقول: «أمتي يا رب، أمتي يا رب. فيقول الله عز وجل: يا محمد، أدخِل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس في سائر الأبواب».

إذن: كم نوع من الشفاعة تحصل لنا؟ دعونا نعدُّها.

أولاً: الشفاعة العظمى. الآن نأتي بالتي اختص بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إجماعاً، الشفاعة العظمى.

ثانياً: الشفاعة في عمه أبي طالب.

ثالثاً: الشفاعة في دخول أهل الجنة الجنة.

عندنا ثلاثة في المقابل:

الشفاعة فيمن دخل النار أن يُخرج منها.

الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها أصلاً.

الشفاعة في دخول من لا حساب عليه الجنة.

إذن: يتحصل لنا ستة أنواع من الشفاعات، والعلم عند الله عز وجل.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بالشفاعة فيمن دخل النار من المؤمنين أن يخرجوا منها، وهي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره من النبيين والمؤمنين والملائكة.

وبأن الله تعالىٰ يخرج من النار أقوامًا من المؤمنين بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته.

قال الشارح وفقه الله:

الشفاعة فيمن دخل النار هذه كما سمعت.

وأخرج البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يخرج قوم من النار بشفاعة محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيدخلون الجنة يقال لهم الجهنميين»، أهل الجنة ينادونهم بهذا اللقب، يقولون لهم: الجهنميين، نسبة إلى الدار التي كانوا فيها، وإن كانت قد صحت الأحاديث أنهم يسألون الله عز وجل أن يذهب عنهم هذا اللقب، فيسميهم الله عز وجل عتقاء الجبار، وفي رواية: عتقاء الرحمن.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وبأن الله تعالى يخرج من النار أقواماً من المؤمنين بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته) كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري الطويل في ذِكْر الشفاعة وهو مخرج في الصحيحين، في إحدى الروايات أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول:

«شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، وبقيت شفاعتي»، هذه الرواية في البخاري، «بقيت شفاعتي».

وفي الرواية الأخرى يقول: «ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من أهل النار قد امتُحشوا فيُدخَلون إلى الجنة، ويفيض عليهم أهل الجنة من نهر بأبواب الجنة يقال له نهر أو ماء الحياة، فينبتون» يعني: يتخلقون خِلقة جديدة بعد التي كانوا عليها وقد تفحموا، كما أخبر بهذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونعوذ بالله من هذه الحال!



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بحوض رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلىٰ من العسل، وأطيب من رائحة المسك، طوله شهر، وعرضه شهر، وآنيته كنجوم السماء حُسنًا وكثرًا، يَرِده المؤمنون من أمته، من شرب منه لم يظمأ بعد ذلك.

❊ ❊ ❊

قال الشارح وفقه الله:

فَوَصَل الحديث بنا ضمن مباحث اليوم الآخِر إلى الكلام عن موقف من مواقف القيامة وهو: الحوض والورود عليه، وهذا وجه من أوجه إكرام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة.

والمراد بالحوض هاهنا: هو مجمع الماء الذي يضعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة فتَرِد عليه أمته، فمنهم من يُسقى ويشرب، ومنهم من يُمنع ويُطرد.

فالمرتدون والمحدثون وبعض العصاة يُطرد ويُذاد عن حوض النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما غيرهم فإنهم يَرِدونه بفضل الله عز وجل.

وهذا الموقف من مواقف القيامة لم يَرِد في كتاب الله عز وجل، إنما الدليل عليه سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأحاديث في ثبوت الحوض ووروده كثيرة جدًا بلغت مبلغ التواتر، وقد جمع منها الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في الفتح نحوًا من خمسين حديثًا من رواية خمسين من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكر

رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن بعض العلماء أوصل هذه الأحاديث إلى رواية ثمانين من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبعض الناس ربما يشتبه عليه شأن الحوض بشأن الكوثر، مع أن الفرق بينهما واضح، فالفرق بين الكوثر والحوض من عدة جهات:

أولًا: من جهة الحقيقة، فالحوض شيء والكوثر شيء، الكوثر نهر في الجنة، كما ثبت هذا في صحيح البخاري وغيره عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نهر أُعطيه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنة. والنهر ماء يجري، أما الحوض فإنه مجمع الماء، فالحقيقتان مختلفتان.

الفرق الثاني من جهة المكان، فإن نهر الكوثر في الجنة، نسأل الله من فضله! وأما الحوض فإنه في موقف القيامة.

والفرق الثالث من جهة الصفات، فإن الصفات التي جاءت في النصوص للكوثر تختلف عن الصفات التي جاءت في النصوص للحوض.

إذن: هذه ثلاثة أوجه للفرق بين الكوثر والحوض، ومع ذلك فإن الصلة بينهما صلة وثيقة، وذلك أن الكوثر أصل الحوض ومنه يُمَدُّ، الماء الذي في الحوض إنما يُمَدُّ من الجنة، كما جاء في صحيح مسلم عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صفة الحوض قال: «يشخب فيه ميزابان من الجنة»، والظاهر -والله أعلم- أن

هذين الميزابين إنما يُمِدَّان الحوض بالماء من الكوثر، ولذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ذكر الكوثر قال: «عليه حوض تَرِد عليه أمتي يوم القيامة».

إذن: هذا وجه العلاقة وهذا وجه الفرق بين الحوض والكوثر.

والذي يجب أن يعتقده المسلم هو ثبوت هذا الحوض يوم القيامة وورود الناس عليه، كما أنهم يجب أن يعتقدوا أن هذا الحوض موجود مخلوق الآن، وليس أنه يُخلق يوم القيامة، بدليل ما ثبت في صحيح البخاري من حديث عقبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أنا فَرَط لكم، وإني شهيد عليكم، والله إني لأنظر إلى حوضي الآن».

والأقرب -والله أعلم- أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إبَّان خطبته هذه الخطبة كُشِف له فرأى الحوض، والله على كل شيء قدير، كشف الله عز وجل هذا الحوض له وأراه إياه، ومعلوم أن الرؤية لا تتعلق بمعدوم، إنما تتعلق بموجود، فدل هذا على أن الحوض موجود وأنه مخلوق الآن، والله عز وجل أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونؤمن بحوض رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، لا شك أن كل ما أخبر به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فواجبٌ الإيمان والتصديق به، ومن ذلك ما يتعلق بالحوض، والأحاديث -كما ذكرت لك- في ثبوت الحوض كثيرة جدًا، وجُلُّها في الصحيحين، فهي في أعلى درجات الصحة.

ثـم بـدأ المؤلـف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسـوق جملـة مـن صـفات هـذا الحـوض، وهـذا - أيضًا- مما يجب الإيمان به.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ست صفات لهذا الحوض، قال: (ماؤه أشد بياضًـا مـن اللبن) هذا الأمر الأول، لونه أبيض شـديد البيـاض، وهـذا ثابـت في الصـحيحين، وجاء في صحيح مسلم: أنه أبيض من اللبن، وجاء في صحيح مسلم -أيضًـا- أنـه أبيض من الوَرِق، ما الوَرِق؟ الفضة، والعرب تضرب المثل لبياض الشـيء بهـذه الأمور الثلاثة: باللبن -هذا في الصحيحين- وبـالوَرِق، وأيضًـا جـاء في مسـلم أنـه أشد بياضًا من الثلج. فهذه كلهـا تـدور عـلى معنـىً واحـد وهـو أنـه أبـيض شـديد البياض.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأحلى من العسل)، نسـأل الله مـن فضـله! هـذا الحـوض مـاؤه أحلى من العسل، والعرب تضرب المثـل لحـلاوة الشـيء بالعسـل، وهـذا أحـلى من العسل، ليس مثل العسل وإنما هو أحلى منه.

وجـاء في صـحيح مسـلم أن النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـال: «أحلـى مـن العسـل باللبن»، يعني: اللبن المخلوط بالعسل.

الصفة الثالثة قال: (وأطيـب مـن رائحـة المسـك)، النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخـبر عن المسك أنه أطيب الطِّيب، ورائحة مـاء الحـوض أطيـب مـن رائحـة المسـك، وبذلك تكون النعمة بتناول هذا الماء واللذة حاصلة من عـدة جهـات: مـن جهـة

حاسة الذوق، ومن جهة حاسة البصر، وأيضًا من جهة حاسة الشم، فهو يشرب شيئًا عطرًا، رائحته أطيب من رائحة المسك. نسأل الله من فضله!

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (طوله شهر، وعَرْضه شهر) هذه الصفة الرابعة، فهو إذًا واسع جدًا.

(طوله شهر) يعني: طوله مسيرة شهر، وجاء هذا في صحيح مسلم، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء»، فسر هذا النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه بأن مراده بقوله: «وزواياه سواء» أي: أن طوله كعرضه، وهذا ثابت في صحيح مسلم عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -أيضًا- من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «طوله مثل عرضه» أو قال: «عرضه مثل طوله»، فهذا يدل على أن أضلاعه متساوية، فطوله مثل عرضه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصفة الخامسة: (وآنيته) يعني: ما يُشرب به، له آنية، في رواية: «كيزانه».

قال: (كنجوم السماء حُسنًا وكثرة)، جميلة تلمع كلمعان النجوم، وهي -أيضًا- كثيرة كعدد نجوم السماء، ونجوم السماء كثيرة جدًا، فوق ما تتخيل، بل جاء عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في صحيح مسلم أنه وصف آنيته بقوله: «أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها»، ليس كعدد نجوم السماء، بل أكثر من عدد النجوم

والكواكب، وهذا -والله- إنه لحق، بما أن الذي قاله الذي لا ينطق عن الهوى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إن هو إلا وحي يوحى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (يَرِده المؤمنون من أمته، من شرب منه لم يظمأ بعد ذلك)، هذه الصفة السادسة له، وهي في بيان أثر شُرْبه، ما الذي يفيده الذي يشرب من ماء هذا الحوض؟ الجواب: أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من شرب منه شربة لم يظمأ بعد ذلك أبدًا، يعني: ينتهي عنده شيء اسمه العطش.

وفي مسند أحمد بإسناد صحيح قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولم يَسْودَّ وجهه أبدًا»، هذه صفة زائدة على ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن مَن شرب منه لم يسْودَّ وجهه أبدًا، أيضًا هذا عند ابن حبان في صحيحه.

أيضًا مما يُزاد على ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: أن هذا الحوض ماؤه أبرد من الثلج، ماؤه -أيضًا- ماء بارد، ماؤه أبرد من الثلج، ثبت هذا عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسند الإمام أحمد.

إذن: ذُكِر عندنا الثلج مرتين: مرة في اللون ومرة في البرودة، أبرد من الثلج.

الآن كم صفة عندنا؟ ذكر الشيخ ستة وزدنا عليها صفتين.

أيضًا ما ذكرت آنفًا وهي الصفة التاسعة: أنه يشخب -يعني: يَصُبُّ فيه- ميزابان من الجنة، كما تقدم بيان ذلك.

أيضًا صفة عاشرة وهي ما جاء في المستدرك وعزاه الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -أيضًا- إلى ابن أبي عاصم: أنه أَلْيَن من الزُّبْد.

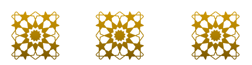
ولا شك أن هذا الحوض إنما قرَّب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حقيقته إلى أذهاننا، وإلا فلا شك أن صفات هذا الحوض أعظم وأجمل مما يتبادر إلى أذهاننا، إنما هذا مجرد تقريب، ولذلك لاحظ أفعل التفضيل التي تأتي في صفته، هذا مجرد تقريب، وإلا فالمقام أعظم، واللذة بشربه أكبر. نسأل الله عز وجل من فضله، وأن نكون من الواردين عليه، كما نسأله تعالى أن يعيذنا من أن نكون من المحرومين الذين طُرِدوا عنه، والله المستعان!



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بالصراط المنصوب علىٰ جهنم، يمر الناس عليه علىٰ قدر أعمالهم، فيمرُّ أولهم كالبرق، ثم كمَرِّ الريح، ثم كَمَرِّ الطير وشَدِّ الرجال.

والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائم علىٰ الصراط يقول: يا رب، سلِّم سلِّم، حتىٰ تعجز أعمال العباد فيأتي من يزحف، وفي حافتي الصراط كلاليب معلَّقة مأمورة تأخذ من أُمرت به، فمخدوش ناج ومكردس في النار.



قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الكلام عن موقف عظيم جليل ومخيف وهو المرور على الصراط، نسأل الله الثبات!

والصراط صراطان: صراط حسي وصراط معنوي، الصراط المعنوي في الدنيا، والصراط الحسي في الآخرة، فالذي يثبت على الصراط المعنوي في الدنيا يثبت على الصراط الحسي في الآخرة، والعكس بالعكس، فإذا أردت أن تكون من المهديين المجاوزين صراط الآخرة فاحرص على أن تكون سائرًا على الصراط الدنيوي قبل أن تغادر روحك بدنك، إذا لهجت إلى الله عز وجل في كل صلاة: اهدنا الصراط المستقيم وهو الإسلام وما دل عليه القرآن والسنة، إذا لهج لسانك بهذا فتذكر أن هدايتك إلى هذا الصراط وثباتك عليه تؤدي -بتوفيق الله عز وجل ورحمته- إلى أن تثبت على الصراط الأخروي.

الصراط في اللغة هو الطريق، وجاء وصف هذا الصراط كما في الصحيحين عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو جاءت تسميته بالجِسر، وإن شئت فقل: الجَسر، الجسر: ما يُعبر عليه كالقنطرة ونحوها.

وهذا الصراط يوضع يوم القيامة على ظهر جهنم، جهنم يوضع عليها على متنها على ظهرها هذا الصراط، فالذي يعبر على هذا الصراط تكون جهنم - والعياذ بالله منها- أسفل منه. وهذا يدلُّك على خطورة الأمروعظمته ، وأنه موقف جليل مخيف.

هذا الصراط جاء ذِكْره ووصفه في أحاديث كثيرة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثابتة في الصحيحين وغيرهما، وجاء ذِكْره -أيضًا- إشارة في القرآن، وذلك في قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١].

الصحيح من كلام أهل التفسير: أن الورود المراد في الآية هو المرور على الصراط، لأن الورود في اللغة هو الإشراف على الشيء، دخل الإنسان في هذا الشيء أو لم يدخل، يقال: ورد، ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٢٣]، موسى عليه السلام ما دخل إلى وسط الماء، إنما أشرف عليه وقرب منه، فجاء وصفه بأنه ورد ماء مدين.

فالصحيح من كلام أهل العلم أن الورود على النار في هذه الآية ليس دخولها، وإنما هو المرور على الصراط؛ لأن الذي يمر على الصراط يكون مشرفًا على النار -نسأل الله السلامة والعافية- فإنها ستكون أسفل منه.

وهذا الصراط صراط حقيقي حسي، طريق حسي يعبره الناس ويمرُّون عليه، وجاء في السنة عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيان صفاته، أول تلك الصفات: أنه زَلِق، يعني: لا تكاد تستقر عليه الأقدام، كما ثبت في الصحيحين عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث أبي سعيد لما ذكر الجسر -يعني: الصراط- قيل: وما الجسر يا رسول الله؟ قال: «دحض مزِلَّة» يعني: الثبات عليه صعب، أرأيت إذا مشيت على بلاط ناعم وعليه ماء أو عليه ماء وصابون كيف أن الثبات عليه فيه صعوبة، ذا دحض أو مدحضة، يعني: الثبات عليه صعب، وهذا ابتلاء وامتحان يدلُّك على صعوبة الموقف.

إذن: أول تلك الصفات أن هذا الصراط دحض مَزِلَّة، والثبات عليه هو إرث للثبات على الصراط في الدنيا، كما أن الثبات على الصراط الدنيوي شيء فيه صعوبة ويحتاج إلى مجاهدة، فيكون أهله غرباء، طوبى للغرباء، «القابض على دينه كالقابض على الجمر».

إذن: من صبر على الثبات على الصراط الدنيوي سيسهل عليه -برحمة الله عز وجل وتوفيقه- أن يثبت على الصراط الأخروي.

أما المهين الكسول الذي مال إلى إعطاء النفس هواها، استثقل التكاليف الشرعية والوقوف عند حدود الله عز وجل فليعلم أن أمامه صعوبة أشد وهي كون الصراط الذي لا خيار للإنسان في المرور عليه، ليست المسألة هناك اختيارية، لك الخيار أن تمر أو لا تمر، لا والله! والله لتمرَنَّ على الصراط شئت أم أبيت.

إذن: هذا الصراط الذي ستمر عليه المرور عليه صعب، ولذلك هو زَلِق.

الصفة الثانية التي بيَّنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن على حافتيه كلاليب وخطاطيف وحسكة مفلطحة، يعني: عريضة، حسكة يعني شوكة صلبة، كشوك السعدان، وصفها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا نوع من الشوك معروف بالسعدان يوجد بنجد كما بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المقصود: أن هذه كلاليب وخطاطيف وشوك معلَّق على جنبتي الصراط، وفي اللغة: الكلاليب جمع كَلُّوب، حديدة معقوفة، كذلك الأمر في الخطاطيف المعنى قريب، جمع خُطاف، حديدة معقوفة، ولكن لها عظمة لا يعلمها إلا الله عز وجل في ذلك اليوم.

وظيفة هذه الكلاليب أمران:

إما أنها تأخذ من أُمرت به فتلقيه في جهنم، والعياذ بالله!

وإما أن تجرح وتخدش ويسلم لكنه يناله خدش وجرح، حتى قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ومخدوج به»، مخدوج يعني: أن هذه الكلاليب أنقصت شيئًا من لحمه، فالمقام إذًا حق والمسألة مخيفة، مخدوج به، ولذلك عندنا في حديث الصلاة قال: «فهي خداج» يعني: ناقصة.

فمن الناس مَن شاء الله عز وجل تعذيبه هذا تلقيه هذه الخطاطيف في النار، في الأسفل والعياذ بالله! ومن شاء الله عز وجل العفو عنه ولكن بقيت عليه بقايا فهذا الخدش والجرح مع سلامته ومروره آخر ما يناله من الجزاء والمصيبة، ولكُلٍّ درجات مما عملوا.

الصفة الثالثة له: أنه طريق وجسر دقيق وليس عريضًا، وهذا -أيضًا- فيه زيادة في الابتلاء والامتحان، أن تُؤمر بالمرور على طريق دقيق جدًا.

والصفة الرابعة: أنه مع دِقَّته حادٌّ كحد السيف، أو كحد الموسى، الموسى يعني ما نسميه الموس، وهو حادٌّ جدًا، وهذا كما ثبت في صحيح مسلم من قول أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما ساق الحديث الطويل عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن مباحث اليوم الآخر قال: «بلغني أن الصراط أحد من السيف وأدقُّ من الشعر»، وهاتان الصفتان ثابتتا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث عدة، كونه دقيقًا كالشعر ونحوه، أو كونه حادًا كحد السيف أو حد الموس، هذا جاءت فيه أحاديث ثابتة مرفوعة إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث ابن مسعود، وكما

-أيضًا- في حديث سلمان كلاهما عند الحاكم، وأيضًا جاء في حديث أنس وجاء -أيضًا- في حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وجاء -أيضًا- من قول ابن مسعود، وجاء -أيضًا- في غير ما ذكرت لك، فمجموع ذلك يدل على هاتين الصفتين، وبهذا يتبين لك خطأ من قال: إن الصراط طريق واسع، هذا ليس بصواب، الصواب أنه طريق ضيق ودقيق جدًا ومع ذلك هو حادٌّ، نسأل الله السلامة والعافية!

إذن: يتحصل لنا كم صفة؟ أربع صفات:

أولًا: زَلِق.

ثانيًا: على حافَّتيه كلاليب وخطاطيف.

ثالثًا: دقيق.

رابعًا: حاد.

بعد ذلك ذكر المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ أن الناس يمرون عليه، قال: (ونؤمن بالصراط المنصوب على جهنم، يمرُّ الناس عليه)، من الذي يمر على الصراط؟ كُلُّ الناس أم بعضهم؟ المؤمنون والمنافقون.

الذي يمر على الصراط -وهذا هو التحقيق في هذه المسألة- هم المؤمنون والمنافقون، يعني: الذين أظهروا الإسلام سواء أبطنوه أو أبطنوا الكفر، هؤلاء هم الذين يمرون على الصراط، وأما المظهرون للكفر فهؤلاء يُؤخذ بهم قبل

ذلك إلى النار، ليسوا من الذين يمرون على الصراط، إنما الذين أظهروا الإيمان صادقين أو كاذبين هم الذين يمرون على الصراط، ثم ينفصلون إلى طائفتين: طائفة تسقط -والعياذ بالله- وهؤلاء هم المنافقون ومن شاء الله تعذيبهم من العصاة، والطائفة الثانية التي تسلم، وبعض هؤلاء يسلم سلامة تامة فلا تصيبه الكلاليب ولا يسقط، وبعضهم يسلم من السقوط لكنه لا يسلم من الخدش والجرح، كما سيأتي إن شاء الله.

إذن: الناس نفهم أن المراد المنافقون والمظهرون للإسلام .

وأول من يمر على الصراط هو النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأمته، أول من يجيز الصراط: رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأمته كما ثبت هذا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الصحيحين وغيرهما وجاء -أيضًا- في غير ذلك، جاء -أيضًا- في غير ذلك.

أيضًا ذكر المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ أحوال الناس في المرور على الصراط، قال: (يمر الناس عليه على قَدْر أعمالهم)، وذكر رَحِمَهُٱللَّهُ أربع أحوال لهم.

قال: (أولهم كالبرق، ثم كمر الريح، ثم كمر الطير وشد الرجال) هذه أربع أحوال.

والناس في مروهم على الصراط لهم أحوال، ويمكن أن نقسم الكلام هاهنا إلى قسمين:

۞أولًا: أحوالهم من حيث السرعة والبطء.

۞ وثانيًا: من حيث النور والظلمة.

فهم متفاوتون في هذه الأمرين، في سرعتهم أو بطئهم، وأيضًا فيما يُعطونه من النور أو الظلمة، فإن الناس قبل المرور على الصراط إذا انتهى ما كان لهم من موقف الحساب والوزن وما إلى ذلك يكونون في ظلمة، يجعل الله عز وجل ذلك المقام ظلمة، أخبر بهذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن الناس يكونون في الظلمة دون الجسر، ثم يُعطون بعد ذلك أنوارهم بحسب أعمالهم، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فمنهم من يُعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يُعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يُعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يُعطى نوره دون ذلك، حتى يُعطى الرجل نوره عند إبهام قدمه، يضيء تارة ويطفأ تارة، فإذا أضاء قدَّم، وإذا طفئ قام» يعني: وقف.

سبحان الله العظيم! شتان بين الأول الذي نوره أمامه واسع وعظيم، وهذا الذي نوره عند إبهام قدمه، نور ضئيل جدًا، ومع ذلك يضيء أحيانًا ويطفأ أحيانًا، إذا أضاء قَدَّم قدمه، وإذا طفئ وقف.

ما الفرق بين الأول والآخِر؟ ولماذا الأول كان نوره بهذه المثابة والآخِر كان نوره بهذه المثابة؟ الجواب: أن ذلك كان جزاءً وفاقًا، بحسب أخذهم من النور المعنوي الدنيوي يُعطون نورهم يوم القيامة، الدين، القرآن، سنة النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نور، القلوب كلها مظلمة، إلا إذا تنورت بنور الإيمان الذي جاء به محمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بقدر أخذك من هذا النور في الدنيا ستنال من النور الحسي يوم القيامة، وأنت وشأنك، أنت حسيب نفسك، الذي تقدمه في الدنيا ستجده يوم القيامة.

يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها»، هذا الموضوع باختصار، أعمال تعملها في الدنيا الله عز وجل يحصيها لك، والنتيجة: «ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله»، هذا من فضل الله وتوفيقه، «ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

نفسك التي أوبقتك، والله ربنا ما ظلمك، الله ليس بظلام للعبيد، لكن الأمر واضح أمامك، كل شيء تبين وانكشف، ليس للإنسان عذر، إذا كان سمع كلام الله وبلغه حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما عذره؟ فإذا تعلقت قلبك بلعاعة الدنيا وشهواتها وأهوائها التي هي إذا قارنتها بالدار الآخرة أنتن من الجيفة، سبحان الله! أنتن وأخبث من الجيفة منظرًا وطعمًا ورائحة، كيف تقارن بالنعيم العظيم؟

إذا كان في موقف القيامة سمعت هذه اللذة العظيمة التي تكون لمن يَرِد الحوض إذًا كيف في الجنة؟ تلك اللذات المستمرة والنعيم الذي لا ينقطع، فوق ما يخطر بالبال وأعظم مما يدور بالخيال.

إذن: الناس يتفاوتون في أنوارهم التي يُعطونها يوم القيامة. هذا واحد.

ثانيًا: أيضًا يتفاوتون بحسب السرعة، والأمران متناسبان، من كان نوره أعظم كانت سرعته أكثر، والعكس بالعكس.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أربع أحوال، والذي وقفت عليه من أدلة السنة أكثر من ذلك، بلغت أحوال الناس في مرورهم على الصراط من خلال الأحاديث التي وقفت عليها بلغ ذلك اثني عشر حالًا.

أولًا: منهم من تكون سرعته كالطَّرْف، ما هو الطَّرْف؟ هذا هو طرف العين، هذا أسرع شيء يعرفه العرب في السابق هو طرف العين وإذا به قد مر، هنيئًا له، هذا كان مسرعًا جدًا إلى طاعة الله في الدنيا، هذا إذا سمع أمر الله أو نهيه التزم ذلك وبادر فعلًا أو كَفًّا.

أولهم من يمر كالطَّرْف، دونه بشيء يسير الذي يمرُّ كالبرق، والبرق -أيضًا- شيء سريع جدًا، والعرب تضرب المثل للسرعة بهذا الأمر وهو البرق.

وجاء -أيضًا- كانقباض الكوكب، الذي يظهر -والله أعلم- أنهما أمران متقاربان، كانقضاض الكوكب، تعرفون انقضاض الكوكب الذي يظهر في السماء.

الحال الثالثة قال: (كمرِّ الريح)، يعني: المؤلف أورد الأول وأورد الثاني مر الريح، نحن جعلناه الثالث.

مرّ الريح، يعني: سرعته سرعة الريح، والريح قد تكون سريعة، كم قد تبلغ سرعة الريح؟ أربعين كيلو بس؟ قد تصل كما قرأت والعلم عند الله، لست متخصصًا، لكن قرأت أنها قد تصل إلى خمسمائة كيلو، فهذه السرعة كبيرة، خمسمائة كيلو في الساعة تعتبر سرعة عظيمة.

الحال الرابعة قال: (كمرِّ الطير) وهذه دون سابقتها، ولكنها -أيضًا- لا شك سريعة، حالة سريعة.

الصفة الخامسة: كأجاويد الخيل، يعني: الخيل الجياد، الجيدة النشيطة، وهذه -أيضًا- سرعتها طيبة سريعة.

الحال السادسة: كأجاويد الركاب، الركاب يعني الإبل، يعني: الإبل الجيدة النشيطة، ولكن هذه -أيضًا- سريعة لكن سرعتها دون الخيل دون.

ثم ذكر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في الأمر السابع: كشدِّ الرجال، يعني: كَجَرْيهم، منهم من يجري.

الحال الثامنة: منهم من يرمل رملًا، تعرفون الرَّمَل؟ الذي -من وفقه الله عز وجل للحج- لعله قد أصاب هذه السنة حينما يرمل الإنسان في طوافه بالكعبة، في طواف القدوم أو العمرة في الأشواط الثلاثة الأولى. وهذا دون الشدّ.

ومنهم من يمشي، هذا أقل، هذا لا شك أن أعماله دون مَن قبله، يمر على الصراط لكن هيئته هيئة الماشي.

ومنهم من يزحف زحفًا. سبحان الله العظيم! الصراط شيء عظيم، وظاهر النصوص أن فيه طولًا؛ لأنه منصوب على متن جهنم، وجهنم -عافاني الله وإياكم منها- كبيرة، وهذا يزحف، المصيبة أن هذا -أيضًا- حاد، الصراط الذي يزحف عليه شيء حاد.

إذن: الموقف عظيم، سبحان الله! شتان بين من يمر على الصراط وسرعته كسرعة الطرف، وبين من يمر على الصراط وهو يزحف، انظر إلى البطء، وهذا بحسب حاله في الدنيا، شتان بين الرجلين، بطيء في الاستجابة لأمر الله والمسارعة إلى طاعته إذًا احذر مما يكون في ذلك الموقف.

وآخِر أولئك -قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من يُسحب سحبًا، هكذا أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يُسحب، يعني: ليس هو يزحف بنفسه، إنما يُسحب سحبًا، وهذا دليل على ضعف في الإيمان عظيم، نسأل الله السلامة والعافية!

إذن: كم يتحصل لنا إحدى عشر صفة أو حال، والعلم عند الله عز وجل.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (فيمرُّ أولهم كالبرق، ثم كمرِّ الريح، ثم كمرِّ الطير وشد الرجال، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائم على الصراط يقول: يا رب، سلِّم سلِّم»)، المقام عظيم.

في ذلك الموقف أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يتكلم أحد، هذا دليل على أنه موقف هيبة، والنفوس قد بلغها من الخوف والرهبة شيء عظيم، حتى إنه لا

يتكلم أحد، باستثناء الرسل عليهم الصلاة والسلام كما ثبت في الصحيحين أنهم يكونون على جنبتي الصراط وكلامهم: اللهم سلِّم سلِّم، أو: ربِّ سلِّم سلِّم، ورأس أولئك نبينا صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فإنه يقول: اللهم سلِّم سلِّم.

وأيضًا ثبت أن الملائكة تقول ذلك: اللهم سلِّم سلِّم، كما جاء هذا في مستدرك الحاكم بإسناد صحيح أنهم يقولون ذلك، يدعون للمارِّين بالسلامة، وهذا شفاعة عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، سؤال من هؤلاء الرسل الكرام والملائكة الكرام لربهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يسلِّم هؤلاء الماشين، فإن المقام مقام عظيم، وبقية الناس يسكتون، لا يتكلم إلا الرسل والملائكة، وكلامهم: اللهم سلِّم سلِّم.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (حتى تعجز أعمال العباد، فيأتي من يزحف) هذا الحال الخامسة أخَّرها المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ من الأحوال التي ذكرها.

قال: (وفي حافتي الصراط كلاليب معلَّقة مأمورة، تأخذ من أُمرت به، فمخدوش ناج ومكردس في النار)، نسأل الله السلامة والعافية!

الناس في نتيجة المرور ينقسمون إلى ثلاثة أقسام، لخصها لنا النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الصحيحين.

قال: «فناجٍ مسلَّم» هذا رقم واحد.

الثاني: قال صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ومخدوش سالم» يعني: ناج مخدوش.

والصفة الثالثة: مكدوس أو مكروس في نار جهنم، نعوذ بالله! كم صفة هذه؟ ثلاثة.

الصفة الأولى: الناجي من السقوط، السالم من خدش وجرح الكلاليب. وهؤلاء أهل السعادة والتوفيق، أهل التقوى والإيمان، نسأل الله أن يجعلنا منهم، وأن يصلحنا قلوبنا، وأن يرزقنا التوبة النصوح.

صنف ثانٍ هم الذين يهلكون ويسقطون -والعياذ بالله- في جهنم، قال: مكدوس أو مكروس، أو الموبق بعمله. هذا تأخذه الكلاليب التي أُمرت به، والمسألة كلها بتقدير الله عز وجل، ليست عشوائية، مأمورة، تؤمر بفلان بن فلان أن تأخذه وتلقيه في النار، وهؤلاء -كما قلنا- قسمان: المنافقون الذين إذا دخلوا النار فإنهم لا يخرجون منها خالدون مخلدون فيها، بل هم في الدرك الأسفل من النار، نعوذ بالله من حالهم!

الصنف الثاني: العصاة الذين زادت سيئاتهم على حسناتهم ولم يشأ الله العفو عنهم. وهؤلاء يسقطون في النار، ويُعذَّبون فيها المدة التي يشاؤها الله عز وجل، ثم بعد ذلك يُخرجون منها فيكون مآلهم إلى الجنة، لكن كم يبقون فيها؟ الله أعلم، ما ندري والله، لكن ينبغي أن نعلم أن عذاب الله شديد، نعوذ بالله من عذابه!

الصنف الثالث بين بين، هؤلاء سلموا من السقوط لكنهم ما سلموا من إصابة الكلاليب والخطاطيف والشوك المعلَّق بحافتي الصراط، وهذا الذي جاء وصفه بأنه مخدوش، أصابه خدش، وجاء بأنه مُكْلَم، مُكْلَم من الكَلْم يعني: الجرح، وجاء أنه مخدوج به، أخذت الكلاليب شيئًا من لحمه، نسأل الله السلامة والعافية! ولكنه يجتاز، يجوز هذا الصراط.

إذن: الناس ينقسمون إلى هذه الأقسام الثلاثة.

بقي عندنا مسألتان لم يُشِر إليهما المؤلف وأذكرهما على وجه الإيجاز.

ينبغي علينا أن نعتقد أن الله عز وجل يرسل في هذا الموقف الأمانة والرَّحم على جنبتي الصراط يمينًا وشمالًا، ظاهر النص أن الأمانة تكون على جهة اليمين، والرحم تكون على جهة الشمال، والعلم عند الله، يرسل الله عز وجل الأمانة والرحم فتقومان على جنبتي الصراط يمينًا وشمالًا.

قال العلماء: كأن هذا -والله أعلم- ليشهدا على القائم بحقهما، ويشهدا على المضيع لهما. الأمانة والرحم تقومان على جنبتي الصراط، كأن ذلك -والعلم عند الله- لأجل أن تشهد الأمانة والرحم وتشفع للقائم بحقهما.

فهنيئًا للأمناء الذين لا يخونون فيما يُؤتمنون في صغير أو كبير، في مال أو عِرض أو غير ذلك، وهنيئًا للواصلين الذين يصلون رحمهم، ويبلونها ببلالها ولا يقطعون الرحم.

وبؤس لمن لم يكن كذلك، للخائن وللقاطع الذين يقطع رحمه، هذا ينبغي عليه أن يفكر تفكيرًا جادًا.

وكيف تقوم الأمانة والرحم؟ وهل لهما شيئان محسوسان حتى يقوما على جنبتي الصراط؟ ما القاعدة هنا؟ الله على كل شيء قدير، الله سبحانه قادر على أن يقلب الجواهر أعراضًا -كما يقولون- وعلى أن يقلب الأعراض جواهر، أن يجعل هذا الشيء الذي هو معنوي أن يجعله شيئًا حسيًا، وهذا له نظائر كثيرة في النصوص، والله على كل شيء قدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أخيرًا: ينبغي أن نعلم -أيضًا- أن الناجين في مرورهم على الصراط يقولون كلمة، كما ثبت عند الحاكم بإسناد صحيح أنهم يقولون إذا نجوا وسلموا من الوقوع في جهنم -والعياذ بالله- يقولون: الحمد لله الذي أنجانا منكِ. يخاطبون جهنم: الحمد لله الذي أنجانا منكِ بعد أن أراناكِ، لقد أعطانا ما لم يُعط أحد. نسأل الله أن يكون ممن يقول هذا القول، يستشعرون نعمة الله العظيمة عليهم، فيحمدون الله هذا الحمد، الحمد لله الذي أنجانا منكِ بعد أن أراناكِ، يرونها لأنها أسفل منهم، لقد أعطانا ما لم يُعط أحد.

إذا اجتاز هؤلاء الصراط فإن ثمة موقفًا أخيرًا قبل دخول الجنة، هذا آخر مواقف القيامة وهو: أن الناس الذين سلموا وخلصوا من النار ومن الوقوع فيها

يوقفون على قنطرة، وصفها النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقوله: «بين الجنة والنار»، هذه آخر المواقف قبل دخول الجنة.

دليلها ما ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار» كيف يخلصون؟ كيف تكون نجاتهم؟ باجتيازهم الصراط، بمرورهم مِن على الصراط وسلامتهم من الوقوع.

قال: «إذا خلص المؤمنون من النار يُوقفون على قنطرة بين الجنة والنار»، القنطرة مثل الجسر، فهذا جسر آخر، هذا هو الصحيح، قال بعضهم: إنه طرف الصراط مما يلي الجنة، لكن الذي يظهر -والله أعلم- أن التحقيق خلاف ذلك، وأن هذه القنطرة جسر آخر، هل هي على شيء؟ على هول من الأهوال أو على غير لك؟ الله أعلم، ما ندري، ما عندنا علم، إنما جاء الحديث الصحيح الذي هو في أعلى درجات الصحة أنهم يُوقفون على قنطرة، على جسر، لماذا؟ قال صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فيُقصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم».

إذن: هذا موقف اقتصاص أخصُّ من الموقف الأول، في مواقف القيامة هناك موقف قصاص، وقلنا: إن أول ما يُقتص فيه في ذلك اليوم هو بين الناس، المظالم التي بينهم، أول شيء في الدماء، نسأل الله السلامة! لكن هذا -والله أعلم- اقتصاص أخص.

كذلك أخبر النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -كما مر بنا في حديث المفلس- أن الظالم يأخذ المظلوم من حسناته فتكون مع حسناته، فإذا فنيت حسناته فإن الظالم يأخذ من سيئات المظلوم فتكون مع سيئاته ثم يُلقى في النار، هذا الاقتصاص لا يترتب عليه دخول النار، لماذا؟ انتهى الأمر، النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «إذا خلص المؤمنون من النار».

إذن: هذا القصاص أخص، فهو -أولًا- بعده.

ثانيًا: محلُّه مختلف.

ثالثًا: نتيجته مختلفة. ذاك الاقتصاص قد يترتب عليه دخول النار، أما هذا الاقتصاص فلا يترتب عليه دخول النار، لقوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أول الحديث: «إذا خلص المؤمنون من النار».

إذن: لماذا هذا الاقتصاص؟ كأن ذلك -والله أعلم- لأجل تهذيب النفوس وتنقيتها، قال صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فيُقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة»، كأن هذا -والله أعلم- ليزيل ما في القلوب من غِلٍّ وإحِنٍ بسبب المظالم التي كانت بينهم في الدنيا، الناس في الدنيا يكون بينهم ما يكون، وما أكثر هذا مع الأسف الشديد! لا تجد أن قلوب بعضهم على البعض -بين المسلمين بشكل عام- صافية إلا ما رحم الله، لكن يوم القيامة هؤلاء الذين خلصوا لابد أن يكونوا طيبين، لابد أن تكون

قلوبهم طيبة، قال جل وعلا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:٤٣]، فيُهذَّبوا ويُنقَّوا ثم بعد ذلك يؤذن لهم في دخول الجنة، وهذا ما سنتكلم عنه -إن شاء الله-.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بكل ما جاء في الكتاب والسنة من أخبار ذلك اليوم وأهواله، أعاننا الله عليها ويسَّرها علينا بمنِّه وكرمه.

۞ ۞ ۞

قال الشارح وفقه الله:

فبعد أن ساق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من المباحث المتعلقة بيوم القيامة وما فيه من مواقف وأهوال؛ ختم بهذه الخاتمة وهي: أن أهل السنة والجماعة يؤمنون بكل ما جاء في الكتاب والسنة مما يتعلق بذلك اليوم العظيم، كل ما جاء في الكتاب والسنة من أخبار يوم القيامة وما فيه من أهوال فواجبٌ حتمي لا خيار فيه أن يصدق العبدُ ويوقن، وهذا من صميم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

مهما بلغك من آية أو حديث ثابت عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها أو فيه شيء من أخبار ذلك اليوم العظيم فواجبٌ عليك أن تؤمن وأن تصدق يا عبد الله!

وحذارِ من مزلق خطير يتعلق بهذا المقام وهو: ردُّ شيء مما جاء في اليوم الآخر بالعقل، من جهة كونه يتوهم الإنسان أنه مخالف للعقل، أو يقيس عالَم الغيب على عالم الشهادة، وهذا من أسس الضلال.

فلتعلم -يا عبد الله- أن ما يتعلق باليوم الآخِر وما جاء فيه عالَم غيبي، الله أعلم كيف يكون، فنحن نصدق بذلك ونسلِّم به دون أن نخوض فيه بعقولنا، ومهما استشكلت شيئًا من ذلك فاستمسك بالقاعدة المهمة التي مر ذكرها في دروس ماضية وهي قاعدة القدرة، هذه قاعدة مطردة، وقاعدة مريحة لك يا أيها المسلم ويا طالب العلم.

إذا كنت موقنًا بأن الله على كل شيء قدير لن تستشكل شيئًا يتعلق بمباحث الآخرة، ألم تر إلى إرشاد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى استذكار هذه القاعدة؟ في الصحيحين من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما سئل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كيف يمشي الكافر على وجهه يوم القيامة؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبرنا بذلك وأن الكافر يُحشر على وجهه، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء:٩٧]، قال: كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فأجاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجواب محكم كن منه على ذُكْر، قال: «أليس الذي أمشاه في الدنيا على الرجلين قادرًا على أن يمشيه يوم القيامة على وجهه؟» ما الجواب؟ بلى والله، فإنه سبحانه على كل شيء قدير.

فحذارِ من أن تتحكم بعقلك في كلام الله وكلام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل خذه على محمل التسليم والإذعان والقبول.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونؤمن بكل ما جاء في الكتاب والسنة من أخبار ذلك اليوم وأهواله) إي والله! إنها لأهوال عظيمة، وذلك اليوم يومٌ عظيم، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٠]، يومٌ فيه من الأهوال ما بيَّن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل:١٧] الله أكبر! (الْوِلْدَانَ) الصبيان، (شِيبًا) جمع أشيب، تشيب رؤوس الولدان الأطفال الصغار من عظيم تلك الأهوال، هذا لا يكون -والله- إلا من أمر عظيم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]، والعظيم إذا عظَّم شيئًا فإنه -وربي- عظيم.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١-٢].

هذا يومٌ ينبغي على الإنسان أن يستعد له، وأن يجد ويجتهد، فإننا -والله- لملاقونه، والله لنبعثُن، ووالله لنحاسبَن، ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

هذه الغفلة التي استولت على القلوب حتى كانت أحوالنا قريبة من حال الذين لا يوقنون باليوم الآخر، إنا لله وإنا إليه راجعون! القلوب مصدقة والألسن

تخبر بذلك، لكن الأعمال -إلا من رحم الله- تشهد بأن هناك غفلة عظيمة عن ذلك اليوم العظيم.

أرأيت -يا رعاك الله- لو أن قيل لأهل بلد: إن هناك احتمالًا لا يتجاوز الخمسين بالمائة أن تهبَّ بعد عام رياح وأعاصير تقتلع البيوت والأشجار، ماذا سيصنع الناس؟ سيأخذون هذا الكلام على محمل الهزل أو الجد؟ خلال هذا العام ماذا سيصنعون؟ إما أن يفروا وإما أن يتحصنوا ويستعدوا.

كيف لو قيل لهم: إن هبوب هذه الرياح والأعاصير يمكن أن يكون بعد شهر وليس بعد سنة؟ كيف سيكون استعدادهم؟ فكيف إذا قيل: إن الاحتمال مائة بالمائة، أرأيت أنهم يشتغلون باللغو والعبث واللعب أو أنهم يجدُّون ويجتهدون؟ فكيف بأمر والله هو أعظم وأعظم؟ شيء لا مقارنة فيه، شيء عظيم كما قال الله عز وجل.

ويُحتمل أن تقوم قيامة كل إنسان.. وقيامة كل إنسان بموته، تنتهي هذه الفرصة وتبدأ الحياة الحقيقية، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤]، ربما بعد لحظة أو لحظات أو أيام قليلة، والله ما يدري الإنسان، ما ندري نقوم من هذا المجلس أو لا نقوم.

إنها الغفلة يا إخوة، نسأل الله أن يوقظ قلوبنا أن نستعد لذلك اليوم العظيم ولهول المطلع ولقيام طويل، يوم فيه من الشدة والكرب ما يصل به الأمر إلى ما

سمعت، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧].

يومٌ طوله خمسون ألف سنة مما نعدُّ، ليست المسألة ساعة أو ساعتين، أو يوم أو يومين، إنما الأمر -والله- أعظم من ذلك وأعظم.

الشمس تدنو من العباد حتى تكون منهم على قَدْر ميل، يصيب الناس من الكرب والهول ما يتمنون فيه أن يُقضى بينهم ولو كان المصير إلى النار، نسأل الله السلامة والعافية!

الناس عُراة لا يشتغل أحد بالنظر إلى شيء من هذه الأمور، الأمر أعظم من ذلك.

إذن: ما أخبر الله عز وجل به، ما حدثنا به رسولنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يكن عبثًا، إنما كان لأجل أن نأخذ الأهبة ونجدَّ ونستعد، فإن هذا -والله- لحق، نحن الآن في مكاننا هذا أو في هذا المكان والمجلس المكيَّف المريح نقرأ نقول: إن هناك صراطًا، وإن هناك ميزانًا، وإن هناك وقوفًا طويلًا، وإن هناك عرضًا على الله عز وجل، وإن الأمم تكون جاثية، وإن العرق يعلو الناس حتى ربما بلغ الآذان، ونقول مثل هذه الأمور، لكننا -والله- لنراها بعين اليقين، بل إنها ستكون لنا حق اليقين، سنعيش تلك اللحظات ونرى هذا بأمِّ أعيننا، لكن نسأل الله أن نكون من

الفريق المرحوم، فالناس يومئذٍ يتفرقون، يصبحون فريقين: فريق سعيد وفريق شقي، السعيد إلى الجنة، والشقي إلى النار، نسأل الله السلامة والعافية!

فالله الله بالاستعداد لهذه الحقيقة، فإن ما قبلها أقرب إلى.. هذه الحياة أقرب إلى الأحلام، لكن الحقيقة ستكون هناك، الحياة كلها ليست بشيء، أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحقيقتها في جملة توقظ القلوب وتتذكر بها الألباب، قال: «ما لي وللدنيا، إنما أنا راكب استظل تحت ظل شجرة ثم قام وتركها»، هذا الأمر باختصار، فترة مؤقتة لا تُعتبر بشيء فيما يتعلق بالقادم لا من جهة الزمن، زمن هذه الدنيا ليس بشيء أمام يوم القيامة وما بعده من حياة خالدة في نعيم أو عذاب، وليس كذلك من جهة التعب والنَّصَب، كل تعب الدنيا ونصبها ليس بشيء أمام غمسة واحدة في جهنم، والعياذ بالله! وأيضًا من جهة النعيم واللذات الدنيوية، والله إنها ليست بشيء أمام النعيم الأخروي، جنات النعيم.

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبر أن موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها. كم المساحة التي يأخذها السوط أو العصا من الأرض؟ مساحة لا تُذكر، هذه المساحة من الجنة خير من الدنيا وما فيها، كل هذا الكون ليس بشيء أمام هذه المساحة الصغيرة من الجنة. الله الله أعود فأقول بالجد والاجتهاد، والنشاط والاستيقاظ، وتحريك هذه القلوب وانبعاث الجوارح بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمسارعة إلى رضوانه، وأعظم ذلك وأهمه: توحيد الله عز

وجـل، أن تتعلـق القلـوب بـالله وحـده لا شـريك لـه، ثـم متابعـة رسـوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بأن يكون هو القدوة والأسوة والمتَّبَع عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثم متى ما طرق سمعك أمرٌ من أمر الله أو رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انشط وبادر.

وإذا دُعِيت إلى أداء فريضة   فانهض ولا تك بالإجابة واني

إذا سـمعت الله عـز وجـل أو رسـوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـد حرمـا شـيئًا فاجتنب وابتعد واحذر عذاب الله، فالأمر عظيم، دخلت النار امرأة في هرِّة، شيء لا يلقي له بالًا كثير من الناس، كونه يؤذي هرة أو نحوها ومع ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الصادق المصدوق أخبر أن هذا الأمر كان سببًا في دخول امرأة النار، فكيف بما هـو أعظـم؟ إذن: حـذارِ مـن محـارم الله، اجتنب وابتعـد واصـبر، مـا هـي إلا لحظات وساعات قليلة وينقضي كل شيء، ثـم تكـون السـعادة الأبديـة واللـذات المستمرة والنعيم السرمدي. أسأل الله أن نكون من أهله!



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بشفاعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الجنة أن يدخلوها، وهي للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة.

قال الشارح وفقه الله:

اتفق أهل السنة على اختصاص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الشفاعة، وهي الشفاعة لأهل الجنة في دخولها، فإن الجنة لا يدخلها أهلها حتى يشفع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيستفتح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك باب الجنة، ويكون هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أول داخل إليها وأمته أول الأمم دخولًا إليها.

ويدل على هذه الشفاعة: ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة وحذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يجمع الله الناس ويقوم المؤمنون حتى تُزلَف لهم الجنة، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون: يا أبانا، استفتح لنا»، يطلبون أن يستفتح لهم باب الجنة، فيعتذر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويقول: لست بصاحب ذلك، ويأمرهم أن يذهبوا إلى ابنه إبراهيم، يقول: اذهبوا إلى ابني إبراهيم، فيذهبون إلى إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيعتذر ويقول: لست بصاحب ذلك، ويأمرهم بالذهاب إلى موسى وموسى يعتذر ويقول: لست بصاحب ذلك، ويأمرهم بالذهاب إلى عيسى وعيسى يعتذر ويقول: لست بصاحب ذلك،

ويـأمرهم بالـذهاب إلـى النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقـال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فيقـوم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يُؤذن له» اللهم صل عليهم وسلم أجمعين.

فهذا من أدلة هذه الشفاعة، وثمة أدلة غيرها، وموضوع الشفاعة مر به الكلام فيما مضى، وقلنا: إن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أورد سابقًا كم نوعًا من الشفاعة؟ أورد نوعين وهذا الثالث.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بالجنة والنار، الجنة دار النعيم التي أعدها الله تعالىٰ للمؤمنين المتقين، فيها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، قال تعالىٰ: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

قال الشارح وفقه الله:

نهاية مواقف القيامة تكون بدخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، انتهى الآن اجتماع الناس وتفرَّقوا، وصار منهم الشقي وصار منهم السعيد، نسأل الله أن يجعلنا من السعداء!

الجنة دار النعيم، الدار التي أعدها الله عز وجل لنعيم أوليائه، وجعل هذا النعيم جزاءً على إيمانهم وأعمالهم الصالحة.

وثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه جل وعلا: «قال سبحانه: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ثم قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]».

ويكفي قول الله عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١].

الحديث عن الجنة يعني الحديث عن نعيم سرمدي مؤبَّد لا ينقطع، وأهلها لا يبغون عنها حولًا، لا يرغبون البتة أن يتحولوا عن مقامهم الذي هم فيه، فسبحان الله! كيف يطلب التحول مَن هو في هذا النعيم السرمدي واللذات المستمرة والخير العظيم الذي هو أعظم وأكبر مما يتصوره الإنسان.

إذا كان أدنى أهل الجنة منزلة له مثل كل نعيم هذه الدنيا وعشرة أضعافه، هذا أدنى أهل الجنة، لو لم يكن في الجنة إلا أن الحُزن والنَّصَب والتعب كله يزول، ولذلك أهل الجنة فيها يحمدون الله على ذلك، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٥-٣٦].، نسأل الله أن نكون ممن يقول هذا القول بمنِّه وكرمه ورحمته!

إذن: هذه هي الجنة التي أعدها الله عز وجل لعباده المتقين، ومهما تكلم الإنسان في نعيم الجنة فالمقام أعظم وأعظم.

لكن الذي ينبغي التنبه إليه: أن أعظم نعيم الجنة لأهلها: حلول رضوان الله عز وجل ورؤيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسماع كلامه، هذا أعظم نعيم أهل الجنة، ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢]، إذا رأى المؤمنون ربهم وقد حل رضوانه

عليهم فإن تلك النعمة وهذه اللـذة لا يضـارعها شـيء ولا يقارنهـا شـيء مـن كـل أصناف النعيم، فنسأل الله عز وجل أن ننال هذا النعيم بمنِّه وفضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



قال المصنف رحمه الله:

والنار دار العذاب التي أعدها الله تعالىٰ للكافرين الظالمين، فيها من العذاب والنكال ما لا يخطر علىٰ البال، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩].

قال الشارح وفقه الله:

الدار الأخرى -وليس في الآخرة إلا داران- هي دار العذاب والجحيم، النار، جهنم، نسأل الله العافية منها!

هذه الدار دار العذاب التي أعدها الله تعالى للكافرين، كما أخبر الله عز وجل عنها: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

وإذا كان الحديث عن النار -نعوذ بالله منها- فإن ذلك يعني أهوالًا وشدة وعذابًا عظيمًا، ونكالًا فوق ما يتصور الإنسان، ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل:١٢-١٣]، شيء عظيم وهول كبير.

أخبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن أبي طالب -وهو أهون أهلها عذابًا- أنه ينتعل نعلين من نار يغلي منهما دماغه، يرى أنه أشد أهل النار عذابًا وإنه لأهونهم عذابًا.

إذا كان الدماغ يغلي فكيف بما هو دونه مما هو أقرب للقدمين؟ وساق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنموذجًا من العذاب الذي يكون في هذه الدار –نعوذ بالله منها– قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩].

يستغيثون، يطلبون الشراب لأنهم عطشوا عطشًا شديدًا، فالنتيجة أنهم يُعطون هذا المهل، يعطون هذا الشراب الذي هو كالمهل.

واختلف المفسرون في هذا المهل إلى ستة أو سبعة أقوال، منهم من قال: إنه الشيء المُذاب من الرصاص أو النحاس أو نحوه. ومنهم من قال: إنه مثل الزيت العكر. ومنهم من قال غير ذلك، وجمع بين هذه الأقوال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فبيَّن أنه شراب أسود ومنتن وغليظ وحار، نعوذ بالله! هذا الذي يُسقونه، والنتيجة أنه يقطع أمعاءهم، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥].

ليس هذا فقط، بل –أيضًا– يُصب من فوق رؤوسهم الحميم، والنتيجة: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج:٢٠]، هذا إذا سُقُوا، فكيف بأنواع العذاب الأخرى؟ نسأل الله السلامة والعافية!

هذا أمر عظيم ، وإذا تلوت كتاب ربك فقف عند آيات النار وما فيها من العذاب واعلم أن الله عز وجل أراد مِنَّا أن نخافه، وأن تصيبنا الرهبة مما يكون في

النار، نعوذ بالله منها! ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦].

الله يخوفنا من رحمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بنا من هذا العذاب، إذن: علينا أن نخاف، والذي يخاف يجِدُّ ويعمل وينشط، الذي يخاف هو الذي يتقي أسباب دخول هذه النار، نسأل الله العافية والسلامة!

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والنار دار العذاب التي أعدها الله تعالى للكافرين الظالمين) هي أُعِدَّت لهم، أعدها الله للكافرين، ومع ذلك فإن من أهل التوحيد والإسلام من يدخلها، ولذلك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال كما في صحيح مسلم: «أما أهل النار الذين هم أهلها فأولئك لا يموتون فيها ولا يحيون»، لا يموتون فيستريحون، ولا يحيون حياة مستقرة، «ولكن أناس أصابتهم النار بذنوبهم»، هؤلاء عصاة أهل الإسلام.

إذن: سبب دخول النار من هؤلاء العصاة ما هو؟ الذنوب، تصيبهم النار المدة التي يشاء الله عز وجل ثم إنهم يموتون فيها، كما جاء في هذا الحديث: «ثم يميتهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إماتة، ثم بعد ذلك يُخرجون ضبائر ضبائر» يعني: مجموعات مجموعات، «فيُلقون على نهر من أنهار الجنة يسمى نهر الحياة، ويقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم»، فيفيضون عليهم فينبتون ويتخلقون خلقة جديدة، هذه الدار -أيضًا- يُعذَّب فيها العصاة، انتبه! ليس المسألة أن هذه النار

للكفار، أما من قال لا إله إلا الله وكان عنده توحيد مهما فعل من المعاصي أنه سالمٌ ولابد، الجواب: لا، إذا شاء الله عز وجل تعذيب العاصي ولم يشأ العفو عنه فإنه سيُعذَّب، ولذلك الله عز وجل يخوِّفنا من هذه النار، قال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، خطاب لأهل الإيمان، وقد سمعت قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دخلت النار امرأة في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**».

ومر بنا في أحاديث الشفاعة -إن كنتم تذكرون- أن أهل الإيمان يناشدون الله عز وجل أعظم المناشدة في شأن إخوانهم الذين أُخِذ بهم إلى النار، فيخبرون أنهم كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويحجون معنا، إذن: العذاب قد نال أناسًا يصلون ويصومون ويحجون، يفعلون طاعات ولكن يتركون واجبات أو يفعلون محرمات.

إذن انتبه! كما أن الله عز وجل غفور رحيم فإنه شديد العقاب، ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، إذن: لابد أن تكون متنبهًا لهذا الأمر، النار يخوفك -يا أيها المسلم- الله منها وإن كانت مُعَدَّة للكافرين لأنهم أهلها الذين سيبقون فيها وحدهم، فإن أهل الإيمان مهما قلَّت درجة إيمانهم ولو كان في قلبهم أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فإنه

سيأتي عليهم وقت يُخرجون فيها، إما بشفاعة الشفعاء إذا أذن الله عز وجل لهم أو بمحض رحمة أرحم الراحمين، والله المستعان!



قال المصنف رحمه الله:

وهما موجودتان الآن، ولن تفنيا أبد الآبدين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق:١١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٦].

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

أشار المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هاهنا إلى مسألتين تتعلقان بموضوع الجنة والنار:

❁ المسألة الأولى: مسألة وجود الجنة وخلقها.

❁ والمسألة الثانية: مسألة بقاء الجنة والنار وخلودهما.

إذن: وجود النار ومسألة بقاء الجنة والنار.

والأدلة على ذلك لا شك أنها كثيرة، وهذا موضع اتفاق بين أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، وليس أنهما يُخلقان يوم القيامة كما يقول ذلك من يقوله من أهل الضلال والبدع، الأمر ليس كذلك، بل هما موجودتان ومخلوقتان، والأدلة على ذلك كثيرة.

من ذلك: أن الله عز وجل أخبر عن الجنة أنها أُعِدِّت للمتقين، (أُعِدَّت) فعل ماض، إذن: شيء مضى وليس أنه سيكون.

كذلك قال عن النار -نعوذ بالله منها-: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٤].

ومن الأدلة -أيضًا- ما ثبت من أحاديث عرْض الجنة والنار على الميت إذا مات.

ومن ذلك -أيضًا-: ما جاء في أدلة عذاب البرزخ أو نعيمه، فرأى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبر -في أحاديث كثيرة- ما يكون من عذاب الناس الذين هم في البرزخ في النار، يعني: تُعذَّب أرواحهم.

كذلك أخبر عن نسمة المؤمن أنها طائرٌ يعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم القيامة.

أيضًا من ذلك حديث الكسوف، حيث عُرِض على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجنة والنار.

أيضًا من ذلك ما ثبت في الصحيحين من دخول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجنة لما عُرِج به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأخبر عما رآه فيها من النعيم.

كذلك رأى النار وأخبر عن بعض ما فيها من النكال والعذاب، في أدلة أخرى كثيرة تدل على أن الجنة والنار موجودتان الآن.

وأما المسألة الثانية فهي بقاؤهما وعدم فنائهما، وهذا -أيضًا- محل اتفاق بين أهل السنة والجماعة، وإن شَذَّ وأخطأ بعضهم في هذا، طبعًا المخالفون في هذا من أهل الضلال: الجهمية، وقِلَّة من أهل العلم أخطؤوا في هذه المسألة فقالوا ببقاء الجنة وفناء النار، ولكن الصواب -وهو الذي عليه اتفاق أهل السنة والجماعة ودلت عليه الأدلة الكثيرة- أن كلا الدارين باقيتان.

الجهمية يقولون بفناء الجنة والنار كلاهما، وبعض المعتزلة يقولون بفناء حركات أهل الجنة والنار، وبعض أهل العلم الذين أخطؤوا في هذه المسألة قالوا ببقاء الجنة وفناء النار، والصواب ما قدمت لك أنهما باقيتان لا تزولان أبد الآباد، أيُّ زمن تقدره في ذهنك فإن الجنة والنار وما فيهما ومَن فيهما سيبقون وما هو فوق ذلك إلى ما لا نهاية. هذا هو الحق الذي لا شك فيه.

ومن الأدلة على ذلك: ما جاء في النصوص من تأبيد الخلود في الجنة والنار، والله عز وجل أخبرنا في آيات عديدة في كتابه أن أهل الجنة فيها هم خالدون أبدًا، ومن ذلك ما ساق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الطلاق:١١]، يعني: إلى ما لا نهاية.

كذلك الأمر في النار بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ثلاث آيات في القرآن في ثلاثة مواضع أن النار أهلها خالدون فيها أبدًا، هذه الآية التي بين أيدينا آية الأحزاب، كذلك في النساء وكذلك في الجن.

أيضًا من الأدلة على ذلك: ما ثبت في الصحيحين من حديث ذبح الموت: «يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت».

ومن الأدلة -أيضًا- بالنسبة لبقاء الجنة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص:٥٤] والله لا أصدق منه قيلًا، هذا نعيم لا ينفد، إذن: هي باقية ونعيمها باقٍ.

كذلك قال جل وعلا: ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة:٢١]، لا يزول ولا يحول ولا ينتهي.

وكذلك أخبر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن النار فيما بيَّن سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من أدلة في هذا المقام، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧]، فعذابهم مقيم، ومهما حاولوا الهرب والخروج من النار فإنهم يُعادون إليها، فعذابهم عذابٌ مستمر ولا شك.

ومن ذلك -أيضًا- قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧] باقون.

إذن: لا تفنى ولا أهلها يفنون لأدلة أخرى عديدة، والمقام لا يسمح بكثير من التفصيل.

إذن: هذا هو الحق الذي لا شك فيه أن أهل الإيمان والتوحيد في الجنة خالدون، وأنها باقية لا تفنى، وأن النار باقية -أيضًا- لا تفنى، وأن الكفار فيها

باقون خالدون أبدًا، فلا موت ولا انقضاء أبد الآباد. نسأل الله السلامة والعافية من ذلك!



قال المصنف رحمه الله:

ونشهد بالجنة لكل من شهد له الكتاب والسنة بالعين أو بالوصف.

فمن الشهادة بالعين: الشهادة لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم ممن عيَّنهم النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ومن الشهادة بالوصف: الشهادة لكل مؤمن أو تقي.

ونشهد بالنار لكل من شهد له الكتاب والسنة بالعين أو بالوصف.

فمن الشهادة بالعين: الشهادة لأبي لهب وعمرو بن لحي الخزاعي ونحوهما.

ومن الشهادة بالوصف: الشهادة لكل كافر أو مشرك شركًا أكبر أو منافق.

قال الشارح وفقه الله:

من المسائل المتعلقة بالجنة والنار: مسألة الشهادة بهما، هل يجوز لأحد أن يشهد بالجنة أو بالنار لأحد معيَّن أو غير معيَّن؟ أهل السنة والجماعة لهم في هذا الباب تفصيل.

فالشهادة بالجنة والنار إما أن تكون شهادة بالعين، وإما أن تكون شهادة بالوصف.

بالعين أي: يُعيَّن معيَّنٌ بأنه من أهل الجنة، يُشهد بذلك أن فلانًا أو أن تلك الطائفة المعيَّنة المحدودة من أهل الجنة، هذا هو الوصف بالعين. كذلك بالنسبة للشهادة بالنار، يُشهد لمعيَّن بأنه من أهل النار.

أو تكون الشهادة بالوصف، فلا يُعيَّن أحد، وإنما يقال: من اتصف بكذا أو المتصفون بكذا هؤلاء من أهل الجنة، ومَن كان كذا وكذا من الذين أخبر الله عز وجل بشأنهم وأن صفاتهم تقتضي دخول النار فإنه يقال: الذين هم كذا وكذا من أهل النار.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر ذلك فقال: (ونشهد بالجنة لكل من شهد له الكتاب والسنة بالعين أو بالوصف.

فمن الشهادة بالعين: الشهادة لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم ممن عيَّنهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يعني: هذه الشهادة بالجنة، ليس عندنا إشكال في مسألة الشهادة بالوصف كما قال: (ومن الشهادة بالوصف: الشهادة لكل مؤمن أو تقي) كما يقول الله عز وجل: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف:١٠٧].

إذن: هذا شهادة بالوصف، المؤمنون في الجنة، نشهد أن المتقين في الجنة، هذه شهادة بالوصف دون أن يُعيَّن فلانًا أو فلانًا.

أما ما يرجع إلى الشهادة بالعين أو الشهادة الخاصة، الأولى شهادة عامة، أما الآن نتكلم عن الشهادة الخاصة أو الشهادة بالعين.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (نشهد بالجنة لكل من شهد له الكتاب والسنة بالعين) هذه المسألة حصل فيها خلاف بين أهل العلم، والأقوال فيها ترجع إلى ثلاثة، نص

عليها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المنهاج في المجلد الخامس في صحيفة خمس وتسعين ومائتين، وكذلك في المجلد الأول من النبوات في صحيفة ما بعد المائتين أظن، كذلك أشار في مجموع الفتاوى في المجلد الحادي عشر.

خلاصة ذلك: أن العلماء مختلفون في هذا إلى ثلاثة أقوال:

❁ القول الأول: أنه لا يُشهد بالجنة عينًا، يعني: شهادة خاصة إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقط، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المجلد السادس في الصحيفة ما بعد المائتين نص على أن أصحاب هذا القول يقولون: لا يُشهد إلا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحسب. في المجلد الخامس جعل المسألة لكل الأنبياء، يُشهد للأنبياء جميعًا، وهنا نص على أن أصحاب هذا القول لا يشهدون إلا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والظاهر أن القول واحد، وإنما ذِكْر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان هنا على سبيل التمثيل.

وهذا القول ذهب إليه بعض المتقدمين كمحمد بن الحنفية والأوزاعي وعلي بن المديني وغيرهم من أهل العلم، وذكر شيخ الإسلام أن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ناظر عليًا بن المديني في هذه المسألة، هؤلاء يقولون: إنما نشهد للأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنهم المعصومون من الوقوع في الكفر.

ماذا عمن جاءت الشهادة لهم في الكتاب والسنة؟ قالوا: هؤلاء ليسوا معصومين، فكأن تلك النصوص فيها أنهم من أهل الجنة ما لم يرتدوا، ونحن لا نعلم إن كان حصل ذلك أو لا.

إذن: الشهادة إنما تكون فقط للأنبياء، لأن المأخذ عندهم مسألة العصمة من الوقوع في الكفر.

❁ القول الثاني وهو الذي عليه عامة أهل الحديث، وهو الذي عليه جمهور أهل العلم: أنه يُشهد بالجنة لكل من شهد له الكتاب والسنة، من جاء تعيينه في الكتاب والسنة بأنه من أهل الجنة فإنه يُعيَّن ويقال: فلان في الجنة، وذلك لأن هذا مقتضى تصديق تلك النصوص، وبالتالي فيكون ما جاء في هذا المعيَّن من أنه من أهل الجنة دليل على أنه يُحفظ حتى يموت من الوقوع في الكفر، وبالتالي كل من جاء الدليل على أنه من أهل الجنة عينًا فإنه يجب تصديق ذلك واعتقاده، من مثل مَن؟ العشرة المبشرون بالجنة، هؤلاء أشهر أولئك، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساقهم في حديث واحد: «أبو بكر في الجنة، عمر في الجنة، عثمان في الجنة...» إلى آخر الحديث.

هل هؤلاء هم فقط؟ الذين شُهِد لهم عشرة فقط؟ من أيضًا؟ ثابت بن قيس بن شماس أيضًا، عكاشة بن محصن أيضًا، بلال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، الحسن والحسين

وأمهما رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، عبد الله بن سلام، سعد بن معاذ، عمار بن ياسر وأمه وأبوه، خديجة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وزوجات النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عمومًا.

من أوسع مَن رأيته جمع هؤلاء المشهود لهم بالجنة: الشيخ عبد العزيز السلمان رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابه: الكواشف الجلية عن معاني الواسطية، ساق من أولئك واحدًا وأربعين ممن شُهِد لهم بالجنة.

وقد تكون الشهادة لمعينين، كقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيمن بايع تحت الشجرة أنه لا يدخل النار، «لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة» إلى غير ذلك مما جاء في النصوص.

❁ القول الثالث: أنه يُشهد لهؤلاء ويُشهد زيادة على ذلك لمن اتفقت الكلمة على الثناء عليهم أو استفاض في الناس ذكرهم بالخير. وهذا القول ذهب إليه بعض أهل العلم كأبي ثور، فإنه كان يجزم ويشهد بأن الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ من أهل الجنة، وميل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ لهذا القول كما تجده في الاختيارات.

واستدل هؤلاء بما ثبت في الصحيحين عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما مُرَّ بالجنازة الأولى قال: «وجبت»، ولما مُرَّ بالجنازة الثانية قال: «وجبت» يعني: وجبت لها النار أو وجبت لها الجنة، ثم قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أنتم شهداء الله في الأرض».

والأقرب –والله تعالى أعلم– هو القول الثاني، ما عليه الجمهور.

ومسألة الثناء هذه مسألة لا ترقى إلى مسألة الشهادة بالجنة، فالأسلم أن يقول الإنسان: إن الذي في الجنة هو فلان وفلان ممن دل الدليل عليه، ومن عداهم فإنه يُرجى أن يكون من أهل الجنة، ولا يضره ذلك، لا يضره أن يقف هذا الوقف وأن يحتاط هذا الاحتياط.

ومن كان أهل الجنة فهو من أهلها ولو لم تشهد له، لا يضره عدم شهادتك، ولو لم يكن من أهل الجنة لن يكون من أهلها لأنك شهدت له.

فهذا الذي يظهر والله تعالى أعلم، وإن كان هنا بحث عند أهل العلم: هل هذه الشهادة سبب من أسباب دخول الجنة، أو هي مجرد إخبار؟ والذي يظهر وظاهر النصوص تدل على أن الشهادة لها أثر، لكن البحث هنا ليس في البحث في مسألة الجزم والتعيين، والعلم عند الله عز وجل.

أما مسألة الشهادة بالنار، طبعًا لا يرد الخلاف السابق في مسألة الشهادة بالنار، فهذه مسألة أخرى.

قال: (ونشهد بالنار لكل من شهد له الكتاب والسنة بالعين أو بالوصف.

فمن الشهادة بالعين: الشهادة لأبي لهب وعمرو بن لحي الخزاعي حيث رآه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النار يُجر قُصْبه) يعني: أمعاءه. نسأل الله العافية!

ومنهم -أيضًا- أبو طالب، ومنهم -أيضًا- أبو جهل، وغيرهم ممن دل الدليل على أنهم من أهل النار تعيينًا، وثمة شهادة أخرى وهي: الشهادة العامة أو الشهادة بالوصف.

قال: (ومن الشهادة بالوصف: الشهادة لكل كافر أو مشرك شركًا أكبر أو منافق) يعني: منافق نفاقًا أكبر، كل من كان منافقًا نفاقًا أكبر فهو من أهل النار، من مات على ذلك فهو كذلك مشرك شركًا أكبر، الكافر كفرًا أكبر، كل هؤلاء من أهل النار.

كذلك فيما يتعلق بهؤلاء الكفار، كذلك فيما يتعلق بالعصاة الذين دل الدليل على أن من اتصف بأوصافهم أنهم من أهل النار، كقوله تعالى: ((إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا))، فنقول: من أكل أموال اليتامى فإنه متوعَّد بالنار وسيصلى سعيرًا، لكن فلان ممن علمنا أنه يأكل أموال اليتامى هل نقول: هو من أهل النار؟ لا نقول هذا في حياته، لماذا؟ يمكن أن يتوب. لكن بعد موته نقول ذلك أو لا؟ لا، لماذا؟ لأن هذا سبب مقتضٍ للعذاب، نعم ولا شك في ذلك لنص الآية عليه، ولكن كما أن للعذاب أسبابًا فإن للعذاب موانع، قد يوجد السبب ولكن يمنع من نفوذ العذاب مانع من الموانع، هذا باب لعلنا سبق أن تكلمنا عنه .



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بفتنة القبر، وهي سؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه، فـ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧] فيقول المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد. وأما الكافر والمنافق فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته.

قال الشارح وفقه الله:

فإن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ختم كلامه عن الركن الخامس من أركان الإيمان وهو: الإيمان باليوم الآخر، ختمه بالكلام عن مسألتي فتنة القبر وعذاب القبر ونعيمه.

وهاتان المسألتان متأخرتان في كتاب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإن كانتا زمنًا متقدمتان عما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد قلنا -إن كنتم تذكرون-: إن مباحث اليوم الآخر ترجع إلى موضوعات ثلاثة رئيسة وهي: ما يرجع إلى مبحث البرزخ، ومبحث يوم القيامة وما فيه من مواقف وأهوال، والمبحث الثالث يتعلق بالجنة والنار وما فيهما.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل موضوع ما يكون في البرزخ هو المتأخر في الذِّكر، والمباحث المتعلقة بالبرزخ ترجع إلى:

❁ أولًا: مسألة الاحتضار.

❁ وثانيًا: مسألة ضغطة أو ضمة القبر.

❁ وثالثًا: مسألة فتنة القبر.

❁ ورابعًا: مسألة عذاب القبر ونعيمه.

هذه أربع مسائل تتعلق بمبحث البرزخ.

والمراد بالبرزخ: هو ما بين هذه الحياة الدنيا وقيام الساعة.

البرزخ في اللغة: هو الحائل بين الشيئين. فهذه حياة برزخية، وهي بوابة الحياة الأخروية، وهي داخلة ضمن الحياة الآخرة في الجملة، ولذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -في حديث البراء بن عازب الطويل عند أحمد والترمذي وغيرهما- قال: «إن العبد إذا كان في إدبار من الدنيا وإقبال على الآخرة»، فهذه الحياة البرزخية هي مطلع الحياة الأخروية.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما اقتصر على هاتين المسألتين اللتين هما المسألتان الكُبْريان في موضوع البرزخ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونؤمن بفتنة القبر) ثمة شيء يتفق عليه جميع الناس مسلمهم وكافرهم، بل حتى مجنونهم، كلهم متفقون على أن هناك نهاية لهذه الحياة التي نعيشها، الموت محل اتفاق بين الناس جميعًا، لكن ما الذي يكون بعد هذا الموت؟

أهل الإيمان يعتقدون أن الموت نهاية حياة وبداية حياة، ليس الأمر كما عليه الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وأضرابهم من الكفار الذين

يقولون: إنه ليس بعد هذه الحياة حياة، إنما هو فناءٌ وعدم، بحصول الموت ينتهي كل شيء، ليس ثمة شيء وراء ذلك.

وأهل الإسلام جميعًا يقولون: إن الأمر ليس كذلك، الموت نهاية حياة وبداية حياة، نهاية الحياة الدنيوية وبداية الحياة البرزخية، ويتبعها بعد ذلك بعث الناس يوم القيامة ثم يكون مآلهم إما إلى جنة وإما إلى نار.

إذا مات الإنسان بدأت الحياة البرزخية، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونؤمن بفتنة القبر) يُفتن الناس في قبورهم. وأنبه ابتداءً إلى أن هاتين المسألتين تُرسمان عند أهل العلم برسمة فتنة القبر وعذاب القبر ونعيمه، وهذه الإضافة إلى القبر إنما هي إضافة أغلبية، قيل: فتنة القبر وقيل عذاب القبر ونعيمه لأجل أن الغالب على الناس أن يُقبَروا، وإلا فإن من مات ولم يُقبَر، كأن يغرق في بحر فتأكله الأسماك، أو أن يحترق فيصبح رمادًا منثورًا، فإن مَن كان كذلك فلا شك أنه سيناله نصيبه من الفتنة والعذاب أو النعيم، والله على كل شيء قدير، فلا يظنن ظان أن من لم يُقبر فإنه قد سلم، فلا فتنة ولا عذاب أو نعيم، الأمر ليس كذلك، إنما هذه الإضافة إلى القبر إنما هي إضافة أغلبية؛ لأن الغالب على الموتى أن يُقبروا.

فتنة القبر هي الامتحان الذي يكون في القبر، بيان ذلك: أن هذه الفتنة هي سؤال الملكين الميتَ في قبره عن ربه ودينه ونبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذه هي فتنة القبر، وهي فتنة عظيمة وابتلاء كبير، والأمر فيها كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما ثبت عنه في الصحيحين: «إنه قد أُوحي إلي أنكم تُفتنون في قبوركم مثل أو قريبًا من فتنة الدجال»، فتنة الدجال أعظم فتنة خلقها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في هذه الأرض منذ خلق آدم وإلى قيام الساعة، النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يخبرنا عن فتنة القبر أنها فتنة تماثل أو هي قريبة من فتنة الدجال، فالأمر -إذن- فيها أمر عظيم، نسأل الله السلامة والعافية!

عرَّف المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ هذه الفتنة بقوله: (وهي سؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه، فـ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧] فيقول المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وأما الكافر والمنافق فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته).

هذه الفتنة دل عليها كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والدليل هذه الآية التي بين أيدينا، فإنه قد فسَّرها خير من فسَّر القرآن من البشر وهو النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ففي الصحيحين من حديث البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بيان أنها نزلت في فتنة القبر، حيث قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إن الميت إذا مات فدُفِن أُتي -أو قال: فأُقعِد- ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ

آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ...﴾ [إبراهيم:٢٧]» إلى آخره. فهذا تفسير من لدن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لهذه الآية.

والتثبيت في قوله: ﴿يُثَبِّتُ﴾ هو الذي تعلَّق بقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ يعني: في الحياة الدنيا الله يثبت الذين آمنوا، وفي الآخرة الله يثبت الذين آمنوا.

وما هو المتعلق بفتنة القبر في هذه الآية؟ أهو قوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أو هو قوله: ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾؟

الصواب: أن فتنة القبر والتثبيت فيها هي المرادة في قوله تعالى: ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾، هذا هو الصحيح من قولي أهل التفسير.

أما التثبيت في الدنيا فإن ذلك تثبيته وهو على وجه الأرض، كونه يثبت على لا إله إلا الله، يثبت على دين الإسلام أمام هذه المغريات وهذه الشبهات وهذه الشهوات الكثيرة التي تعصف بالناس، فكونه يثبت على ذلك الإيمان والتوحيد ولا يتزحزح هذا إنما هو تثبيت من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كذلك الله عز وجل يثبت عبده المؤمن في قبره إذا فُتِن تلك الفتنة العظيمة.

وهذا الموضوع قد دلت عليه أدلة كثيرة، الأحاديث في هذا متواترة عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حتى إن السيوطي في كتابه شرح الصدور قد ساق من

أحاديث فتنة القبر من رواية ستة وعشرين من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، هذا الذي جمعه السيوطي رَحِمَهُٱللَّهُ، ستة وعشرون حديثًا عن أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فيها بيان ما يرجع إلى فتنة القبر.

إذن: هذا الموضوع أحاديثه كثيرة مشهورة متواترة، ومن ذلك: الحديث الذي أسلفته لك وهو قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إنه قد أُوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريبًا من فتنة الدجال».

كذلك حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ مرفوعًا الذي سُقته لك قبل قليل، وهو ثابت -أيضًا- في الصحيحين عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وثمة أدلة أخرى كثيرة.

يتعلق معنا بهذا الموضوع مسائل نأخذ منها ما تيسر:

۞ المسألة الأولى: هذه الفتنة التي تكون في القبور الصحيح من كلام أهل العلم أنها فتنة عامة لجميع الأمم، بخلاف قول من قال من العلماء: إنها فتنة خاصة بأمة محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، الصواب -وهو الذي عليه أكثر أهل العلم- أن الفتنة عامة، كل الأمم تُفتن في قبورها، ويكون السؤال في كل أمة عن نذيرها، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

۞ أيضًا مسألة ثانية وهي: من الذي يتولى هذه الفتنة؟ الذي يتولى هذه الفتنة مَلَكان كريمان، ومر بنا -إن كنتم تذكرون- في مبحث الإيمان بالملائكة الكلام عن هذا الأمر، وقلنا: إنه قد ثبت في سنن الترمذي عن رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسمية هذين المَلَكين بالمنكر والنكير، وجاء -أيضًا- في هذا الحديث وصفهما بأنهما أسودان أزرقان.

وأظن -أيضًا- أنه مر بنا أنه قد جاء في بعض الأحاديث أن الذي يأتي مَلَكٌ، هكذا بصيغة الإفراد، وقلنا: إن الجواب عن هذا يرجع إلى ثلاثة أجوبة، فهمنا المسألة وهي: علمنا أنه قد ثبت في الأحاديث في صحيح مسلم وغير ذلك -والأحاديث في هذا كثيرة- أن الذي يأتي فيفتن ويمتحن الإنسان في قبره ملكان، لكننا وجدنا في بعض الأحاديث أنه يجيئه أو يأتيه مَلَكٌ.

والجواب عن هذا إما أن نقول: إن الإفراد باعتبار الجنس، يعني: يأتيه من هو مِن جنس الملائكة، لكن هل هو واحد أو اثنين أو أكثر؟ التفصيل في هذا إلى الأحاديث المفسرة، وقد دلت على أنهما ملكان.

الجواب الثاني أن نقول: إن الذي يأتيه اثنان، والذي يتولى السؤال والامتحان واحد منهما.

والجواب الثالث أن نقول: إن هذا يكون باختلاف الأشخاص، من الناس مَن يأتيه مَلَكان، ومِن الناس مَن يأتيه مَلَك واحد، والعلم عند الله عز وجل.

المقصود: أن هذين المَلَكين المنكر والنكير، ولا يصح في هذا الباب حديث بخلاف هذا، فإن من أهل العلم من قال: إن الذي يأتي المؤمن ملكان اسمهما: المبشر والبشير، ولكن هذا لا يصح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذن: الذي نعتقد أن الذي يأتي المؤمن في قبره: المنكر والنكير، والعلم عند الله عز وجل.

۞ المسألة الثالثة: ثبت في السنة أن ثمة من يُستثنى من فتنة القبر، وهنيئًا لهم، هؤلاء يَمُنُّ الله عز وجل عليهم بالعافية من هذه المحنة العظيمة، يُستثنون فلا يُفتنون في قبورهم فضلًا من الله عز وجل ونعمة.

ومن هؤلاء أولًا: الشهيد في سبيل الله عز وجل، من مات شهيدًا في سبيله -والله أعلم بمن مات شهيدًا في سبيله- فإنه يوقى فتنة القبر.

ويدل على هذا ما ثبت في سنن النسائي بإسناد صحيح عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قيل له: ما بال الشهيد لا يُفتن في قبره؟ فقال: «كفى ببارقة السيف فوق رأسه فتنة».

إذن: الشهيد في سبيل الله يُستثنى من فتنة القبر.

ثانيًا: مَن مات مرابطًا في سبيل الله، فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بيَّن جزاءه في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومن ذلك قوله: «وأمِن الفتَّان»، فالذي يموت مرابطًا في سبيل الله عز وجل على ثغور المسلمين، يحمي المسلمين وحوزتهم فإن هذا ممن يوقى -بفضل الله عز وجل ورحمته- من فتنة القبر.

الأمـر الثالـث: جـاء حـديثٌ عنـد أحمـد والترمـذي وغيرهمـا أن النبـي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخـبر أن الـذي يمـوت يـوم الجمعـة أو ليلـة الجمعـة فإنـه يُـوقى الفتَّـان، يقيـه الله عـز وجـل الفتـان، مـن هـو؟ الـذي يمـوت يـوم الجمعـة أو ليلـة الجمعة.

وهذا الحديث من أهـل العلـم مـن صـححه، والشـيخ الألبـاني رَحِمَهُٱللَّهُ حكـم عليه في أحكام الجنائز بأنه حسن أو صحيح.

ومن أهل العلم من ضعف هذا الحديث، فالعلم عند الله عز وجل.

أيضًـا ممـن يُسـتثنى مـن فتنـة القـبر -ولا شـك-: الأنبيـاء علـيهم الصـلاة والسلام، وذلك لوجهين كما ذكر العلماء:

أولًا: أنهم أرفع درجة من الشهيد والمرابط.

والأمر الثاني قال العلماء: إن النبي مسؤول عنه فلا يكون مسـؤولًا، هـو أرفـع من أن يكون مسؤولًا؛ لأنه يُسأل عنه، والعلم عند الله عز وجل.

يبقى البحـث عنـد العلمـاء في الصـغير والمجنـون، هـذان لا تكليـف عليهمـا، فهل يُفتنان؟

اختلف العلماء فيهما، والأقرب -والعلم عند الله عز وجل- أنهما لا يُفتنـان، لأن الفتنة فرعٌ عن التكليـف، وهـذان لا تكليـف عليهمـا، وهـذا الـذي يبـدو والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعلم.

أيضًا هناك مسألة تتعلق بالكافر المظهر للكفر، هل يُفتن أو لا يُفتن؟

ذهب طائفة من أهل العلم من السابقين ومن اللاحقين، من المتقدمين أحد التابعين وهو عُبيد بن عُمير رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما أخرج هذا عنه عبد الرزاق في المصنف، وكذلك ابن عبد البر وكذلك السيوطي، وكذلك المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه على هذا الكتاب فإنه مال إلى هذا القول وهو: أن الفتنة إنما تتعلق بالمسلم والمنافق، يعني: بمن أظهر الإسلام، سواء أبطنه أو كان كافرًا مكذبًا في الحقيقة.

أما الكافر المظهر لكفره فإنه -يقولون- لا يُفتن، قالوا: وذلك لأنه قد جاء في حديث البراء الطويل -آنف الذكر- أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وأما الكافر أو المنافق»، وفي بعض الروايات: «وأما المنافق فيقول: هاه هاه، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»، قالوا: نحمل كلمة الكافر التي جاءت في قوله: «وأما الكافر أو المنافق» نحملها على الرواية الصريحة التي فيها: «وأما المنافق» يعني: التردد الذي حصل من الراوي هل قال: الكافر أو المنافق؟ نقول: إنه محمول على المنافق.

قالوا: ولأن هذا هو الذي يتأتى منه أن يقول: هاه هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته.

وذهب الجمهور إلى أن الفتنة عامة للمسلم والمنافق وللكافر الصريح أيضًا، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم- وذلك لأن الرواية قد ثبتت بالعطف بالواو في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وأما الكافر والمنافق».

وقد أحسن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في تعقب القول السابق في كتابه الروح، ناقش مقالة هؤلاء وبيَّن أن الصواب أن الفتنة حاصلة لكل أحد.

وقول أصحاب القول الأول: إن الكافر المظهر لا حاجة إلى أن يُفتن، لأنه مظهر للكفر، فنقول: بل ثمة فائدة من ذلك وهي: إظهار خزيه وزيادة حسرته، كونه يُمتحن ثم لا يستطيع جوابًا.

طبعًا تنبه إلى أننا نبحث في الفتنة وليس في عذاب القبر، يعني: أصحاب القول الأول يقولون: نه يُعذَّب مباشرة دون امتحان.

والصواب أن الامتحان حاصل للكل حتى للكافر المظهر للكفر.

۞ المسألة الرابعة: ربما وجدت في بعض الكتب أن هذه الفتنة تستمر سبعة أيام، وليس في هذا الباب شيء يصح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنما هذه جاءت في بعض الآثار عن بعض السلف كمجاهد وطاووس ونحوهما، وليس يخفاك أن مثل هذه الآثار لا تقوم بها الحجة الملزمة، إنما المقام لابد فيه من دليل في الكتاب أو السنة أو أقوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

أخيراَ تنبيه على ما يتعلق بهذه الفتنة، كونه يؤتى ويُجلس ويُتكلَّم معه ويسمع الخطاب ويجيب، كل هذا يكون بعد الموت، فهل الميت في قبره حي حتى يمكن أن يكون ما ذُكِر في هذه الأحاديث؟

نعم، الميت في قبره حي، ولكن هذه حياة أخرى ليست من جنس هذه الحياة التي نحن فيها الآن، هذه حياة برزخية الله تعالى أعلم بها.

وقد جاء في حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الطويل بعد أن بيَّن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما يكون من قبض روح الميت وما يتبع ذلك ثم إنه إذا قُبِر قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فتُعاد روحه في بدنه»، فهذا نص صريح في أن الميت تُعاد روحه إليه، ولكن ما هذا العَود؟ ما هي هذه الحياة؟ هل هي من جنس هذه الحياة التي نحن فيها؟ الجواب: لا، هذه حياة أخرى، هذا تعلُّق للروح بالبدن آخر يختلف عن هذا التعلق.

ولعله قد مر بنا في هذا الكتاب ومر بنا في دروس سابقة بيان قاعدة مهمة تزيل عنك إشكالات كثيرة تتعلق بهذا الموضوع، وهي: أن للروح بالبدن تعلقات خمسة، عندنا خمسة تعلقات بين الروح والبدن، مَن فهمها فإنه تنزاح عنه -بإذن الله عز وجل- الإشكالات التي قد تَرِد.

۞ الروح لها تعلق -أولًا- بالبدن حال كون الإنسان جنينًا في بطن أمه حينما ينفخ المَلَك الروح فيه بأمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا تعلُّق فيه شيء من

الضعف؛ لأن حياة الجنين هاهنا متعلقة بحياة أمه، لكنه نوع تعلق أو نوعٌ من التعلق.

۞ التعلق الثاني: تعلُّق الروح بالبدن بعد الخروج من بطن الأم، وهذا هو التعلُّق الدنيوي، هذا هو التعلُّق الذي يرتبط به التكليف، فمن كانت روحه في بدنه وقامت عليه الحجة وبلغ حد التكليف فإنه ملزَم باتباع هذا الهدي الذي جاء من عند الله عز وجل.

۞ التعلُّق الثالث: تعلُّق الروح بالبدن حال النوم، هذا تعلُّق مختلف وكلنا يدرك ذلك، فإن الإنسان في حال نومه روحه متصلة بالبدن من وجه ومفارقة من وجه آخر، ولذا كان النوم موتًا أصغر أو كان وفاة صغرى، وذلك لنوع المفارقة بين الروح والبدن عما كان عليه حال الاستيقاظ.

۞ النوع الرابع: تعلُّق الروح بالبدن في البرزخ، وهذا تعلُّق مختلف عن هذه الحياة، وتلزمه لوازم مختلفة عما تلزم هذه الحياة التي نحن فيها.

ومن فهم هذا زال عنه الإشكال الذي قد يورده القبوريون حينما يقولون: إن من دعا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو الأولياء الموتى فإنه ما دعا ميتًا، إنما هو يدعو حيًا، لأن الأنبياء أحياءٌ في قبورهم، ولأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سلَّم المسلم عليه فإن الله عز وجل يعيد إليه روحه، هذا عودٌ خاص ليس من جنس الحياة

الدنيوية، هذه حياة أخرى ما ندري كيف هي، فلا يتعلق بها ما يكون في هذه الحياة.

هذا تعلُّق آخر، ونحن نقول: كل الموتى وليس الأنبياء حتى الكفار لهم حياة، إذن: بناءً على هذا حينما يقولون: نحن إذا دعونا وليًا أو نبيًا فإننا ندعو حيًا، نقول: إذًا لن يوجد ميت، لأن الدليل إذا دل على حياة الأنبياء أو الأولياء فإنه قد دل -أيضًا- على حياة غيرهم حتى الكفار، أليس كذلك ؟ وعليه؛ فنقول: هذه حياة برزخية لا يتعلق بها شيء من أحكام هذه الحياة، حيث جواز السؤال أو الطلب من هذا الميت.

۞ التعلُّق الخامس: تعلُّق الروح بالبدن عند البعث، وهذا أكمل التعلقات، لأنه يرتبط به الحياة الأخروية، الحياة الأبدية إما في نعيم وإما في عذاب، ويدل على هذا حديث كعب بن مالك الصحيح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما قال: «نسمة المؤمن -يعني: روحه- طائرٌ يعلُق في شجر الجنة حتى يرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم القيامة»، هذا عودٌ آخر، هذا تعلُّق آخر مختلف، والعلم عند الله عز وجل.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بنعيم القبر للمؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢].

ونؤمن بعذاب القبر للظالمين الكافرين، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَىٰ اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

والأحاديث في هذا كثيرة معلومة.

فعلىٰ المؤمن أن يؤمن بكل ما جاء به الكتاب والسنة من هذه الأمور الغيبية، وأن لا يعارضها بما يشاهد في الدنيا، فإن أمور الآخرة لا تُقاس بأمور الدنيا؛ لظهور الفرق الكبير بينهما. والله المستعان!

قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الكلام عن عذاب القبر ونعيمه، نسأل الله أن يجيرني وإياكم من عذاب القبر، وأن يرزقنا نعيم القبر!

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونؤمن بنعيم القبر للمؤمنين) يتبع هذه الفتنة نعيمٌ أو عذاب، النعيم للمؤمنين والعذاب للكافرين، وأيضًا لمن شاء الله عز وجل تعذيبه من العصاة كما سيأتي.

واستدل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على نعيم القبر بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل:٣٢]، يعني: حال كونهم طيبين. ولا شك أن أهل الإيمان والتوحيد أهل طيبة، طيَّبهم الله عز وجل، طيَّب قلوبهم وطيَّب أعمالهم بالإيمان والتوحيد.

﴿يَقُولُونَ﴾ يعني: الملائكة ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، فالنعيم حاصل بتبشير الملائكة وتسليم الملائكة وتلقي الملائكة لهم.

كذلك بما بيَّنته سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أن المؤمن إذا أُقعد أو إذا دُفِن في قبره فإن نعيم القبر يكون له من حيث توسعة القبر عليه مد بصره، ثم أن يُفتح له بابٌ إلى الجنة فيأتيه من روحها وريحانها، إلى غير ذلك مما جاء في النصوص.

ويدل -أيضًا- على نعيم القبر من كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٧] ثم قال: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩].

قال العلماء: هذا وما بعده في بيان حال الأرواح عند قبضها، وما جاء في أول السورة في أول الواقعة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة:٧-٨] في بيان حال الأرواح عند البعث، وهذا أصح القولين من قولي أهل التفسير.

من العلماء من قال: إن ما في مقدمة السورة وما في آخرها هنا كله يتعلق بحال الأرواح عند البعث، والأقرب -والله تعالى أعلم- هو القول الثاني وهو أن ما في قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ [الواقعة:٧] في بيان الحال عند البعث، يتفرق الناس إلى ما بيَّن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأما في هذه الآية فإنها تتعلق بحال الأرواح. ويدل على هذا أمران:

أولًا: السياق.

وثانيًا: أن القاعدة عند أهل التفسير: التأسيس أولى من التأكيد، يعني: إذا دار الأمر في تفسير الآية بين أن تكون مؤكدة لما قبلها أو أن تكون مؤسسة لمعنىً جديد فتكثير الخير وتكثير المعاني لا شك أنه أولى، فالتأسيس أولى من التأكيد، والعلم عند الله عز وجل.

أما عذاب القبر فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونؤمن بعذاب القبر للظالمين الكافرين) واستدل على هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ

وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

وجه الدلالة من هذه الآية من جهتين:

أولًا: سكرات الموت، إن للموت لسكرات، للكل.

في قوله: ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام:٩٣]، باسطوها بالضرب، لأن الآيات يفسر بعضها بعضًا، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٧]، فبسط اليد هاهنا تفسيره أنهم يبسطونها بالضرب، يضربون هؤلاء الكفار، وهذا لا شك أنه نوعٌ من العذاب.

الوجه الثاني في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣]، قال العلماء: الملائكة صادقون لا يكذبون، ولو تأخر العذاب إلى قيام الساعة أو إلى دخولهم النار لكان هذا خُلْفًا، لم يكن اليوم، فدل هذا على أن العذاب ينالهم حينما يُقبرون وليس إذا بُعِثوا، وليس في الدار الآخرة، يعني: إذا أُدخلوا النار، والعلم عند الله عز وجل.

على كل حال، الأدلة من كتاب الله عز وجل في بيان عذاب القبر كثيرة، ومن أصرحها وأشهرها عند أهل العلم قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، قال ابن

كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: هذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ.

بيان ذلك: أن الله عز وجل -ومن أصدق منه قيلًا- بيَّن لنا أن آل فرعون النار تُعرض عليهم غدوًا وعشيًا، وهذا عذاب ولا شك، ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، إذن: هذا العرض على النار أو عرض عذاب النار عليهم كان قبل قيام الساعة ولا شك، ومتى كان هذا؟ قبل قيام الساعة ما عندنا إلا شيئان: الحياة الدنيوية أو البرزخية، هل كان هناك نارٌ يُعرضون عليها في الدنيا؟ الجواب: لا، إذن: ثبت أن هذا في البرزخ.

إذن: هذه الآية دليل على عذاب القبر.

يدل على عذاب القبر -أيضًا- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤] أخرج البزار بإسناده عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه فسَّر المعيشة الضنكة في هذه الآية بعذاب القبر.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إسناده جيد.

إذن: هذا تفسيرٌ من لدن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لهذه الآية.

وعلى كل حال، ثمة آيات أخرى، والبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ استدل في صحيحه بثلاث آيات، وابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كذلك ساق خمسًا أو ستًا في كتابه عن القبر،

وكذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الروح وغيرهم من أهل العلم يحشدون الآيات التي جاءت في هذا الباب إذا تكلموا عن عذاب القبر ونعيمه.

وهذا فيه ردٌّ على قوم يقولون: إنه لم يأت دليل في القرآن على عذاب القبر أو نعيمه، وبالتالي فإنهم يشككون، يقولون: هذه قضية ما جاءت في القرآن.

والجواب عن هذا من وجهين:

أولًا أن نقول: هذه كلمة خاطئة غير صحيحة، بل عذاب القبر ونعيمه ثابت في القرآن، كلامكم غير صحيح.

والأمر الثاني: هَبُوا أنه ما جاء ذكر عذاب القبر ونعيمه في القرآن، فكان ماذا؟ إذا ثبت في سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمر كافٍ في ثبوت هذه العقيدة ووجوب اعتقادها، لا فرق عند أهل السنة والجماعة الذين هم أهل التسليم والقبول والانقياد والإذعان، الذين حققوا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا فرق عندهم بين أن يكون الشيء ثابتًا بالقرآن والسنة، أو أن يكون ثابتًا بالقرآن وحده، أو أن يكون ثابتًا بالسنة وحدها، حديثٌ واحد فقط ثابت عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كافٍ في إثبات العبادة أو في إثبات العقيدة.

أما سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن الأحاديث كثيرة جدًا في إثبات عذاب القبر ونعيمه، والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أجمل في هذا فقال: (والأحاديث في هذا كثيرة معلومة).

والكتاني في كتابه نظم المتناثر في الحديث المتواتر ساق رواية اثنين وثلاثين من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين رووا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحاديث عذاب القبر ونعيمه.

ومن تلك الأحاديث ما ثبت في الصحيحين: أن يهودية قالت لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أجاركِ الله من عذاب القبر»، فسألت عائشة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «نعم، عذاب القبر حق».

وثبت في الصحيحين من حديث أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج حينما وجبت الشمس فسمع صوتًا فقال: «يهود تُعذَّب في قبورها». زادهم الله عذابًا! هذا مِنِّي وليس في الحديث.

أيضًا من تلك الأحاديث ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر بحائطين -يعني: بستان في مكة أو المدينة- فأخبر حينما رأى قبرين في هذا الحائط أنهما يُعذبان، قال: «وما يُعذَّبان في كبير»، وفي رواية: «وما يعذبان في كبير، بلى»، وفي رواية ثالثة: «وما يعذبان في كبير، بلى

إنهما لكبير، أما أحدهما فكان لا يستنزه من بوله، وأما الآخَر فكان يمشي بالنميمة».

فهذه -وغيرها كثير- أحاديث صحيحة صريحة في إثبات عذاب القبر.

ويبقى معنا التنبيه على مسألتين مهمتين:

الأولى: ما جاء في كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونؤمن بعذاب القبر للظالمين الكافرين)، لا شك في ثبوت عذاب القبر في حق الكافرين، ولكن ماذا عن العصاة؟ هل من العصاة مَن يُعذَّب في قبره؟ أو أن العذاب في القبر مختص بالكفار؟ المؤلف إيش يقول: (ونؤمن بعذاب القبر للظالمين الكافرين) هل هذا على سبيل التخصيص؟ لا شك أن عذاب القبر مختص بالكفار من جهة الحتم واللزوم، بمعنى: كل كافر يُعذَّب في قبره، أما العصاة فالأمر فيهم مختلف، قد يشاء الله عز وجل تعذيب من يُعذَّب منهم، وقد يشاء الله عز وجل عدم تعذيبه.

فهذا الذي يُخرَّج به كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإلا فلا شك أن من العصاة مَن يُعذَّب في قبره.

ومن أعظم أسباب عذاب القبر: عدم الاستنزاه من البول، يعني: التساهل في وقوع النجاسة: إما على البدن وإما على الثوب، وأخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن عامة عذاب القبر منه، قال: «تنزهوا من البول، فإن عامة عذاب القبر منه».

والحديث الذي مضى قريبًا دليلٌ أصح على هذا وهو: أن أحد هذين المعذبين كان لا يستنزه أو قال: لا يستبرئ من بوله. يعني: لا يبالي ما وقع ولا يحرص على التنظيف، والناس في هذه المسألة طرفان ووسط:

مِن الناس من يبالغ فيتنطع، وربما وصل إلى حد الوسوسة في شأن الطهارة، وهذا طرف مذموم.

ومن الناس لا يبالي ويتساهل، ولا يعتني بالنزاهة والنظافة، وهذا طرف مذموم.

والوسط مَن يراعي ذلك لكن دون إفراط، يراعي هذا الأمر ولكن دون إفراط.

أيضًا مر بنا في الحديث: أن النَّمام متوعَّد بعذاب القبر، كون الإنسان يمشي بين الناس بالنميمة، ينقل كلام هذا إلى هذا وهو يعلم أن هذا يوغر الصدور ويفسد بين الأحبة، فيا بؤسًا لهذا الذي هو رسولٌ لإبليس يقطع العلاقات بين الأحبة، والله المستعان!

أيضًا إسبال الثوب على جهة الخيلاء من أسباب عذاب القبر، في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «بينما رجلٌ يجر إزاره من الخيلاء إذ خُسِف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»، فاحذر من الإسبال وانأى عنه بكل حال.

أيضًا أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كما في حديث سمرة في صحيح البخاري - وهو حديث طويل- فيه رؤيا رآها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أناسُ يعذبون في البرزخ، وذكر منهم عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أربعة، ذكر الكذاب الذي يكذب الكذبة فتُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، أصحاب الإشاعات الذين يفترون الكذب ويقول على سبيل النكتة وإلا على سبيل اللعب والعبث، فتُحمل عنه ويتناقلها الناس.

ثانيًا: الذي يرفض القرآن وينام عن الصلاة المكتوبة، رجل يعطيه الله عز وجل القرآن لكنه يهمله ويضم إلى هذا ما هو أمرٌ قبيح -أيضًا- وهو كونه ينام عن الصلاة المكتوبة. فحذارِ!

ثالثًا: رأى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الزناة والزواني، عافاني الله وإياكم!

ورابعًا: رأى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ آكلي الربا.

إذن: هذه بعض المعاصي التي جاء في الأدلة أن أصحابها متوعَّدون بعذاب القبر، والعلم عند الله عز وجل.

المسألة الثانية: أن من رحمة الله عز وجل أن جعل أسبابًا تقي -بفضل الله عز وجل- من عذاب القبر، والحسنات عمومًا من أسباب الوقاية من عذاب القبر.

وثمة حسنات وصالحات لها مزيد اختصاص بالوقاية من عذاب القبر، ومن ذلك: الشهادة في سبيل الله، مر بنا ما يتعلق بالشهيد في كونه يُجار من الفتنة،

كذلك يُجار من عذاب القبر، فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قال كما في الترمذي بإسناد صحيح: «للشهيد عند الله ست خصال.. قال: ويُجار من عذاب القبر».

ثانيًا: مَن ابتُلي بمرض في بطنه فمات به، لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن يقتله بطنه فلن يُعذَّب في قبره»، وهذا عند النسائي وغيره بإسناد صحيح.

ويُرجى -إن شاء الله- أن أصحاب هذه الأورام -وكثر في هذا العصر ما يتعلق بهذه الأورام -نسأل الله السلامة والعافية- التي تصيب الناس في أبدانهم وأجوافهم- أن يكون هذا داخلًا في ذلك، فإن الحديث الصواب فيه أنه عام، كل مرض وليس مرضًا معينًا، كل مرض في باطن الإنسان يؤدي إلى الوفاة فإنه يرجى أن يكون داخلًا في هذا الحديث.

ثالثًا: قراءة سورة تبارك -سورة الملك- كل ليلة، ويدل على هذا ما جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -وله طرق كثيرة- أن هذه السورة كانت تسمى على عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمانعة، يعني: من عذاب القبر. فينبغي الحرص على ذلك.

أيضًا من الأسباب: كثرة الاستعاذة من عذاب القبر، والأحاديث في هذا الباب جاءت على ثلاثة أضرب:

أولًا: ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدعو: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب

القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»، هذا دعاء مطلق من فعله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

جاء الضرب الثاني من جهة تعليم النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بل ودِقَّته في التعليم لأصحابه هذا الدعاء، وهذا يدل على مزيد عناية منه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهذا الدعاء وتعليمه، فإنه قد ثبت في صحيح مسلم أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن. هذا يدلُّك على عناية كبيرة بهذا الدعاء، وأن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يحب من أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أن يدعوا بهذا الدعاء وأن يحافظوا عليه.

الضرب الثالث: أن يكون الدعاء مخصوصًا، في صحيح مسلم عنه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «إذا تشهد أحدكم فليقل: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم...» إلى آخره. أو قال: «فليستعذ من أربع». ما معنى (إذا تشهد أحدكم؟) إذا انتهى من التشهد الذي هو التحيات في صلاته فإنه يستعيذ بالله عز وجل من هذه الأربع.

إذن: أكثر من هذا الدعاء ومن هذه الاستعاذة مطلقًا، وخصوصًا في صلاتك عقيب التشهد، فإن هذا -ولا شك- لم يكن من النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عبثًا، إنما كان لأنه سبب يقتضي -برحمة الله عز وجل- أن يُجار العبد من عذاب القبر. أسأل الله أن يجيرني وإياكم من عذاب القبر!

ختم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامه هاهنا بقوله: (فعلى المؤمن أن يؤمن بكل ما جاء به الكتاب والسنة من هذه الأمور الغيبية، وأن لا يعارضها بما يشاهد في الدنيا، فإن أمور الآخرة لا تُقاس بأمور الدنيا؛ لظهور الفرق الكبير بينهما. والله المستعان!).

هذه المسألة حريَّة بالتنبيه عليها ولا سيما في هذا الزمان، فإن مِن الناس -ولا سيما من الناشئة والشباب والفتيات- بفعل هذه الموجة التشكيكية أو الإلحادية يتشككون ويقولون: كيف؟ العقل لا يقبل أن يكون كذا وأن يكون كذا، كيف يُقعد في قبره وقد أُهيل التراب عليه ووُضِع اللبن عليه؟ كيف يكون كذا و..؟

والمسألة هنا مسألة تتعلق بأصل أصيل وهو: الإيمان بالغيب.

ومن حكمة الله عز وجل أن غيَّب عنا هذا الأمر حتى يتميز المؤمن الصادق من غيره، أول ميزة وأول علامة للمؤمن كما في سورة البقرة ما هي؟ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣]، لو انكشف لنا، لو كنا نرى أو نسمع المعذبين لأصبح الأمر شهادة وزالت حكمة التكليف، لكن لله عز وجل حكمة بالغة في أن جعل هذا الأمر أمرًا غيبيًا، والله على كل شيء قدير.

يا عبد الله، ما الذي يحيل حصول كل ما جاء في الكتاب والسنة من هذه المباحث، تعلقت بالقبر، بفتنته، بعذابه، بنعيمه، بالقيامة، بالجنة والنار؟ ما الذي يحيل ذلك؟ أليس الله على كل شيء قدير؟ عقلك -يا عبد الله- عقل ضعيف،

حذارِ من المبالغة، لا تغتر، عقلك ضعيف لا يصلح أن يكون معيارًا للموجود والمعدوم، للصواب والخطأ، أنت ما آتاك الله عز وجل من العلم إلا قليلًا، إن كان عندك علم كل العباد ليس علمهم جميعًا في علم الله عز وجل شيئًا، فكيف يتحكم الإنسان في قدرة الله عز وجل أو فيما أخبر الله عز وجل أنه واقع؟ يقول: والله هذا مقبول وهذا غير مقبول!

ابن آدم ضعيف، ضعيف الإدراك، ضعيف العقل، ضعيف الفهم، فهمه وإدراكه للأمور محصور في حواسه الخمس فقط، ولذلك الإلْف هو الذي يؤثر عليه في أحكامه.

خذ مثلًا: ما رأيكم لو قيل لرجل قبل مائتي سنة أو نحو ذلك: إنه قد وُجِد شيء أشبه بالغرفة وإن شئت فسمها الخيمة من المعدن، يمكن أن تسير بك سيرًا سريعًا جدًا توصلك من المدينة إلى مكة في أربع ساعات وليس في سبعة أو ثمانية أيام، وهذه الغرفة عجيبة، يعني: هواء مكيَّف يمكن تتمدد وتنام ولا تشعر بارتفاع وانخفاض، يمكن تجلس وتقرأ، ويمكن تسمع -أيضًا- أحاديث وكلام شخص يقرأ قرآن، ما رأيكم؟ ماذا يقول؟ يقول: أنت مصاب بعقلك، كيف غرفة تتحرك؟ فكيف إذا قلنا له ما هو أعجب.

قلنا: لا يا ابن الحلال، الآن يوجد غرفة، وإن شئت فسمِّها عمارة، بعض الطائرات الكبيرة كأنها عمارة، هذه عمارة تسير في الهواء، تحمل معها ثلاثمائة

أربعمائة شخص، في الهواء يطيرون وأنت تتمدد وتنام وتأكل وتشرب وتَصِل من المدينة إلى الصين في عشر ساعات، ليس في أشهر طويلة، من المدينة إلى الصين عشر ساعات. إيش يقول؟ كل هذا وأنت تسبح في الهواء، عمارة تمشي في الهواء؟ ويش رأيكم؟ ويش يقول؟ يقول: مجنون رسمي.

كيف لو قلنا له: إنه يمكن من خلال جهاز الرسالة تصل بمجرد ما تضغط الرسالة، الرسالة واصلة، ليس هذا، إذا تكلم في نف اللحظة التي يتكلم بها وهو في أمريكا أنت..

ليس هذا، أنت تراه أيضًا، تراه أمامك، يعني: لو أتينا الآن لأحد الأطفال وقلنا: إنه يمكن لك أن ترى هذا الاختراع العجيب العظيم جدًا، أنك إذا قلت: السلام عليكم في نفس اللحظة يسمعك فيرد عليك السلام وتسمعه، إيش يقول؟ هذا اختراع؟ لو أتينا بطفل الآن في هذا العصر وقلنا: هناك اختراع وهو أنك تتكلم في شيء اسمه هاتف تقول: السلام عليكم ويرد عليك، إيش يقول؟ يعني كلام فاضي، صح وإلا لا؟ ما له قيمة يعني، الإِلْف هو معتاد، لكن هذا الذي لو قدَّرنا أنه بُعِث وقد مات قبل قرون قريبة إيش يقول؟ مستحيل، كيف تراه؟ كيف تسمع نفس الكلام في نفس اللحظة؟ ..... يقول: في جن وإلا شيء من هذا، أما شيء يعني.. ما يمكن. هذا كله يدلنا على عقولنا محدودة فلا نبالغ، هذا شيء في أيدي الناس الآن والناس يرونه ويدركونه، فكيف تحجر على قدرة الله عز

وجل؟ تقول: هذا مستحيل أن يقع، وهذا لا يمكن أن يقع؟ ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس:١٧]، عجيب شأن ابن آدم في هذا الجبروت الذي قد يصل إليه.

فالمقصود: العقل ما جعله الله عز وجل ميزانًا للشرع، العقل جعله الله عز وجل آلة لفهم الشرع، جعله الله خادمًا للشرع، تفهم به الشرع وليس أن تحكم به على الشرع، فحذارِ من هذا المزلق الخطير الذي يورد الموارد. نسأل الله الثبات على الحق، وأن يعافينا من هذه الأهواء.



قال المصنف رحمه الله:

فصل

ونؤمن بالقدر خيره وشره، وهو تقدير الله تعالىٰ للكائنات حسب ما سبق به علمه واقتضته حكمته.

قال الشارح وفقه الله:

فهذا هو الفصل الذي ختم به المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامه عن أركان الإيمان، وهو المتعلق بالإيمان بالقَدَر.

وأدلة الكتاب والسنة قد دلت على ثبوت القَدَر وعلى وجوب الإيمان به، فعندنا فيها دلالتان: دلالة على ثبوت القَدَر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

وعندنا دلالة أخرى وهي: وجوب الإيمان بهذا القَدَر، بل إن هذا الوجوب هو في أعلى درجات الوجوب، إذ أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان الستة التي لا إيمان إلا باجتماعها، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جبريل المشهور: «وأن تؤمن بالقدر خيره وشره».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونؤمن -معشر أهل السنة والجماعة- بالقَدَر خيره وشره)، كل ما يقدِّره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من خير أو شر فإننا نؤمن بأن ذلك كان عن علم الله

وكتابته ومشيئته وخلقه، فالمقدَّر مهما كان فإنه راجعٌ إلى هذه الأمور الأربعة التي سيأتي التفصيل فيها إن شاء الله.

وقوله هنا: (خيره وشرِّه) فيه إثبات أن المقدَّر قد يكون شرًا، وهذا حق لاشك فيه، فإن المعاصي وإن المصائب فيها شر بالنسبة لمن ابتُلي بها، فالشر يقع في المقدَّر، لكن لابد من ملاحظة أمرين في هذا المقام:

۞ الأمر الأول: أن الشر ليس إلى الله عز وجل، إنما هو منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. انتبه لهذه المسألة! الشر ليس إليه وإن كان منه، بمعنى: الشر ليس إلى الله عز وجل فلا يُضاف إليه وصفًا وإن كان منه بحيث يُضاف إليه خلقًا، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي قدَّر الشرور، هو الذي خلق إبليس، علم الله عز وجل هذا المخلوق وشاء وجوده وخلقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فهو شر، فهو منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تقديرًا وخلْقًا وإن كان لا يُضاف الشر إليه، فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال كما في صحيح مسلم: «والشر ليس إليك»، الشر لا يُضاف إلى الله عز جل وصفًا وإن كان يُضاف إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تقديرًا وخلْقًا، فكون الله عز وجل يخلق الشر لا يجعل الشر منسوبًا إليه، فالإنسان -مثلًا- إذا رسم رسمة قبيحة، هل يُوصف هو بالقُبح؟ إنسان رسَّام رسم صورة قبيحة، هل نقول: فلان قبيح، أو نقول: إن مفعوله قبيح؟ مفعوله، مصنوعه هو القبيح، أما هو فالقُبْح لا يُضاف إليه.

إذن: الله عز وجل خلق الشرور، خلق المكروهات، الصور القبيحة، الروائح الخبيثة، الذوات السيئة، كل ذلك خلقه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكنه ليس إليه.

إذن: الشر ليس إليه وإن كان منه، ما معنى ليس إليه؟ لا يُضاف إليه وصفًا وإن كان يُضاف إليه تقديرًا وخلقًا.

۞ الأمر الثاني: أن الشر في مقدورات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يكون شرًا محضًا.

إذن: بالنسبة لفعل الله القائم به ليس ثمة شرٌّ البتة، فالله عز وجل حينما قدَّر وخلق أو شاء وجود شَرٍّ فهذا منه خير محض يُحمد عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وإن كان المفعول المخلوق المنفصل عنه شرًا. هذا واحد.

ثانيًا: الشر المخلوق المفعول المقدَّر لا يكون شرًا محضًا، فما خلق الله عز وجل شرًا محضًا، إنما يكون الشر نسبيًا، بمعنى: يكون الشيء فيه شر من وجه لكن فيه خيرًا من وجه آخر، حتى إبليس الذي هو مجمع الشرور؟ نعم حتى إبليس، فالله عز وجل خلق هذه الذات الخبيثة وترتب على وجودها خير.

إذن: لابد أن يترتب على وجود ما فيه شر خيرٌ، لما وُجِد إبليس وُجِدت أنواعٌ من الخيرات، وُجِدت التوبة والله يحب التوابين، وُجِدت المجاهدة والله عز وجل يحب ذلك، وُجِدت المغفرة والله يحب أن يغفر.. إلى آخره.

إذن: ليس ثمة شر محض، بل لابد أن يكون ثمة خير إما في ذات الشيء وإما فيما يترتب على وجوده.

إذن: لابد من ملاحظة هذين الأمرين عند النظر في مسألة الشر.

قال: (وهو تقدير الله تعالى للكائنات حسب ما سبق به علمه واقتضته حكمته)، القَدَر باختصار هو: علم الله عز وجل بالأشياء وكتابته لها ومشيئته وخلقه لها. هذا هو القَدَر، الواجب عليك أن تؤمن بهذا القَدَر الذي هو علم الله بالأشياء، وكتابته لها، ومشيئته وخلقه لها.

جملة المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هاهنا أفادتنا أن ما يكون من الكائنات -يعني: من الموجودات، من المخلوقات- هذه سبقت في علم الله عز وجل وكتبها الله في اللوح المحفوظ، وشاء وجودها وخلقها لأن هذا مقتضى حكمة الله عز وجل.

إذن: القاعدة عند أهل السنة والجماعة: أن التقدير مقارنٌ للحكمة، تقدير الله عز وجل للأشياء مقارن للحكمة، ليس هو مشيئة محضة، لأن الله عز وجل شاء كذا فإنه كان وانتهى الأمر، الأمر ليس كذلك، الله يقدِّر الأشياء لأن تقديرها موافق للحكمة، والله عز وجل حكيم، والأدلة على حكمته كثيرة جدًا تبلغ الألوف كما مر بنا هذا سابقًا.

إذن: لا يمكن أن يقدِّر الله عز وجل شيئًا إلا لأن الحكمة تقتضي هذا، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به، كل شيء قدَّره الله فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحب وجوده، ووجوده أحب إليه من عدمه، وهذا مقتضى الحكمة، حتى ولو كان هذا الذي قدَّره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مكروهًا له

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قد يقدِّر الأشياء التي يكرهها، فلا تلازم، قد يحب الله عز وجل ما لا يكون، وقد يكون ما لا يحب، لم؟ لأن الله له الحكمة البالغة في هذا وفي هذا، فقد يشاء الله عز وجل وجود الكفر، وجود المعاصي، وجود الظلم، كل تلك مكروهات لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لكنها -أعني: وجودها- موافق للحكمة، ولذا كان وجودها أحب إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من عدمها.

ولذلك انظر في هذه المكروهات التي تقع، لو تأملت لوجدت أن في أضعافها وفي ثناياها من الخيرات الشيء الكثير، فتش في نفسك كم تجد من أشياء كرهت حصولها عليك لكن أثر ذلك كان خيرًا محمودًا، صار أمر من الأمور كرهته في وقته لكن بعد ذلك اكتشفت أن هذا كان خيرًا لك، قال سبحانه: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩].

رُبَّ أمـر تتقيـه ... جـرَّ أمـرًا ترتجيـه
خفـي المحبـوب منـه ... وبـدا المكـروه فيـه
فـاترك الـدهر وسـلِّمه ... إلـى عـدل يليـه

قد لا تبدو لك الأشياء على حقيقتها، لكن لو كُشِف لك القَدَر لعلمت أن اختيار الله عز وجل لك خير من اختيارك لنفسك، فالله عز وجل يقدِّر لك الخير، حتى ولو كان مصيبة، حتى ولو كان فَقْدَ مال، احتراق منزل، فقْدَ حبيب، مهما

يكن فاعلم أن لله عز وجل في ذلك حكمة، وأن هذا يتضمن خيرًا لك إما في العاجل وإما في الآجل.



قال المصنف رحمه الله:

وللقدر أربع مراتب:

المرتبة الأولىٰ: العلم.

فنؤمن بأن الله تعالىٰ بكل شيء عليم، عَلِم ما كان وما يكون وكيف يكون بعلمه الأزلي الأبدي، فلا يتجدد له علم بعد جهل، ولا يلحقه نسيان بعد علم.

قال الشارح وفقه الله:

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وللقدر أربع مراتب)، قد يسميها العلماء مراتب، قد يسميها العلماء درجات، المقصود: أن القَدَر إنما هو هذه الأمور الأربعة، وعُلِمت بالاستقراء من أدلة الكتاب والسنة.

كما ينبغي أن تلاحظ أن هذه المراتب مرتبة، فالعلم سابقٌ للكتابة، والكتابة سابقة للمشيئة، والمشيئة سابقة للخلق، ولذلك يقول أبو حازم سلمة بن دينار التابعي الذي كان شيخ المدينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما أخرج ابن بطة في الإبانة: إن الله عَلِم قبل أن يكتب، وكتب قبل أن يخلق، فمضى الخلق على علمه وكتابه.

إذن: الله عز وجل علم بعلمه الأزلي الذي ليس له أول، فلم يزل الله عز وجل عليمًا، ثم كتب بعد ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ووقت هذه الكتابة -كما سيأتي- كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم شاء الشيء قُبيل وقوعه، ووقوع

الأشياء إنما يكون عقيب مشيئته، فالمشيئة هي الموجبة للأشياء على الحقيقة، الذي يشاؤه الله فإنه يقع ولابد عقيب مشيئة الله.

الأمر الرابع: كونه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يخلق، فالله عز وجل يخلق الأشياء عند وقوعها، يخلقها فتكون واقعة.

إذن: هذه مراتب القَدَر الأربع، وهي التي سيتكلم عنها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتفصيل، وبدأ بالمرتبة الأولى وهي مرتبة العلم.

العلم صفة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذاتية، بمعنى: أنها ملازمة لذات الله عز وجل، هذا العلم هو العلم القديم، صفة ذاتية ملازمة لذات الله عز وجل، فلم يزل الله ولا يزال عليمًا، ولم يكن في وقت من الأوقات فاقدًا لهذا العلم، تعالى الله عن ذلك! لا أنه كان جاهلًا له ولا أنه يقع عليه نسيانٌ في شأنه، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا!

قال: (فنؤمن بأن الله تعالى بكل شيء عليم)، (بكل شيء)، هذه صيغة عموم، وهذا العموم محفوظٌ فما دخله تخصيص، هل شيء يُخص من هذا أن الله بكل شيء عليم؟ الجواب: لا، كل شيء فالله عز وجل عليم به.

قال في تفصيل هذه الجملة: (علم ما كان وما يكون وكيف يكون)، علم ما كان في الماضي، كل ما مضى فالله عز وجل علمه، وما يكون في المستقبل فالله عز وجل يعلمه على جهة الإجمال والتفصيل. كيف يكون فالله يعلم ذلك، بل

حتى الأشياء التي لم تقع ولن تقع على فرض وجودها علم الله كيف تقع، سواء كانت من الممكنات أو حتى من المستحيلات، الله عز وجل علم ما لم يكن لو كان كيف يكون من الممكنات والمستحيلات، كل شيء يعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حتى ولو فُرِض وجود المستحيل، بل حتى لو فُرِض وجود أمحل الحالات فالله يعلم كيف يكون ذلك.

إذن: ما لم يكن ولن يكون ينقسم إلى قسمين: ممكن، ما هو الممكن؟ مقابل المستحيل، نريد هنا بالممكن: مقابل المستحيل، يعني: يمكن عقلًا وجوده، ليس مستحيلًا، لكنه لم يقع لأن الله عز وجل شاء ذلك، قال سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ﴾ [التوبة:٤٧] يعني: المنافقين، ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة:٤٧]، هم ما خرجوا، ما قدر الله خروجهم، لكن لو فُرِض وخرجوا كيف يكون الحال؟ ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة:٤٧].

أيضًا: المستحيلات التي لم تقع ولن تقع ولا يمكن أن تقع لو قُدِّر وقوعها فالله يعلم كيف يكون الحال، قال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] هل هذا من الممكن أن يكون مع الله إله غيره؟ أو هذا أعظم المحالات؟ هذا أعظم المحالات، ومع ذلك علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعلمه الواسع ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧] علم الله أن هذا المحال لو كان كيف سيكون الحال.

إذن: هذا يدلك على سعة علم الله تبارك وتعالى.

يقول: (علم ما كان وما يكون وكيف يكون بعلمه الأزلي الأبدي)، العلم الأزلي يعني: الذي لم يَزَل، يعني: أنه ثابتٌ في الماضي، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى كما أنه أولٌ فلا شيء قبله كذلك علمه أولٌ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فلم يكن سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يجهل شيئًا مما سيكون في الماضي، يعني: في الماضي لم يكن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يجهل شيئًا من المعلومات البتة سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

إذن: علمه ليس بحادث، أزلي يعني: ليس بحادث، أو كما نعبِّر فنقول: علمه قديم ليس له أول، لأننا قلنا: إن العلم صفة ذاتية، فإذا كانت ذات الله عز وجل لها أول لها فعلمه -أيضًا- لا أول له.

إذن: لم يُسبق بجهل، علمه علم لم يُسبق بجهل.

قال: (الأبدي) يعني: الذي لا يزال في المستقبل، كما أن العلم ثابتٌ قديمًا فإنه ثابت مستقبلًا، يعني: أنه علمٌ لا ينقطع، علمٌ لا يطرأ عليه نسيان، ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

قال: (فلا يتجدد له علمٌ بعد جهل، ولا يلحقه نسيان بعد علم)، هذا ما يوضح مراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فعلم الله القديم لم يكن مسبوقًا بجهل ولا يطرأ عليه نسيان، وكل من سواه، وكل ما سواه فإن علمه لا يكون أزلًا ولا يكون أبدًا، كل

ما سوى الله عز وجل فإن علمه لا يكون أزليًا ولا يكون أبديًا، كل عالم سوى الله عز وجل فلابد أن يكون علمه مسبوقًا بجهل، إذن: هو علمٌ حادث.

ولابد أن يكون غير أبدي، بمعنى: أنه ينقطع في المستقبل، كل أحد فهو معرَّض للنسيان وانقطاع العلم، أما الله تبارك وتعالى فعلمه أزلي أبدي تفرَّد بهذا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. طبعًا المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ يتكلم عن المرتبة الأولى من مراتب القَدَر وهي: العلم القديم. إذن: البحث في مسألة دقيقة وهي: مسألة علم الظهور، هذا بحث آخر ليس له علاقة بمراتب القَدَر، وهذه مسألة دقيقة، ومر بنا البحث فيها في شرح الواسطية وغيرها، يعني: هي التي جاءت في نحو قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ [سبأ:٢١]، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ﴾ [آل عمران:١٤٠] كما تجدها في كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا علم الظهور، فالله عز وجل علم الأشياء قبل وجودها أنها ستقع، وعلم الله عز وجل الأشياء عند وجودها واقعة، وهذا هو العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب.



قال المصنف رحمه الله:

المرتبة الثانية: الكتابة.

فنؤمن بأن الله تعالىٰ كتب في اللوح المحفوظ ما هو كائنٌ إلىٰ يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

قال الشارح وفقه الله:

المرتبة الثانية: الكتابة، والمراد بذلك: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لما خلق القلم أمره أن يكتب في اللوح المحفوظ كل ما هو كائن إلى قيام الساعة، فكل شيء فإنه مكتوب في اللوح المحفوظ.

واللوح المحفوظ هو على اسمه محفوظ، محفوظٌ من الزيادة ومن النقصان ومن التغيير، وهو لوح مخلوق لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مكتوب فيه كل شيء. وكيف هو؟ ما مادته؟ ما هيئته؟ ما طوله؟ نقول: الله أعلم، هذا سؤال غير وارد، هذه قضية غيبية لا يُسأل فيها بـ(كيف)، الله أعلم لأن الله ما أعلمنا كيف هو هذا اللوح المحفوظ، لكنه -على كل حال- لوح مخلوق لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كتب فيه كل شيء.

والدليل على ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «كتب الله مقادير كل شيء قبل أن

يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»، هذا هو دليل الكتابة.

ودليلها -أيضًا- الآية التي بين أيدينا، بل هي دليل على المرتبتين: العلم والكتابة، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الحج:٧٠] هذا دليل العلم. ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج:٧٠] هذا دليل الكتابة، ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].



قال المصنف رحمه الله:

المرتبة الثالثة: المشيئة.

فنؤمن بأن الله تعالىٰ قد شاء كل ما في السماوات والأرض، لا يكون شيء إلا بمشيئته، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.



قال الشارح وفقه الله:

المشيئة مضى لنا الكلام فيها، لكن أين؟ حينما تكلمنا في المبحث الصفات لما تكلمنا على صفة الإرادة وقلنا: إن الإرادة تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية وإرادة شرعية، كل ما قلناه في الإرادة الكونية ينسحب على المشيئة، فالإرادة الكونية هي المشيئة. وهذه هي المرتبة الثالثة.

المشيئة قال العلماء: هي الموجبة للأشياء على الحقيقة، لا شيء يوجب الأشياء على الحقيقة إلا مشيئة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فالأشياء تكون عقيب مشيئة الله عز وجل، الشيء الذي يشاؤه الله فإنه حاصل ولابد.

مَـا شِـئْتَ كَـانَ وَإِنْ لَـمْ أَشَـأْ   وَمَـا شِـئْتُ إِنْ لَـمْ تَشَـأْ لَـمْ يَكُـنْ

هذا ما قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو من محاسن كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

مَا شِئْتَ -يا الله- كَانَ وَإِنْ لَمْ   وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ

كل ما شاء الله عز وجل فإنه حاصل واقع ولابد، فالله عز وجل لا يغالَب في خلقه وكونه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

قال: (لا يكون شيء إلا بمشيئته، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن)، ما شاء الله كان يعني (كان) قلنا هنا هي التامة، ليست الناقصة، بمعنى (ما شاء الله كان) يعني: وقع حصل، وما لم يشأ لم يكن.



قال المصنف رحمه الله:

المرتبة الرابعة: الخلق.

فنؤمن بأن الله تعالىٰ خالق كل شيء وهو علىٰ كل شيء وكيل، له مقاليد السماوات والأرض.

قال الشارح وفقه الله:

المرتبة الرابعة: أن الله عز وجل خلق كل شيء، وهاهنا -أيضًا- عموم محفوظٌ ما دخله تخصيص، ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢] من الذوات ومن الصفات، كل شيء فالله عز وجل خالقه، ليس ثمة شيء في الوجود إلا خالق ومخلوق، اثنان: خالق ومخلوق، والخالق واحد هو الله عز وجل، ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾ [فاطر:٣] الجواب: لا، إذا: الخالق واحد، وعليه؛ فكل ما سواه فهو مخلوق.

وسيفصل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يتعلق بهذا الأمر بعد قليل إن شاء الله.



قال المصنف رحمه الله:

وهذه المراتب الأربع شاملة لما يكون من الله تعالىٰ نفسه ولما يكون من العباد، فكل ما يقوم به العباد من أقوال أو أفعال أو تروك فهو معلومة لله تعالىٰ مكتوبة عنده، والله تعالىٰ قد شاءها وخلقها، قال تعالىٰ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

قال الشارح وفقه الله:

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذه المراتب الأربع شاملة لما يكون من الله تعالى نفسه ولما يكون من العباد)، ما مراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (لما يكون من الله تعالى نفسه)؟ هو يريد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما يخلقه الله عز وجل خلقًا مباشرًا يترتب عليه هذه الأمور أو ينطبق عليه هذه الأمور الأربعة، فالله عز جل لما خلق الناس، لما خلق آدم، لما خلق الجنة، لما خلق الله النار فإن ذلك كان داخلًا في علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وشيء شاءه الله تبارك وتعالى وشيء كتبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إن كان مما خلقه الله أو إن كان مما يكون قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

إذن: كل شيء يرجع إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي علم، هو الذي شاء، هو الذي كتب، هو الذي خلق.

كذلك ما يكون من العباد، يعني: هو أورد الجملة الأولى لأنه يريد أن يمهِّد بها للجملة الثانية، حتى ما يكون من العباد فإنه داخل في المراتب الأربع، بخلاف قول الضالين من القدرية الذين يقولون: إن العبد يستقلُّ بمشيئته وفعله، هو الذي يشاء فعله ولا علاقة لمشيئة الله بأفعاله، وهو الذي يُحدِث أو يخلق فعل نفسه ولا علاقة لخلق الله عز وجل بفعله، أراد المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ أن يبين أن هذا ضلال، وأن مذهب أهل السنة والجماعة بخلاف ذلك، فكل ما يكون أو ما يقوم به العباد من أقوال أو أفعال أو تُروك فإنها داخلة في المراتب الأربع التي سبقت.

يقول: أقوال، أفعال، هذه واضحة.

(وتروك) هل التروك أشياء عدمية أو هي أفعال؟ الترك عدم أو فعل؟ لو قلنا: عدم طبعًا لا ينطبق معنا أنها معلومة، مكتوبة، شاءها، خلقها، العدم الذي هو عدم لا يُخلَق، المخلوق هو الموجود، الذي وُجِد هو الذي خلقه، لذلك أعيد السؤال: هل التروك أفعال؟

الصواب التفصيل كما بيَّن هذا ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في الداء والدواء: الترك على ضربين: قد يكون الترك عدميًا وقد يكون الترك وجوديًا، وهذا هو الذي

أراده المؤلف، الثاني هو الذي أراده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الترك العدمي هو ترك الذهول، كونك تترك الشيء أو الأشياء ذاهلًا عنها هذا لا يُعتبر فعلًا، يعني: كونك الآن لا تستحضر بذهنك ولا يَرِد على ذهنك كثير من الأفعال، وأنت في جلوسك الآن كونك تاركًا للسرقة، كونك تاركًا للغيبة، هل هذا فعل بالنسبة لك إذا كان هذا أنت ذاهلٌ عنه ولا تفكر فيه أصلًا؟ هل هذا فعل؟ أو نقول: هذا عدم؟ هذا عدم، هذا ترك الذهول.

أما الترك الوجودي فهو الكفُّ، يعني: حبس النفس عن الفعل، وهذا لا شك أنه فعل ويترتب عليه ثواب أو عقاب.

خذ مثلًا على هذا: أحد الثلاثة الذين هم أصحاب الغار الذين انطبق عليهم أُثيب في الدنيا قبل الآخرة، فرَّج الله عز وجل عنه بسبب تركه الفاحشة، تمكن من فعلها بابنة عمه ولكنه ترك ذلك، كفَّ نفسه، هذا حبس وكفٌّ للنفس عن الفعل، فكان في حقه حسنة أُثيب عليها، والحسنة لا تكون إلا على أمر وجودي، الحسنة والثواب لا يكون إلا على شيء وجودي، لا يكون على شيء عدمي.

إذن: ما كان من التروك من قبيل الكف والترك وحبس النفس بشروط عند أهل العلم، يعني: لابد أن يكون هذا لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا رياءً، فإن هذا لا شك أنه أمر وجودي، وإذا كان تركًا لمعصية الله عز وجل كان حسنة يُثاب

الإنسان عليها، وإذا كان تركًا لما أوجب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإن هذا معصية يُعاقَب الإنسان عليها.

المقصود: أن هذا كله معلوم لله ومكتوب عنده، والله عز وجل قد شاءه وخلقه، ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

إذن: مشيئة الله عز وجل ترجع إليها مشيئة العباد ولا تستقل عن مشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

كذلك قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، هنا في هذه الآية فائدة وهي قاعدة من قواعد أهل السنة في باب القَدَر وهي: أن ما لم يكن فإن عدم كونه لعدم المشيئة لا لعدم القدرة. ما لم يكن، الشيء الذي ما كان ولن يكون فإن عدم كونه، يعني: عدم وجوده، لم؟ راجع إلى إيش؟ إنما كان لعدم المشيئة لا لعدم القدرة، هذه الأمور التي لا تقع.. مثلًا: قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة:٢٥٣] هل الاقتتال مقدورٌ لله عز وجل؟ يقدر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على أن يشاءه ويخلقه أو لا؟ أهو شيء معجزٌ لله؟ لا، كلا، الله على كل شيء قدير، سواء كان موجودًا أو كان معدومًا، كل شيءٍ الله عز وجل عليه قدير، لكنه ليش ما حصل؟ ليش ما اقتتلوا؟ لأن الله لم يشأ وإن كان على ذلك قديرًا، وهذا بخلاف مذهب طائفة من أهل البدع الذين يقولون: إن

عدم وجود الأشياء كان لعدم قدرة الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا! كلا، بل لو شاء الله لكان هذا الأمر، الله لا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١٣٧] لكن الله عز وجل لم يشأ، وفي ذلك الحكمة كل الحكمة.

استدل -أيضًا- بقوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، هذه الآية أشهر آية تدل على خلْق أفعال العباد، لا يكاد يذكر أهل العلم هذه المسألة ويستدلون عليها إلا ويذكرون هذه الآية، قال الله عز وجل عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٥-٩٦]، وهذه الآية فيها بحث كثير.

كثير من أهل العلم الذين استدلوا بهذه الآية على خلق أفعال العباد يقولون: إن (ما) هاهنا مصدرية، يعني: والله خلقكم وعملكم. إذن: الآية على هذا صريحة في إثبات خلق أفعال العباد، يعني: أفعال العباد الله خلقها، والله خلقكم وأيضًا خلق أعمالكم، الآية على هذا صريحة.

لكن الأظهر -والله أعلم- أن هذا ضعيف، وأن (ما) هاهنا ليست مصدرية، فلا مناسبة بين الإنكار عليهم في شأن شركهم وعبادتهم الأصنام وإخبارهم بأن الله خلق أعمالهم، لا مناسبة بين هذا وهذا، بل قال بعض أهل العلم: إن هذا أقرب إلى الاعتذار لهم من أن يكون إنكارًا عليهم.

والصواب -كما اختاره كثير من المحققين كشيخ الإسلام وابن القيم وغيرهما- أن (ما) هاهنا موصولة، يعني: والله خلقكم وخلق الذي تعملون، وما هو؟ الأصنام، والله خلقكم وخلق الأصنام، قال: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٥-٩٦] يعني: أنتم تنحتون وتعملون والله خلقكم وخلق هذا الذي تعملونه وهو الأصنام، لأن الله خالق كل شيء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

على هذا هل في الآية دليل على خلق أفعال العباد؟ الجواب: نعم، وهذا من وجهين:

أولًا: في قوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ﴾ [الصافات:٩٦] فإن الإنسان عبارة عن ذات وصفات، وأفعاله من صفاته، الإنسان مكون من ذات وصفات، ومن صفاته: أفعاله، إذن: الله عز وجل خلقه ومن ذلك خلق فعله.

الوجه الثاني في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] على القول بأنها موصولة، والله خلقكم وخلق الذي تعملون وهو الأصنام، ووجه ذلك: أن هذه الأصنام لم تكن أصنامًا إلا بفعلهم، فالأصنام من آثار فعلهم، ما كانت أصنامًا إلا بالعمل والفعل الذي هو النحت.

إذن: لما كان الأثر مخلوقًا فأصله مخلوق، لما كان أثر فعلهم مخلوقًا ففعلهم إذًا مخلوق، والعلم عند الله عز وجل.

على كل حال، الدليل على خلق أفعال العباد كثير جدًا في الكتاب والسنة، حتى قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أوليس قد قام الدليل بأن أفعـ ــال العباد خليقة الـرحمن

من ألف وجه أو قريب الألف يحصيها الذي يعنى بهذا الشان

إذن: أدلة كثيرة تدل على خلق أفعال العباد.

وما معنى كون أفعال العباد مخلوقة؟ نحن نستيقن أن أفعالنا صادرة منا، أنا فعلت هذا، أنا رفعت هذا الكأس، هذا فعلٌ صادر مني، هل تقولون مع هذا: إن الله خلق هذا الفعل؟ الجواب: نعم، والأمران صحيحان، والأمران مجتمعان ولابد من اعتقادهما، الفعل يُنسب إلي فعلًا وكسبًا ويُنسب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلقًا وإيجادًا.

توضيح ذلك باختصار: اعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يخلق الأشياء بلا واسطة وقد يخلقها بواسطة، خلق الله آدم، خلق الله الجنة، خلق الله السماوات والأرض بلا واسطة، وقد يخلق بواسطة، قد يخلق بوسائط تتوسط في الوجود، الله عز وجل خلق حواء، هل خلق آدم وحواء سواء وإلا فيه شيء من الاختلاف؟ خَلَق آدم بلا واسطة، وخَلَق حواء بواسطة آدم، وخلقنا نحن بواسطة الوالدين، وخلق النبات بواسطة الماء والتراب والهواء والشمس.

إذا: الله يخلق بواسطة ويخلق بلا واسطة، مع غناه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن هذه الوسائط، إنما هي حكمة الله تبارك وتعالى، أفعالنا من القسم الثاني، خلقها الله عز وجل بواسطتنا نحن.

ومما يقرب لك فهم هذا: أن الفعل لا يكون فعلًا إلا باجتماع ثلاثة أمور، أيُّ فعل، هذه الحركة لا تكون إلا بثلاثة أمور سبق شرحها وأعيدها باختصار:

أولًا: لابد من إرادة جازمة، لابد أن أكون مريدًا إرادة جازمة لا تردد فيها، لو كنت لا أريد رفع هذا الكأس هل سأرفعه؟ لن أرفعه، لو كنت مترددًا لا ما راح أرفعه حتى تكون الإرادة، رفعت.

ثانيًا: لابد من قدرة تامة، لابد أن يكون عندك قوة وقدرة على هذا الفعل، رفْع هذا الفعل مقدورٌ لي؟ نعم ولذلك رفعته. رفْع هذه السارية مقدور لي؟ ليس مقدورًا لي، حتى لو كنت مريدًا، عندي إرادة جازمة مائة بالمائة أن أرفع هذه السارية ما رأيكم؟ ستُرفع؟ لا تُرفع؛ لعدم وجود القدرة.

الأمر الثالث: لابد من إزالة الموانع، عندي إرادة جازمة لحمل هذا الشيء وعندي قدرة لحمله، ولكن جاء الشيخ سعود وهو أقوى مني فوضع يده، أنا أحاول الآن ولكن هو أقوى، هناك مانع، يرتفع الكأس؟ لا يرتفع، هل لعدم الإرادة؟ لا، هل لعدم القدرة؟ لا، لكن لوجود المانع.

إذن: الفعل لا يكون فعلًا مطلقًا إلا بوجود إرادة، يعني: فعل العباد لا يكون إلا بإرادة جازمة ولابد من قدرة تامة، ولابد من زوال الموانع.

والسؤال: مَن الذي أوجد فيك الإرادة؟ الله عز وجل هو الذي جعل فيك الإرادة، أي: خلقها فيك.

من الذي أعطاك القوة؟ الله، وهو الذي يقدر أن يسلب ذلك إذا شاء في لحظة.

ومَن الذي يزيل الموانع؟ الله عز وجل.

فإذا كان الفعل متولدًا من هذه الأمور الثلاثة وهي راجعة إلى الله عز وجل ومنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كان الفعل إذًا مخلوقًا لله عز وجل، ولابد أن يكون ذلك كذلك، ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢] والأفعال في الوجود أكثر من الأعيان، أيهما أكثر: الذوات أو الأفعال؟ الأفعال، أنت شخص واحد ذات واحدة لكن كم أفعالك؟ لا حصر لها.

إذن: لو كانت الأفعال غير داخلة في خلق الله عز وجل لصح أن يقال: الله خالق كل شيء، إذن: كان الله خالقًا بعض الأشياء، بل كان خالقًا أقل الأشياء، وهذا باطل قطعًا.

إذن: الله خالق كل شيء عينًا وذاتًا أو فعلًا.



قال المصنف رحمه الله:

ولكننا مع ذلك نؤمن بأن الله تعالىٰ جعل للعبد اختيارًا وقدرة بهما يكون الفعل.

قال الشارح وفقه الله:

كما أننا نؤمن بأن الله خالق أفعالنا فإننا نؤمن بأن الله تعالى جعل للعبد اختيارًا وقدرة بهما يكون الفعل.

هذا الباب اختصره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الواسطية -إن كنتم تذكرون- حينما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم.

أهل السنة يثبتون الشيئين معًا، الأفعال يُنظر إليها من جهتين كلاهما ثابت، الأفعال تُضاف إلينا فعلًا وكسبًا، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وتُضاف إلى الله عز وجل خلقًا وإيجادًا، ولا تعارض بين الأمرين، ولذلك تأمل -مثلًا- في قول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:٧٣]، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١] تلاحظ أن هنا أمرين: أن هناك مَن يفعل (يدعون) والدعاء فِعْل الخلق، لكن من جعلهم كذلك؟ الله عز وجل.

﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ [الأعراف:١٧٨]، إذن: عندنا أمران: عندنا هداية، وعندنا اهتداء، الاهتداء فعل العبد، والهداية فعل الله عز وجل.

إذن: نجمع بين الأمرين: الله عز وجل هو الخالق والعبد هو الفاعل، الله عز وجل هو المقيم والعبد هو القائم، العبد هو المصلي والله هو الذي جعله يصلي.

إذن: نجمع بين الأمرين. وعلى وجه التفصيل لابد من ملاحظة ثلاثة أمور:

أولًا: أن الفعل مضاف إلى العبد حقيقة لا كما يقول الجبرية مجازًا، لا، الذي فعل حقيقة هو العبد، هو الذي قام وقعد وصلى أو سرق أو كذب، العبد هو الذي فعل هذا، ولذلك ترتب على فعله الثواب أو العقاب، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦]، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠].

إذن: العبد هو الذي فعل، والجزاء والثواب ترتب على ذلك.

إذن: إسناد الفعل إلى العبد حقيقي.

الأمر الثاني: أن العبد له قدرة، وهذه القدرة مؤثرة في وجود الفعل تأثير الأسباب في مسبباتها.

أُعِيد: العبد عنده قدرة، وهذه القدرة مؤثرة وإلا غير مؤثرة؟ لا نقول كما يقولون بكسب الأشعري، عنده قدرة غير مؤثرة. لا، أهل السنة يقولون: قدرته مؤثرة في وجود الفعل، ولكنها تؤثر تأثير الأسباب، وقد مر بنا في دروس سابقة أن السبب لا يستقل بالمسبَّب، بل لابد من مشيئة الله وإعانته.

إذن: العبد له قوة وله قدرة بها يفعل، والأدلة على ذلك كثيرة، «المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»، إذن: الإنسان قد يكون عنده قدرة.

الأمر الثالث: إثبات مشيئة العبد، وأنه يفعل باختياره وإرادته ومشيئته، وإن كانت مشيئته ترجع إلى مشيئة الله سبحانه ولا تخرج عنها.

لابد من ملاحظة هذه الأمور الثلاثة حتى ينضبط لك فهم هذا الموضوع في ضوء مذهب أهل السنة والجماعة، وسيشرحها ويبينها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثر فيما سيأتي.



قال المصنف رحمه الله:

والدليل علىٰ أن فعل العبد باختياره وقدرته أمور:

الأول: قوله تعالىٰ: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣] وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة:٤٦] فأثبت سبحانه للعبد إتيانًا بمشيئته وإعدادًا بإرادته.

❋ ❋ ❋

قال الشارح وفقه الله:

ولا شك في ذلك، وهذا أدلته كثيرة كما سمعت، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٥٨] إذن: لكم مشيئة.

قال سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل:١٩] إذًا هو يشاء.



قال المصنف رحمه الله:

الثاني: توجيه الأمر والنهي إلىٰ العبد، ولو لم يكن له اختيارٌ وقدرة لكان توجيه ذلك إليه من التكليف بما لا يطاق، وهو أمر تأباه حكمة الله تعالىٰ ورحمته وخبره الصادق في قوله: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

قال الشارح وفقه الله:

كيف يُوجَّه الأمر أو النهي إلى العبد وليس منه فعل أصلًا؟ هذا تكليف بما لا يُطاق، والله عز وجل منزَّه عن ذلك، ليس كحال الزنادقة كالحلَّاج الذي يقول:

ألقاه في اليمِّ مكتوفًا وقال له ... إياك إياك أن تبتلَّ بالماء

يقول:

ما حيلة العبد والأقدار جارية ... عليه بكل حال أيها الرائي

ألقاه في اليمِّ مكتوفًا وقال له ... إياك إياك أن تبتلَّ بالماء

عند هؤلاء العبد ليس فاعلًا، إنما هو مفعولٌ به، ونسبة الفعل إليه مجاز، قالوا: كما نقول: تحركت الشجرة والحق أنها حُرِّكت وليس تحركت.

كذلك إذا قلت: قام، فعل، صلى، زنى -والعياذ بالله- كل ذلك فُعِل به، هو مجرد آلة يُفعل به. من الفاعل؟ الله عز وجل، الله عندهم هو الفاعل، والعبد ما

هو إلا مفعول به، وهذا مذهبٌ مغرق في الضلال والانحراف، مضادٌ للنقل ومضاد للعقل، وتلزمه لوازم تؤدي إلى الزندقة والإلحاد.

على كل حال، ليس هذا موضع البحث هاهنا.

المقصود: أن كون الأمر قد توجه وكون النهي قد توجه إلى العبد هذا دليلٌ على أن منه فعلًا.



قال المصنف رحمه الله:

الثالث: مدح المحسن علىٰ إحسانه وذم المسيء علىٰ إساءته، وإثابة كل منهما بما يستحق.

۞ ۞ ۞

قال الشارح وفقه الله:

وهذا لا يتأتى إلا إذا كان الفعل صادرًا من العبد حسنًا كان أو سيئًا، ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه:١٥]، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦]، لا يتأتى في العقل السليم أن يُثاب الإنسان على فعل غيره، إنما يُثاب على فعله، كذلك لا يُعاقَب على فعل غيره، إنما يعاقَب على فعله، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، من يعدل إن لم يعدل الله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ كما قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

إذن: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ﴾ [فصلت:٤٦] هو لا غيره ﴿فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦] ولذلك ترتب الثواب، ترتب العقاب على هذا، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ [الصف:٥] هم أنفسهم لا غيرهم، هم أنفسهم كان منهم الزيغ، ترتب على هذا العقاب في الدنيا قبل الآخرة، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

إذن: لا يتأتى أن يكون مدحٌ أو ذمٌّ أو إثابة أو عقاب إلا والفعل فعلًا صادرًا من العبد.

قال المصنف رحمه الله:

ولولا أن الفعل يقع بإرادة العبد واختياره لكان مدح المحسن عبثًا، وعقوبة المسيء ظلمًا، والله تعالىٰ منزه عن العبث والظلم.

الرابع: أن الله تعالىٰ أرسل الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علىٰ الله حجة بعد الرسل، ولولا أن فعل العبد يقع بإرادته واختياره ما بطلت حجته بإرسال الرسل.

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

لا شك أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إنما أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وأقام الحجة على العباد، وهذا لا يكون حقًا.. لا تكون الحجة قائمة على العباد إلا والفعل قد صدر منهم فعلًا، وإلا لبطلت حجة الله عز وجل بإرسال الرسل، وبطل ما يترتب على رد الحجة وعدم قبولها لو كان.

ولذلك تأمل معي في آية في كتاب الله توضح لك الحق في هذا المقام، قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت:١٧] ما الهداية هنا؟ هداية الدلالة والإرشاد، جاءتهم الرسل، بيَّنت لهم الكتب، الأمر أصبح واضحًا عليهم، الحجة قامت عليهم، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت:١٧] ماذا كان؟ ﴿فَاسْتَحَبُّوا﴾ [فصلت:١٧] الفعل قام هنا فيهم هم، هم لا غيرهم، ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

[فصلت:١٧]، لأنهم كان منهم هذا الكسب الضال، كان منهم الكفر والصد عن سبيل الله عز وجل ترتب على هذا هذا العقاب، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت:١٧].

إذن: لا يتأتى أن يكون الله عز وجل قد أقام الحجة على العباد وترتب على ذلك ما ترتب إلا والفعل منهم صادرٌ حقيقة ومسند إليهم فعلًا.



قال المصنف رحمه الله:

الخامس: أن كل فاعل يحس أنه يفعل الشيء أو يتركه بدون أي شعور بإكراه، فهو يقوم ويقعد، ويدخل ويخرج، ويسافر ويقيم بمحض إرادته، ولا يشعر بأن أحدا يكرهه علىٰ ذلك، بل يفرِّق تفريقًا واقعيًا بين أن يفعل الشيء باختياره وبين أن يكرهه عليه مكرِه، وكذلك فرَّق الشرع بينهما تفريقًا حكميًا، فلم يؤاخذ الفاعل بما فعله مكرَهًا عليه فيما يتعلق بحق الله تعالىٰ.

قال الشارح وفقه الله:

أقول: لو لم يكن ثمة دليل شرعي على هذا الأصل يكفي العقل والحس أن الفعل قائمٌ بالإنسان حقًا وهو عن قدرة ومشيئة واختيار، أنا أرفع الكأس هذا وأشربه أو أشرب ما فيه لماذا؟ لأنني أردت ذلك ولا أحد أكرهني عليه.

إذن: أنا أُحس إحساسًا ضروريًا بأني أنا الفاعل، ولذلك كل عاقل يفرِّق بين مختارٍ ومكرَه، كل عاقل يفرِّق بين الأمرين، بل كل عاقل يفرِّق بين حركة السليم وحركة المرتعش، الذي يده سليمة يفعل فعلًا يرفع يده وينزلها، والذي هو مصاب بالرُّعاش، يده ترتعش، هل الفعلان سواء؟ هل الحركتان سواء: حركة السليم وحركة المرتعش؟ لا، هذا يدلك على أن هذا فعل بإرادته، والفعل منسوب إليه حقيقة، لأنه فاعل بإرادته، قام الفعل به عن إرادة واختيار وليس أنه مكرَه عليه، لو لم يكن في الأدلة إلا هذا لكفى بهذا إبطالًا لمذهب الجبرية الضالين.

لكن يبقى بعد هذا: هل تقرير هذا حجة في حصول المعاصي؟ الجواب: لا، بل الله عز وجل له الحجة على العباد، والعباد ليس لهم حجة على الله، وهذا هو الموضع الذي سيتكلم فيه المؤلف لاحقًا إن شاء الله .



قال المصنف رحمه الله:

ونرىٰ أنه لا حجة للعاصي علىٰ معصيته بقدر الله تعالىٰ؛ لأن العاصي يقدِم علىٰ المعصية باختياره من غير أن يعلم أن الله تعالىٰ قدَّرها عليه، إذ لا يعلم أحدٌ قَدَر الله تعالىٰ إلا بعد وقوع مقدوره، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان:٣٤]، فكيف يصح الاحتجاج بحجة لا يعلمها المحتج بها حين إقدامه علىٰ ما اعتذر بها عنه؟

قال الشارح وفقه الله:

فانتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الكلام عن مسألة مهمة وهي: الاحتجاج بالقدر على المعاصي، والقاعدة التي عرفناها في دروس مضت: أن القَدَر يُحتج به في المصائب لا في المعائب، أي: في المعاصي.

فلا حجة لأحد في شأن القَدَر يحتج بها على أن له مساغًا في وقوع المعاصي فيقول -وقد أقدم على المعصية بإرادته واختياره-: إن هذه المعصية قَدَر الله عليَّ، فلم أُلام على ذلك؟ هذا كلام من أبطل الباطل، وطرد الاحتجاج بالقَدَر في أفعال العبد يؤدي إلى فساد الدين وفساد الدنيا.

ولا يمكن لأحد البتة أن يستقيم له هذا الاحتجاج، هو كاذبٌ شاء أم أبى، من قال: إنه يحتج في أفعاله بالقَدَر فإنه كاذب شاء أم أبى، فإن هذه الحجة لا يمكن أن تستقيم للإنسان البتة.

وقبل الخوض في هذا الموضوع -الذي هو أعظم ما يُستشكل عند الخائضين في موضوع القَدَر- أقول: إنه لابد من التنبه إلى أصول محكمات وقواعد ممهدات تعصم مراعاتها -بتوفيق الله عز وجل- من الوقوع في الضلال والانحراف.

أول تلك القواعد التي يجب أن يستيقن بها المسلم: اعتقاده أن الله تعالى عدلٌ لا يظلم، فالله جل وعلا حرم الظلم على نفسه، فلا يمكن أن يكون منه ظلم لأحد من الناس البتة، فهمت هذا الموضوع أو لم تفهمه، إياك أن تشك لحظة في عدل الله عز وجل وانتفاء الظلم عنه في أفعاله وتقديراته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هذا أصلٌ دلت عليه الأدلة الكثيرة، فهو أصل قطعي لا شك فيه، والشواهد من خلق الله عز وجل تدل على عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالسماوات والأرض إنما قامت بعدل الله عز وجل، فالله عدل لا يظلم، استيقن بهذا.

الأصل الثاني: هو أن الله تعالى حكيم له الحكمة البالغة في كل ما يفعل وفي كل ما يقدِّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالحكمة صفته، والحكيم اسمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعليه؛ فالله عز وجل إن وضع الهداية في محل وإن وضع الإضلال والضلال في محل فإن له في ذلك الحكمة البالغة، علمت وجه ذلك على التفصيل أو لم تعلم، إياك أن تشك في هذا الأصل، لله الحكمة البالغة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الأمر الثالث الذي ينبغي استصحابه في هذا المقام: هو مراعاة الأدب مع الله عز وجل، فأنت -يا عبد الله- إذا خضت في هذا الموضوع إنما تخوض في فعل

سيد بعبده، فإياك أن تخرجك الرعونة إلى قول ما لا يليق، أو اعتقاد ما لا يليق بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الأمر الرابع والأصل الرابع: ينبغي أن يستيقن العبد بأن الهداية منه سبحانه للإيمان والعمل الصالح إنما ذلك فضل من الله عز وجل، والإضلال من عدل الله عز وجل، وهو محمودٌ على كليهما.

الهداية، توفيق الله عز وجل عبده إلى الخير هذا من فضل الله عز وجل، ولا يُلام المتفضل على عدم إفضاله، الأمر له والفضل له، ولذلك يؤتيه من يشاء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وفق حكمته، فلا يُلام على كونه حرم أحدًا فضله، فكيف إذا كان هذا الحرمان عدلًا من الله تبارك وتعالى. ولا شك أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إذا أضل أحدًا فإن إضلاله عقوبة، وإيقاع العقوبة في محلها عدل، والعدل محمود لا مذموم.

هذه أصول لابد من مراعاتها، ولابد من استحضارها.

أضف إلى هذا أصلًا خامسا وهو: أن القَدَر شيء اختص الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بعلمه على وجه التفصيل، إنما حسْب العباد أن يعلموا ذلك القَدْر الذي أعلمهم الله، ووراء ذلك شيء مخزونٌ عنا علمه، فلا سبيل للعباد إلى أن يصلوا إليه، ولذا قال السلف: القَدَر سر الله فلا نكشفه. إنما نعلم من قَدَر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ القَدْر الذي أعلمنا إياه، والقَدْر الذي أعلمنا إياه هو أن هدايته إلى الخير والإيمان هذا فضل منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والعبد لا يستحق على الله شيئًا، وأن ضلال من ضل أن

وقوع المعاصي والموبقات والكفر والفسوق والعصيان من العبد إنما كان منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عدل جل وعلا، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ محمود على هذا وعلى هذا، وما سوى ذلك فمخزونٌ عنا علمه.

إلى هنا انتهى علم العباد بالقدر، وما سوى ذلك لا سبيل إلى كشفه، الذي يخوض في القَدَر أكثر من هذا فليعلم أنه على باب هلكة، وعلى هذا يتنزل قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وإذا ذُكِر القدر فأمسكوا».

المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ يناقش هاهنا هذه الحجة التي يحتج بها مَن كان متهتكًا في المعاصي ثم يتذرع بالقدر، يقول: هذا قَدَر الله عليَّ، يأتي إلى المعصية بإرادته واختياره ويفعلها ثم إذا لامه أحد قال: هذا قَدَر الله. فبيَّن المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ أن هذه الحجة حجة متناقضة لا يطردها العبد في نفسه، وإذا رأيت المحتج يحتج بحجة في موضع ويميل عن الاحتجاج بها في موضع مماثل فإنك تعلم أن حجته داحضة، وأنه متلاعب.

وهذه بعض الإشارات التي أشار بها المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ لتدلك على أن هذا المحتج يحتج بما لا طائل تحته، وأن حجته غير صحيحة. أعِد.



قال المصنف رحمه الله:

ونرىٰ أنه لا حجة للعاصي علىٰ معصيته بقدر الله تعالىٰ؛ لأن العاصي يُقدِم علىٰ المعصية باختياره من غير أن يعلم أن الله تعالىٰ قدَّرها عليه.



قال الشارح وفقه الله:

أولًا: العاصي يأتي المعصية باختياره، ومر بنا هذا سابقًا، بدليل النص وبدليل الحس والعقل الإنسان يفعل الأشياء باختياره، كل أحد يعلم علمًا ضروريًا أنه يفعل الأشياء باختياره. هذا أمر أول.

ثانيًا..



قال المصنف رحمه الله:

إذ لا يعلم أحدٌ قَدَر الله تعالىٰ إلا بعد وقوع مقدوره.



قال الشارح وفقه الله:

نقول: لو كنت -يا عبد الله- تعلم القَدَر الذي اختص الله عز وجل بعلمه، هذا القَدَر الذي طُوِي عنك علمه ولا تدري عنه، لو كنت تعلمه لكان احتجاجك بالقدر سائغًا، لو كان يعلم الإنسان قبل أن يقدم على المعصية أنه في علم الله وكتابه ضال هالكٌ من أهل النار كان احتجاجه له وجه، لكن الإنسان لا يدري عن الشيء الذي كُتِب له، كيف تحتج بحجة أنت لا تعلمها؟

بمعنى: إن كان إقدامك على فعل المعصية بناءً على احتجاجك بالقدر فإننا نقول: أنت تحتج بما لا تعلم، ومعلوم عند جميع العقلاء أن الحجة لابد أن تكون معلومة عند المحتج بها، كيف يحتج الإنسان بشيء يجهله؟ هل هذا متأتي؟ لا يتأتى.

إذن: أنت تحتج بشيء حينما تزعم أنك أقدمت على هذه المعصية لأنها قَدَر الله عليك، فنقول: وما الذي أدراك أن الله عز وجل قد كتب عليك المعصية قبل أن تفعلها؟ القَدَر إنما يُعلَم -يعني أُريد بالقدر المقدور- بعد وقوعه، إذا حصل الشيء علمنا أن الله عز وجل قدَّره، أما قبل وقوعه أنت لا تدري، ولذلك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول: قال ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان:٣٤]، أنت لا تدري ما الذي ستفعله بعد قليل، نعم يمكن أن يقع في نفسك نية وإرادة لفعل الشيء، لكن كون ذلك واقعًا ولابد هذا أمرٌ لا يعلمه إلا الله، وكم من الناس من قصد في نفسه فعل شيء لكنه وقع خلافه، أو لم يقع هذا الشيء الذي نواه.

إذن: هو يحتج بشيء يجهله في الأصل، فلم يكن فعله قائمًا على حجة صحيحة.



قال المصنف رحمه الله:

قال تعالىٰ : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان:٣٤]، فكيف يصح الاحتجاج بحجة لا يعلمها المحتج بها حين إقدامه علىٰ ما اعتذر بها عنه؟ وقد أبطل الله تعالىٰ هذه الحجة بقوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨].

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

ولذلك الجبرية -ومن فروع مذهبهم الاحتجاج بالقدر على المعاصي- هم على إرث من إرث المشركين، فإن هذا المذهب قد نهجه قبلهم المشركون، هؤلاء الذين أخبر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨] فهم يحتجون بقَدَر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ومشيئته على ما وقعوا فيه من الكفر والشرك وتحريم ما أحل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولا شك أن هذا سبيل ضال، ولذلك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يكن حاله كذلك، وخير الهدي هدي محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بؤسًا لمن كان سلفه هؤلاء المشركون.



قال المصنف رحمه الله:

ونقول للعاصي المحتج بالقدر: لماذا لـم تُقـدِم علىٰ الطاعـة مقـدرًا أن الله تعالىٰ قد كتبها لك؟ فإنه لا فرق بينها وبين المعصـية في الجهـل بالمقـدور قبـل صدور الفعل منك، ولهذا لما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة بأن كل واحـد قد كُتِب مقعده من الجنة ومقعده من النار قالوا: «أفلا نتكل وندع العمـل؟ قـال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا، اعملوا فكُلٌّ ميسر لما خُلِق له».

قال الشارح وفقه الله:

أنت يا أيها المحتج بهذا القَدَر على المعصية نقول: ولماذا لم تقدِّر أن هذا الزمن الذي استغرقته في معصية الله عز وجل كان يمكن أن تأتي فيه بطاعة، كلا الأمرين -الطاعة والمعصية- أمران ممكنان، قبل وقوعها أمران ممكنان، يعني: جائزٌ حصولها عقلًا، ليس أمرًا مستحيلًا، فكما أن المعصية يمكن أن تقع فكذلك الطاعة يمكن أن تقع، وأنت تعلم يقينًا -وتكذب إن قلت خلاف ذلك- أن الخطوة التي خطوتها ذات الشمال إلى المعصية كان يمكن أن تخطوها ذات اليمين إلى الطاعة، فأنت إنما فعلت شيئًا باختيارك، فكان فعلك منك بمشيئة واختيارٍ وقدرة، ولذلك تتحمل مسؤولية فعلك، أنت مسؤول عن هذا الفعل، لأنك فعلت باختيارك، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، عنده اختيار، وهذه

مسألة مرت بنا، العبد له قدرة وله -أيضًا- مشيئة، يفعل بقدرته ويفعل بمشيئته، ولذلك كان مسؤولًا عن أفعاله.



قال المصنف رحمه الله:

ولهذا لما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة بأن كل واحد قد كُتِب مقده من الجنة ومقعده من النار، قالوا: أفلا نتكِّل ونَدَع العمل؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا، اعملوا فكُلٌّ ميسر لما خُلِق له».

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -في هذا الحديث حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو ثابت في الصحيحين- كان مع أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وصلى الله على نبينا وسلم فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد عُلِم مقعده من الجنة أو من النار»، وفي رواية -كلاهما في الصحيح-: «إلا وقد كُتِب مقعده من الجنة ومقعده من النار»، وهذا الحديث -باختلاف اللفظين- فيهما دليل على مرتبتي العلم والكتابة.

هنا طرأ على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سؤال وهو: إذا كان ذلك معلومًا عند الله ومكتوبًا، والكتابة في اللوح المحفوظ الذي لا يُغيَّر ولا يُبدَّل، إذًا لماذا العمل؟ قالوا: أفلا نتكِّل -يعني: على القَدَر السابق- وندع العمل؟ ماذا كان جواب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: «لا»، وإذا كنت تشهد أن محمدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعتقد أنك ملزَم بطاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذًا عليك أن تقف عند حرف النهي هذا، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا»، إذن: لا يجوز لك يا مسلم أن تتكل في العمل القَدَر السابق. هذا أولًا.

ثـم قـال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعملـوا، فكُـلٌّ ميسَّرـ لمـا خُلِـق لـه»، وفي روايـة في الصحيح تلا قول الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل:٥-١٠].

في صـحيح مسـلم حـديث قريـب مـن هـذا مـن روايـة سراقـة بـن مالـك بـن جعشـم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهـو أنـه سـأل النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عـما يعملـه العـاملون: أفـيما جفت به الأقلام وانقضت به المقادير، أو فيما يُستأنف؟ يعني: هل الذي يعمله النـاس شيء يُسـتأنف؟ لم يسـبق في علـم الله عـز وجـل وكتابتـه، فأجـاب النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بـل فـيما جفَّـت بـه الأقـلام وقضـت بـه المقـادير» أو كـما قـال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هنا قال سراقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ففيم العمل؟ ليش نعمل؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعملوا، فكُلٌّ ميسَّرٌ».

هنا زيادة في صحيح ابن حبان بإسناد صحيح وهو أن سراقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «فما كنت أشد اجتهادًا في العمل مني الآن»، عجيب! هذا الجواب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعله أشد اجتهادًا في العمل من السابق وهو قوله: «اعملوا، فكُلٌّ ميسَّر».

وهذا يدلك على فقه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بمعنى: إذا عُلِم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقدِّر الشيء بالسبب الموصل إليه إذًا كلما كنت أقرب إلى السبب كنت أقرب إلى

الغاية، إذا كانت الغاية لها سبب يوصل إليها، الغاية هي رحمة الله والجنة، السبيل إليها: الطاعة والعمل الصالح.

إذن: كلما كانت قريبًا من هذا السبب كان نيل الغاية والمراد أقرب، «اعملوا، فكُلٌّ ميسَّر»، سييسرك الله عز وجل إن كنت من أهل السعادة، إن كانت الغاية التي كتبها لك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هي السعادة فإنك ستُوفَّق إلى عمل أهل السعادة، تعمل بعمل أهل السعادة فتكون من أهل السعادة.

إذن: كلما كنت أقرب إلى هذا السبب كان نيل المراد منك أقرب.

إذن: اجتهد، ولذلك كان أشد ما يكون نشاطًا واجتهادًا في العمل الصالح لما سمع هذا الكلام من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

إذن: الشيء الذي أنت مطالَب به هو أن تجِدَّ وتعمل، وأبشر، إن كان ذلك كذلك فسيوصلك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إلى ما تطلب، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل:٥-٧]، والله عز وجل أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

ونقول للعاصي المحتج بالقدر: لو كنت تريد السفر لمكة، وكان لها طريقان، أخبرك الصادق أن أحدهما مخوف صعب، والثاني آمن سهل؛ فإنك ستسلك الثاني، ولا يمكن أن تسلك الأول وتقول: إنه مقدر علي، ولو فعلت لعدك الناس في قسم المجانين.

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

الآن يسلك المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع هؤلاء مسلك الإلزام، يلزمهم بحجتهم فيقول لهم: لماذا الاحتجاج بالقدر فقط في شأن المعاصي؟ حينما ترتعون في الشهوات وتقعون في المحرمات تقولون: هذا قَدَر الله.

هل تلتزمون هذا في جميع الأفعال؟ لأن الحسنات والسيئات هذه أفعال، كذلك بقية ما تعمل هذه أفعال.

إذن: هل إذا كان أمامك طريقان وقال لك شخص صادق: هذا الطريق طريق مخوف، فيه عقارب وحيات ولصوص وقطاع طرق، وهو طويل ومتعب، أما هذا فإنه طريق سهل يسير وآمن أيضًا، فما رأيكم لو أن هذا الإنسان أخذ في هذا الطريق وقال: سوف أمشي في هذا الطريق لأنه قَدَر الله علي؟ ماذا نقول؟ نقول: أنت مجنون، تسلك هذا الطريق وتقول: هذا قَدَر الله؟ ولماذا لا يكون هذا -

أيضًا- قدر الله؟ الأمران -نعود إلى ما قلنا- ممكنان، وسلوك أيهما ميسر لك، فكونك تسلك هذا إذًا هذا سلكته باختيارك، إذن: تتحمل مسؤولية ما فعلت.

ولذلك تذكروا الآية التي قلناها في الدرس الماضي: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت:١٧] هم لا غيرهم، ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت:١٧] إذًا يتحملون، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧].

إذا: هذا هو قَدَر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، تسلك الطريق المخوف وتقول: هذا قدر الله، وأنا مضطر أن أمشي هاهنا؟ أنت كاذب، وتعلم من نفسك أنك كاذب.

ولهذا يروى -والله أعلم بإسناده، فلم أقف على إسناد لهذه القصة، لكن شيخ الإسلام في المنهاج في المجلد الثالث أورد هذه القصة وغيره من أهل العلم- أن سارقًا أُخِذ فجيء به إلى عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال: هذا قَدَر الله عليَّ، فقال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ونحن نقطع يدك بقدر الله.

إذا كان تزعم أن هذا بقدر الله فنحن نحتج عليك -أيضًا- بقدر الله، فهذا بقدر الله وهذا بقدر الله، الذي يقع إنما هو بقدر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأنت تفعل باختيارك ومشيئتك.



قال المصنف رحمه الله:

ونقول له أيضًا: لو عُرِض عليك وظيفتان، إحداهما ذات مرتب أكثر، فإنك سوف تعمل فيها دون الناقصة، فكيف تختار لنفسك في عمل الآخرة ما هو الأدنىٰ ثم تحتج بالقدر؟

❊ ❊ ❊

قال الشارح وفقه الله:

كذلك في أمور الدنيا، في وظائفها وفي أعمالها لا تجد أن الإنسان يرضى لنفسه بالدُّون، إنما دائمًا يطلب الأفضل.

وظيفتان كلاهما متاحة وميسرة، هذه راتبها عشرون ألفًا وهذه راتبها ألف، يقول الإنسان: سوف أوقع العقد على ذات الألف. لماذا؟ قال: لأن هذا قدر الله. الورقتان أمامه وبإمكانه أن يوقع هذا أو يوقع هذا لكنه وقَّع ذات الألف ويقول: هذا قدر الله. هو -قبل غيره- يعلم أنه كاذب.



قال المصنف رحمه الله:

ونقول له أيضًا: نراك إذا أصبت بمرض جسمي طرقت باب كل طبيب لعلاجك، وصبرت على ما ينالك من ألم عملية الجراحة، وعلى مرارة الدواء، فلماذا لا تفعل مثل ذلك في مرض قلبك بالمعاصي؟



قال الشارح وفقه الله:

لا شك أن مرض القلب أعظم من مرض الجسد، ومع الأسف أكثر الناس حرصهم على علاج أمراض أبدانهم أعظم من حرصهم على علاج أمراض قلوبهم، مع أن أمراض القلوب أشنع وأفظع وأثرها أكبر، والله المستعان!

هذا الذي يحتج بالقدر على المعاصي لو مرض بدنه فإنه لن يجلس في البيت، تجد أنه يسارع إلى طلب العلاج، يذهب إلى مستشفى وربما يبحث عن أفضل طبيب، وربما يطلب أن يُجرى التحليل والأشعة وأنواع الفحوصات ولا يقول: هذا قدر الله فأستسلم له. لماذا في شأن المعاصي التي هي من مرض قلبك لا تبادر إلى العلاج؟

وقس على هذا أمثلة كثيرة، لو ضُرِب هذا الإنسان، لو أنه أُخِذ ماله وحقه، فهل عاقل يقبل أن يجلس هذا الإنسان هكذا ساكنًا ولا يتحرك ويقول: هذا قدر الله؟ أو أنه يدفع عن نفسه؟ لا شك أنه سوف يدفع عن نفسه.

دعك من هذا. لماذا لا تطرد احتجاجك بالقدر في شأن الطعام والشراب؟ أليس الباب بابًا واحدًا؟ لماذا في شأن المعاصي تقول: والله هذا قدر الله، تترك الواجبات وتقول: هذا قدر الله، لماذا لا تترك الأكل والشرب وتقول: هذا قدر الله؟ يجلس الإنسان، إن قدَّر الله له أن يأكل فسوف يأكل، سوف يأتيه الطعام إلى حدِّه، فلا حاجة إلى أن يذهب يطلب الطعام أو أن يستسقي، إنما هو يجلس ويأتيه الشيء الذي قُدِّر له من الطعام والشراب، هل يفعل هذا أحد؟ وإلا كل واحد وأولهم هذا المحتج بالقدر على المعاصي يذهب، يطوف يبحث عن الزاد حتى يشبع بطنه وحتى يروي عطشه، أليس كذلك؟

إذن: كاذبٌ من يقول: إنه إنما فعل المعصية وترك الطاعة لأجل أن هذا قدر الله وهو مستسلم لقدر الله. لا والله، هو كاذب.

وذكر بعضهم قصة لطيفة فيها عبرة وهي: أن رجلًا وقع في هذه العقيدة الجبرية واطَّرد عنده الأمر، فقال: أنا لن أطلب طعامًا، إن قدَّر الله أن يأتيني الطعام فسوف يأتيني، أنا سوف أجلس في محلي وأنتظر قدر الله، أنا أستسلم للقدر.

وهذا الرجل يسكن في محل يجمع الفقراء ما يسموه بالرباط، فجلس اليوم الأول وإذا بالجوع قد أخذ منه كل مأخذ، ويسمع الناس خارج غرفته المغلقة

يوزعون الطعام وهو جالس، يقول: إن قُدِّر علي سوف يأتيني، والناس يمرون يوزعون الطعام ويظنونه غير موجود، يذهبون، بابه مغلق.

جاء اليوم الثاني وازداد الجوع وهو لا يزال ينتظر الطعام أن يأتيه بقدر الله دون أن يكون منه عمل، وإذا بالناس يمرون ولا ينتبهون له ويمشون، لما جاء اليوم الثالث وقد بلغ الجوع منه الغاية سمع وقْع الذين يوزعون الطعام فما كان منه إلا أن تنحنح لأجل أن يسمعه الذين في الخارج، فتنبهوا له فدخلوا إليه وأطعموه الطعام.

ثم قيل له بعد ذلك: ماذا تقول؟ قال: والله القَدَر لابد فيه من العمل ولو بالنحنحة.

إذن: هؤلاء في شأن الدنيا أنشط الناس في العمل والاجتهاد والقيام بالأسباب، لكن إذا جاء أمر الله أو نهيه غلبت عليهم أهواؤهم فركنوا إلى الاحتجاج بالقدر، وهذا من أبطل ما يكون.

وأنا قلت لك: إن الاحتجاج بالقدر طرده في كل شيء من أمور الدين والدنيا سيفسد الدين والدنيا، ولا يمكن أن تقوم للناس حياة ولا يستقيم لهم معاش بطرد هذه الحجة. فتبين أنها حجة داحضة، والعلم عند الله.



قال المصنف رحمه الله:

ونؤمن بأن الشر لا يُنسب إلىٰ الله تعالىٰ لكمال رحمته وحكمته، قال النبي: «والشر ليس إليك» رواه مسلم. فنَفْس قضاء الله تعالىٰ ليس فيه شر أبدا؛ لأنه صادر عن رحمة وحكمة.

وإنما يكون الشر في مقضياته؛ لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعاء القنوت الذي علمه الحسن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وقني شر ما قضيت»، فأضاف الشر إلىٰ ما قضاه.

قال الشارح وفقه الله:

هذه مسألة أشرنا إليها في درس البارحة وقلنا: لابد من مراعاة أمرين:

أولًا: أن قَدَر الله خير لا شر فيه، قَدَر الله الذي هو فعله، الذي هو قائم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهذا خيرٌ محض يُحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه، لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والشر ليس إليك»، لكن قلنا: الشر ليس إليه ولكن يكون منه، يعني: يقدِّره، يكون الشر في المقدور، في المقضي، في المخلوق، في المفعول، هذا نَعَم، قد يكون فيه شر، وهذا ما نبَّه إليه هذا الحديث وهو قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعاء القنوت الذي علَّمه الحسن -وأخرجه الأربعة في سننهم-: «وقني شر ما قضيت»، يعني: قِني المقضي الذي هو شر، وعلى هذا نفهم قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»، ما المراد هنا بالقدر؟ المقدور،

المقدور إن كان خيرًا فهو من الله، وإن كان شرًا فهو من الله، لا يمكن أن يكون شيء في هذا الكون إلا بقدر الله عز وجل، سواء كان خيرًا أو كان شرًا.

ولله الحكمة البالغة في تقدير الشر، ولذلك ذكرنا المناظرة التي وقعت بين عبد الجبار القدري المعتزلي والإسفرائيني حينما قال عبد الجبار: سبحان من تنزه عن الفحشاء! فقال الإسفرائيني: سبحان من لا يكون في ملكه إلا ما يشاء. فقال عبد الجبار: أفيحب ربنا أن يُعصى؟ عندهم المعصية خارجة عن مشيئة الله عز وجل وخلْقه، كل أفعال العباد لا تتعلق بها مشيئة الله أو خلقه.

فقال: أفيُحب ربنا أن يُعصى؟ فقال الإسفرائيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أو يُعصى ربنا قسرًا؟ يعني: الله عز وجل يريد أو يشاء شيئًا والعبد يشاء غيره، فتغلب مشيئةُ العبد مشيئةَ الله! أعوذ بالله!

أفيُعصى ربنا قسرًا؟ قال: أفرأيت إن قضى عليَّ بالردى، أحْسَنَ إلي أم أساء؟ فقال: إن منعك ما لك فقد أساء، وإن منعك ما له فذلك فضله يؤتيه من يشاء. فانقطع هذا المبتدع.

المقصود أن الشر لا يُنسب إلى فعل الله عز وجل وإن كان يُنسب إلى المقدور، المقدور فيه ضر، فيه شر، فيه مصيبة، فيه ما هو قبيح من لون أو طعم أو ريح.. إلى آخره، هذا كله في المفعول المقدور لا في فعل الله عز وجل، ولابد من التنبه إلى الفرق بين الفعل والمفعول، بين الخلق والمخلوق، بين الصُّنْع والمصنوع.

الآن هذا الشيء مصنوع، والصُّنْع فِعْل النجار، يعني: عندنا صانع هو النجار، وعندنا صُنْعٌ وهو الطَّرْق والنشر والدهن.. إلى آخره، وعندنا مصنوع، هل المصنوع صفة للصانع؟ ما صفته؟ صفته الصُّنع، أما هذا فهو شيء منفصل عنه، هذا مصنوع منفصل عنه. هذا مثال يقرِّب لك الأمر، فالله عز وجل ما قام به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الخلْق، هو المشيئة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما المفعول المخلوق المنفصل فهذا لا يُضاف إلى الله عز وجل، هذا لا يُضاف على أنه صفة قائمة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك إذا خلق ما هو قبيح فلا يُضاف القُبْح إليه فيوصف به، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا!

هذه هي المسألة الأولى، ما هي؟ الشر يكون في القضاء وإلا في المقضي؟ في القَدَر وإلا في المقدور؟ في المقدور لا في القَدَر.



قال المصنف رحمه الله:

فأضاف الشر إلىٰ ما قضاه، ومع هذا فإن الشر في المقضيات ليس شرًا خالصًا محضًا، بل هو شر في محله من وجه، خير من وجه، أو شر في محله، خير في محل آخر.

فالفساد في الأرض من: الجدب، والمرض، والفقر، والخوف شر، لكنه خير في محل آخر. قال الله تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

وقطع يد السارق، ورجم الزاني شر بالنسبة للسارق والزاني في قطع اليد وإزهاق النفس، لكنه خير لهما من وجه آخر، حيث يكون كفارة لهما، فلا يجمع لهما بين عقوبتي الدنيا والآخرة، وهو -أيضًا- خير في محل آخر، حيث إن فيه حماية الأموال والأعراض والأنساب.

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

هذا الأمر الثاني الذي لابد من مراعاته وهو: أن الشر في المقدور لا يكون شرًا محضًا، بل لابد أن يكون فيه خير -أيضًا- إما لذات هذا الشيء وإما لغيره، ومثَّل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لذلك بما يكون من الفساد في الأرض من الجدب والمرض والفقر والخوف هو كذلك شر بالنسبة لأناس لكن ربما يكون خيرًا لأناس آخرين، وربما يكون خيرًا لأنفسهم حتى يرجعوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا

تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام:٤٣]، فالله عز وجل يصيب بهذه الابتلاءات من يشاء لأجل أن يرجعوا إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كذلك ما يكون من الحدود: من قطع، من رجم، كذلك ما يكون من القصاص، كل ذلك فيه خير لهذا الإنسان نفسه، لأن إقامة الحد على المذنب الذي فعل ما يقتضي حدًا هذا فيه خير له من جهة أنه كفارة، ولذلك في الصحيحين من حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أخذ البيعة على أصحابه أن لا يشركوا بالله شيئًا... إلى آخره، وذكر الكبائر من القتل والزنا.. إلى آخره، قال: «فمن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له».

وأيضا فائدة له من جهة أخرى: لعله يتوب، كم من الناس لما أُقيم عليه حَدٌّ من قطع أو جلد أو نحو ذلك يتوب ويرجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كذلك يكون في هذا خيرًا للآخرين، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]، كم كانت إقامة الحدود والقصاص سببًا، كان هذا سببًا في ارتداع كثير من الناس عن الوقوع في هذه المنكرات، إذا دعته نفسه إلى أن يقتل تذكر أن فلانًا قتل فقُتل، إذا دعته نفسه إلى أن يقع في فاحشة الزنا تذكر أن فلانًا جُلِّد وغُرِّب أو رُجم فيرتدع.

إذن: هذا فيه خير كثير، وقس على هذا، كثير من مصائب الدنيا فيها خير كثير، كم من الناس أُصيب بفقد مال فافتقر فاستقام فكان من أحسن الناس، ولا شك أن ما عند الله خير وأبقى.

كم من الناس من أُصيب بمرض أو شلل فصار من الدعاة إلى الله وكان من قبل فاسقًا.

إذن: ما يقدِّره الله عز وجل فيه خيرات كثيرة، خذ مثلًا: البراكين من أعظم المصائب التي تقع في الأرض، من أكبر الكوارث التي تقع ويكون لها آثار سلبية كثيرة، أتدري أن هذه البراكين مع ما فيها من آثار سلبية فيها آثار إيجابية كثيرة؟ هي من أنفع الأشياء للأرض، الأرض تتنفس، الحرارة والضغط الذي يكون في جوفها يزول -بإذن الله عز وجل- بفعل البراكين، بل ثاني أكسيد الكربون -كما يقولون- إذا خرج فإنه يؤدي إلى ضبط الغلاف الجوي.

هل تعلم أن هذه البراكين فيها نفع كبير من جهة خروج معادن يحتاجها الناس: البوتاسيوم، الكبريت، وغيرها من المعادن. الألماس الذي يستعمله الناس وتتزين به النساء، هذا يتكون بفعل البراكين.

كثير من الينابيع الحارة تنتج بسبب البراكين، فتكون سببًا للشفاء من الروماتيزم وغيره من الأمراض، وحدث ولا حرج من فوائد كثيرة لهذه الكارثة، لهذه المصيبة العظيمة التي تقع.

إذن: لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في تقـديره للمصـائب والشر-ور حِكَـم، ويترتـب عـلى وجودها -أيضًا- خيرات.

إذن: لا يمكن أن يُقدَّر شر محض، هذا لا يمكن أن يكون.

إذن: لابد من مراعاة هذه المسألة.

وبالمناسبة: مسألة الشرور أو ما يسموه معضلة الشر. هذه تشكل على كثير من الناس ولا سيما الشباب، وتؤدي إلى قدر من التشكيك والزعزعة في الإيمان بسبب عدم فهمهم لهذه المسألة، وأما أهل الإيمان فالأمر عندهم واضح، لله عز وجل في تقدير الشر. حكمة، ويكفي أن يعلم الإنسان أن هذه الدنيا أصلًا ليست دار مقر، إنما هي دار ممر، من علم هذا هان عليه فهم الأمر.

الملاحدة لأن الغاية عندهم هي الحياة الدنيا، الكفار أخبر الله عز وجل بأن هذه الحياة الدنيا زُيِّنت لهم، ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [البقرة:٢١٢] فهي عندهم الغاية، ولذلك يريدونها دار الجزاء الأوفى، أما عند أهل الإيمان فالأمر مختلف، ما هي الدنيا عندهم؟ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك:٢] هذه هي الحياة، إيش؟ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، القضية في الحياة في المنظور الإيماني وفي نظر أهل الإيمان إنما هي أن هذه الحياة ابتلاء وامتحان، وأما الجزاء الأوفى والنعيم المقيم فإنه في الدار الآخرة، ولذلك لا يُستشكل عنده أن

تقع عليه مصيبة وابتلاء وامتحان، يقول: كيف؟ مسلمون ويشهدون أن لا إله إلا الله وتقع عليهم مصائب؟

وما في هذا؟ الدنيا ليست دار الجزاء الأوفى، إنما ذلك في الآخرة، والله المستعان!

بهذا أنهى المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامه عن أركان الإيمان وانتهى بالركن الأخير، وبعد ذلك ساق جملة من الآثار التي تترتب على الإيمان بهذه الأركان الستة.



قال المصنف رحمه الله:

فصل: هذه العقيدة السامية المتضمنة لهذه الأصول العظيمة تثمر لمعتقدها ثمرات جليلة كثيرة.



قال الشارح وفقه الله:

لا شك، وهذا الذي ينبغي أن يحرص الإنسان عليه. العلم يُراد للعمل، سواء كان عمل قلب أو عمل جوارح، ليس المقصود أن يتعلم الإنسان علمًا مجردًا لا يكون له أثر على قلبه وجوارحه، هذا العلم لا ينفع صاحبه، بل ربما كان وبالًا عليه. من الناس مَن يسرد لك العلوم سردًا لكنه لا ينتفع بهذا في عمل قلبه أو عمل جوارحه أو في سلوكه، فتجد أنه يقع في ضد ما يعلم، هذا انتفع بعلمه؟ كلا والله.

إذن: لابد من مراعاة هذا الأمر.

ما الذي سنفيده من فوائد مسلكية من إيماننا بأركان الإيمان؟ هذا ما يشير المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إليه إشارات.



قال المصنف رحمه الله:

فالإيمان بالله تعالىٰ وأسمائه وصفاته يثمر للعبد محبة الله وتعظيمه الموجبين للقيام بأمره واجتناب نهيه، والقيام بأمر الله تعالىٰ واجتناب نهيه يحصل بهما كمال السعادة في الدنيا والآخرة للفرد والمجتمع، قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

قال الشارح وفقه الله:

أما الإيمان بالله عز وجل الذي يتفرع إلى الإيمان بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته؛ فهذا أصل الأصول، وهو أعظم الأركان، وجميع الأركان تعود إليه.

وماذا يقول الإنسان في الثمرات التي يجنيها المؤمن بالله عز وجل؟ أعظم ذلك أن ينال الإنسان محبة الله ورحمته، ويفوز بجنته ويقيه الله عز وجل عذابه. هذا أعظم أثر وأعظم ثمرة ينالها الإنسان من الإيمان بالله عز وجل.

ولا يمكن أن تحقق الإيمان بالله إلا إذا كنت على علم بالله، كمال الإيمان بالله يتبع كمال العلم بالله، ولذا كان أعظم الناس إيمانًا بالله أعلمهم به، ولذا كان النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم الناس إيمانًا به، لم؟ لأنه أعلم الناس بالله، قال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية».



قال المصنف رحمه الله:

ومن ثمرات الإيمان بالملائكة:

أولًا: العلم بعظمة خالقهم تبارك وتعالىٰ وقوته وسلطانه.



قال الشارح وفقه الله:

لا شك، هؤلاء الملائكة الكرام الذين هم على خلق عظيم، ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١].

جبريل عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له ستمائة جناح سد بها الأفق، أخبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ -كما في أبي داود وغيره- عن مَلَك من حملة العرش، يقول: «أُذِن لي أن أحدث عن مَلَك من حملة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»، هذا مخلوق من جملة مخلوقات كثيرة لله عز وجل، فكيف هي عظمة الله تبارك وتعالى؟! هذا لا شيء أمام عظمة العظيم سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

إذن: هذا الكمال يدلُّنا على أن خالقه أكمل، هذه العظمة تدلُّنا على أن خالقها أعظم سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.



قال المصنف رحمه الله:

ثانيًا: شكره تعالىٰ علىٰ عنايته بعباده، حيث وكَّل بهم من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم وكتابة أعمالهم، وغير ذلك من مصالحهم.



قال الشارح وفقه الله:

لا شك أن كون الله عز وجل قد أوكل بالعباد هؤلاء الملائكة الكرام يسددونهم ويعينونهم وينصحون لهم ويحفظونهم بأمر الله عز وجل، هذا دليل على رحمة الله عز وجل بعباده، فيزداد المؤمن محبة لله تبارك وتعالى. ومر بنا كون الملائكة عليهم الصلاة والسلام يقومون بحفظ ابن آدم وكتابة أعماله، والدفع عنه وحثه على الخير، إلى غير ذلك.



قال المصنف رحمه الله:

ثالثًا: محبة الملائكة علىٰ ما قاموا به من عبادة الله تعالىٰ علىٰ الوجه الأكمل واستغفارهم للمؤمنين.

قال الشارح وفقه الله:

أيضًا: محبة الملائكة، من حقق الإيمان بالملائكة حقًا أحبهم صدقًا، لم؟ ذكر المؤلف سببين:

أولًا: أنهم قائمون بعبادة الله على الوجه الأكمل، وكل مؤمن يحب عباد الله الصالحين، يحبهم لله؛ لأنهم عباد لله قائمون بطاعته، إذن: يحبهم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهذا السبب.

ويحبهم -أيضًا- لسبب آخر قال: واستغفارهم للمؤمنين. إذا كانوا يدأبون في الدعاء لك والاستغفار لك يا عبد الله، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:٧]، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٥] ومر بنا الكلام في هذا الأمر، فكيف لا تكون محبًا لهم؟ بل هم يوالونك يا عبد الله، أنت وليُّهم، لذلك تقول الملائكة عليهم الصلاة والسلام: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت:٣١]، ومن ولايتهم لك: أنهم يسعون في مصالحك ويسددونك، يقذفون الخير على لسانك وفي قلبك، ولذلك قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -كما صح عنه-: «إن للمَلَك لمَّة، وغن للشيطان لمَّة، فأما لمَّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق»،

يبثُّون الخير، يريدون لك الخير، ولذلك مبدأ العلم عند أهل السنة والجماعة إلهامٌ من الله بواسطة الملائكة، العلم الذي يُقذف في القلوب والخير الذي تنطق به الألسن هذا إلهامٌ من الله عز وجل بواسطة الملائكة، وفصَّل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ردِّه على المنطقيين هذه المسألة تفصيلًا حسنًا.

أضف إلى هذا أنهم يحبون عباد الله الصالحين، فكيف لا يبادلونهم بالمحبة؟ مر بنا ما ثبت في الصحيح مِن «أن الله إذا أحب عبدًا نادى جبريل: إني أحب فلانًا فأحبه»، ماذا يفعل جبريل؟ ينادي في الملائكة: أن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبونه، فيوضع له القبول في الأرض.

إذن: هم يحبون عباد الله الصالحين، وعلى الصالحين أن يبادلوهم بهذه المحبة.

يعني -على كل حال- هناك أشياء أخرى يمكن أن تضاف إلى ذلك، يمكن أن نضيف أمرًا رابعًا وهو: استصغار الإنسان عمله، وعدم غروره بما يقدم، إذا نظرت في عملك ونظرت في عمل الملائكة ماذا تقول؟ الذين أخبر الله عز وجل عنهم لا يعصون الله ما أمرهم، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، لا يدخلهم السآمة ولا الفتور في طاعة الله عز وجل والتسبيح له.

إذن: الإنسان يحتقر عمله الذي يعمله ولا يشمخ برأسه ويغتر بعمله، إنما يستصغر نفسه دائمًا.

أضف إلى هذا أمرًا خامسًا: من حقق الإيمان بالملائكة استحيا منهم، ولذلك الله عز وجل يقول: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، قال أهل التفسير: فأجلُّوهم واستحيوا منهم أن يروكم على ما يُستحيا منه.

على الإنسان أن يستحضر هذا الأمر، وأن هناك ملائكة معه ينبغي عليه أن يُجِلَّهم فلا يرون منه ما يكرهه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



قال المصنف رحمه الله:

ومن ثمرات الإيمان بالكتب:

أولًا: العلم برحمة الله تعالىٰ وعنايته بخلقه، حيث أنزل لكل قوم كتابًا يهديهم به.

ثانيًا: ظهور حكمة الله تعالىٰ، حيث شرع في هذه الكتب لكل أمة ما يناسبها. وكان خاتم هذه الكتب: القرآن العظيم، مناسبًا لجميع الخلق في كل عصر ومكان إلىٰ يوم القيامة.

❀ ❀ ❀

قال الشارح وفقه الله:

من ثمرات الإيمان بالكتب ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمرين:

أولًا: كون الإنسان يستيقن برحمة الله، حيث لم يَدَعِ الله الناس همَلًا ويتركهم عبثًا دون أن ينزِل عليهم الكتب التي ترشدهم إلى الحق والصواب، وتعلمهم ما ينفعهم، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، فهذا من رحمة الله عز وجل بنا، ما تركنا همَلًا.

أيضًا نستيقن بحكمة الله عز وجل، حيث إنه ينزِل لكل قومًا كتابًا يناسبهم ويناسب حالهم، ولذلك أنزل على هذه الأمة التي هي آخر الأمم خاتمة الكتب على خاتم النبيين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، الذي فيه كل خير وسعادة للناس.

أضف إلى هذا أمرًا ثالثًا: أن نعلم أن سعادة الناس واستقامة حالهم وقيامهم بالقسط في هذه الدنيا لا يكون إلا باتباع كتب الله ووحيه، لا يمكن أن تستقيم للناس حال إلا بذلك، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، فمهما بحث الناس عن دساتير وعن أنظمة وعن تشريعات بعيدًا عن وحي الله عز وجل فإنهم لا يزدادون إلا ضلالًا وانحرافًا، السعادة والخير والرخاء إنما هي في اتباع وحي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي أنزله في كتبه على رسله.



قال المصنف رحمه الله:

ثالثًا: شكر نعمة الله تعالىٰ علىٰ ذلك.

ومن ثمرات الإيمان بالرسل:

أولًا: العلم برحمة الله تعالىٰ وعنايته بخلقه، حيث أرسل إليهم أولئك الرسل الكرام للهداية والإرشاد.



قال الشارح وفقه الله:

ولذلك يقول الله عز وجل عن نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].



قال المصنف رحمه الله:

ثانيًا: شكره تعالىٰ علىٰ هذه النعمة الكبرىٰ.

ثالثا: محبة الرسل، وتوقيرهم، والثناء عليهم بما يليق بهم، لأنهم رسل الله تعالىٰ وخلاصة عبيده، قاموا لله بعبادته، وتبليغ رسالته، والنصح لعباده، والصبر علىٰ أذاهم.

❋ ❋ ❋

قال الشارح وفقه الله:

لا شك أن من علم الرسل عليهم الصلاة والسلام وأخبارهم وخصائصهم وصبرهم وجهادهم في سبيل الله عز وجل انبعث قلبه لهم بالمحبة والتوقير.

ويمكن أن نضيف -أيضًا- أمرًا رابعًا مما يثمره الإيمان بالرسل: حسن الاقتداء بهم. الناس بحاجة في حياتهم إلى قدوات، ومَن هؤلاء القدوات إلا الرسل، هؤلاء أكمل قدوة، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]، ولذلك الناس بحاجة إلى مُثُل عُلْيا تكون منهم وتعيش بينهم وتصل إليهم أخبارهم حتى يسيروا على منهاجهم، ولذلك الناس لما ضعف عندهم إيمانهم بالرسل اتخذوا قدوات من الكفرة ومن الفسقة ومن غيرهم، مع أن الذي ينبغي أن يكون قدوة هم الرسل عليهم الصلاة والسلام ورأسهم وخيرهم نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أيضًا أمر خامس وهو: تزكية النفس من خلال الاطلاع على قصصهم وأخبارهم، كم في أخبارهم وقصصهم وأحوالهم مع أممهم وفي تبليغهم للشرع من عِبَر تزكو بها النفوس وتصلح بها الأنفس، وتكون عبرة للدعاة والعلماء الصادقين، فهذا لا شك أنه من الثمرات التي يجنيها الذي يؤمن بالرسل عليهم الصلاة والسلام.



قال المصنف رحمه الله:

ومن ثمرات الإيمان باليوم الآخر:

أولًا: الحرص علىٰ طاعة الله تعالىٰ رغبة في ثواب ذلك اليوم، والبعد عن معصيته خوفًا من عقاب ذلك اليوم.



قال الشارح وفقه الله:

وكيف لا يكون كذلك والعبد يعلم أن وراءه يومًا ثقيلًا، ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان:٢٧]، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٠].

من حقق الإيمان باليوم الآخر لا شك أنه سيجتهد في طاعة الله ويجتنب معاصي الله.



قال المصنف رحمه الله:

ثانيًا: تسلية المؤمن عما يفوته من نعيم الدنيا ومتاعها بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها.

قال الشارح وفقه الله:

مهما أصابه في هذه الدنيا من مصائب وابتلاء وظلم فإنه يتسلى، لأنه يقول: هناك دار آخرة يجازيني الله فيها على صبري، يقتص لي ربي من ظالمي، ولذلك تسكن نفسه وتطمئن، فهذا فيه تسلية عظيمة.

وأيضًا مما يمكن أن نجنيه من ثمرات الإيمان باليوم الآخر: فتح باب الخوف والرجاء الذي هو أعظم دافع للعبد في طريق العبودية، لا يمكن أن يسير الإنسان في طريق العبودية إلا إذا اجتمع له جناحا الخوف والرجاء، وهذا من أعظم ما يحققه في النفوس المؤمنة: إيمانهم باليوم الآخر، ولذلك كانت حال أهل الإيمان ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٧] جمعوا بين الأمرين.

أيضًا من الثمرات للإيمان باليوم الآخر: تحقيق الإخلاص، الذي يؤمن باليوم الآخر وما فيه من الجزاء والحساب يخلص عمله لله، والمرائي إيمانه باليوم الآخر ضعيف، لو كان إيمانه باليوم الآخر قويًا كاملًا ما راءى ولا قصد غير وجه الله عز وجل؛ لأنه يعلم أن الذي سيجازيه على عمله ليس الناس، ولن ينتفع بشيء من خلال مدحهم وثنائهم، إنما الجزاء عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لمن أراد بذلك وجه الله.

أيضًا هناك ثمرة سادسة أو خامسة: أن المؤمن باليوم الآخر تنحل عنه إشكالات كثيرة، والله -يا إخوة- رأيت وسمعت من كفار لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر يعيشون اضطرابًا عظيمًا وحيرة كبرى، لا يعرفون هدف هذه الحياة أصلًا، لماذا هو موجود وماذا بعد هذا الوجود والله لا يدري، متخبط مسكين، بينما تجد عاميًا مسلمًا مطمئنًا وسعيدًا في هذه الحياة، لم؟ لأنه ما عنده مشكلات، الأمور عنده واضحة، ولذلك خذها قاعدة: لا يلتذُّ بهذه الحياة إلا من يؤمن بالله واليوم الآخر، لن يجد لذة في هذه الحياة إلا من كان كذلك، أما من كان لا يؤمن باليوم الآخر ما أكثر المشكلات والحيرة التي تصيبه.

خذ مثلًا المسألة التي ذكرتها لك قبل قليل، وهي لا يُستهان بها من جهة الشبهة العظيمة التي دخلت على المتشككين وهي: مسألة الشر، كيف يقع الشر في الأرض والله رحيم؟ من فهم أن هذه الدنيا ليست دار جزاء تنحل عنه هذه المشكلات، وأن الجزاء والنعيم السرمدي واللذات المحضة ليست هنا، إنما هي في الدار الآخرة، ولذلك لا يُستشكل حصول مصيبة أو وقوع شر.

إذًا: تنحلُّ إشكالات كثيرة لمن كان محققًا للإيمان باليوم الآخر.



قال المصنف رحمه الله:

ومن ثمرات الإيمان بالقدر:

أولًا: الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب؛ لأن السبب والمسبب كلاهما بقضاء الله وقدره.

ثانيا: راحة النفس وطمأنينة القلب؛ لأنه متى علم أن ذلك بقضاء الله تعالى، وأن المكروه كائن لا محالة؛ ارتاحت النفس واطمأن القلب ورضي بقضاء الرب، فلا أحد أطيب عيشًا، وأريح نفسًا، وأقوى طمأنينة ممن آمن بالقدر.

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

لا شك في ذلك ولا ريب، ولذلك الله عز وجل يقول: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١] هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلِّم.

أولًا: يعلم أن الله يحبه، يعلم أنه لا يكون من الله إلا الخير، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، يعلم أن لله حكمة بالغة، هذا يجعله يطمئن.

الأمر الآخر: أنه يعلم أن قضاء الله وقدره لا مفر منه، فما الفائدة من التحسر.؟ شئت أم أبيت قَدَر الله نازل، إذن: لن تستفيد إلا حسرة ونكد، اطمئن، قَدَر الله عز وجل مهما فررت منه فإنه سوف يدركك فاطمئن، ولذلك المؤمن بالقدر

مرتاح ومطمئن، تنزل عليه المصيبة تقول له: يا فلان كيف حالك؟ يقول: الحمد لله. لم؟ لأنه مؤمن بالقدر.



قال المصنف رحمه الله:

ثالثًا: طرد الإعجاب بالنفس عند حصول المراد؛ لأن حصول ذلك نعمة من الله بما قدَّره من أسباب الخير والنجاح، فيشكر الله تعالىٰ علىٰ ذلك ويَدَع الإعجاب.

رابعًا: طرد القلق والضجر عند فوات المراد أو حصول المكروه؛ لأن ذلك بقضاء الله تعالىٰ الذي له ملك السماوات والأرض، وهو كائن لا محالة، فيصبر علىٰ ذلك ويحتسب الأجر.

وإلىٰ هذا يشير الله تعالىٰ بقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].



قال الشارح وفقه الله:

والثمرات -على كل حال- كثيرة، يمكن أن نضيف أمرًا خامسًا، من ثمرات الإيمان بالقدر: زوال دَغَل القلب ومرضه، الذي يؤمن بالقَدَر لا تجد في نفسه حقدًا وحسدًا لأحد، ولذلك يعيش سعيدًا يحب الخير لنفسه ويحب الخير لغيره.

أما الذي عنده ضعف في الإيمان بالقدر هذا الذي يكون منه الحسد والحقد، يتأزَّم، يضيق صدره إذا رأى نعمة من الله عز وجل على أخيه.

ألا قل لمن كان لي حاسدًا   أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في حكمه   لأنك لم ترضَ لي ما وَهَب

إذن: كلما كان الإنسان أعظم تحقيقًا للإيمان بالقدر كان أبعد عن هذه الأوساخ التي تقع في القلوب. نسأل الله السلامة منها!



قال المصنف رحمه الله:

فنسأل الله تعالىٰ أن يثبتنا علىٰ هذه العقيدة، وأن يحقق لنا ثمراتها ويزيدنا من فضله، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا منه رحمة، إنه هو الوهاب، والحمد لله رب العالمين.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

قال الشارح وفقه الله:

آمين! ختم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الدعاء الذي أسأله تبارك وتعالى أن يستجيبه له ولنا، وأن يجزي عنا المؤلف خير الجزاء على ما قدَّم لنا من هذا العلم الصافي وهذا الخير الكبير، جزاه الله عنا وعن طلبة العلم أحسن الجزاء.

وفي الختام أوصيكم بالعناية بهذا المتن، هذا متنٌ حسنٌ نافع وفيه فائدة، ورأيتها بحمد الله، كتاب صافٍ وكتاب ثَرِي وكتاب سهل في نفس الوقت، فمثل هذا حَرِيٌّ أن يتدارسه الإنسان مع أهل بيته، وما أكثر الغفلة عن مدارسة العقيدة الصحيحة مع أهل البيت، شياطين الإنس والجن يتخطفون الأبناء والأهالي وأرباب البيوت في غفلة، مشغولون بأنفسهم ومشغولون بمصالحهم ويغفلون عن الأبناء، لماذا لا يكون هناك وقت يتدارس فيه الإنسان مع أهل بيته مثل هذا الكلام الحسن الطيب؟ يتدارسونه ويتعلمون الاعتقاد الصحيح.

كذلك طالب علم ينفع الله عز وجل بعلمه ودعوته يفتح درسًا مع أهل المسجد يتدارس فيه مثل هذا الكتاب النافع، أنا أظن أن هذا فيه خيرًا كثيرًا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفقني الله وإياكم، وسدد خطاي وخطاكم، أسأله تبارك وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علَّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملًا وإخلاصًا، إن ربنا لسميع الدعاء.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان.

